









١٦٤

الحركة الادبية والفكرية

في

تونس

مطبعة دار الهدى - ١٢ شمسای. شمسای



جامعة الزيتونة

155560

معهد الدراسات العربية العالية

تقدمة من

الدكتور إبراهيم أبو لغد

الحركة الأدبية والفكرية

في

١٩٨٩

تونس

محاضرات

ألقاها

السبع

محمد الفاضل ابن عكشور

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٥

RB K

١٩٥٦



SPC

PJ

8248

B55

1955



20809



المحاضرة الأولى

صدمة الاحتلال

١٣٠٠ - ١٣١٤

في شهر جمادى الأولى سنة ١٢٩٨ ، الموافق شهر ماي سنة ١٨٨١ ، نزلت الجيوش الفرنسية بتراب المملكة التونسية ، وتقدمت من ثلاث نقط : بين الحدود البرية ، والثغور البحرية ، تكتسح البلاد حتى احتلتها ، وفرضت عليها وضعاً استعماريّاً جديداً ، هو وضع « الحماية » ، وخلصت البلاد ، بعد حروب ومصارعات عنيفة ، لحكم أجنبي : ضاعته سيادتها القومية ، وتغيرت مظاهر حياتها تغيراً جلياً . وأن بلاداً اكتسحتها القوات الأجنبية ، فنفرت وقاومت ، حتى غلبت على أمرها ثم خضعت ، لحكم جديد ، غريب عنها ، بغرض لها . قد اضطبع بشعور القهر المسلط على الدولة والمجتمع ، والداخل على نفوس الأفراد بإحساس الحقد والبغضاء ، لجديرة بأن تعتبر تلك النكبة التي أصابتها مبدءاً لتاريخ جديد في حياتها .

وكذلك كان أثر الاحتلال الفرنسي لتونس ، في تكوين تاريخ القرن الرابع عشر . تناول نواحي من حياة البلاد فهدم معالمها ، وسد منابعها ، وتناول نواحي أخرى ، فغير أوجهها ، وحول مجاريها ، لا غير . ومن هذه النواحي التي اقتصر الأمر فيها على تغيير وتحويل ، كانت الناحية التي هي موضوع دراستنا : ناحية الحياة الفكرية والأدبية ، فلم يكن الاحتلال الفرنسي ، فيها عاملاً على تكوين تيار جديد ، بل نزل على تيار كان سيّله منذ فعا من قبل فأدخل عليه طوراً جديداً في حركته ومجراه .

وليس شأن الاحتلال الفرنسي لتونس ، شأن الاحتلال الفرنسي لمصر ، في أوائل القرن الثالث عشر ، إذ اعتبره المؤرخون مفاجأة ، فتحت في حياة



الشرق تيارات كانت عنها بمعزل ، بل وما كان شأن الاحتلال الفرنسي لتونس ، شأن الاحتلال الانكليزي ، لمصر ، الذي اقترن به اقترانا زمنياً ، إذ لم يكن شيء من مقدمات الاحتلال الانكليزي ، قد ظهر في داخل البلاد المصرية ، ومس حياة الدولة ، وحياة الأمة ، وإنما تهيأت مقدماته ، وتكونت أسبابه ، في مجال خارجي ، هو مجال الحياة الدولية العامة ، من المسألة الشرقية ، وسيادة البحار ، وحماية طريق الهند وشبهها .

وعلى العكس من هذين الاحتلالين ، الذين فاجأ الحياة المصرية مرتين ، في أول القرن الثالث عشر وآخره ، كان الاحتلال الفرنسي لتونس ، على فداحته وبعد أثر ملبوسة مقدماته في صميم الحياة الداخلية للبلاد ، فلم ينزل بها نزول الطارئ المفاجي ، بل نزل بها نزول الأمر المتوقع ، والكارثة المنتظرة ، فكان تأثر النفسية الشعبية به ، حاصلًا قبل حدوثه وبعده ، إلا أن لون ذلك التأثير قد اختلف عن نفسه باختلاف الطورين إذ انتقل من الشعور بالأمر المتوقع إلى الشعور بالأمر الواقع . وعلى هذه النسبة ، كان تأثر ما هو تابع للحياة النفسية ، من الحياة الفكرية والأدبية التي يهتمنا أمرها فاتصلت بها المقدمات السابقة للاحتلال الفرنسي حتى كانت باعثاً على تكوين حركة نهضة فكرية وأدبية ، على مثال النهضة التي تكونت في البلاد الشرقية الإسلامية ، من توقع الكارثة والحرص على اتقائها ، ولا سيما ما كان من تلك البلاد داخلاً ضمن السلطنة العثمانية .

وإذا نحن تجاوزنا الأطوار الأولى لمظاهر الاحتكاك بين الشرق والغرب وهي الأطوار المنحدرة من استفحال خطر الامتيازات القنصلية ، وتولد المسألة الشرقية ، وانتهينا إلى طور احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٤٦ - ١٨٣٠ في عهد أمير تونس ، حسين الثاني ، تبين لنا أن البلاد التونسية ، قد دخلت منذ احتلال الفرنسيين لجارتها وشقيقتها ، في طور جديد من الاتصال بالحياة الغربية وخاصة منها الفرنسية ، كان مؤلماً ، وثيقاً ، ثقیلاً المظهر . بعيد الأثر .

فإنه من المعلوم أن احتلال فرنسا للجزائر قد كان حدثاً محوطاً بإطار أسود محزن من الأحداث الناطقة بتضاؤل شأن الشرق الفاتر ، أمام صولة الغرب الناهض ، وأن ذلك الإطار الأسود ، قد كان واسع الامتداد ، في أرجاء العالم الإسلامي ، مشجعاً فيه الشعور بأن الدولة العثمانية ، التي هي مناط أمل المسلمين قاطبة . قد دخلت في دور « الرجل العليل » وكان سواد تلك الأحران ، بالغاً من النفسية التونسية أشد مبالغ ، أظلم المصير أمام عينيها فالقوة العسكرية . التي دامت قروناً تمثل عزة الخلافة العثمانية ، وهي قوة الانكشارية ، قد منيت بالخيبة والتقهقر ؛ حتى انهارت واضمحلت سنة ١٢٤٣ - ١٨٢٦ .

والأسطول العثماني كان قد نكب ، نكبته الساحقة الماحقة ، في وقعة ناورين ، سنة ١٢٤٤ - ١٨٢٧ ، ومعه الأسطول التونسي ؛ الذي شارك في تلك المسحقة ، مع جملة أساطيل الممالك التابعة للسلطنة ؛ كما شارك الأسطول المصري .

ونظام الحكم في البلاد التونسية . الذي كان مؤسساً على النظام العسكري الانكشاري . كان قد اضطرب وانحل .

والسلطة الإقليمية ، التي كانت مرتكزة على قوة الباب العالي ، قد ضعفت وخارت بسبب اضمحلال الأسطولين . العثماني والتونسي . الذين كانا ضمان الاتصال ؛ فكان اضمحلالها ، مشعراً لسلطة الإيالة الفرعية ؛ بحالة الالغاء والاهمال . وانعدام السند ؛ وفقدان النصير .

ومنذ احتلت فرنسا الجزائر . قررت سياستها الاستعمارية ، وجوب السعي لاضافة المملكة التونسية إلى أختها . فسارت على اعتبارها « منطقة نفوذ » . تهيئة لما يراد من الاستيلاء عليها . وابتدأت تجد في العمل . على قطع صلتها بالسلطنة العثمانية ، وتسلسلت المشاكل السياسية . والتهديدات

العسكرية البحرية ، لمنع تركيا من تعهد صلاتها بالايالة التونسية . التي تعتبرها جزءاً من سلطنتها (١) .

وظاهرت هذا العمل . من جهة أخرى ، بالسعى في مزاحمة المظاهر المختلفة للنفوذ الغربي . الذي بدأ يتسرب إلى البلاد التونسية ، من الممالك الأوربية . المتطلعة إلى بسط سلطانها في حوض البحر المتوسط . لاسيما النفوذ الايطالى والنفوذ الانكليزي .

وعلى رجة تلك الأحداث الهائلة ، التي سبقت احتلال فرنسا لتونس بخمسين عاماً . نهض المجتمع التونسي مبهوراً ينظر حوالياً . فرأى أن صور الحياة المألوفة قد انقرضت ، وبدلت الأرض غير الأرض .

فقد استبدل اللباس العربي باللباس الأوربي ، وأصبحت التشكيلات العسكرية ، والسلطات الملكية ، في لباسها ونظامها ، وآلاتها ، ومصطلحاتها ، ذات مظهر غربي ، مخالف لمظهرها الشرقي القديم .

وطلعت المصنوعات الأوربية بعجيب الاختراع ، واثقان الصنع ، وجمال الذوق .

وتكاثرت الجاليات الأوربية وازدهرت مظاهر وجودها ، حتى نشأت في مدينة تونس ، الحارة الخاصة بهم ، ينطق عمرانها ، وزهرتها ، وبهجتها ، بالبنون الشاسع بين بؤس الحياة الأهلية ؛ ونعمة الحياة الأوربية التي لم يستطع الالتحاق بها إلا كبار المثريين وعظماء الحكام .

وظهر الأطباء ، والصيادلة ، والمهندسون الغربيون ، بمظاهر تفوقهم في العلوم الطبيعية . وسبقهم في ميدان الحياة العملية .

وفاضت على البلاد الثروات الأجنبية . بسعة معاملتها . وقوانينها الغربية المغربية .

(١) راجع صفوة الاعتبار ج ١ ص ١٥٠

وبدأ نظام الدولة في الإدارة والقضاء . يتطور بالاعتباس من الأساليب الغربية . وترك ما كان سائدا : من الأحكام الشرعية ، والتقاليد القومية . ومن خلال ذلك التفوق الذي أدركه المجتمع التونسي في حياة الأعراب النازحين إليه عن أوروبا ، كان يلاحظ أن الفرنسيين ، قد امتازوا على بقية الجماليات بالقوة الشخصية ، والامتياز الذوقي ، والبراعة العلمية والعملية ، فكان شأنهم يرتفع يوما فيوما على سائر الأوروبيين ، ونفودهم يزداد بسطة ، وسيادتهم تزداد ظهورا ، بقدر ما تتضائل مظاهر نفوذ العناصر الأوروبية الأخرى وتقلص ، حتى أصبح التفوق المطلق ، في شؤون الحياة كافة ، إنما هو للفرنسيين ؛ فأصبحت سيرتهم مع أهل البلاد سيرة القاهر المتسلط : ساموهم الخسف ، وجعلوا حرمتهم ومصالحهم بمنزلة الدون ، واستولوا على أراضيهم بغير وجه ، (١) واستبدوا بالمنازل ، التي يسكنونها ، مع فرضهم على أهل البلاد تحسينها وحراستها وسلكوا معهم (٢) في كل أمر مسلكا من التعسف ، بعد عن الانصاف ، واستخف بضمان الحقوق .

فتكون من ذلك عند أهل تونس إحساس شعبي بأن حياة البلاد قد أصبحت مهددة بمزاحمة طاغية عليها لا تقوى على مناهضتها . وإن تلك المزاحمة ترمى إلى غاية معلومة ، قد شاهد التونسيون مثلها ، في سوء حالة المهاجرين الجزائريين ، الذين وفدوا عليهم ، وقد خالفوا عزتهم وثروتهم بعد أن عانوا ألوانا من الإرهاق وانتهاك الجرمات .

ظهر هذا الشعور في الشعب التونسي ، سطوحيا بسيطا ساذجا ، فتفرق أثره بين عنصرين من المجتمع .

١ - عنصر مستسلم ، وطن النفس على الاقتناع بتفوق هؤلاء الدخلاء

(١) انظر مثال ذلك في صفة الاعتبار ح ١ ص ٥٠

(٢) تاريخ ابن أبي ضياف ج ٣٥

وأخضع حياته لسلطان حياتهم ، فتطلع إلى الأخذ بما هم عليه من ثروة وبهجة أو لذة ، على قدر ما تسمح له به وسائله .

٢ - عنصر نافر متبرم ، أستحكم في نفسه السخط واليأس ، فرأى في هذا الطور الجديد مظهراً من مظاهر فناء الدين ، وانقراض الخير وغلبة الشر ، وقرب الساعة فأقبل يضم أذياله عن المساس بتلك الحياة ، ويجعل أعظم نجاحه في السلامة من غوائلها .

ولو أن الأدب كان حياً ، ومصوراً للحياة الفردية والحياة الاجتماعية ، في هذا الطور ، لوجدنا فيه آثار خليجات النفوس ، المستسلمة الفاترة وتأوهات النفوس المتبرمة النافرة ، ولكنه كان أدباً تقليدياً ، ضعيف الروح ، بعيداً عن أن تظهر فيه مثل هذه النزعات فلا نستطيع أن نتوصل إلى لمس آثارها إلا في قطع غير مدونة من الأدب الشعبي ، المصوغ في قالب الأزجال الملحونة أو في فقر استطرادية جرت على أقلام المؤرخين ، مثل ما وقع في كتاب أتحاف ملوك الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان للوزير أحمد ابن أبي الضياف وفي كتاب « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار » للشيخ محمد بيرم . ولقد كان التفكير الاجتماعي ، وبعد أفراد الأمة عن مناطق التصرف والمسؤولية ، وخضوعها للحكم الفردي المطلق المرهق ، وانكماشها عن الامتزاج بتيار الحياة الجديدة الغالبة ، عوامل متعاونة على تحديد ذلك الشعور وقصره على الجهة الأنفعالية السلبية ، دون الاهتمام بالعمل بعلاجها ؛ وانقاذ البلاد من ويلاتها .

ولما كان حكم البلاد في يد أميرها ، وهو الباي ، لا يشاركه بالتصرف والرأي إلا أفراد حاشيته المأتمرون بأمره ، من مماليكه ، المجلوبين من خارج البلاد ، العائشين حوله في قصر بارد ومضروباً بينهم وبين الأمة الحجاب (١) كان من الطبيعي أن الشعور المستقصى لهاتيك الحالة من مختلف

(١) كان قصر باردو عبارة عن منازل متراصة ويحيط بها سور عليه خندق وأبراج وحرس لا يمكن اجتيازه لداخل أو خارج إلا بإذن .

مظاهرها ونواحيها ، الكفيل بإدراك ما تحمله من أخطار ، وما ينبغي لها من مبادرة بالعلاج ، لا يظهر إلا في مقر الحكم من قصر باردو حيث يدرك المسировون لإداة الحكمة ما أصبح عليه سيرها من التعطل والتعثر ، ويستفيقون لما بدأ ينال سلطانهم المطلق من تقاصر وهوان بسبب التداخل الأجنبي الذي فرض عليهم تملق الأروبيين والخضوع لأهوائهم ، وما طرأ على مالية الدولة من ضيق وارتباك بسبب بوار الصناعة وكساد التجارة وجائحة الفلاحة ، وما نزل تبعاً لذلك بحياتهم المترفة من الكدر والنكد. إذ تزعزعت هيبتهم التي كانوا يسخرون بها الأمة وما ملكت أيديها لإقامة مصالحهم الخاصة وخويت خزائن الدولة من الأموال التي كانت رصدًا لتحقيق ما استولى على حياتهم من نزعة البذخ ، وطواعية الملذات .

بدأ التبرم بهذه الحالة يستولى على الأمير حسين باشا الذي نزلت كارثة احتلال الجزائر في أيامه إلى أن توفي سنة ١٢٧١ - ١٨٣٦ ، فمضت ولاية أخيه مصطفى باشا سريعة إذ توفي بعد عام ونيف من ولايته ، وآلت الإمارة إلى ابنه الأمير الشاب ، القوي الطموح الشديد الذكاء المشير أحمد باشا الذي استمرت ولايته تسعة عشر عاماً من سنة ١٢٥٢ - ١٨٣٧ وكانت تربيته وميوله عسكرية ، ونشأ في طور الإصلاحات العسكرية النظامية التي أخذت بها الدولة التونسية تبعاً لتنظيمات السلطان محمود الثاني العثماني ، فابتدأ أحمد باشا ملكه (١) بعزيمة ثابتة على الإصلاح ، وهمة متقدمة في الأخذ بوسائل التقدم كانا قد تأصلا فيه منذ نشأته بأثر المتولى لتربيته من المماليك وهو الوزير مصطفى صاحب الطابع .

كان هذا الوزير القرجي الأصل ، مثالا عديم النظر بين طبقة من عظماء المماليك في رجاحة الفكر واستقامة السيرة والغيرة على المصالح العامة ، ولم

(١) يراجع ج ٣ من تاريخ ابن أبي الغيات (مخطوط) وصفوة الاعتبار ص ١٣٤ ج ١ وس



يكن ذا علم ولا ثقافة واسعة ولكنه كان قد شغف بابن خلدون ، وتعلق
بآرائه ، فكان دستور تفكيره في المقدمة التي ما انفك يتناول الأحوال
الجارية بالفحص على أنوارها ، وقيم ما يتناول إصلاحه منها على أساس
قواعد المقدمة ونظرياتها (١) وكان قد عانى شؤون العلائق الفرنسية مع تونس
من نشأتها عند احتلال الجزائر في عهد حسين باشا واستمر مهتما بأصو لها وفروعها
في عهد مصطفى باشا ، فلما ولي الملك الشاب المتأثر بتوجيهاته ، السائر على مناهجه
أحمد باشا ، كان ذلك ساعدا له بأن يبرز أفكاره ، في غير تحديد ولا احتراز .
فاصطبغ حكم تونس . منذ ولاية أحمد باشا بصيغة الفكرة الإصلاحية .
عسى أن ترفع عن البلاد أصرها والأغلال التي كانت عليها ، من جراء تطاول
الفرنسيين والأوروبيين عموما ؛ وساد في دوائر الحكم بباردو أن مرجع غلبة
الحياة الدخيلة للحياة الأصلية إنما هو القوة الصناعية التي امتازت بها حياة
أروبا ، وأن لاسبيل للحياة الأصلية إذا أرادت أن تصلح شأنها وتوقف تيار
ذلك التغلب الجارف ، إلا أن تلمح حياة البلاد ، بما قامت به تلك الحياة
الأوروبية الطاغية . فكان هذا شعورا مركزا عميقا ، إيجابيا ، موجها ؛
بخلاف للشعور الشعبي الساذج السلبى ، وتولدت عنه فكرة إصلاحية منهجية
سيطرت على توجيه الأعمال والنظم في مقر المسؤولية ، الذى هو نطاق
التصرف الملكى المطلق .

وأعان على توجيه هذه الفكرة ما كان عند المشير أحمد باشا ، من نزعة
شخصية إلى تفخيم ملكيته ، وتخليصها ، في عدة نواح ، من التبعية العثمانية
المباشرة ؛ وزاد في الإعانة على تذليل ذلك الطريق داعى الاتباع لما شرعت
فيه السلطنة العثمانية ، من تنظيم جيشها على الطرق الأوروبية العصرية ، والافتداء
بصفة خاصة بالهضة التي ظهرت في البلاد المصرية ، فكانت أبلغ في التأثير
على سير النهضة التونسية ، بالأخوة العربية ، وقرب المواصلات ، وما بدأ
يفيض عنها من ثمرات المطابع .

(١) ذكر ذلك ابن أبى الفياض في ترجمة مصطفى صاحب الطائيم في الجزء الرابع من تاريخه .

لذلك كله كان أول ما ابتدأ به أحمد باشا في السنة الأولى من ولايته ، هو إنشاء مدرسة عسكرية ، لتخريج الضباط الفنيين ، والمهندسين ، والموظفين ، دعيت باسم « مكتب المهندسين » ، أو « مكتب العلوم الحربية » ، استدعى لإدارتها ضابطا إيطاليا من المستشرقين أجاد اللغة العربية وألف بها كتابا هو الأميرالاي كاليقاريس وجلب إليها أساتذة من الإيطاليين والإنجليز والفرنسين لتدريس الرياضيات ، ورسم الأمثلة ، المدفعية ، والتعبئة الحربية والتحصينات ، والتاريخ ، والجغرافيا واللغة الفرنسية واللغة الإيطالية . وجعل العلامة التونسي الشاعر الكبير الشيخ محمود قبادو ، أستاذ اللغة العربية والتربية الدينية وعهد إليه ، بالاشتراك مع المدير الإيطالي ، ونخبة من طلبة المدرسة في تحرير خلاصة دروس الأساتذة الأجانب ، وترجمة كتب أوروبية في الفنون الحربية .

وجعل الأشرف على هذه المؤسسة لشاب من نبغاء الماليك الجراكسة كان اشتراه من استانبول ، متعلما عارفا باللغة الفرنسية ثم علمه العربية بتونس ، فقربه واستنجه ، وهو خير الدين (١) الذي كان له في ما بعد شأن عظيم ، وبهذا التأسيس انتقل العمل الإصلاحى الذى اضطلع به أحمد باشا من الميدان العملى إلى الميدان الثقافى انتقالا نبع به التيار الفكرى الجديد ، الذى دفع بالحياة الفكرية والأدبية إلى الأطوار التى اقترنت بعهد الاحتلال الفرنسى وتسلسلت بعده .

فان امتزاج أفراد من أساتذة الغرب ، بأستاذ عظيم من علماء جامع الزيتونة ، الذى هو مركز الحياة العلمية الإسلامية بتونس ، فى ظل القصر الملكى ، وبتأييد الملك وتشجيعه ، ورعاية وزيره وشيخ دولته ، ومباشرة نابغ من صفوة حاشيته ؛ لجدير بأن يحدث احتكاكا بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية ، تنقذ منه شعلة مذهب فكرى حقيقى ، له نظرياته

(١) ترجمته فى الجزء اصفة الاعتبار ص ٤٩ إلى ٩٤ ومقال عنه فى مشاهير التونسيين فى القرن الرابع عشر ، مجلة الثريا ، السنة الأولى .

الأصلية ، وقواعده الأساسية ، واتجاهاته المجردة التي تصور الأشياء على ما عليه حقيقةً وذاتها .

وذلك لا محالة نظر حكيم ، ومذهب فكري فلسفي . يمتاز بما يمتاز به النظر الفلسفي من الخروج بموضوعه عن الصورة الجزئية العملية إلى الكلية النظرية المطلقة ، فيختلف بذلك عن السعي الذي كان يسعاه المشير أحمد باشا ووزيره صاحب الطابع إذا كان سعيًا عمليًا ذا غاية مقصورة على صورة خاصة في ظرف معين ، هي غاية تخليص البلاد من أوهان التداخل الأجنبي .

وإذا كان الشيخ قبادو ، هو الذي كون ذلك المذهب الفكري الجديد ، الذي ساد على الحياة العقلية وتطورت به الحياة الأدبية ، فخير بنا أن نلقى على شخصية ذلك الشيخ ، وعوامل تكونها النفسي والعقلي ، نظرة ترى كيف جمعت تلك الشخصية العجيبة المؤهلات اللازمة لمن ينشئ مذهبًا عقليًا ، ومنهجًا تفكيريًا ، له دعوته وأتباعه ، وآثاره الظاهرية والباطنية .

كان عبقر يا خارقا للعادة ، نشأ نشأة صوفية صرفة ، فتجرد عن الحياة العادية تجرداً تاماً ، وتعلق بطريقة الرياضة والمجاهدة والسياسة والخلوة ، ووقف وجوده على النظر والمعرفة ؛ فشجذ همته ومواهبه وعزيمته . وأقبل على نواحي العلم يطلب الوقوف على جزئياتها استيعاباً ، فأتسعت دائرة معلوماته اتساعاً منقطع النظير ، تعاطى علوم الحكمة الإسلامية ، بين إشرافية ومنطقية ، فأحاط بالمذاهب والنظريات ، وتمرن على الطرائق ، وتوسع في فنون الحكمة عامة . من العقلي ، والرياضي ، والطبيعي ؛ إلى الفلكي ، والروحاني ، والإلهي ؛ فكان آية باهرة في علوم الحكمة انقطع العهد بمثلها طويلاً ، وسلم له ذلك بين علماء جامع الزيتونة كافة .

وتعاطى اللغة العربية وأدبها ، ففأق جميع علماء عصره ، في الإحاطة بمادة اللغة ورواية الأدب ومعرفة التاريخ ، إلى ما يشترك فيه مما كان رائجاً يومئذ في المعاهد الإسلامية ، من علوم العربية والبلاغة ، واكتسب من ثمرة

تربية النفسية ومعارفه ، موهبة شهرية كان بها المجلى في المجال الأدبي ، إذ اعتبر في عصره ، أكبر لغوى ، وأول أديب ، وأعظم شاعر ؛ امتاز شعره بصحة المبانى ، وسمو المعانى ، وعمق الفكر ، وطول النفس ، وبلاغة القول ، فكان غواصا على حقائق الوجود ، ملهما في إبرازها .

هذه العبقرية العجيبة ، لما اتصلت بمكتب المهندسين ، وتوجهت إلى العمل الذى انتدبت هنالك له ، فتبعت التعاليم التى هى سر النهضة الأوروبية ، ظهر لها أن العلوم الحكيمة والرياضية ، التى كان علماء الإسلام عنها بمعزل ، والتى عرفها هو وعانى فى تحصيلها ما استخف به الناس وربما سخرُوا منه بسببه ، إنما هى مدار التفوق الذى نالته أوربا على بلاد الإسلام ، فربط بين هذا وبين ما تشكوه بلاد الإسلام ، من هوان بعد العز ، ربطا ولد له فلسفة فى النهضة الإسلامية ترتكز أصولها على :

إن العالم الإسلامى فى حالة تأخر وتدهور ، مع أن الإسلام بذاته كفيل بأن يكون المجتمع القائم على أصوله فى حالة تخالف ما هو عليه الآن ، فينبغى أن يعزى السبب فى ذلك إلى أمر خارج عن جوهر الدين كان موجوداً عند المسلمين ففقد ، وأن المقارنة تظهر أن هذا الأمر إنما هو العلوم الحكيمة ، فالمعرفة مطلوب دينى لذاته ، وهذه العلوم كانت مزدهرة متقدمة عند المسلمين ، وكان المسلمون لما كانت هذه العلوم رائجة فيهم سارين متقدمين ، ثم أضيعت هذه العلوم وتأخرت ، فهان المسلمون وتأخروا تبعاً لذلك ، واقتبست أوربا هذه العلوم عن الإسلام ، وقد سادت أوربا على الإسلام بنسبة ما هجر هو هذه العلوم وأخذت هى ، فلا سبيل حينئذ إلى أخذ الإسلام بحظه من السعادة والنهضة إلا باستعادة نهضة هذه العلوم التى أضاعها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها عن الأوربيين بالنقل والتعلم .

تلك هي نظرية قبادو ، التي أصلها ، وعللها ، ويحثها ، واطمأن إليها ، واتخذها منهجاً له ولا يتبعه .

وقد بسطها في مقدمة عجيبة ، وضعها تمهيداً لكتاب ترجمه تلامذة مكتب المهندسين تحت إشرافه ، وتولى هو تنقيحه ، وتصحيح لغته ، والبحث عن المفردات الإصطلاحية التي تؤدي المعاني الرياضية التي تضمنها ، وهو كتاب الجنرال « جُمنى » الفرنسي في التعبئة الحربية (١) ، مال فيها إلى الإكثار من غريب اللغة ، والتقلب في التراكيب ؛ ما أخرجها ثقيلة مضنية لقارئها على ما فيها من سمو فكري ومتانة أدبية ، تنزل بهما منزلة أغرب الآثار القلمية في ذلك العصر . وقد وجدت هذه الدعوة نفوذها في وسطين ، كان على كل منهما سيطرة لعلم قبادو وفكره ، فتكون فيهما عصابتان متلافيتان في اتباع ذلك المنهج النظري الذي سنه شيخهم المحبيب ، وهذان الوسطان : أولهما وسط المدرسة الحربية ، وقد امتاز من بين أفراد نابغان هما حسين (٢) ورستم اللذان آلا فيما بعد إلى مناصب الوزارة وكانا من أبرز أبطال معركة الإصلاح السياسي . وثانيهما وسط جامع الزيتونة ، الذي أثر بطريقته النقدية في التعليم ، تكوين نخبة من شبابه ، ألقت آذاناً صاغية ، وفتحت صدوراً رحبة لدعوة الشيخ قبادو ، زيادة على ماله عندهم من المكانة العلمية ، وما يجدون له في نفوسهم من النفوذ الأدبي فتكونت بذلك عصابة من الشباب الزيتوني ، تعلقت بقبادو وآمنت بمذهبه ، ودعت إليه ، وبرز من تلك العصابة نابغان ، كان لهما ، في مستقبل الأيام ، أعظم شأن في خدمة ذلك المذهب ومناصرة المساعي الإصلاحية المتفرعة عنه ، وهذان النابغان ، هما الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد يرم اللذان يستمر ذكرهما معنا طويلاً .

(١) ثبت نص هذه المقدمة في الجزء الثاني من ديوان قبادو وكتونس سنة ١٢٩٤ من ص ٣٣ إلى ص ٦٠

(٢) انظر ترجمة في صفوة الاعتبار ٣ ص ٢٢ الاعلام المصرية سنة ٣٠٣ مقالا عنه في في سلسة (مشاهير التونسيين في القرن الرابع عشر) مجلة التراج ٢ مجلد ١ .

فكان من تلاقى العصابتين ، الحربية والزيتونية ، وتكتملها . ما كون
حزباً قائماً على أساس نظري ، في الإصلاح العلمي ، والاجتماعي ، والسياسي ،
والإداري ، بدأت مساعيها تبرز في صميم الحياة الدولية ، وانتصب في صدره
الوزير خير الدين للزعامة المطلقة .

وكان أول وسط اتصل به صدى هذه الدعوة ، هو الوسط الحكومي ،
وكان مؤلفاً من صنفين ، صنف أرباب القلم ، وهم كتاب الدولة وأهل ديوان
الإنشاء الذين تكونوا تكوناً علمياً وأدبياً بجامع الزيتونة ، وصنف أرباب
السيوف ، وهم قواد الجند وخاصة الحماشية الملكية ، من الممالك الأروام
أو الجراكسة الذين نشأوا على الأساليب التقليدية في خدمة الملك ، ولم يكن
لهم حظ في المعرفة سوى مبادئ العلوم ونتائج الخبرة التجريبية من ممارسة
الحكم والقيادة ، فاحتذبت الدعوة الإصلاحية إليها رجالاً من هؤلاء وهؤلاء .
كان ما عند البعض من سمو المدارك العلمية ، وما عند الآخرين من سلامة
الفطرة ، وقوة الحسنة ، دافعاً بهم إلى الانضمام إلى تلك الحركة ، التي كان
يرعاها الملك بعناية واهتمام ، يزيدان في قوة الدوافع على الانضمام إليها ،
فكان في من شايع الدعوة الإصلاحية وأيدها من شيوخ الدولة مثل شيخ
الكتاب المؤرخ الوزير أحمد بن أبي الضياف ، وشيخ الجندية ، القائد الوزير
مصطفى آغة .

ولقد كان من أثر انتشار هذه الأفكار ، المبينة على الاعتراف بنسب
المذنية الغربية ووجوب الالتحاق بها ، إن شاع في وسط الداعين إليها ومن
حوطهم ، حديث الإعجاب برقي الحياة ، وسلامة نظم الجماعات والدول في أوروبا ،
وضرب الأمثال بما بين مظاهر التأخر في الحياة التونسية ومظاهر التقدم في
حياة أوروبا ، من بون شاسع ، فعم الشغف بتلقف الأحاديث عن أوروبا وأخبارها
من أفواه الذين كانت سمحت لهم الفرص النادرة بالسفر إليها من العلماء
أو المحنكين ، كما شاع الاقبال على مطالعة ما ظهر من آثار كتب الشرقين ،
الذين سبقوا إلى التعرف إلى الحياة الغربية ، ودونوا وصفها ، وجهروا بالدعوة

إلى الاقتداء بحاسنها ، في الكتب التي وضعوها عن رحلاتهم وطبعت في المطابع المصرية وأهمها رحلة الشيخ رفاعة المسماة « تخليص الابرز في تلخيص باريز وقد طبعت سنة ١٢٥٠ .

فانبعث المستطيعون من دعاة الإصلاح بتونس يلتمسون الوسائل التي تمكنهم من ارواء غلتهم بالسفر إلى أوروبا ، حتى تحرك بتلك العوامل الملك أحمد باشا ، فرحل بنفسه رحلة رسمية إلى فرنسا ، سنة ١٢٢٦ - ١٨٤٦ ، صحبه فيها كثير من وزرائه وقواده ورجال حاشيته ، وكان ذلك في عهد الملك لويز فيليب ونظام دولته الملكي الديمقراطي ، ففتحوا أعينهم على حياة باريس الباهرة ونظمها وحضارتها ورجعوا مبهورين ، يفيضون من الأحاديث ما أصبح في الحياة الشعبية مادة للنكت والأساطير ، وأصبح في الحياة الفكرية توجيها لحركة الإصلاح وطابعاً لتطور الأدب الراقى .

وقد اعتنى الشيخ أحمد بن أبي الضياف بتدوين تلك الرحلة وملاحظاته عليها ، وعلى عمران فرنسا ، ورقى الأخلاق فيها ، وازدهار الاقتصاد ، وتقرير الارتباط بين نهضتها العلمية والفكرية ، وبين حياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتحليل السياسة الفرنسية التي كان مدارها يومئذ على الفيلسوف ، السياسي والاجتماعي ، الوزير قيزو ، حتى أصبح اسم هذا الوزير الفرنسي شائعاً عند التونسيين ، مقروناً بما جعله عند المفكرين منهم مثالا لاتصال ما بين العلم والسياسة ، يشجع نهضتهم الفكرية في سبيل اتجاهاها نحو طريق الإصلاح السياسي الذي كانت تتوثب عليه .

وتتابعت رحلات رجال الدولة إلى فرنسا فيما بعد ، فكان في الراحلين أفراد من أمراء البيت المالئ ورجال من الوزراء ، والقواد ، منهم زعيم العصاة الإصلاحية خير الدين وعضده حسين .

وتوفي المشير أحمد باشا سنة ٧١ - ٥٥ ، خلفه ابن عمه وولي عهده المشير محمد باشا ، وصادفت ولايته استفحال الاختلال المالي ، وما نشأ عنه

من المشاكل والأزمات ، التي زاد بها تعدد الرحلات الرسمية واتسعت دائرتها .
كما نشأ حول الملك الجديد اتصال فرنسي ، من لون آخر ، بامتزاج قنصل
فرنسا به ، وهو المستعرب الرحالة ليون روش الذي كان له ماض غريب في
البلاد الإسلامية لخصه في كتابه « اثنتين وثلاثين سنة في وسط الاسلام ،
ساح في البلاد الشرقية ، واتصل بالأمير عبد القادر في الجزائر اتصالاً
وثيقاً ، وكان يتظاهر بالإسلام ، ويتكلم العربية ، ويسمى « الحاج عمر »
ويتذوق الألوان الشرقية الملائمة لميول المشير محمد باشا ومزاجه . وأحدث
هذا الإمتزاج منافسة من طرف قنصل إنكلترا ، فأصبح الملك ، من جراء
ذلك ، مضطراً إلى تعديل كفتي المزاخمة باعطاء كل من القنصلين ، من الامتيازات
والترقيات ، ما يساوى ما للآخر ، ففتح بذلك عهد الامتيازات للشركات ،
واستخدام رؤوس الاموال الأجنبية ، فساد الشعور بالاختلال والضعف ،
وقويت الرغبة في إصلاح جهاز الدولة ، إصلاحاً يسد منافذ الامتيازات
الأجنبية . بسد من النظم والكفاءات في السياسة والإدارة ورجالها ، فزاد
بذلك علو نجم الوزير خير الدين وعصابته في نظر الخاصة الملكية وعامة
الطبقات الشعبية إذا اعتبر رجل الساعة غير منازع .

ولكن المشير محمد باشا كان بعيداً جداً ، بطبعه ، عن مسامرة الحياة
الغربية في الشؤون العامة ، وأن تأثر بها إلى أقصى مدى في حياته الخاصة ،
إذ كان ينتقد شديد الانتقاد على سلفه أحمد باشا تورطة في طرق التأثير بالحياة
الغربية ، ونبذ التقاليد الشرقية ، انتقاداً كون بينهما تناقضاً عظيماً .
وكان يتعلق بالسلطنة العثمانية تعلقاً متيناً يتغذى من صدق ديانته
وطهارة أخلاقه .

وبذلك أصبحت عصابة خير الدين الإصلاحية ، التي كانت ، في نظر
الملك المتولى ، هي حزب الملك الراحل ، تشعر بشيء عظيم من الخوف من
جانب الملك الجديد ، خوفاً تعدى ذوى المناصب الدولية منهم ، إلى مقومى

الفكرة ودعاتها من العلماء البعداء عن مناطق المسؤولية الدولية ، وعلى رأسهم
أمامهم وزعيمهم الشيخ قبادو . وقد ظهر ذلك في قصيدته التي تقدم بها إلى الملك
الجديد ، مهنئاً ومعتذراً ومستسمحاً ومدافعاً سوء الظن . فكانت تلك الرهبة
النابغية التي ولدت عن شاعرية قبادو وقصيدة عصماء في أكثر من أربعائة بيت
نرهب من باب أولى رجال الدولة ، من ممالك المشير . العائشين تحت سقف
قصره بباردو .

وبهذا العامل من الاشفاق على أنفسهم وعلى برنامجهم الإصلاحى .
اندفعوا مجدين في تحقيق ما كانوا يصبون إليه من إقامة الحكم على أساس
الضمانات ، التي كان يعتزم الملك السابق أحمد باشا تحديد الحكم المطلق بها ،
فابتدأت هنالك معركة باردة حامية في سبيل تحقيق الناحية التطبيقية من
فلسفتهم الإصلاحية ، وهى الناحية الراجعة إلى : ضمان الحقوق ، وحسن
تنظيم الإدارة وضبط المالية .

وطبعت هذه المعركة أيضا الأدب التونسى بطابع جديد ، هو طابع
الاتجاه الى الحياة التواقية وناحية الحكم منها والتغنى بالنظريات المثالية في
العدل والحرية وحسن النظام . طابع أجاد صوغ الشعر عاليه ، وتوجيهه
به أمام التوجيه الفكرى والأدبى الشيخ قبادو .

وانتهت المعركة باقتناع المشير الثانى بلزوم إجراء نظم إصلاحية في حياة
البلاد وشكل الدولة ، امثالاً لما شرحت له به أحكام الدين من طرف ذوى
الثقافة الزيتونية من أنصار الإصلاح ، وخضوعاً لإلحاح قنصل فرنسا وقنصل
انجلترا الرامى إلى مرام سياسة بعيدة ليس هذا محل شرحها ، واستسلاما
لواجب مجارة الخلافة العثمانية في ماسنته من الإصلاحات التي جاء بها فرمان
الكلخانة والتنظيمات الخيرية . (١)

فشرع في سن نظم مالية وإدارية وعمرانية ، تقرر بأثرها دخول البلاد
في حياة حكم دستورى ، أعلنت أصوله سنة ١٢٧٤ - ١٨٥٧ بعنوان دعهـد

(١) أنظر تاريخ الدولة العالبة لمحمد فريد ص ٢٥٤ الطبعة الثانية .

الأمان ، (١) فكان ذلك انتصارا باهرا للدعوة الإصلاحية بمضى عشرين سنة على ظهورها ، وعاملا على انضمام البلاد كلها حكومة وشعبا إلى رجال تلك الدعوة

وتوفي الملك محمد باشا سنة ١٢٧٦ - ١٨٦٠ والعمل جار في تفريع النظم والتأسيسات عن أصول عهد الأمان فتقدم للملك أخوه المشير الثالث محمد الصادق فدخل من أول أمره تحت النظام الدستوري ، خاضعا للفكرة الإصلاحية وابتدأ عهد ولايته بالانجازات الهامة لعوامل التطور . مثل مد سلك البرق بين تونس وأروبا على طريق الجزائر ، وتأسيس المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسي ، وانتصاب المجلس التشريعي ، والمجالس البلدية ، سنة ١٢٧٧ - ١٨٦١ ؛ فأصبح خير الدين الزعيم المطلق لهذا الطور من حياة البلاد ، وظهرت من جهة أخرى قوة تأثير النفوذ الفرنسي على البلاد ، والنفوذ الشخصي الذي أصبح للإمبراطور نابليون الثالث ، بما كان يبني عليه سياسته من التظاهر برعاية التقدم ، وحماية الحرية ، والإعانة على استقلال الشعوب في نطاق ذاتها القومية ، (٢) حتى أن الملك محمد الصادق سافر بنفسه إلى الجزائر لملاقاة الإمبراطور ، وإحاطته بخبرا بما تم في المملكة ، من الإصلاحات ، وتسليمه ، عن يد ، نص عهد الأمان .

وسرعان ما أضطدم هذا العهد الدستوري بأنواع من الصعوبات الداخلية والخارجية . قامت في وجهه ، فأشتعلت نار الثورة الكبرى سنة ١٢٨٠ - ١٨٦٤ وسقطت بسببها البلاد في حالة من الخراب والدمار والفوضى ، قضت بتعطيل النظام الدستوري ، وتوقيف عمل المجالس ، وأحاطت بالبلاد غوائل الحرب الأهلية ، والمجاعات ، والأوبئة ؛ ست سنين كاملة ، انتهت بالانتقاص

(١) أنظر صفوة الاعتبار ج ٢ ص ١٠ ط الاعلامية ١٣٠٢ .

(٢) تراجع تفصيل ذلك في مصادر تاريخ فرنسا وخاصة في ما يرجع إلى سياسته في حروب إيطاليا وحرب المكسيك .

من استقلالها إذ دخلت ماليتها تحت حكم رقابة أجنبية تتولاها لجنة دولية (١) سنة ١٢٨٦ - ١٨٦٩ .

فأخذ خصوم الدعوة الإصلاحية تلك الحالة المحزنة ، التي أصبحت عليها المملكة ، وسيلة للتشديد على دعاة الإصلاح والتشهير بهم وبسياساتهم الدستورية ، وأصبحوا منظوراً إليهم بالنظر إلى المسؤولين عن الويلات التي أصابت البلاد ، فاضطر ذوو المناصب السياسية منهم ، مثل خير الدين وحسين ورستم ، إلى التخلي ؛ وذوو المناصب العلمية والمقامات الأدبية إلى الإنكماش والانزواء ، مثل بيرم وأبو حاجب .

ودخل الوزير خير الدين في عزلة تفكير واعتبار ، تفرغ فيها لضبط معلوماته عن الحضارة الغربية ، وتدقيق ملاحظاته ومقارناته . واستخلاص النتائج الاعتبارية ، والقضايا الحكمية ، من تلك المقارنات ، وأقبل على رجال عصابته ، من أهل العلم وأهل السياسة الذين كانوا يترددون على قصره في شيء من الإختفاء ، واندفعوا جميعاً يدرسون تلك النظريات ويحررونها غير منفكين عن الالتفات إلى العراقيل التي قضت بإحباط سعيهم وولدت عن حركتهم عكس المقصود منها ؛ حتى تمخضت تلك الدراسات والمداولات عن الكتاب العظيم ، الذي ألفه خير الدين باسم «كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» ، ويعتبر من أنفس آثار القلم العربي في القرن الماضي ، وفي السياسة والاجتماع ، فقد أشتمل على مادة علمية هامة جداً استوفت وصف النواحي عامة لكل دولة من الدول الأوروبية العشرين التي فصل عليها الكتاب وجعل الدولة العثمانية من بينها كأنه يقصد بذلك التنبيه إلى المقارنة والمقايسة .

وأفتح بمقدمة قيمة في أسباب تأخر العالم الإسلامي ووسائل نهضته ، ون ذلك بالاعتباس من المعارف والنظم التي تحققت بها النهضة الأوروبية ، والاتحاد بين أهل العلم وأهل السياسة في تحقيق ذلك ، وبيان ما كان لا انتشار

(١) نطالب قاصديها في صفوة الاعتبار ج ٢ ص ٤٠

المعارف في أوربا وخاصة في فرنسا من أثر في سعادة الأمة ، وحقيقة الملك والحرية والشورى والمسئولية الوزارية وما يقوم في وجه التناسق المطلوب بينها من المصاعب ، وانه إذا تكونت تلك المصاعب فقد تبيح الضرورة تفويض إدارة المملكة لشخص واحد مستبد في ظروف معينة وعلى قوانين محصورة .

وجعل هذه النظرية في الحكم الدكتاتوري ختام مقدمته وفذلكة حسابه فكانت مبدأ للطريق الجديد الذي قرر هو وعصابته سلوكه لتحقيق برامجهم الإصلاحية وهو طريق الاستيلاء على الحكم بتولى الوزارة مع بقاء الدستور معطلا والمجالس موقفة .

وبرز هذا الكتاب التوجيهي سنة ١٢٨٤ - ١٨٦٧ (١) . وابتدأت المساعي السياسية لإصلاح ما بين الملك محمد الصادق والوزير خير الدين ، حتى أنهت باستدعائه إلى تولى إدارة المملكة بصفة نائب مفوض عن الوزير الأكبر دعى « الوزير المباشر » سنة ١٢٨٦ - ١٨٦٩ ثم بصفة وزير أكبر بالإصالة سنة ١٢٩٠ - ١٨٧٣ ، فاستمر إلى سنة ١٢٩٤ - ١٨٧٧ إذ أستقال من الوزارة الكبرى لتعكر العلاقات بينه وبين الملك ، وفارق البلاد التونسية نهائيا سنة ١٣٩٨ - ١٨٧٨ فانتصب بالآستانة ، وولى الصدارة العظمى ، للسلطنة العثمانية ، تلك السنة ، وبقي باستنبول إلى وفاته سنة ١٣٠٧ - ١٨٩٠ وليس من قصدنا هنا ، أن نلم بآثار الإصلاحات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية ، التي فازت بها تونس في الثمان السنين . التي قضاها خير الدين قائما بمسئولية الحكم ، بين وزير مباشر ووزير أكبر ، ولكننا نقتصر من تلك الآثار على الأركان الأربعة ، التي كان أثرها بعيدا في التطور الفكري والنهضة الأدبية ، وهي : ١ - إنشاء المدرسة الصادقية ٢ - تنظيم

(١) طبع كتاب أقوم المسالك بتونس سنة ١٢٨٤ وطبعت ترجمة فرنسية لمقدمته تحت إشراف مؤلفه في باريس سنة ١٨٦٨ مطبعة دييون سانت هونري باريس

التعليم الزيتوني ٣ - إنشاء المكتبة العبدلية ٤ - تشجيع حياة الطباعة والصحافة والنشر .

فالمدرسة الصادقية أنشئت سنة ١٢٩١ - ١٨٧٤ ، بعد أن تشكلت لجنة لتحضير قانونها ، و سن مناهج التعليم فيها وبرامجه ، وكانت تلك اللجنة مؤلفة من علماء من جامع الزيتونة ، تحت رئاسة الوزير الأكبر نفسه ، وسارت في إنشاء نظام الصادقية على اعتبارها مدرسة قومية ، تعليمها عربي ديني ، وتربيتها دينية ، متينة ، صارمة ، وعلى توسيع دائرة التعليم العربي الديني ، بتعليم اللغات ، التركية والفرنسية والاطالية ، على توزيع فصول الطلبة بينها وتعليم الرياضيات والطبيعيات والاجتماعيات ، لعموم الفصول . واعتبر التعليم فيها ذا درجتين أولية وثنوية ، مع تنسيقه مع التعليم الزيتوني ، بحيث يصبح أن ينتقل الطالب ، في رتبة معينة من الدراسة الثنوية ، لا كتمال دراسة العلوم الدينية بجامع الزيتونة ، أو يتمحض لتمام التعليم العصري إلى غايته . أما التعليم الزيتوني ، فقد اشغلت تلك اللجنة نفسها بتخطيط برامجه ، وضبط مناهجه ، وترتيبها على درجات ، تتحكم في مبادئها ونهاياتها امتحانات النقل ، وامتحانات الشهادات ولم تكن موجودة من قبل ، مع جعل المناهج في كل درجة ، مشتملة لزوما على مواد الرياضيات والطبيعيات ، بصفة مقتصد فيها لتوسيع المجال للعلوم الشرعية ووسائلها ، وتنظيم طريقة اختيار الأساندة بواسطة المناظرات ، وضمن ذلك في قانون ذي ٦٧ فصلا صدر به الأمر العلي سنة ١٢٩٢ - ١٨٧٦ .

وقد نجح خير الدين نجاحا عظيما ، في تحقيق المراد من إنشاء الصادقية وإصلاح التعليم الزيتوني ، بحيث أصبحت الشبيبة التونسية ، على اختلاف منهجي تعليمها ، متأثرة بالمبادئ التي جاهد دعاة الإصلاح ، أربعين سنة في سبيلها ، فكانت الشبيبة الصادقية متعلقة بشخصه تعلقا مباشرا ، تمتزج به ، وتستمد توجيهها الأدبي من لدنه ، في حين صارت الشبيبة الزيتونية ، البعيدة عن الاتصال المباشر بشخصه ، متعلقة تعلقا قويا ، مطلقة فيه السيادة الأدبية

بالامامين الذين كانا حاملي رسالة النهضة ورسالاته في تلك الجامعة القومية العتيقة ، وهما الشيخ سالم بو حاجب ، الذي اعتبر من يومئذ أستاذ الأساتذة ومنار النبوغ في العلم والأدب ، والشيخ عمر بن الشيخ (١) الذي كان مسلماً له التفوق العلمي ، والكمال العقلي ، والذي اضطلع بتيسير دواليب التعليم وحراسة النظم وتطبيقها بصفة نائب الدولة ، فأصبح من هذا التلاقى بين اتجاه الصادقين واتجاه الزيتونيين ، الوزير خير الدين هو رائد الشبيبة وزعيمها ، وأصبحت المبادئ الإصلاحية التي بسطها في كتابه هي المثل الأعلى الذي يفادي الشباب في سبيله لتحقيق نهضة الوطن .

ولقد أعانت المؤسستان الأخريان وهما المكتبة والمطبعة ، على تعميم هذا التوجيه خارج الوسط الدراسي ، ونشر أشعة الفكر الجديد بين ذوى الثقافة من الكهول والشيوخ . على اختلاف أصنافهم وتفاوت درجاتهم . فالمكتبة العامة التي أُنشئت في محل مكتبة قديمة من العهد الحفصي كانت قد اندثرت وخويت . فعادت زهرتها وتجدد شبابها (٢) وجاءت في محلها وأدواتها ومرافقها على أحدث طراز أوربي . تغرى بالمطالعة وتقربها من ميل عموم المثقفين . وكانت في ترتيب كتبها . ووضع فهرسها . وطريقة مناولاتها . مبرزة لمحتوياتها . على خلاف ما كان عليه حال المكتب في خزائن الأوقاف . التي كانت متفرقة في المدارس والمساجد وجمعت في المكتبة الجديدة ، وكان تلاقى المطالعين في محل واحد معيناً على إبراز وحدة المثقفين ، وتشجيعهم وتقوية شعورهم بسمو الوسط الثقافي . الذي ينتمون إليه . كما أن ما جمع في المكتبة من المطبوعات الحديثة . الصادرة في الشرق أو في أوربا . والصحف ونصوص القوانين والتراتيب . المتعلقة بالبلاد التونسية أو غيرها من البلاد ، قد كان عاملاً قوياً في وصل مدارك المثقفين بتيار عصرهم . فشاعت بذلك كله

(١) انظر ترجمته في مشاهير التونسيين في القرن الرابع عشر مجلة الثريا المجلد الأول - سنة ١٧٤٣

(٢) طبع هذه المكتبة فهرس علمي مفصل برز منه ٤٠٠ - أجزاء وله مقدمة مهمة بها تاريخ

المعارف وانتشرت الآداب . وتقوت محبة المعرفة والمطالعة . ووجد القراء مجالا لأفكارهم . ومادة لتوسيع معارفهم . في ما كان يتعسر من قبل ذلك وقوع أيديهم عليه . وهذه هي الإحساسات التي نجد صورتها في ما نشر يومئذ بجريدة الرائد التونسي ، من قصائد وموشحات ، ومقالات لكبار الأساتذة أو صغار الطلبة .

أما ناحية الطباعة والصحافة والنشر التي هي أقوى هذه النواحي الأربع أثرا في تطور الحياة الفكرية والأدبية ، فقد كانت نهضة الوزير خير الدين بها نهضة قوية حازمة .

فالمطبعة التونسية كانت عند ولاية خير الدين الوزارة الكبرى . قد مضى على تأسيسها خمسة عشر عاما . والجريدة الرسمية ، وهي جريدة الرائد كانت في سنتها الرابعة عشرة . وكان صدور الجريدة غير منتظم ، وفي عمل المطبعة فتور ، فأظهر بها اعتناء بعث فيها النشاط . وأسند نظرها عامة إلى الشيخ محمد بيرم . وأسند إدارة الجريدة إلى فرنسي مستعرب . نشأ في بيروت وتخرج من كلية اليسوعيين . هو منصور كرليتي . ووسع نطاق النشر في المطبعة بالإكثار من نشر الكتب الأدبية والتاريخية . وجلب للقيام على الناحية العملية من المطبعة وتولى تصحيح الكتب وجريدة الرائد . العلامة المصري الشيخ حمزة فتح الله الاسكندراني . وبهذين الأستاذين كرليتي وحمزة فتح الله اتصلت جهود النشر في تونس بمركزى النشر الهامين في العالم العربي ، بيروت ، ومصر . فكثرت المراسلات والمبادلات ، واتسع باب جلب الكتب المطبوعة في الشرق وترويجهما بتونس .

وفي سنة ١٢٩١ - ١٨٧٤ ابتدأت المطبعة تصدر تقويميا سنوياً . ترقى واكتمل اتقانه واستمر صدوره نحو من ثلاثين عاما بانتظام . إسمه « النهضة الخيرية » . كان يقوم بوضعه وتحريره كاتب من أبناء المهاجرين الجزائريين برع في الأدب والحساب والفلك . هو الشيخ حسن لاظ أوغلي . ومن تلك



في تونس

السنة أصبح صدور جريدة الرائد منتظماً أسبوعياً لا يتخلف
باب المقال .

فقد كانت الجريدة إلى ربيع الأول من تلك السنة تشتمل على قسم رسمي
تدرج فيه الأوامر والقوانين والتسميات . وقسم غير رسمي ، تنشر فيه
الأخبار الداخلية . بطريقة فيها مزج الأخبار بالتعليق ، دعاية للوزير وسياسته
وتنويها بشمرات عهده ، وتنشر فيه الأخبار الخارجية ، عن ممالك الإسلام ،
وممالك أوروبا ، على طريقة من المزج بين الخبر والتعليق كذلك . لغاية
توجيهية دعائية . وأخبار متعلقة بتقدمات العلوم والاكتشافات ، ومقالات
مترجمة عن الصحف الأوروبية تشتمل على تقارير علمية في التاريخ
والجغرافيا والاجتماع . منها المقالات المطولة التي كانت تنشر تباعاً في
أعداد متوالية .

أما المقال المحرر ابتداء بالعربية . فقد كانت جريدة الرائد ، إلى ذلك
التاريخ ، خلوا منه ففتح فيها باب المقال بنقل مقال عن جريدة الجوائب (١)
مهد إليه بأن غاية الجرائد ليست مقصورة على الأخبار . وإنما هي منابر
للخطابة والاستدلال على ذلك بما ورد في كتاب أقوم المسالك ، عند الكلام
على الجرائد في أوروبا .

ومن يومئذ ابتدأت جريدة الرائد تنشر ، بين حين وآخر ، مقالات
ترتبط بالحالة الراهنة مثل مقال « التربية » عند تأسيس المدرسة الصادقية .
ومقال « المدار على الرجال » عندما شاعت رائجات ، كذبت ببلاغ رسمي ،
عن سحب الملك ثقته بالوزير .

وقد أشار الشيخ محمد بيرم إلى أن تلك المقالات كانت تصدر عن أفكار
الوزير . وربما كان منها ما هو بتحريره أو بمشاركته .

(١) انظر التعريف بها وبصاحبها في مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر لزبدان ط ٣ ص ٧٨-٣٠

وفي سنة ١٩٣٠ قدم لتحرير الرائد شباب تونسي . من نبغاء الزيتونيين المتخرجين على الشيخ قبادو وتلميذه بو حاجب ويبرم ، وهو الشيخ محمد السنوسي ، فصار من الغالب أن تشتمل الجريدة على مقال توجيهي . ذي صبغة عامة ، من نوع المقال الأدبي ، الذي كان معروفا في النثر العربي قبل الصحافة ، يشتمل على ضبط الموضوع بطريقة التعريف اللغوي ، وإيراد الأدلة من آيات القرآن ونصوص الأحاديث وكلام الحكماء والبلغاء . شعرا ونثرا ، ثم بسط الدعوة إليه بطريقة خطابية مفصلة ، في أسلوب ترسلي سهل متين ، عليه طابع التحرير العلمي ، ممزوجاً بذوق التحرير الأدبي على نحو من طريقة كتاب أدب الدين والدنيا للماوردي ، أو كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، فكانت عناوين تلك المقالات مثلاً : الاتحاد ، السعي ، أصول التسديد ، الرأي . الوفاء . إجارة الجار ، وربما توسلت إلى بيان حقائق تتعلق بالسياسة الإسلامية الحاضرة . مثل مقال عنوانه : « النظر في العواقب » . وقع التذرع به إلى بسط سياسة روسيا ، وأنذائها على وصيه بطرس الأكبر تلك هي المؤسسات الأربع ، التي كانت قد وجهت التفكير والأدب توجيهاً جديداً ، ونالت تأييد الرأي العام التونسي وثقته ، وفازت بتكثيل نخبة قوية ، من المثقفين وأصحاب الغيرة .

فلما نزلت على الرأي العام صاعقة تخلى خير الدين عن الوزارة . اهتز وتبلبل وخارت فيه روح الأمل ، فدفع به ذلك إلى الإشفاق على تلك المؤسسات إشفاقاً أيقن فيه بانحراف سيرها ، وسوء مصيرها ، والشفيق مغرئ بسوء الظن . فكان ما أحاط بتلك المؤسسات من الإشفاق وتوقع الشر ، قد ألهب نفوس القائمين عليها بلهب من الحماس الشديد ، لما هو مألوف من انتقاد الحماس على نسبة قرب الخطر ، وللأنفة من أن ينظر الناس إليهم نظرتهم إلى الاتباع والأعوان ، حتى يقال أن وجودهم بعد خروج خير الدين ، كالعدم .

لا سيما وأن كثيراً منهم كانوا منتقدين مبالغته في الانفراد بالتصرف (١) فدفع بهم ذلك إلى إظهار شخصياتهم ، وأقبلوا على تلك المؤسسات ، بعض كل واحد على ما بين يديه منها بالنواجذ ، ويحيطون جميعاً بها يحرسونها ويذبون عنها ويحركون ثقة الرأي العام بها .

وكان ذلك يحمل أهل الحكم على أن يتظاهروا بالمسالمة أحياناً ، وبالتأييد تارات أخرى ، لتلك المؤسسات . بعد أن شفوا غليل نفوسهم بالتخلص من خير الدين ، ووجدوا في التظاهر بتأييد تلك المؤسسات ما يكسبهم ما كانوا حريصين عليه من السمعة والثقة ، فلم يغيروا ما أسست عليه من التراتيب والقوانين ، ولم يخلوا بما وصلها من الاعتمادات المالية .

فاستمرت المدرسة الصادقية يتدرج طلبتها في الدرجات الثانوية إلى نهايتها وأصبح توزيع الجوائز على طلبتها عيداً شعبياً مشهوداً ، حتى أن الملك محمد الصادق حضره بنفسه سنة ٩٧ ، وسافرت إرسالية أولى من طلبة الصادقية على نفقة المدرسة ، لإتمام الدراسة في المدارس الثانوية وديار المعلمين الابتدائية بفرنسا سنة ٩٧ ، ثم التحقت بها إرسالية ثانية سنة ٩٨ ، واستمر جامع الزيتونة سائراً على ترتيبه الجديد ، يرعاه المسؤولون عن تأسيسه وتوجيهه ، والمطبوعة على نشاطها ، وجريدة الرائد منظمة محافظة على منهجها ، والنزهة الخيرية دائبة متروية ، والمكتبة الصادقية قائمة معمورة ، وكلها بيد الرجال الذين كانوا اختيروا لتسييرها من شيعه خير الدين ، والرأي المستنير يؤيدهم ويساندهم . فلما بلغ الاضطراب السياسي والمالي غايتيهما . ونزلت بالبلاد الكارثة العظمى : كارثة الاحتلال الفرنسي سنة ١٢٩٨ - ١٨٨١ ، كانت الأمة التونسية ترى في تلك المؤسسات الثقافية ، أقوى حام لكيانها وأنقى مادة لتغذية روح الثبات فيها ، لتصمد في وجه ما يهددها من عوامل الفناء القومي وكان الاستعمار الفرنسي يرى في تلك المؤسسات ، أعظم حائل

(١) صفوة الاعتبار ص ٨٦ ح ٢ وقد بسط ذلك بصورة أوضح الشيخ السنوسي في الرحلة

الحجازية (مخطوط الخلدونية) .

بينه وبين ما يريد من تخدير الأمة ليبتلع سيادتها القومية ثم يبتلعها هي بذاتها فإن يد العدوان الاستعماري قد امتدت في سرعة إلى تلك المؤسسات فدخلت الحرب الاستعمارية من أول يوم في صميمها ، إذ لم يمض على إمضاء معاهدة الحماية شهران ، حتى فصلت السلطة الفرنسية الشيخ محمد السنوسي عن تحرير جريدة الرائد ، وقصرت الجريدة على الناحية الرسمية لا غير ، وبذلك عذمت البلاد صحافتها العربية بعد أن كانت مزدهرة نامية . وفي شهر جمادى الثانية سنة ١٣٠٠ الموافق شهر ماي سنة ١٨٨٣ أسست إدارة العلوم والمعارف ووضع على رأسها فرنسي مستعرب ، من الناشئين في الجزائر ، هو لوين ماشويل فاستولى بتلك الصفة على جميع الأجهزة الثقافية والتعليمية ، حتى تعليم جامع الزيتونية .

وكان أول عمله أن أنشأ دار معلمين ، لتكوين معلمين ابتدائيين للغة الفرنسية ، من التونسيين ، سماها « المدرسة العلوية » وجعل المدرسة الصادقية معهداً ينتهي فيه التلاميذ للالتحاق بدار المعلمين « العلوية » ويكون تهيؤهم بتعليم اللغة الفرنسية ، على النهج الذي ابتكره لذلك ، وهو منهج التعليم الفرنسي العربي (Franco - Arabe) الذي لم يزل إلى اليوم يفتك بناشئة العرب في المملكة التونسية . وإذا كان هذا المنهج قد أبقى للمدرسة الصادقية مادة تعليم عربي ضئيل ، فانه قد قطع مادة الثقافة العربية بتاتاً ، إذ جعل اللغة الفرنسية أداة المعرفة العامة ، وأبقى اللغة العربية مادة تعليم لا تقصد إلا لذاتها على خلل فادح في طرائق تعليمها . فانقطع بذلك حاضر الأمة عن ماضيها ، إذ صبحت ثقافة أبنائها مكيفة بكيفية لا تستمد من عناصر ذاتيتها القومية . ثم قصد التعليم الزيتوني فقطع ما كان بينه وبين التعليم الصادقي ، من صلة ، وأخلاه من مادة العلوم الكونية ، وأنشأ إلى جنبه معهداً لتخريج معلمى القرآن ومبادئ العربية قصر فيه اللسان العربي على تعليم اللغة العربية والدين ، وجعل تعليم التاريخ والجغرافيا والرياضيات والطبيعية باللغة الفرنسية ، فأصبحت اللغة الفرنسية الأداة الوحيدة للتعليم التونسي ، وسدت

الوسائل ، على من لا يتعلمها ، دون الوصول إلى تكوين ثقافة حية ، وبذلك
انهيار الكيان الثقافي للبلاد انهياراً تاماً ، زاد عليه ما طغى على النفوس من
روح الهزيمة ، والشعور بالنقص . وتلاشى المثل القومية ، وخلو الميدان من
قادة النهضة الفكرية ، إذ كان الشيخ محمد بيرم قد فارق البلاد نهائياً ، ونقل
أهله ، واستقر بمصر ، والشيخ محمد السنوسي قد انقطع عن أعماله كلها ، وخرج
إلى البلاد الأوربية والشرقية ، متردداً في الهجرة نهائياً والوزير حسين
الذي أقام في إيطاليا إلى وفاته ، والوزير رستم ، الذي بقي متنقلاً بين تركيا
ومصر ، حتى توفي بالاسكندرية . ومدير الصادقية محمد العربي زروق ، الذي
التحق بالاستانة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة وتوفي بها .

فلم يبق من عصاة دعاة الإصلاح الأولين ، مقيماً في البلاد ، إلا الشيخ
سالم بو حاجب متمتعاً بنفوذه الأدبي العظيم على الشبيبة المثقفة ، وإن فصل
بينه هو وأتباعه ، وبين الحياة العامة ، فأصبح مظهر الحياة الفكرية والأدبية
محصوراً في طائفة معينة تلتف حول ذلك الأستاذ العظيم ، منصرفاً جهودها
الفكرية والأدبية إلى ما يتلاءم مع عزلتها ، من نتاج ذي صبغة فردية لم
تنقطع صلته بالأفكار والإحساسات التي اصطبغ بها أدب النهضة من
عهد قبادو .

وإذا تتبعنا النتاج الأدبي لهذه الفترة لنفحص ما اشتمل عليه من المميزات
المتأثرة بالاحداث ، التي أحاطت بحركة النهضة في هذا الطور ، لزم أن نقسم
ذلك النتاج ابتداءً إلى فني الأدب الأصليين والنثر والشعر .

١ - النثر:

بعد أن كان النثر ، في القرن الثالث عشر ، مقصوراً على الرسالة
والمقامة ، وهما غرضان فرديان يتجهان إلى الناحية الفنية المحضة ، تخطى النثر
حدود الفردية ، إلى الميدان الاجتماعي ، وتجاوز دائرة الفن البلاغي إلى دائرة

البيان العلمي ، فتكونت له أغراض جديدة ظهرت تقاسيمها مفصلة جلية
أول القرن الرابع عشر وهي :

١ - التحرير الوصفى (٢) التحرير العلمي (٣) المقال السياسي

(١) فالتحرير الوصفى يندرج تحته فرعان - ١ - الوصف المادى - ب -

العرض القصصى ، وقد ازدهر كل من هذين الفرعين وتفتق بسبب ما تكون ،
عند الكتاب ، من التعلق بأوصاف البلدان ، والطرق ، والمباني ، والمباهج ،
والاختراعات ، التى اشتملت عليها البلاد الأوربية ، وقامت بها حضارتها ،
وذلك بسبب تقوى داعية الرحلة إلى أوربا ، التى ابتدأت كما أسلفنا من
أواسط القرن الثالث عشر ، كما كان لا انفصال الأقلام عن الحياة الصحفية أثر
فى انصرافها عن مناهج النشر العادى ، اللائق بقراء الصحف ، إلى هذا الضرب
من النثر الموجه إلى الخاصة ، من أفراد الكتيب ، المبني على تدقيق الوصف ،
واطالته ، واستيفاء نواحيه ، وبذلك مال هذا الوصف المادى إلى التأثير
بروح التحرير العلمى بما تشرب من مواضيع الجغرافيا والتاريخ والعلم الطبيعى
وكما أثرت الرحلات فى ازدهار الفرع الأول من فرعى التحرير الوصفى ،
وهو فرع الوصف المادى ، فقد أثرت كذلك فى الفرع الثانى . وهو فرع
العرض القصصى ، بما اقتضته من وصف السير ، والتنقلات ، وحركات المجامع
البشرية ، وتاريخ الممالك والبلدان .

واختص هذا الفرع الثانى بسبب آخر ، تولد عنه فن خاص من فنون
النثر ، هو فن التراجم .

فان الشعور بالشخصية الوطنية الخاصة ، وهى التونسية ، إلى جنب الشخصية
القومية الواسعة ، وهى الإسلامية ، قد ركز هذا التعلق فى خصوص التاريخ
التونسى ، إبرازا لعظمته ، وتحريكاً للهمم إلى بعث مستقبله ، على نحو ما تقتضى
عظمة ماضيه .

فتوجهت الأقلام إلى التاريخ التونسى ، وتراجم التونسيين ، وكتب

الشيخ محمد السنوسي كتاب « مسامرات الظريف بحسن التعريف » (١) الذي جعله بعثاً لمجد المناصب الدينية العليا ، التي لم تزل حية ماثلة ، فأدرج فيه تراجم ثلاث سلاسل من سلاسل المناصب التونسية من أول التاريخ الإسلامي هي سلسلة المفاتيح ، وسلسلة أئمة جامع الزيتونة ، وسلسلة قضاة الجماعة .

التحرير العلمي :

تولد عن اعتزال الأقاليم للحياة العامة والميدان الصحفي ، وتوجهها إلى الحياة الفكرية ، والميدان العلمي ، إن انصرفت إلى المباحث العلمية ، تحققها وتبسطها ، وما نريد هنا أن نبحث عن التأليف العلمية من كتب أو رسائل في فنون العلوم الدينية الإسلامية ، ولكننا نريد أن نقتصر على ما يتصل بالأدب من التحرير العلمي الذي يدخل في دائرة النشر التعليمي *La prose didactique* . وذلك منحصراً في ما شاع في هذا الدور ، من بحث في المؤسسات الغربية . والنظم وما بسط من النظريات الاجتماعية ، ويتعلق به الكاتبون من استخلاص العبر ، واستنتاج الفوائد ، وتقرير القواعد العامة لشؤون المجتمع الإنساني .

المقال السياسي

لسنا نعني بالمقال السياسي ، المقال الصحفي المحدود . الذي يتناول جزئية معينة من كليات المسائل السياسية بحكم المناسبات والظروف ، وإنما نعني به المقال الكامل الذي هو وسط بين التحرير العلمي والاقناع الخطابي . فيقصد من جهة إلى بيان القضية بتقرير أصلها التاريخي ، ووضعها القانوني . اعتماداً على الأدلة والقواعد والنقول ، ويقصد من جهة أخرى إلى الاقناع بما في ذلك من صواب أو خطأ . بالطرق البرهانية والخطابية والجدلية .

(١) طبع بتونس سنة ١٢٩٨

وهو فن يرتبط رواجه عند كل أمة ، بالحيوية الاجتماعية التي تصل بين الحياة العقلية والأدبية وبين الحياة العامة . وقد كانت النهضة السابقة مؤثرة في تكوين هذا الصنف ، وفي كتاب أقوم المسالك مثل كثيرة منه .

فلما أصابت البلاد نكبة الاحتلال الفرنسي ، وكونت ما كونت في النفوس من حنق ، وكشفت عن الألاعيب والأباطيل التي أريد بها ترويح ذلك العدوان . وخلع صبغة الحق عليه ، كان ذلك دافعاً إلى تكوين الارتباط بين قابلية القراء وتطلعهم . وبين أنظار الكتاب وتحريرهم ، لتتناول تلك القضية السياسية العظمى . فكان الشيخ محمد بيرم فارس ذلك الميدان ، بما أودعه كتاب صفوة الاعتبار ، من البحث المستفيض في القضية التونسية . ببيان ارتباط تونس بالسلطنة العثمانية ، وفداحة العدوان الفرنسي عليها ، وفصل ذلك البحث إلى شقين الحق أحدهما بالكلام على تاريخ تونس ، في الجزء الثاني ، والحق الآخر بالكلام على تاريخ فرنسا ، في الجزء الثالث .

فجاء ذلك البحث مثلاً فريداً ، في هذه الفترة من تاريخ الأدب التونسي لفن الرسائل السياسية . وكان له نفوذ عظيم على وضع أصول الاحتجاجات للنضال السياسي . الذي طفق به تاريخ هذا القرن .

وإذا كانت كتب الرحلات مستودع غرضي النثر السابقين ، فقد ألحق بهما فيها أيضاً التحرير السياسي ، لما كان متوفراً من الدواعي على الاعتناء بتلك الناحية وتقديمها على كل شيء ، وتبدو هذه الطريقة في أثرين هامين صدرا في هذا الطور .

١ - صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم وقد طبعت الأجزاء الأربعة الأولى منها في المطبعة الإعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ وطبع الجزء الخامس بمطبعة المقتطف سنة ١٣١١ .

٢ - الرحلة الحجازية للشيخ محمد السنوسي .
وكلاهما عظيم القيمة من جهة ما تضمنه ، من المعلومات والأفكار وطرائق

البحث ، وإن كانت المنزلة الإنشائية لأولها وهو صفوة الاعتبار ، قاصرة عن منزلة الرحلة الحجازية بما وقع في تحرير صفوة الاعتبار شائعا من أسقام في التركيب والابتذال في التعبير ، وإذا كان هذان الأثران متكافئين ، في ما وراء ذلك ولا سيما من ناحيتي التحرير العلمي والتحرير الوصفي ، فإن صفوة الاعتبار يمتاز من ناحية التحرير السياسي امتيازاً واضحاً .

على أن الرحلة الحجازية ، للشيخ محمد السنوسي ، أرقى منزلة في الأدب ، وأمتن أساساً في الثقافة ، تجلت فيها متانة التحرير ، مع السهولة والوضوح ، وبراعة الوصف ، ووفرة النكت الأدبية ، بحيث يجد مطالعها المتعة الأدبية والروحية والفكرية . التي يجدها مطالع رحلة لأحد الممتازين من أعلام الأدب المعاصر .

جعلها في ثلاثة أجزاء : أفرد جزءاً منها بالكلام على إيطاليا ، فكان فيه أقدر على إدراك صميم الحياة الغربية ، وتذوق ألوانها من أستاذه الشيخ بيرم .

وتكلم في الجزء الثاني عن تركيا والحجاز وسوريا ومالطة ، وخصص الجزء الثالث بتراجم الرجال المشاهير الذين اتصل بهم في رحلته وأورد ذكرهم فيها بما دل على سموه الثقافي ودقة ملاحظته وقوة شخصيته .

وإنه ليحزن أسفاً في نفس كل غيور على التراث العربي إن بقيت هذه الرحلة لم تنشر ، ولا يوجد منها إلا نسخة خطية فريدة ، محفوظة بمكتبة الخلدونية تحت عدد ٣٣٤٦ .

الروح العامة للنشر :

يتبين من تتبع الأغراض التي مضى تفصيلها ، وبما كان بينها من التقارب والتفاعل ، وما جمع بينهما من اتحاد الموضوع والمحل والمنشأ والمرجع ، أن النثر لم يكن إلا اجتماعياً سياسياً في روحه وغاياته ، إن الرجال الذين ظهر هذا الطور الجديد من أقلامهم ، لم يكونوا إلا من رجال السياسة .

وقد دفع ذلك بالأدب التونسي إلى أن يكون في روحه واقعياً . مصوراً للحياة التي تحوطه . وينبع منها . ولا سيما في الناحية الاجتماعية ، وأن يكون في أسلوبه كذلك مجدداً متحرراً .

فقد هجر الأدب النثرى ما كان ملتزماً فيه من السجع وفنور البديع . وسلك منهجاً بسيطاً ، فيه الفصاحة وقوة البيان المعنوى . مع شدة الوضوح وقلة الغلو . والميل إلى استعمال المفردات والتراكيب في حقائقها . دون المجازات والاستعارات والكنايات .

وقد كان المحور الذي يدور عليه هذا التطور بتونس . بين الشيخ محمد بيرم والشيخ محمد السنوسي .

وكان الشيخ بيرم أشد عنقا . وأعظم مشقة في التخلص من الأوقار . التي كانت تضني الأدب . فظهر ذلك في ما ساد على نثره من ثقل ، وتفكك وصعوبة وجدها هو في محاولة الخروج من المناهج المألوفة ، فوجدها قارئه في مطالعة تلك الجمل التي لقيت عنقا ففاضت به .

وتهذب ذلك في نثر خريجه الشيخ محمد السنوسي . الذي لم يجابه ارتجافات التحرر الأولى . فمال إلى روح التجديد هادئة دانية مطمئنة واستطاع أن يدخل عليها القصد الفني الذي تكون به أسلوب أدبي على غير المنهج القديم المألوف . فظهرت في نثره روح صافية . فيها الوضوح والانسيجام والاطراد وفيها السمو الأدبي بصفة لم تتحقق في نثر أستاذه ، فيصح لنا أن نعتبر الشيخ محمد السنوسي ثمرة المدرسة النثرية في هذا العصر . والمثال الكامل لتطور التحرير في مجموع نواحيه .

الخطابة :

إنما نفصل الخطابة عن النثر مراعاة للخصائص الجوهرية التي تفصل بين الفنين بصفة أصلية ، وإلا فإن الخطابة في العصر الذي نؤرخه ، كشأنها في عصور أخرى كثيرة من تاريخ الأدب العربي ، لا تعتبر إلا فناً من فنون النثر ، لأن اللميزات الأولية للخطابة ، وهي التوجه إلى الجماعة بكلام وليد

ساعة ، واستمداد المعاني وطرائق الاقناع بها من حال المخاطبين ومقامهم ،
أمور مفقودة بتاتا في هذا الطور ، إذ لا تتحقق إلا في الخطابة الارتجالية ،
والخطابة في هذا الطور لما كانت مهياة ، فهي عبارة عن مقالات تكتب ،
لتقرأ على جمع المستمعين ، يلتزم فيها كل ما يلتزم في النثر من جهة
الأسلوب البلاغي .

وقد بقيت الخطابة مقصورة على الخطابة الدينية ، واستمرت على نهج
بعد بها عن التأثير بشئون الحياة العامة . إذ كانت تتوجه إلى الشعور الديني
الفردى قصد إصلاح التخلق أو إصلاح العمل .

فلما تأثرت الروح الدينية بالفكرة الإصلاحية ، وسيطر ذلك على طائفة
من علماء الدين ، ظهر أثره وإن كان ضئيلا ، لتطور الخطابة الدينية بالتوجه
إلى نواح لم تكن تتوجه لها من قبل من الأحوال الاجتماعية والعلمية . ببيان
الأفكار الراجعة إلى ما يصلح شئون الدنيا من أصول الدين .

وقد ظهر هذا التطور الضئيل في الخطب الجمعية في هذا القرن على يد
ربيب النهضة في القرن الماضي وهو الشيخ سالم بوحاجب .

فقد ولي الخطابة بجامع من جوامع مدينة تونس إسمه جامع سبحان الله
سنة ١٣٠٦ وهو في أول شيخوخته الطويلة . فاندفع بطبع تكونه العلمي
والفكري . يعالج الخروج بالخطابة من طرائقها المألوفة إلى طرائق مبتكرة
وأدخل فيها أغراضا ومباني ، مؤتلفة مع روح النهضة مثل « التربية »
و « الفلاحية » و « الاحتراف » و « ذم البطالة » إلى غير ذلك مما يعتبر يومئذ
خطوة جريئة جداً خطتها الخطب المنبرية الدينية .

نعم أن الأسلوب البلاغي في التحرير وطرق العرض ، ووسائل البيان
والاقناع لم ينلها تطور إلا بما هو وليد الطبع الخاص لذلك الخطيب من
أغراب ثقلت به أسجاعه . وجنوح إلى الاقناع بالأقيسة الشعرية ، واستعمال
الأسلوب العلمي واضحا في التقسيم وتحليل المعاني .

الشعر :

كان الشعر في أغراضه ، وروحه ، وأسلوبه ، على ما كان عليه قبل عصر النهضة في الشرق ، أى قبل البارودى ، بين قصائد مديح ، ومدح ، وثناء ، ومقطعات ، فى الغزل ، والوصف ، والمساجلة ، والألغاز ، والتاريخ ، والتشطير ، والتخميس ، مما يقصد فيه إلى ذات الفن والتسلية ، وقد استولى عليه البديع المصطنع فضعفت معانيه ، وتضاءلت فصاحته ، وتهلهل نسيجه ، وشاع فيه العبث والمجون .

ولم يكن صدر القرن الرابع عشر مكوناً لنهضة فى الشعر ، بل ولا مخالفاً لأعلامه الذين طواهم القرن الماضى ، مثل قبادو والمسعودى (١) ولكنه أبقى من أدب هؤلاء صياغة ، يتنادم عليها طائفة من الأدباء الذين تعاطوا الشعر فأجادوا وجودوا ، وإن لم يبلغوا شأن الفحول ، كانوا جميعاً من العلماء الزيتونيين وكان شعرهم متين الأسلوب ، سليم الذوق البياني ، وإن كانت روح قصائدهم ومقطعاتهم إلى السذاجة أقرب .

وحول هذه الطائفة التى تعتبر عماد الشعر نشأت طائفتان سارتا على منهجين منفردين .

١ - طائفة من الأدباء المطبوعين ، قوية روحهم الشعرية ، هزيلة مادتهم ضعيفة صناعتهم . ظهرت عندهم خفة فى نسج القصيد ، وسلاية فى انطباع التراكيب على معانيها ، وانطباع المعانى على فطر أصحابها ، وإن كانت من الناحية اللغوية والتركيبية والبلاغية ضعيفة كثيرة الأخطاء .

٢ - طائفة من الأدباء المفكرين من ربائب النهضة الفكرية وأنصار الإصلاح فاضت على شعرهم نزعتهم الفكرية وثبتهم الإصلاحية فتعاطوه بدافع العمل لإقامة النهضة ، التى كانت مهتف ضمائرهم ومتعلق أفكارهم

(١) محمد الباجى المسعودى شاعر كاتب أنظر ترجمته فى عنوان الأريب ج ٢ ص ١٣٤ ط تونس ١٣٥١

وإحساساتهم وأن لم يكونوا أقوياء الانفعال بالروح الشعرية الفنية . فجاء شعرهم كما يقال قديماً في شعر الفقهاء والعلماء ، ضعيف الفن ثقيل الطبع ، قليل المساغ . وإن كانوا قد فتحوا به غرضاً جديداً يعتبر ميزاً لهذا الدور ، وهو غرض الشعر الاجتماعي .

تزعم هذه الطريقة الشعرية ، زعيم النهضة الثقافية يومئذ الشيخ سالم بو حاجب . وعضده فيها تلميذه الشيخ محمد السنوسي فابتكر في الشعر أغراضاً لا عهد له بها من قبل ، من الشؤون العامة ، وروج المبادئ الإصلاحية بالمعاني الشعرية .

كما يقول أستاذ هذه الطريقة أبو حاجب في الحث على الفلاحة وخدمة الأرض .

علينا عباد الله خدمة أرضنا فما هي إلا في الحقيقة أمنا
فمنها تكوننا وفيها معاشنا وإن عافنا الأهلون فهمي تضمنا

ولما كانت غرائب الاختراعات الغربية ، هي متجه أنظارهم ، ومحرك نهضتهم ، فقد وجهوا الشعر إلى هذا الغرض الذي لم يخطر عليه الشعر العربي من قبل ، وكان فاتح هذا الباب الشيخ محمد السنوسي ، وقد كان يتناول إعجاباً بأنه فاتحه ، ويحق له أن يتناول بأنه فتح للشعر العربي غرضاً ، صار به مصور حضارة جديدة ، كما صور الحضارات القديمة ، وكان فيه إماماً للرصافي . في وصف القطار ، وشوقي ، في وصف الطائيرة ، بقصيدته : « الفريدة في المخترعات الجديدة » .

وهي قصيدة أثبتتها في الجزء الأول من الرحلة الحجازية (١) تبلغ نحو مائة وعشرين بيتاً طالعها :

« رأيت كيف تقارب البلدان بالمزجيات جرت على القضبان

(١) يوجد نس هذه القصيدة كاملاً في كتاب عنوان الأريب ج ٢ ص ١٤٧ ط تونس ١٣٥١

وذكر إنه أنشأها إجابة لاقتراح أديب المدينة وعالمها الشيخ عبد الجليل برادة حيث قال له : « إن على أدباء العصر الحاضر ديناً للكهرباء لم يف به واحد منهم فكيف يحسن بهم أن يقفوا عند حد تشبيهه الغصن بالقدر ، والورد بالخدر ، وبين أيديهم من عجائب الاختراعات ما لم يره من سبقهم » واقترح عليه خوض هذا الغرض ، فأنشأ قصيدته هذه في طريق عودته من المدينة إلى الشام . وقد نالت شهرة واسعة في عصره إذ كانت فتحة جديدة في أغراض الشعر العربي ، وبرهاناً على اتساع اللغة العربية لمختلف الأذواق والاحساسات ، وبهذه الصفة أثنت عليها الصحف العربية التي نشرتها يومئذ بتونس وسوريا ومصر ، والصحف الفرنسية التي نشرتها مترجمة نثراً على حل المؤلف إياها بقلبه .

وإذا كانت هذه القصيدة قد سلك فيها مسلك ، جعلها أقرب إلى المنظومات العلمية منها إلى الآثار الأدبية ، فإن لها على كل حال فضلاً عظيماً في توجيه الشعر ، إلى هذا الغرض الذي بلغ قمة الاجارة الفنية فيه من تلاحق عليه من الشعراء بعد .



المحاضرة الثانية

الخلدونية

١٣١٤ - ١٣٢٩

« خفيت مذاهب الطامعين ، أزماناً ، ثم ظهرت ، بدأت على طرق ، ربما لا تنكرها الأنفس ، ثم التوت ، أو غل الأقوياء في سيرهم بالضعفاء ، من الأمم . حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم ، حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم ، حداً لا تحتمله النفوس البشرية .

إن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزججتها ، ونبهتها بعض التنبيه ، فإذا توالى عليها وخزات الحوادث ، وأقلقتهم آلامها ، فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أى سبيل .

بهذه الكلمات ، استهل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أول عدد صدرت به حريدة العروة الوثقى ، وكذلك كان الأمر بتونس ، صورة صادقة لهذا الوصف البليغ ، وصدى حاكياً لتلك الصرخة المدوية .

استقر الاستعمار ، وتوطد أمره ، واستولى المستعمرون على أجهزة الحكم والادارة كافة ، فلم يبق لأبناء البلاد ، أميرهم وحقييرهم ، من الأمر شيء ؛ واشتد ساعد الجالية الفرنسية وتضخم عددها ، ونفذ أمرها ، وعملت كلمتها ، فاعتبرت البلاد التونسية وطناً لها ، ووضعت أبناءها الأصليين



ومصالحهم بدرجة الإهمال ، وصارت النظم كلها ، مبنية على التقاليد الغربية مستخفة بالديانة الإسلامية ، والعوائد التونسية ، وأصبح جميع المتصرفين الإداريين ، من الفرنسيين ، لا يشاركونهم إلا من لم يسهل صرفه من الموظفين القدماء ، فبقى على كرسيه جسدا ، وصار ابن البلاد مهيناً ساقط الاعتبار وأصبحت لغته مهجورة ، والحكم حكم غيره ، والبلاد لأمة غير أمته .

واستفاق الناس إلى أن صبغة الاحتلال ، التي ظنوها ، بادىء ذي بدء أخف الضررين ، قد استحوطت إلى الضرر الماحق ، والشر المستطير ، فأيقنوا أن هذا التيار ، لو بقي على انصبابه لجرف كل ما للبلاد ، من سيادة ودين ، وتقاليده ، فزال عنه الاسلام ودولته ، كما زال قبل عن الأندلس .

هنالك انتبهت مدينة تونس الحاضرة ، إلى الندامة على ما فرطت ، في مقاومة الاستيلاء الأجنبي !

وما الظن بمدينة تونس ، التي كان يرعى لها من الكرامة والاعتبار ، في أساليب الحكم ، وتقاليده الإدارية ، ما ترك أهلها يتوارثون على مر القرون شعوراً يسوى بين طبقات أفرادهم ، بشرف الانتساب إليها ، حتى كأنهم غير محكومين ، فلا المجاني ، ولا واجب الخدمة العسكرية ولا قوانين السخرة ، كانت تنال أحدا داخل أسوار الحاضرة . ما الظن بأبناء هذه المدينة وقد دخلت مدينتهم العساكر الفرنسية ، وحكمهم الحكام الفرنسيون فذاقوا الظلم والهوان ، وأحسوا بأن حاضرتهم الكريمة ، خرجت من أيديهم إلى أيدي أغراب ، داسوا كرامتها وأهانوا حرمتها .

رفعت الحاضرة التونسية رأسها ، بتوالي الوخز من نعاسها ، وما رأسها إلا النخبة المفسكرة من بقايا العصاة الإصلاحية التي تعرفنا بها في المحاضرة الماضية . وقلبت نظرها في الآفاق ، فاذا حالها كما يصفه عين تلك العصاة الشيخ محمد السنوسي ، في رسالة إلى الشيخ محمد عبده : « أمة فؤادها عليل ، قد منيت أطوارها بالتبديل ، وتلاشت منها القوى ، وعظم بها الوجي ،

فأصبحت رهينة آلام ، أوهت منها قوة الاعتصام ، تطرف حدقاتها إلى نيل
العز القديم ، مستكفة نحو شاحط ما شخص من ذلك الأديم ، لا تستطيع
إليه نهوضا ، وقد رأت حبل اعتصامها به منقوصا . فعز داواؤها ، وأحاط
بها أعداؤها .

وتطلعت تونس إلى عاصمة الخلافة العثمانية ، ترقب منها طلائع الانقاذ
وهو اتف البشرى ، وكلها طال بها الانتظار ، وعظمت الحيرة ، وألح اليأس
فإذا هاتف من وراء البحار ، يهتف لها بنداء العروة الوثقى لا انفصام لها ،
كان السيد جمال الدين الأفغانى ، قد كون خلال إقامته بالهند ، في مدينة
كالكوته سنة ١٢٩٩ - ١٨٨٢ ، جمعية سرية عالمية ، تدعى جمعية العروة
الوثقى ، غايتها العمل لتوحيد الممالك الإسلامية ، وتحريرها ، وقد كان من
أعضاء هذه الجمعية ، الشيخ محمد بيرم والأمير عبد القادر الجزائري ، ولما
سافر الشيخ محمد السنوسى إلى الشرق سنة ١٢٩٩ - ١٨٨٢ ، اتصل بواسطة
هذين بالجمعية ، وصار من أعضائها ، ورجع إلى تونس سنة ١٣٠٠ ، عاملا
على مبادئها ، ومروجا لدعوتها ، فانخرط فيها بواسطة رجال من أعيان العلماء
والأدباء . وصدرت جريدة العروة الوثقى في باريس سنة ١٣٠١ - ١٨٨٤ ،
يحررها الشيخ محمد عبده ، فراجت بتونس بين أنصار العصاة الإصلاحية ،
وكتب الشيخ محمد السنوسى في تقريرها ، الرسالة التى أوردنا فقراتها ، والتى
يقول فى أثنائها شعرا :

لئن دجت الأحلاك بالغيه الأبقى وضلت حلوم بعد أن طرقت طرقا
فقد وضح الصبح الذى بان عندما أنيط جمال الدين بالعروة الوثقى
وتعطلت جريدة العروة الوثقى أواخر سنة ١٣٠١ ، فسافر الشيخ محمد عبده
من باريس إلى تونس ، فدخلها فى صفر سنة ١٣٠٢ ، نوفمبر ١٨٨٤ ، وأقام
فيها نحواً من أربعين يوماً ، تعرف فيها بالملك وولى العهد وأمراء البيت
المالك وأعيان العلماء ، وحصر الدروس بجامع الزيتونية الأعظم ، وأقام فى

قصور العظماء واجتمع في نواديهم ، وامتزج برجال العصاة الإصلاحية ،
 وخلا في مجالس متواصلة بأعضاء العروة الوثقى ، في بيت الشيخ محمد السنوسي
 وتطلع حول الشكاوى والآلام من سوء حالة البلاد الإسلامية ، وتناولت
 أحاديثهم ما بدأ يفيض على مدينة تونس ، فيثير سخطها ونفورها ، من
 النظم البلدية ، المجافية للدين ، العابثة بالتقاليد ، وقد بدأ القلق يظهر على
 البلديين ، من جرائها ، ولم تمض على سفر الشيخ محمد عبده شهور عديدة حتى
 ظهرت في مدينة تونس حركة احتجاجية هائلة ، خرجت فيها مظاهرة كبرى
 من مدينة تونس إلى ضاحية المرسى ، حيث القصر الملكي ، وقابل وفدها
 الملك ، وقدم له عريضة مطالب واحتجاجات ، أرغمت الحكومة على
 الرجوع في مقرراتها ، وعلى تنقيح نظم البلدية ومجالسها . بما يتمشى مع تطالع
 الوطنيين ، فبدأت الأحداث . ثم انصرفت الإدارة الفرنسية إلى رؤوس
 الحركة ، فصبت عليهم وابل الغضب والانتقام نفياً وعزلاً عن الوظائف ،
 وكان أوفر الناس حظاً من تلك المصائب ، الشيخ محمد السنوسي وأفراد من
 أعضاء جمعية العروة الوثقى ، واستمرت المكاتيب دائرة بينهم وبين الشيخ
 محمد عبده . وهو ببירות فكان يتألم لما أصاب أصحابه من نكبة ، ويرثى
 للذي قضى منهم نحبهم عقب ذلك (١) ولما كان الأسلوب الذي تناولت به الإدارة
 الفرنسية تلك الحركة ، قد كان جديداً ، إذ لانت في أول الأمر واستجابات
 حتى أمنت الأفكار ، وانحلت العصب . ثم كرت على رؤوس الحركة تنكّل
 بهم ، وترهقهم على تفرق شيعهم . وتحاذل أنصارهم ، وذلك ما وقف بالحركة
 عند الخطوة الأولى التي لم تكن في خطة أصحابها إلا مبدأ له ما بعده ، فآلت
 الحركة إلى الإخفاق في جوهرها ، وإن نجحت في ظاهرها .

ولا جرم أن الاتصال قد استمر وثيقاً بين عقد العروة الوثقى بتونس

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا ، الجزء الثاني ، الباب الخامس . المكتب عدد ١١ و ١٢ و ١٤ . ص ٥٦٠ طبعة ثانية . المنار بمصر ١٣٤٤



وبين الشيخ محمد عبده ، بعد انحلال الجمعية ، وعدول الأستاذ الامام إلى سياسة الإصلاح الديني والاجتماعي ، تمهيداً لتحقيق ما كان أخفق فيه أستاذه السيد من الإصلاح السياسي العاجل ، وقد كان الأستاذ الإمام ، عند إقامته بتونس . على أبواب انتهاج ذلك المنهج ، لما تحققت بوادر الخيبة بتعطيل الجريدة ، وقد فارق تونس متوجهاً إلى بيروت .

وبهذا يظهر أن الذين أداروا مظاهرة البلدية ، فأخفقوا فيها ، قد كانوا ونصب أعينهم عند إدارة تلك الحركة منهجاً : منهج ارتجال هو منهج المقاومة بالعنف التي كانوا عليها ، ومنهج رويه ، هو منهج الإصلاح الديني والاجتماعي الكفيل بالخروج بهم من الحالة التي يشكونها خروجاً وأن يكن بطيئاً ، لكنه محقق ، فلما أخفقوا في أول المنهجين عدلوا إلى ثانيهما ، كما عدل أمامهم ، ولقد كان حولهم ما يؤكد رجحان ذلك المسلك الثاني ، فعلاوة على أن ذوى الشهور بواجبات النهضة . قد كانوا كلهم من أبناء الحاضرة . الذين تثقلهم حضر يتهم وتكاليفهم عن خوض غمار الكفاح العنيف . فإن جميع هؤلاء كانوا من موظفي الدولة . إذ لا مرتزق يومئذ للمتعلمين إلا في الوظائف القضائية والتدريسية والإدارية . وقد تكون عنصر جديد ناشئ من المتعلمين لم يعهد وجوده من قبل . هو عنصر المتخرجين من الصادقية المزدوجة ثقافتهم بين اسلامية وغربية . فقد كان المتعلمون صنفاً واحداً هو الزيتوني فلما أنشئت المدرسة الصادقية جاء إنشاؤها قاضياً بتكوين صنف من المتعلمين يختلف لون تعليمه عن لون التعليم السابق ، وتم تخرج الطبقة الأولى من الصادقية سنة ١٢٩٧ - ١٨٨٢ . واستمرت كل عام تخرج طبقة جديدة . أوفر عدداً من التي قبلها . وكان أكثر هؤلاء المتخرجين في السنين الأولى . يسافر إلى فرنسا لإتمام دراسته . فتكونت في فرنسا بعثة من الشبان التونسيين ذات عدد تأثرت في معارفها وتربيتها بالمدارس الفرنسية والحياة الفرنسية . وبقي عدد من متخرجي الصادقية بتونس كان أثره في الحياة العامة ضئيلاً بسبب قلة عددهم وتفرقهم وخمول المناصب التي كانوا يتولونها . فلما جاء الاحتلال . وانتصبت

الإدارة الفرنسية . رأت نفسها مضطرة إلى استخدام موظفين يحسنون اللسان الفرنسي مع اللسان العربي . ولما كان هذا الصنف معدوماً بين أبناء البلاد فقد استعانوا في أول الأمر بطائفة من اللبنانيين . تفرقت بين الإدارات التونسية من آل الخوري ، والشدياق ، وغانم ، وكعيد . وهناك اتجهت فكرة الوزير الأكبر للدولة التونسية إلى أن الإبقاء على رفق الذاتية القومية للإدارة ، يقتضي تدعيم صف موظفيها بموظفين من خريجي الصادقية الذين يحسنون الاضطلاع بما يراد من الموظف التونسي في ذلك الطور ، وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى الفرنسيين ، لمقاصد سياسية يرمون إليها من وراء ذلك ، وأن لم تتحقق لهم ، وكان نظام البعثة الصادقية في فرنسا ، يجعل عليها رئيساً منها لتنظيمها وتوجيهها وإدارة شؤونها ، وتولى الانفاق عليها ، وكان هذا الرئيس شاباً نابغاً ، من طلبة القسم الأول في ليسى سان لويس بباريس ، هو محمد البشير صفر ، وقد مكن له حسن سلوكه ، وعلو همته وقوة إرادته ، وصدق لهجته ، منزلة فائقة من المحبة والإكبار بين رفاقه . جعلته فيهم الزعيم المطاع ، واثارت ثأرته أول الأمر وقابل ذلك القرار بمعارضة حادة . ثم رجع إلى الاقتناع بصواب رأي الوزير ، بعد مكتوب خاص ، ورد إليه منه يتضمن إشارات دقيقة إلى المغايز السياسية التي ينطوي ذلك القرار عليها ، وتوزع خريجو الصادقية ولم يكن عددهم يبلغ الثلاثين ، بين مدارس التعليم الأولى التي أنشئت في الحاضرة وعدد من المدن الكبرى ، وبين المناصب الإدارية ، فصاروا كلهم موظفين يشغلهم ما يشغل الموظفين ، من مصالح وواجبات .

فإذا عطفنا هذا على أن جميع المتخرجين من جامع الزيتونة ، كانوا موظفين ؛ تبين لنا أن المتعلمين التونسيين ، بصفة عامة ، على اختلاف ثقافتهم قد أنحصروا في طبقة الموظفين ؛ فكان ذلك معيناً على توجيه محاولتهم الإصلاحية إلى منهج المساعي السلمية الهادئة .

وقد بقيت بين أبناء الصادقية ، على تفرقهم ، رابطة متينة ، يتواصلون بها ويتعاونون ، وبقي كبيرهم في عهد الدراسة ، البشير صفر ، كبيراً لهم ورأساً لعائلتهم الأدبية ، وهم رجال من الأساتذة والموظفين .

وما البشير صفر إلا رجل الحماس المتناهي ، والثورة المتقدمة على الوضع السيئ الذي كانت عليه البلاد ؛ كان منذ عهد طفولته بالصادقية ، متين التعلق بالوزير خير الدين ، متناهي الإعجاب بمواقفه ، بليغ الاعتناء بتوجيهاته قوى التعصب لمبادئه ، ثم كان عظيم الحسرة على انفصاله ، وتوقف سير إصلاحاته شديد الانفعال مما قضت به الظروف من انفصاله هو نفسه وإخوانه ، عن غايتهم السامية في إنهاء التعليم العالي ، فكان كل ذلك يقربه من الطائفة القائمة على بقية مما ترك الوزير خير الدين ، من المبادئ والمناهج ، وهي طائفة الزيتونيين الإصلاحيين ، الملتفين حول أستاذهم الكبير سالم بوحاجب ، كما كان مالمع به البشير صفر ، من الذكاء والفصاحة ، وما أثر عنه من صدق اللهجة ، واستقامة السيرة ، أموراً ملفتة لنظر تلك النخبة إليه .

وبهذا التجاذب ، المتلاقى الطرفين ، التحم الشقان بلحمة التعصب للوزير خير الدين ومناهجه ، وتقاسما على العمل للنهضة بالبلاد من كبوتها ؛ وأصبح الشق الصادقي أبرز الشقين في هذه الكتلة ، بما يمتاز به من نشاط الشباب ، ومتمانة الارتباط بين أفرادهم ، وانسجام مبادئهم الإصلاحية مع أصول تكونهم العلمي .

وبممارسة هؤلاء الرجال . للإدارة وأهلها ، انكشف لهم من نوايا الاستعمار ما كان خفياً عن خاصة أهل الإدراك ، فضلاً عن عامة البسطاء ؛ وذلك أن عموم الناس كانوا يحسبون البعد بالمؤسسات القومية عن التطور وعزلها عن تأثير التيار العصري ، هو الكفيل بالابقاء عليها ، وسد الطريق في وجه المستعمرين ، دون النيل منها ، وكانوا يرون أن من لطف الله بالوطن ما ينادى به المستعمرون ، من المحافظة على التقاليد ، وعدم المساس بالمؤسسات

الدينية التي أهمها تعليم جامع الزيتونة الأعظم ؛ فلما دخلت الشبيبة الصادقية دواوين الإدارة واتصلت بالفرنسيين المشرفين عليها ؛ أطمأن الفرنسيون بعض الاطمئنان ، إلى ما يختص به هؤلاء الشبان . من الثقافة الفرنسية ؛ فبدأوا يرفعون دونهم حواجز الكلفة ، ويلوحون إلى أنهم إلى الفرنسيين أقرب منهم إلى العرب المتأخرين ويبدو في مزلق حديثهم وفلتات لسانهم ، ما يصرح بأن المستقبل للغرب وثقافته . وأن القومية العربية التونسية إلى زوال وأن بقاء مؤسساتها على حالها ، مع تقدم الزمان ، وهو الكفيل بأن يلقبها في هاوية الاضمحلال . فمن نجا بنفسه وتفرنس روحا وفكرا التحق بالامة المتمدنة ، ومن عكف على عصبية القومية . أندرج في البائدين .

وربما كان أكثر الذين يستمعون إلى هذه الأحاديث من الشبان الصادقين يجدون فيها ما يروج عليهم فيغررهم ، لولا أن زعيمهم البشير صفر ، كان لهم من ذلك بالمرصاد ؛ فكان يحذرهم ، ويدفع بهم إلى التعلق بقوميتهم والنظر إلى ما يجري في دمائهم من مجد العروبة والإسلام ، لا إلى ما يجري على ألسنتهم ، ومن لغة الفرنسيين وأفكارهم ، وكان يعين على ذلك وجود حزب المعمرين الفرنسيين وصحفه ، التي أنشئت حربا عوانا على الجنس العربي تدعو إلى محقه وتصب عليه الشتائم . فلا تستثنى . وتقاوم من يقتصد في ذلك المسلك ، من الفرنسيين ، ولو كان مقيمهم العام . فكان لملك اللهجة الاستعمارية أثرها العظيم في نفوس التونسيين الذين يقرؤون الصحف الفرنسية . قضت على آخر ذرة في نفوسهم . من الميل إلى التقرب من الفرنسيين والاعتزاز بثقافتهم ، فعادوا إلى دائرة عزتهم القومية حول زعيمهم الذي لا ينازع البشير صفر .

حصل هذا الالتئام ؛ بين جميع الصادقيين ، في حال أن الزيتونيين ، الذين هم معظم المتعلمين ، لم يكونوا على التآم مثله ، إذا كان المؤيدون للحركة الإصلاحيه منهم ، نفرا قليلا ، ضعفت عصبيتهم بتفرق رؤوسها ، فبقوا

في وسط مجاف لحركتهم ، بين منكر ومحترز وغير مكترث ، فلما تألفت كتلة رجال النهضة ، بانضمام العنصر الصادقي إلى النخبة الزيتونية الإصلاحية أحست تلك الكتلة بأنها في حالة عزلة ، لا تسمح لصوتها بالامتداد ، إذا هي صدعت بدعوتها ، فعاودت بالذكرى ، فترة عملها المنصرمة قبل الاحتلال أيام كانت جريدة الرائد التونسي يدها ، تشيع أفكارها ، وتجمع في حضيرتها أهل الغيرة والمدارك ، من حيث تجهل مكانهم ، وصححت العزم على أن لا طريق لاستعادة العمل المنقطع ، إلا بتأسيس صحيفة ، تتجدد بها الدعوة وتتحد مسالك العمل وأقاموا منهجهم على أساس فلسفة الأستاذ قبادوا ، وسياسة الوزير خير الدين ، وهو نشر المعارف ، وجبر نقصها ، باقتباس العلوم الكونية عن الغربيين

فتأسست جريدة عربية أسبوعية ، سميت (الحاضرة) صدر عددها الأول في ٢٤ ذي القعدة ١٣٠٥ - ٢ أوت ١٨٨٨ وهي أول جريدة عربية ، غير رسمية بتونس ، وكان مديرها الأستاذ علي بوشوشه ، وهو من نبغاء خريجي الصادقية ، وكان موظفا فاعتزل الوظيفة لأجل ذلك ، ويساعده في توجيه الجريدة وتحريرها طائفة من رجال النهضة ، أشدها اتصالا بالعمل صديقه البشير صفر ، ومن حوله الشيخ سالم أبو حاجب والشيخ محمد السنوسي ، وقد عرفناهما والأمير الای محمد القروي ، (١) وهو من المتخرجين من المدرسة العسكرية في باردو ، تعلم اللغة الفرنسية قبل الاحتلال ، وأتصل اتصالا خاصا بالوزير خير الدين ، وكان معدوداً من كبار الموظفين ومن ذوي المعارف الواسعة في الطبيعيات والرياضيات ، ولرجال الإدارة الفرنسية اعتماد عليه .

وأن الذي يطالع الأعداد الأولى من جريدة الحاضرة ، ويقارنها بالأعداد الصادرة من الرائد سنة ٩٨ - ٨١ ، قبيل الاحتلال يوقن بأن جريدة الحاضرة لم تكن إلا معاودة لذلك العمل المقطوع ، فكان الشيخ محمد السنوسي يكتب

(١) أنظر ترجمته بقلم الأستاذ محمد بن أخوجة . المجلة الزيتونية . المجلد

مقالاتها الافتتاحية على الطريقة التي كان يكتب بها مقالات الرائد ، إلا أنه في الحاضرة لم يكن يمضى باسمه لظروف خاصة تتبين من مطالعة ترجمته (١) والمدير على بوشوشه يكتب مقالات عن الأحوال السياسية الجارية يعتمد فيها على استعراض أقوال الصحف الأوروبية الكبرى ، من فرنسية وإنجليزية وإيطالية ، ويحكم ويستنتج ، ويبسط ويقرب في تحرير متين سهل واضح مطبوع قد خلا من الكلفة التي تشوب تحرير الشيخ محمد السنوسي ، وإن كان يشيع فيه من خطأ التركيب والتسامح في استعمالات اللغة ، ما كان رائجاً في الصحافة الشرقية في ذلك التاريخ ، والبشير صفر كان يكتب مقالات هي إلى الدروس التعليمية أقرب منها إلى المقالات الصحفية ، فكان يهتم في مقالاته بدراسة النظم الاجتماعية والسياسية في أوروبا ، وبدراسة الأطوار التاريخية والأوضاع الجغرافية لكل مملكة من ممالكها ، قصداً إلى تكميل ثقافة قارئ الصحيفة ، حين يربط الأحداث التي يلخصها على بوشوشه بالظروف التي تفصلها تلك المقالات ، ومع أن هذا الضرب من المقالات بعيد عن فن النشر الصحفي فإنها من حيث التحرير ، قد كانت متفوقة بمتانة التعبير ، وقوة البيان وبلاغة الأسلوب بحيث أنها كانت مؤثرة تأثيراً قوياً جداً في توجيه الطريقة الأنشائية ، وفكها عن قيود القرن الماضي ، علاوة على ما كان لها من الأثر في إشاعة أساليب جديدة لعرض التاريخ ومقارناته واستنتاجاته ، وفي إشاعة مناهج التفكير المقتبسة من المصادر الحديثة للتاريخ الأوروبي ، معروضة تحت جناح الشخصية القوية لكاتب المقال .

فهؤلاء هم الذين كانت تقوم عليهم جريدة الحاضرة ، إذا أستثنينا مقالات معدودة تنشر نادراً ، لبعض من يرأسل الجريدة في شأن فكري أو أدبي أو إصلاحي ، أو المقالات الوصفية والتاريخية التي بدأ ينشرها الأستاذ محمد بن الخوجه منذ التحق بالقافلة والتحم بركبها .

(١) ترجمته في المجلة الزيتونية بقلم محمد الفاضل ابن عاشور . المجلد التاسع

ولقيت جريدة الحاضر رواجاً عظيماً ، عند قراء العربيه المنبشرين في داخل المملكة وأطرافها ، وكلهم من خريجي جامع الزيتونه الأعظم وكان أنتسابها إلى الشيخ سالم أبو حاجب ، وتأييده لها ، أعظم عوامل ترويجها بين هؤلاء ومع أن الشيخ سالما كان محترزا من الظهور علنا في الميدان ، فان تأكيد الحاجة إلى إظهار تأييده للجريدة للربط بينها وبين قرائها ؛ قد دعى إلى سلوك طريقة مقنعة واضحة لمن يعرف مجارى الأمور في ذلك الزمن وهي نشر تقرير الجريدة ، وتأيد لأصحابها وثناء عليهم ، نسبة الجريدة إلى « أستاذ العربية بالديار التونسية » وهو عنوان كان يعرف به الشيخ سالم ، بل ان كلمة الأستاذ التي لم تكن رائجة الاستعمال ، كانت مخصصة به تماما ، في ذلك الجيل ، فلم تكن تطلق على غيره بحال .

ولما كانت خطة جريدة الحاضر ، الدعوة إلى الأخذ بوسائل التمدن الأوربي وكان مسلكها السياسي معتدلا ، يتجنب إثارة سخط الإدارة ، فإن كثيرا من كبار رجال الإدارة الفرنسية ، قد كان ينشطها ويؤيدها ، مثل رينيو الكاتب العام ، وما شويل ، مدير المعارف ، فكان ذلك يعين على رواجها في أوساط الذين يخشون سطوة الحكومة ، وإن كان شق آخر من كبار الموظفين ، ينظر إليها شزرا ، فيبعد عنها ذلك عن المبالغين في الخوف والاحتراس .

وإذا كان اعتدال الحاضرة . يمكن لها رواجاً عند الذين يميلون إلى الاعتدال ، فإن هناك طبقة أخرى من ذوى الغيرة الوطنية ، المتحررين من قيود الوظائف ، قد كانوا ينكرون على الحاضرة إغراقها في مسألة الإدارة وربما سموا ذلك تملقا ، فكانوا يمتقونها ، وينفرونها ، وينفرون الناس منها . وطالما كانت هذه الطبقة ، من « المتحمسين » تحاول أن تلتفت حول صحف ينشرها بعض الأفاقين ، فكان سوء سمعة أولئك الناشرين ، وسقوط منزلتهم لا يسمح لعملهم بالاستمرار ، حتى وجدت ضالتها المنشودة في شخص شاب

تونس من أصل طيب ، نشأ في مصر ، وتخرج على الشيخ محمد بيرم ، واشتغل تحت نظره في جريدة الأعلام وفي مطبعتها ، وهو الأستاذ عبد الرحمان الصنادلي ، فأصدر سنة ١٣٠٧ - ١٨٨٦ جريدة «الزهرة» التي لم تزل موجودة إلى اليوم يديرها ابنه ، وابتدأ صدورها مرتين في الأسبوع ، وظهر عليها من أول الأمر ، قلة الاكتراث بالإدارة ورجالها ، وقلة الثقة في منشآتهم وتصرفاتهم ، وبذلك ازدهر فيها فن التحرير الصحفي الحقيقي ، الذي مبناه الانتقاد والمطالبة والاحتجاج ، وشب فيها المقال النقدي ، فكان له من قلم صاحب الجريدة ، المشذب بمخالطة الأقلام القوية في الشرق ، خير ما سما بذلك الفن وهذبه وأبدعه ، فأقبل عليه القراء اقبالهم على المشاريع التقدمية الناهضة ، وسرعان ما أصبحت جريدة الحاضرة لسان المعتدلين الخاضعين ، فأنحطت في قيمة الفن الصحفي ، وأبردت جريدة الزهرة غليل النفوس الوطنية فشرقت بها الإدارة وغصت ، حتى كان ظهورها يعتبر في تاريخ الصحافة بتونس ، اعتبار ظهور جريدة المؤيد في تاريخ الصحافة بمصر . (١)

واغتنت الحكومة أول فرصة ، دخلت فيها جريدة «الزهرة» ، بمهاجماتها للإدارة ورجالها ، تحت طائلة القانون ، فعطلتها سنة ١٣١٤ - ١٨٩٦ وقلدتها بذلك شرفاً عظيماً في نظر الوطنيين التونسيين ، زاد في أشاعة سمعتها وسمعة صاحبها كما زاد في مجافاة الناس لجريدة الحاضرة ، إذ اعتبروها جريدة شبيهة بالرسمية ومع ذلك فإن جريدة الزهرة ، قد أعانت المسيرين لجريدة الحاضرة ، أعانة قوية ، على تهئية الفكر العام ، لتلقى برناجمهم الإصلاحية ، إذ كانت الزهرة فاضحة للمقاصد الاستعمارية التي لم تستطع الحاضرة أن تفضحها ، مع أن اطلاع مسيرها على تلك المقاصد ، هو الذي دفع إلى تكوين جريدتهم ، وتخطيط الطريق التي قرروا انتهاجها لنهضتهم ، فإذا كانت الحاضرة تدعو إلى التعليم ، ولا تصرح بأن التعليم الذي تقدمه إدارة المعارف غير صالح

(١) الصحافة والأدب في مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة ، معهد الدراسات العربية العالية

فإن جريدة الزهرة قد أوضحت هذه الناحية ، بحيث أصبح واضحا للناس من الجمع بين دعوتي الجريدتين ، أن للعصر مقتضيات جديدة ، وأن للحضارة مبلغا غير مبلغها القديم ، من أن ما يعطى لنا من طرف الحاكمين ، ليس من شأنه أن يمكننا من مقتضيات العصر ، ولا أن يبلغ بنا مبلغ الحضارة ، فانتج ذلك نتيجته الطبيعية ، وهي أنه يلزمنا أن لا نبقى واقفين حيث نحن ، وأن نعتمد على أنفسنا في تكوين الوسائل التي تحقق لنا بلوغ ما نصبو إليه .

فلما شاعت هذه الدعوة ، وتطلع الناس إلى الطريق الأقوم لتحقيقها ، أدرك دعاة النهضة الإيجابية ، وهم رجال جريدة الحاضرة ، أن قد آن الأوان لا بتداء العمل على تطبيق البرنامج الذي كانوا يبتوا العزم على تطبيقه ، وهو برنامج الوزير خير الدين . واتجهت أنظارهم إلى المبدأ الذي قامت عليه أسس الدعوة الإصلاحية ، من عهد قيادوه وإدخال لقاح العلوم السكونية على الثقافة الإسلامية ، رأوا أن ماسادا على أهل جامع الزيتونة والمتخرجين منه ، من الشعور بحطة أنفسهم ، إذ أصبحوا لا يحسنون ما يحسنه الصبيان المتخرجون من المكاتب ، من الحساب والمعارف الطبيعية والجغرافية ، قد كون عاملا أول من عوامل القبول . وأن ما وقع في مصر ، من إدخال تلك العلوم في مناهج تعليم الأزهر الشريف ، بسعي الشيخ محمد عبده ، كان مثالا جديرا بالاقتراء وكون عاملا ثانيا من عوامل القبول ، وأن في المشرف الأعلى على سياسة البلاد ، وهو المقيم العام ، ريني ميلي ، الذي قدم إلى تونس سنة ١٣١٢ - ١٨٩٤ ، استعدادا طيبا تتم عنه سياسة البلاد الحرة ، في التقرب من العرب ، وإكبار ماضيهم وحاضرهم ، والنفور من المعمرين وأساليبيهم في اضطهاد الجنس العربي ، نفورا كوني بينه وبين حزب المعمرين وصحفهم بتونس . حربا عوانا ، وذلك ما كوني عاملا ثالثا من عوامل القبول . فاعتادا بهذه العوامل كلها ، قرروا الدخول في طريق الأعمال الإنشائية لمعاودة البرنامج المهجور ، ورأوا أن سيل ذلك إنما هو تكوين الجمعيات ،

ولم يكن للبلاد عهد بها من قبل . فدعوا إلى تكوين جمعية ، سموها « الجمعية الخلدونية » ، للعمل على بث العلوم العصرية ، باللغة العربية ، سدا للشغرة التي في تعليم جامع الزيتونة ، وأجروا نظامها على الطريقة المألوفة في الجمعيات . تتكون من أعضاء مشتركين تنتخب جمعيتهم العمومية رئيساً وأعضاء ثم ينتخب الأعضاء من بينهم الوكلاء والأمناء ، فكان ذلك أول عهد البلاد بنظام الانتخابات والمداولات والمناقشات السليمة في الشؤون العامة ، وصدر قانونها الأساسي بقرار وزيرى فى ١٨ رجب سنة ١٣١٤ - ١٨٩٦ وانتخب أول رئيس للخلدونية الأمير ألى محمد القروى ، وحوله مجلس فيه البشير صفر وأصحابه من خريجي الصادقية ، وأفراد من الزيتونيين ، من أنصار النهضة وتلامذة الشيخ سالم بو حاجب .

واحتفل بافتتاح معهد الجمعية احتفالاً رسمياً عظيماً ، حضره الوزير الأكبر وشيخ الإسلام ، وحضره المقيم العام رينى ميلى ، وألقى فيه خطاباً نوه فيه بالثقافة الإسلامية وماضى تونس فى نشرها وفضل العرب على أوروبا فى نهضتها ، وأمل أن تشع أنوار الثقافة العصرية من ذلك المعهد حتى تعم بلاد المغرب الإسلامى قاطبة .

ثم ألقى الشيخ سالم بو حاجب المحاضرة الافتتاحية ، فكانت درساً علمياً فى تفسير قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بين فيه أن الله جعل العلم سبباً لاستخلاف آدم وبنيه فى الأرض ، وأنه قد جعله برهاناً على استحقاق الخلافة فأقنع الملائكة ، حين رأوا آدم يعلم ما لا علم لهم به ، بأنه أولى منهم للخلافة فلا عجب أن تبقى الخلافة متنقلة فى نسل آدم على حسب علمهم ، تنزع من يجهل لتعطى لمن يعلم . وتسكّم على أنواع العلوم ، وبين منزلة العلوم الكونية ومقامها فى نظر الدين بتوقف فهم كثير من معانى القرآن وأوجه إعجازه على معرفة تلك العلوم والوقوف على أطوار الاكتشافات فيها ، وأن الدين الإسلامى إنما تقمقر بنسبة تأخر المسابىن فى العلوم الكونية .

وأستمر الأمير ألي القروي ، عاما واحداً ، في رئاسة الخلدونية ،
لاعتبارات سياسية ، ثم خلفه في الرئاسة البشير صفر ، فكان يتداولها ،
سنتين طويلة ، مع قرينه وصديقه محمد الأصرم .

ونظمت الخلدونية دروسا ، باللغة العربية ، في التاريخ والجغرافيا والعلوم
الطبيعية والرياضية ورسم الأراضي والاقتصاد واللغة الفرنسية ، فأقبل عليها
الشبان من طلبة جامع الزيتونة إقبالا عظيما ، وظهرت نتائجها فيهم من عامها
الأول ، وقام البشير صفر بدروس التاريخ والجغرافيا ورفع قيمتها بفصاحته
وقوة بيانه وإقدامه على شرح الحقائق الاستعمارية وكشف الحجب عن
الآخطار المحدقة بالعالم الإسلامي ، حتى صارت دروسه معهدا تتلقى فيه
التوجيهات القومية قبل التوجيهات العلمية ، فصارت زعامة البشير صفر على
شبان ذاك الجيل مطلقة لا تراحم ، ومنزلته منه منزلة خير الدين من الجيل
الماضي . هو رجل الساعة ، وحامي الحمى ، و« زعيم النهضة » كما تلقبه الصحف .
إذ ذاك ، أو « أبو النهضة الثاني » أي بالنسبة إلى خير الدين .

فعظمت بذلك سمعة الخلدونية ، وطار صيتها ، وتسابق الناس إلى
دروسها ، حتى اشتاق الرحلة إليها المتطلعون إلى ترقية معارفهم ، من طلبة
الجزائر والمغرب الأقصى (١) .

وسرت في جامع الزيتونة حركة عظيمة ، بتأثير هذه النهضة الجديدة ،
فشاع في الطلبة والأساتذة الانتقاد على خلو مناهج التعليم الزيتوني عن تلك
العلوم ، والتشجيع بالقصور البين في معارف طلبته ومداركهم ، وامتلات
أعمدة الصحف بهذه الدعوة ، وصدع بها البشير صفر في دروسه في منطق
خطابي بعيد التأثير ، وكانت دروس الشيخ سالم بو حاجب ، ميدانا للأخذ

(١) ذكر ذلك العلامة الأستاذ محمد الحجوي في افتتاح محاضرة له بالخلدونية سنة ١٣٥٠ -
١٩٣١ فقال مخاطبا رئيس الخلدونية : اني في زمن شبتي ونعومة أطفاري كنت رفعت طلبا
لسلفكم السيد البشير صفر رحمه الله أن يقباني تلميذا في هذه المدرسة عند تأسيسها . نشرة الجمعية
الخلدونية سنة ١٩٣٤ .

والرد في هذا الموضوع ، وكان من بياناته ، أحيانا ، وتنكياته تارات أخرى ما أيد الفكرة الانتقادية تأييدا عظيما .

فكانت هذه الحركة دافعة بمدير المعارف ، مشويل ، إلى أن يغتنمها فرصة لمداييل سياسته التعليمية إلى داخل ذلك المعقل الحصين ، فاقترح على الوزارة الكبرى تشكيل لجنة لدرس هذه المشكلة ، وأعد هو اقتراحات لتعرض على اللجنة ، ترجع إلى ترتيب درجات التعليم ، وتخصص المدرسين وإدخال الأساليب التطبيقية ، وجعل محلا منفصلا عن الجامع لتدريس بعض المواد .

واجتمعت اللجنة ، التي هي أول لجنة لإصلاح التعليم الزيتوني في ١٩ ذى الحجة سنة ١٣١٥ - ماي ١٨٩٨ ، تحت رئاسة الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوتور ، وكان أعضاؤها شيخي الاسلام ونظار التعليم بالجامع الأعظم وسبعة من مدرسيه ، على رأسهم الشيخ سالم بوحاجب ، والكاتب العام ومدير المعارف ، وهما فرنسيان ، والاستاذ البشير صفر ، وانتهى الأمر بأن دارت الدائرة على مدير المعارف ، إذ تقرر فصل جامع الزيتونة عن نظره ، وجعله مرتبطا رأسا بالوزارة الكبرى ، وسن نظم جديدة للامتحانات اعتبرت فيها مواد الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا لزومية ، واعتبار الخلدونية مدرسة حرة ، لنظر جمعيتها ، يعهد إليها بتهيئة الطلبة الزيتونيين للامتحان في المواد الجديدة فصار اتصال الطلبة الزيتونيين بالخلدونية ، وتلقى توجيهاتها ، أمرا عاما ، وأصبحت سيطرة الفكرة الإصلاحية ، على الشبيبة الزيتونية ، سيطرة مطلقة غير مجزأة ولا محدودة .

وبدأ الشيوخ المحترزون من إنتشار الفكرة الإصلاحية ، يشعرون بأن سيلها قد عم ، وأن قيادة الأفكار قد انتقلت إلى الخلدونية ، فجاءوا بالإنكار عليها وعلى رجالها .

وكان موقف الشيخ سالم بوحاجب ، بعلو مقامه في العلم وتقدمه في السن

ومشيخته لجميع مدرسي الجامع وشيوخهم ، شجى في حلق هو لاء المنكرين على حركة التطور الفكري ؛ وزاد في إلهاب الحركة الرجعية ما كان معروفا عن الشيخ سالم من مقالات في انتقاد أفكار وأفهام على بعض العلماء الماضين الذين كان الناس يرفعونهم إلى مقام التقديس ؛ وما كان يبيد من اعتدال في غلو كثير من الناس في التصديق بخوارق العادات ، والاعتقاد بصلاح أفراد كان يعرض بالتهكم بهم وبمعتقداتهم ؛ وكانوا يظنون أن ذلك أمر لا يعدو ميدان الأقوال ، فلما أصبح صاحب تلك المقالات هو المؤيد للناشئة التي تسير على خلاف هواهم ، والمنزل منها منزلة الإكبار ، أحسوا بأن الأمر انتقل من القول إلى العمل وسيصبح مذهباً له دعوة وأتباع .

ثم زاد اللهب وقوداً أن صدرت بمصر مجلة المنار ، للسيد محمد رشيد رضا سنة ١٣١٥ - ١٨٩٨ ، تدعو ، بتوجيه الشيخ محمد عبده ، إلى تأييد حركة الإصلاح التعليمي ، وتقرنها بدعوة الإصلاح الديني ، إذ تخوض في مسألة الأولياء والكرامات وزيارة القبور ، وتثير مسائل كلامية تذهب فيها خلاف مذهب الأشعري ، ومسائل فقهية ترجع فيها خلاف مشهور المذاهب الأربعة ، فأيقنوا بأن لحركة الإصلاح التعليمي قريناً ، هو حركة الإصلاح الديني ، وأيدوا يقيهم بما لاحظوا على طلبة الخلدونية وأساتذتهم من استحسان مجلة المنار وإقبال عليها .

وبلغ السيل الزبي سنة ١٣٢٠ - ١٩٠١ ، لما ظهر بمدينة تونس شاب كان من طلبة جامع الزيتونة والخلدونية المنقطعين للشيخ سالم بوحاجب والأستاذ البشير صفر ، أصدر جريدة سماها «سبيل الرشاد» ، لم يلبث أن عطلها وسافر إلى الأستانة ومصر ، وعاد منهما ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم ، يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ويعجب بالكواكب وحسن حسنى الطويراني وعلي يوسف ، ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود ، ويغرب بمقالات الحكماء والطبيين ، ذلك هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، الذي لم يسكد يرجع من



مصر حتى أحاطت به هالة من أهل العلم والأدب ، أصبحت ألزم له من ظله ، فكان يتنقل بهم في مجامع العاصمة ، ناديا سيارا ، مأخوذين بحلاوة تعبيره وفصاحة منطقته وقوة عارضته ومقدرته على تحليل المواضيع استرسالا بلا ملل ولا فتور ، وبدأ الناس يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة ، والأولياء ، والكرامات ، ويشيعونها على وجعها أو على غير وجعها ، حتى بلغت أسماع كبار الشيوخ الناقمين على التطور فآثارتهم ثورة أدجت الخلدونية والمنار والشمس ، وتقدمت دعوة إلى النيابة العمومية ، وجرت المرافعات ، والرعاع يترصدون للشمس في ذهابه إلى المحكمة ورجوعه ، يهاجمونه بالسب والأذى ، ثم حكم عليه بالسجن فكان أول مظهر لتمييز الحركة الفكرية الجديدة وإقامة الفوارق بينها وبين مناهج التفكير السابقة ، وكان ذلك عاملا على تكوين عطف الكثيرين عليه ، وتقوى الحركة الإصلاحية به وبنكته .

وزادت روح النهضة الفكرية إيقادا ، ودعوتها إنتشارا ، بتكاثر الصحف الأسبوعية ، منذ سنة ١٣١٩ - ١٩٠١ ، لما صدر قانون جديد للصحافة ، خفف من قيودها ورفع وجوب الضمان المالي المرهق ، الذي كان كل طالب لامتياز صحيفة مطالبا بإيداعه ، فأصبحت الصحف على كثرتها ، وجميع أصحابها من متخرجي الخلدونية ، تخوض في المباحث الدينية وتناصر الفكرة الإصلاحية ، وتنوّه بمجلة المنار وبالشيخ محمد عبده ، وصار عنوان الحركة الفكرية بتونس هو الإصلاح الديني ، واستمدادها من المنار وتوجيهات الشيخ محمد عبده ودروسه وكتبه ، فعظم الإقبال على رسالة التوحيد ، وكتاب الإسلام والنصرانية دمع العلم والمدنية ، وعمت شهرتهما .

وبلغ صدى هذه الضجة الهائلة ، من التمجيد والثناء على الشيخ محمد عبده وأفكاره وآثاره ، إلى البلاد المصرية ، ولمس الشيخ محمد عبده نفسه ، في الصحف التونسية ، إجماعا على تأييد دعوته وإتباع فكرته ، لم يتحقق له

في الصحافة المصرية ، التي كان أكثرها عليه لاله ، ولا في غير الصحافة المصرية من صحف البلاد الإسلامية الأخرى . فأيقن بأن أخصب أرض لبذور دعوته ، هي البلاد التونسية ، ورأى المثل العليا التي كان يصبو إلى تحقيقها في مصر قد تحقق شيئا كثيرا منها بتونس ، في تأسيس الخلدونية ، وما انبعث عنها من الأنوار .

فشوَّقه ذلك إلى الرحلة بنفسه إلى تونس والجزائر وحمل المنار على أن تسلك سياسة المجاملة مع الدولة الفرنسية ، حتى لا تحجر دخول المنار إلى البلاد التونسية والجزائرية ، ولا تمنع الأستاذ الامام من زيارتهما (١) .

وزار الأستاذ الامام تونس ، زورته الثانية ، في رجب ١٣٢١ - أوت ١٩٠٣ ، واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والإصلاح ، وأقبل على الترحيب به واستضافته عظماء البلاد وعلماءها ، وجرت الأحاديث والأبحاث ، والتقى به المنتقدون عليه ، واشتد الجدل بينه وبينهم في مسائل كثيرة فلم يخرج ذلك بهم عن تعظيمه ورعاية مقامه ، فكانت زيارته موسم نفاق العلم والأدب والمباحث الإصلاحية والفكرية .

وكان أكثر الناس التفافا حوله ، والتحاماً به ، مدة مقامه بتونس ، هم رجال الخلدونية وجريدة الحاضرة ، والشيخ سالم بوحاجب ، وكانت معرفته به قديمة ورسائله معه غير منقطعة ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور وهو يومئذ شاب في الرابعة والعشرين يعد أبرز مدرسي الجامع شيبابا ودكاء وعلميا وأدبا ، وأسبقهم إلى إتباع أساذيه ، الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد النخلي ، في تأييد الفكرة الإصلاحية ، فكان من أنصار الخلدونية ومن أعضاء مجلس إدارتها ، وكانت محبة الطلبة الزيتونيين فيه بالغة مبلغا عظيما . أما الشيخ محمد النخلي قد كان تغيبه عن العاصمة ، بالقيروان بلده ، حائلا بينه وبين ملاقة الأستاذ الإمام .

(١) المنار ج ١٢ وج ١٣ وج ١٥ المجلد ٦

وأقامت الخلدونية مجمعا عاما ، ألقى فيه الأستاذ الإمام محاضراته القيمة التي جعل عنوانها « العلم وطرق التعليم » ، فكانت تأييدا وتقوية لحركة الإصلاحيين ، وأصبحت أساس العمل لحركة الإصلاح الزيتوني ، ونشرت جريدة الحاضرة تباعا ، ونقلتها عنها المؤيد والمنار وثمرات الفنون وطبعت طبعتين مستقلتين إحداهما بتونس والأخرى بمصر .

واشتعلت حمية الانتصار للإصلاح الديني والتعليمي في الشباب الزيتوني وأصبح إسم الشيخ الطاهر بن عاشور مهتف دعوة المجددين وهدف أفكار الرجعيين ، إذا اعتبروه ، كما اعتبره الأستاذ الإمام نفسه ، سفير الدعوة في الجامعة الزيتونية .

وأعقب رجوع الأستاذ الإمام من تونس قيام ضجة هائلة حول مسألة الفتوى الترنسفالية أواخر سنة ١٣٢١ - ١٩٠٣ ، وهي التي تتعلق بلبس المسلم القبعة ، وأكله ذبائح النصارى التي لا تتوفر فيها شروط الزكاة الإسلامية وكثر اللغط في شأن هاتين المسألتين ، وانتصبت جرائد كبرى بمصر ، مثل المؤيد واللواء ، لمهاجمة المفتي ، بله جرائد أخرى كانت مخصصة لذلك ، مثل النهج القويم والظاهر والحجارة ، وقابلتها في الدفاع ، واجهة صحفية على رأسها المنار والأهرام والمقطم ، وبلغت أصداء تلك المعركة إلى البلاد التونسية ، فاعتنمها خصوم الإصلاح فرصة للتشهير بمفتي الديار المصرية وتضليله ، واتخذها أنصار الإصلاح ذريعة للتشهير بمقاومة العلم بتحريف الحكم عن مواضعه ، وعمل الأغراض الشخصية والسياسية في تهديم القيم العلمية والدينية . وهو ما سماه السيد رشيد رضا (عبث السياسة بالدين) .

واشتدت حماسة كل من الطائفتين بتونس ، لمنهجها ، وبلغ الخصام والغمز واللمز منتهاها ، واندفع الشيخ الطاهر بن عاشور يكتب رسالة فقهية ، مدعمة بالأدلة على المذهب المالكي ، لتأييد مفتي الديار المصرية ،

نشرت يومئذ (١) منسوبة إلى عالم تونسي ، ثم صرح صاحب المنار ، في تاريخ الأستاذ الامام ، (٢) بأنها للشيخ ابن عاشور ، وقد شاع ذلك عند أهل العلم بتونس من تاريخ النشر فزاد به الشيخ ابن عاشور استهدافا لمقاومة المحافظين ومناصرة الإصلاحيين ، وكان حوله ، من شيوخ الزيتونة ، ركنان من أساتذته ، هما الشيخ سالم بوحاجب ، إلا أن تقدم سنه بدأ يرجع به إلى الضعف والعزلة ، والشيخ محمد النخلي ، لولا أن مافي طبعه من الخمول كان يبعد به عن غمار الحياة العامة فكان ذلك واضعا لاسم ابن عاشور بالمقام الأول في نظر طلبه الإصلاح ، يعنونون به عن مبدئهم ، ويساندون بمنهجهم العلمي دعوتهم . وقويت بذلك حركة الشبان الإصلاحية وازدهرت ، إذ أصبحت ولها الصحف التونسية الخادمة لمبادئها ، ولها المجلة العلمية العالمية ، وهي المنار ، الموجهة لحركتها ، ولها حماتها من أساطين العلم بجامع الزيتونة شيبا وشباننا ، ولها ، فوق ذلك كله إكليل من شخصية إمامها مفتي الديار المصرية وما أدراك ما هو .

هناك أحست حركة المعارضة باحتياج شديد إلى قوتين ضروريتين لتتعاذل مع الحركة الإصلاحية ، هما قوة عالم كبير القيمة شهير الاسم ، تلتف حوله عناصر حركتهم كما التفت عناصر الإصلاحيين حول اسم الشيخ سالم بوحاجب ، وقوة لسان نشر ، لأن الصحافة كانت كلها تقريبا في جانب المجددين ، ووجدوا للوفاء بالحاجة الأولى شخصية الشيخ محمد النجار المفتي المالكي ، وكان عالما كبيرا واسع الاطلاع ، مشهورا بعلمه وصلاحه ، وكان من تلامذة الشيخ سالم بوحاجب الذين يعترفون بعلمه ويعتزون بوده ، إلا أنه يختلف عنه في منهجه الفكري ، فكان ، كلها ثارت المباحثات في مسألة من المسائل الدينية التي تتناولها مجلة المنار ، انتصب لبحثها وتحقيقها وإيراد الحجج الشاهدة بأن مسلك المنار في تلك المسألة مخالف لمذهب أهل السنة ، يقوم بذلك في دروسه اليومية ومجالسه وفي درسين حوليين يلقىهما في شهر رمضان

(١) مجلة المنار ج ٢٤ مجلد ٦

(٢) ج ١ ص ٧١٦ ط المنار ١٣٥٠

بمناسبة ختم مجلس الحديث الشريف ، يشهدهما الأمير وجميع العلماء وجمهور عظيم من الخاصة والعامة .

وبقي معارضوا الدعوة الإصلاحية متطلعين إلى الوفاء بالحاجة الثانية ، وهي تكوين نشرة تناقش في المباحث الدينية على قاعدة التزام المذهب الذي عليه جمهور العلماء في مسائل أصول الدين الاعتقادية وفروع الفقه العملية ، وكان الحرص على محاكاة مصر في وسائل نهضتها ، يحسن لأهل العلم إيجاد مجلة علمية بتونس ، إذا كان النشر مقصوراً يومئذ على الصحف ، حتى انتدب لسد ذلك العوز نابغ من شباب شيوخ الزيتونة ، هو الشيخ محمد الخضر حسين ، وكان في شبابه بتونس على ما عرف منه الشرق في كمولته وشيخوخته ، إعتدالاً ، وهدؤ طبع ، وخلوص نية ، وسعة علم ، وبراعة قلم ، فأصدر في شهر المحرم سنة ١٣٢٢ - ١٩٠٤ مجلة علمية سماها (السعادة العظمى) ابتهجت لصدورها جميع الأوساط العلمية والفكرية ، ثقة بعلم صاحبها وتحقيقه ، وصلاية عوده في أمور الدين ، مع ما اشتهر من تأييده لحركة المصلحين ، فكان ظهور السعادة ، في معمعة تلك الخلافات كطلوع الحكم العادل ، تنزهت به المجادلات عن الفحش ، وتطهرت من الهمز واللمز ، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصي ، فاقتبلها المجددون واثقين من أن التحيز والمبالغة والعناد ستزيف كلها على معيار هذه المجلة العلمية الراقية وتلقفها خصوم التجديد حجة على أن شباب العلماء المتنورين ، ليسوا على مذهب صاحب المنار وأتباعه ، وقنع هؤلاء المحافظون بأن يعترضوا بالشيخ النجار ومجلة السعادة العظمى ، مكتفين بذلك في باب الجدل العلمي والنقاش النزيه ، وإن بقيت لهم وسائلهم الأخرى في باب التشهير والسعاية والنكاية ، فقد عارضت هيئة النظارة العلمية بالجامع الأعظم في صدورهم ، وطالبت الحكومة بتعطيلها ، وكان ذلك أصل الاضطهادات التي نالت صاحبها من طرف شيوخ النظارة ، ومع ذلك فقد أحاط بمجلة السعادة العظمى القبول الحسن فقرظنها الجرائد وانتالت عليها الرسائل والقصائد ، في الثناء والتأييد



من العلماء والأدباء وذوى الأفكار، وكانت نزعات التقارب تختلف باختلاف ما ينتمى إليه المقرظون من الشقيين المتقابلين الواثقين بمجلة السعادة على السواء . فكانت هذه المجلة مركزاً للحركة الفكرية ، وقوة توجيه متصلة بجميع أهل الثقافة العربية ، يجتمع تحتها شقان متباعدان ، فى صعيد الاحترام وحسن الأدب والتجرد ، ولم تدم إلا عاماً ناقصاً ، فصدر منها واحد وعشرون عدداً ، أثرت فيها مباحث مهمة حول المسائل الدينية التى كانت يومئذ شغل أفكار العلماء ، ولم يخل عدد من أعدادها من موقف مخالفة مع مجلة المنار .

وكانت المنار منتشرة بالمملكة التونسية ، عاصمتها وآفاقها ، إنتشاراً واسعاً ، كانت تفتخر به ، حتى ذكرت فى الجزء ٢٢ من المجلد الخامس بأن الجزء الواحد من المنار كان يدار على عشرات الناس بتونس ، وارتبطت بالنهضة الفكرية التونسية ارتباطاً وثيقاً ، فكانت تكثر من نشر الأخيار عن تونس ، ولا سيما ما يتعلق منها بالتعليم والإصلاح الدينى ، وكان ما ينال دعاة الإصلاح الأولين من تنكيل واضطهاد ، يجد صده فى مجلة المنار بأكثر مما يجده فى الصحافة التونسية : فمدرس بصفاقس عزل لأنه أنكر البدع التى فى زيارة قبور الأولياء ، إهتمت المنار به ودافعت عنه ، ووالى المقالات المطولة فى شأنه ، وجريدة الحاضرة ، والجمعية الخلدونية ، كانتا مظهر إعتناء غير منقطع من المنار ، وشؤون التعليم وما جرى فيها من المناقشات بين الصحافة الفرنسية والصحافة التونسية كانت مجلة المنار تهتم بالحديث عنها ونقلها (١) ، ومحبة الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، ومرير شكواه من الحياة الفكرية بتونس قد نشرتها مجلة المنار فى رسالة وردت منه ، وإن لم تسمه ولم تسم القطر الإسلامى المقصود بالشكوى (٢) ، وفتوى الشيخ محمد عبده

(١) المجلد ٥

(٢) المجلد ٦

الترنسفالية ، لما أنكرها الناس ، نشرت المنار رسالة في تأييدها لعالم تونس ،
ومسألة أقصى أمد الحمل ، التي اشتهرت فيها فتوى السيد رشيد رضا ، كان
مثارها مناقشة بين رجال المجلس العدلى بقفصة من البلاد التونسية والسائل
هو رئيس المجلس (١) .

وبهذا يظهر ما كان لمجلة المنار من التأثير القوي في توجيه الحركة الفكرية
بتونس ، وما كان لها من قوة في مناصرتها ، وقد عظم هذا التأثير واشتدت به
الحركة الفكرية في الفترة التي أصبحت النهضة الفكرية فيها معلقة على التعادل
بين مجلتي المنار والسعادة ، ثم لما انقطعت السعادة بقيت المنار هي مناط
الانبعاث الفكري ، بعد أن استنار واعتدل بسنة الجدل العلبي السامي ، التي
مضت بين المنار والسعادة .

وجاء موت الشيخ محمد عبده قريباً من زيارته لتونس ، فقد توفي في
جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ - جويلية ١٩٠٥ ، ولم تمض سنتان على رجوعه
من تونس ، فكانت وفاته مناسبة لبروز تعلق أتباعه التونسيين ، وصعود
ذلك التعلق إلى المقام الروحي الأسمى ، فبرز كثير من أنصاره الذين كانوا
مستترين ، وبجحت نفوس متبعيه بذلك ، كما بجحت بشهادة أضداده ، عندما
كتبت على موته الصحف التي كان ديدنها الاستخفاف به وتسفيه موقفه .
وآرائه ، مثل جريدة اللواء والظاهر ، فكان ذلك انتصاراً خالداً لعظمته ،
واصطبغت محبة المصلحين للشيخ محمد عبده بصبغة الحزن ، وطلعت عليهم
الصحف المصرية بالمرآثي الشعرية ، وأهمها قصيدة حافظ إبراهيم التي أصبحت
نشيداً للمجد الإصلاحى لا ينقطع فم طالب زيتوني عن ترديده .

وإن من يطالع الجزء الثالث من « تاريخ الأستاذ الإمام ، للسيد محمد
رشيد رضا ، ويقف على المرآثي والرسائل والمقالات التونسية التي أنشئت في
تلك المناسبة ، يدرك أنها تمثل عنصراً هاماً من مميزات الأدب التونسي ، في



هذه الحقبة من التاريخ ، كما يتضح ذلك من دراسة الحياة الأدبية التي نحن
شارعون فيها .

عوامل التطور الأدبي :

لا نستطيع أن نمر من الكلام على الحياة الفكرية ، إلى الكلام على الحياة
الأدبية ، بدون أن نقف أولاً عند ناحية ، وإن كانت مستقلة عنهما فقد كان
لها اتصال قوى بكل منهما ، إذ تشربت من روح النهضة الفكرية ما رشحت
به على الحياة الأدبية ، وتلك هي :

الحياة العلمية :

كانت الفترة التي درسناها في المحاضرة الماضية ، خالية عن أي مظهر
تطوري للحياة العلمية ، فمظاهر الحياة الأدبية فيها كانت مرتكزة على التطورات
النفسية والفكرية فحسب ، أما الفترة التي ندرسها في محاضرتنا هذه ، فقد
توفرت فيها عوامل تطور للحياة العلمية قضت فيها بآثارها ، فكانت نتائج
تلك الآثار عنصراً متظاهراً مع عنصر التطور الفكري والنفسى في تكوين
الخصائص الأدبية التي امتازت بها هذه الفترة .

كان محور النهضة الفكرية ، في هذه الحقبة ، هو الخلدونية ، وما هي
إلا مؤسسة علمية بالأصالة ، بقطع النظر عما يرتبط بها من المؤثرات والآثار
في النواحي الفكرية والنفسية ، وقد أوجدت الخلدونية تعلماً ، وبعثت فنوناً ،
وأشاعت طرائق أدخلت كلها على الحياة العلمية عوامل تطور جديدة ،
فتحركت الهمم والقرائح العلمية ، بما دخل عليها أو لمسها ، من المعارف
والمناهج ، وتطلعت إلى طرق جديدة في الانتاج .

ثم كانت المجادلات العلمية ، التي اتصلت بحركة النهضة الفكرية ، مثيرة
لمواضيع من المسائل الدينية العالية على نحو إقتضى دراسة تلك المسائل
بأصولها من مصادرها الأمهات ، فرفعت بذلك عن طرائق التعاليم غشاوة

كانت عليها من القصور والتقليد ، وفتحت في وجوه الباحثين أبواب النظر والبحث والبرهان ، في مسائل كان أكثر الناس عنها بمعزل ، وإذا تناولتها طائفة منهم ، فإنما تناولوها تناولاً سطحياً ، مجرداً عن الاهتمام بالغايات النظرية والعملية التي تنتهي إليها ، فلما خرجت إلى ميدان البحث ، واتصلت بمجرى الحياة العملية ، انبعثت صورها الراكدة في الأذهان ، وتطلعت بذاتها إلى الاتصال بأدلتها النظرية ، من جهة ، وغاياتها العملية ، من جهة أخرى .

وأمر ثالث ، إنضم إلى هذين فلم يكن أقل أثراً في النهضة العلمية منهما ، هو مظهر القوة البيانية ، التي ظهرت في أقلام الشرقيين من الكتاب والمؤلفين ، وفي أقلام الذين شاركوهم ، من التونسيين في خوض غمار الصحف والمجلات ، فتولد من ذلك التفات إلى أهمية الثقافة الأدبية ، في التكوين العلمي العام ، وإلى نقص الذين حرموا تلك المقدرة ، فكانوا ، في العلم ، بمنزلة الأميين في الحياة العادية .

ومن أثر هذه العوامل الثلاثة هبت على طلبة الزيتونة ريح تطالع إلى توسيع مجال البحث ، وترفع طرائق النظر ، وتحركت في نفوس الأساتذة همّة لملاقاة ذلك التيار بما يستحق ، وخرجت من زاوية الهجران ، فنون وكتب ، من العلم والأدب ، وأقدمت الأفكار على النظر المستقل ، والألسن على البيان الحر ، حتى فتحت باب الترجيح وتحككت بباب الاجتهاد ، فامتازت بين أساتذة الجامع ، طبقة صارت لدروسها نغمات يتذوق منها الطلبة ما لا يجدون له مذاقاً في دروس غيرهم ، وإن طفحت بالعلم والتحقيق ، هذا في ما تشترك فيه تلك الطبقة الممتازة ، ذات الروح الأدبية . مع عموم الأساتذة ، من المواد والكتب ، فضلاً عما ينفردون به ، مما اختصوا بتدريسه . كما اختص الشيخ محمد النخلى بتدريس كتاب المزهري للسيوطي ، والشيخ محمد الخضر بتدريس المثل السائر لابن الأثير . والشيخ الطاهر ابن عاشور بتدريس ديوان الحماسة ومقدمة ابن خلدون .

وانتعشت بهذه الطريقة الجديدة عزيمة التأليف والتحرير ، التي عاودت نفوس علماء الزيتونة على عهد عهد ، وبرزت بصفة واضحة في الشيخ ابن عاشور الذي ما درس مادة إلا وضع فيها كتاباً .

وتوجهت الهمم إلى توسيع مصادر المطالعة بتناول نفائس الكتب النادرة ، المكنونة في مكتبتى الجامع الأعظم الأحمدية والصادقية ، فتما بذلك ذوق معرفة الكتب وفن الخطاطة والوراقة ، وسرى الإلتباه إلى قيمة تلك الكتب وأحقيتها بالتعريف والتنويه ، إقتداء بما صنعت دار الكتب الخديوية بمصر في فهرستها العلمية التحليلية التي وضعها الشيخ محمد حسنين في سبعة أجزاء طبع الأول منها سنة ١٣٠١ - ١٨٨٤ ، وتأثراً بما صار يظهر ، من الاهتمام بتلك الخزائن ومحتوياتها ، من طرف المستشرقين الفرنسيين ، لا سيما المستشرق « روا » الذي كان وزيراً مفوضاً لفرنسا وكاتباً عاماً للحكومة التونسية ، ومن طرف خريجي المدارس الفرنسية من التونسيين ، الذين يجدون في البحوث التاريخية والأثرية التي تنشر باللغة الفرنسية ، ما يلفت أنظارهم إلى أسماء كتب ورجال وحقائق تاريخية ؛ فيتوجهون في سبيل التعرف بها إلى اللامعين من علماء الزيتونة ، وبذلك يشعر هؤلاء بأهمية تلك المباحث التي كانوا يحسبون أن الزمان قد جر عليها ذيل العفاء ، فتكونت لجنة علمية برئاسة القاضى الحنفى الشيخ اسماعيل الصفائحى (١) تضم رجالاً من العلماء الأدباء من أهل جامع الزيتونة ، منهم الثلاثة الذين جعلناهم وجه الطبقة البارزة ، وفيها ، من الصادقين ، الأستاذ محمد بن الخوجة ، أحد العمد في جريدة الحاضرة والخلدونية وصاحب الآثار القيمة في خدمة التاريخ التونسي ، وابتدأت تلك اللجنة تواصل أعمالها للتعريف التفصيلي بكل كتاب من كتب الخزانتين عن طريقة علمية متينة (٢) ، وكانت تلك الاجتماعات أول

(١) أنظر ترجمته في مجلة البدر التونسية المجلد الثانى الجزء الأول

(٢) استوفت هذه اللجنة عملها في التعريف بالمكتبتين لكن لم يطبع من الفهارس التي أنجزتها

الـ ٤ أجزاء طبع الأول بتونس ١٣٢٦



عهد البلاد بالمداولات العلمية الخالصة المنتجة التي تدخل في نطاق أعمال
المجامع العلمية .

وكانت هذه الدراسات التاريخية ، إلى جنب دروس التاريخ بالخلدونية
تحرك العناية بمباحث التاريخ ، والحرص على إحياء الآثار التونسية ، والتنويه
بالماضين من عظماء التاريخ ورجال العلم والأدب ، ففتحت الصحف أعمدها
لنشر المقالات عن المعالم الأثرية الإسلامية وأعلام التاريخ الإسلامي .
وكانت المجلات المصرية الراقية هي التي ترسم مثل البحث التي يحتذيها العاملون
على خدمة التاريخ وإحياء الآداب .

فمجلة المنار ، ومجلة المقتطف ، ومجلة الهلال ، ومجلة الضياء كانت هي
المثيرة في نفوس العلماء والكتاب ، لصور المواضيع التي يطرقونها ، والواضحة
للشئ التي تنسج مقالاتهم على منوالها .

كما كانت التأليف التي تبتكر صور البحث العلمي الطريف ، مثل كتب
جرجي زيدان ومحمد فريد وجدى ورفيق العظم ، أو التي تنقل صور البحث
العلمي والفلسفي عن مفكرى الغرب ومثل مترجمات أحمد فتحي زغلول ،
أو تفتح مناهج المقارنة بين الأدب العربى والآداب الغربية ، قديما وحديثاً
مثل كتب روى الخالدى وسليمان البستاني ، أو التي تعرب روائع من
الآداب الغربية ، بأقلام عربية بليغة مثلما صنع حافظ إبراهيم والشيخ نجيب
الحداد ، كانت هذه الأصناف من الكتب الشرقية وتفتح أبصار العلماء
والكتاب بتونس إلى طراز من البحث والتحرير جديد ، وتمدهم بأفكار
وصور عملت عملها الكبير في تدعيم أركان النهضة العلمية في هذا الطور ، لما
راجت وأقبل الشبان على مطالعتها بإنشاء الخلدونية للمكتبة وقاعة المطالعات
سنة ١٣٢٢ - ١٢٠٤ ، وتكاثر دور التجارة في المطبوعات الشرقية .
وبهذا تضاعف تأثير هذه الكتب في الحياة الأدبية ، إذ أثرت فيها تأثيراً

غير مباشر ، من طريق الحركة العلمية كما أثرت فيها ، من جهة أخرى
تأثيراً مباشراً .

أما العوامل التي أثرت في تطور الأدب تأثيراً أصلياً ، مباشراً قريباً ،
فقد كانت راجعة إلى صنفين :

- (١) العوامل الشرقية
(٢) العوامل المحلية
- العوامل الشرقية :

وتتجلى في الآثار الأدبية التي كانت تطلع بها الكتب والمجلات والصحف
من الشرق ، فتتفعل النفوس بتونس بروعتها ، وتتذوق متعتها ، وتعكف
على سحرها وجمالها ، ثم تشعر بأن تحلل تلك الروائع الأدبية ، من القيود التي
كان يرسف فيها الأدب القديم ويجعلها أصلح أداة للتعبير عن مشاعر النفوس
اليقظة ، ومدارك الأفكار الناهضة ، فتأخذ في الاقتداء بها والتخرج عليها ،
وهذه الآثار ترجع إلى ثلاثة أصناف :

(أ) الأدب النثري الجديد . وهو الذي ظهرت به طريقة تحرير المقالات
الأدبية والفكرية التي كانت تنشر في الصحف والمجلات فتمتاز بوصف يحلو
المناظر والأحداث المادية ، في تصوير دقيق ، ويغوص على الانفعالات
النفسية ، ثم يسمو إلى الخواطر الفكرية ، فيجلوها في تحليل محكم ، وعرض
واضح ، كل ذلك في بيان متين السبك ، فصيح التعبير ، مشرق التركيب ،
متسلسل الأفكار ، متناسق الأوصال ، حازا اعتبارات البلاغة ، وتجنب كلفة
التعقيد ، وظلمة البديع المصطنع . وقد شاعت هذه الطريقة ، متفاوتة مظاهر
الحسن في المنشآت الصحفية ، واستقرت على الطرف الأعلى عند شيخ
المدرسة النثرية ، وإمام الإنشاء « العصري » محمد المويدي ، في عامة منشآته
بصحيفة « مصباح الشرق » . وخاصة كتابه الذائع الصيت « حديث عيسى
ابن هشام » .

(ب) الأدب الشعري الجديد وقد طفحت به أيضا الصحف والمجلات ،
فكانت لا تنفك تنقل للناس من بدائعه قصائد ولدها الشاعرية الحية ، تتجاوب
فيها انفعالات الناس ، من الأحداث الهامة التي كانت تملأ تاريخ تلك الحقبة ،

وأفكارهم في الحياة العامة وطرق إصلاحها ، وقد اعتمدت هذه الطريقة على محور النهضة الشعرية بالشرق ، الذي يمسك بطرفيه شاعرا مصر ، حافظ وشوقي ، وربما كان حافظ أقواهما أثرا بسبب ما امتاز به شعره من شدة البعد عن الطرائق الشعرية القديمة ، وشدة القرب من حركة الإصلاح الفكري والديني ، وهي صاحبة السلطان الأعظم على نهضة الفكر بتونس ، ولعل أقوى الآثار الشعرية في هذه الحقبة ، أثرا في توجيه الشعر بتونس وجهة جديدة ، بعد قصائد حافظ في الشيخ محمد عبده ، إنما هي قصائده : « غادة اليابان » ، و « العمرية » ، و « لسان حال اللغة العربية » ، و « استقبال رأس السنة الهجرية » .

(ج) بعث الأدب القديم : ثم إن وفرة المطابع وقوتها ، وشيوع الذوق الأدبي بين الناس ، بمطالعة الصحف والمجلات ، قد شجع حركة النشر ، فتناولت أهم آثار الأدب العربي القديم ، والتي جفأها المتأدبون حيناً بانحراف الأذواق ، عن مناهجها ، وقد أصبحت أنتم تلاقيا مع روح النهضة الحديثة وذوق الأدب الجديد ، فأشاعت المطابع الشرقية بين الناس شعر أبي تمام ، والبحتري والمعري ، والشريف الرضي ، كما أشاعت نثر الجاحظ ، وابن العميد ، وبديع الزمان . فكان ذلك عاملا على صرف الناس عن صور الأدب التي كانت مسيطرة على عصر الركود بأساليبها المتشابهة . إلى أدب فيه القوة . والانسجام ، والجزالة ، وافتراع المعنى ، والتفنن في الأسلوب . فأقبلوا عليه ورووه وتدارسوه وانعكست على منشآتهم الأدبية آثار منه وتبينت في تهجمهم على أساليب ومناهج مجافية لمألوف الأدب القديم . ومتمشية مع ما تولد عن روح النهضة من طبع وفكر .

٢ - العوامل المحلية :

كما امتازت هذه الحقبة في الشرق بوفرة الصحف ، فقد امتازت أيضا بوفرتها في تونس ، إذ بلغ عدد الدوريات العربية ، بين مجلة وصحيفة ، ما بين

سنة ١٣٥٥ - ١٨٨٨ ، وهي سنة بروز الحضرة . وسنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ .
خمساً وأربعين نشره (١) وتسببت كثرتها في تعدد المطابع . فأنشئت مطابع
عربية زيادة على المطبعة الرسمية . ابتدأت أولاً ملحقة بالمطابع الفرنسية ،
ثم أنشأ الوطنيون التونسيون مطابع خاصة بهم .

وقد كون تكثر المطابع دواعي التحرير والمنشطات على النشر . وأشاعت
كثرة الصحف الأفكار والأخبار ، وروجت الطرائق الكتابية المتأثرة
بنهضة الأدب في الشرق . وبثت الدعوة إلى التحرر والابتكار . وكانت
مجلة السعادة العظمى علمية راقية . لا تمس أفكار متوسطي القراء . فتعززت
بمجلة سائغة للعموم تبحث في الأدب والعلم والاجتماع . وتنشر الصور وهي
مجلة « خير الدين » التي أسسها الاستاذ محمد الجعابي صاحب جريدة الصواب
في المحرم ١٣٢٤ - فبراير ١٩٠٦ .

وانتهجت المطابع إلى نشر كتب التاريخ التونسي والمغربي والأندلسي ،
فسدت ثغرة في هيكل الثقافة العربية الذي شيدته المطابع الشرقية .
وكانت الحياة الفرنسية الغربية ، المحاكاة للحياة العربية ، بثقافتها ونظمها
وحضارتها ، ماثلة لأعين العرب التونسيين ، إلا أنها غير متوغلة في أفكارهم
بسبب فارق اللغة .

فلما اشتغل الكتاب التونسيون ، الذين درسوا اللغة الفرنسية ، بالتحرير
في الصحف والمجلات ، ظهرت في أقاليمهم معان وصور وأفكار وتعابير
متأثرة بتلك الحضارة الأجنبية ، فقربتهم من إدراك الذين لم يتصلوا بها مباشرة
واهتم الكتاب ببسط تلك الحضارة ، والتعريف بآدابها ونظمها وتفكيرها
فربطوا ذلك بالمائل المحسوس ، فكان ارتباط فكرى بين تيار الحضارتين
المتزاحمتين في البلاد ، عاد على الفكر العربي بصور جديدة ، ومثل طريقة ،
وأفكار مبتكرة ، وأساليب مستجدة .

مظاهر التطور الأدبي :

إذا نحن تتبعنا ما أمكن أن تصل إليه أيدينا من مطبوعات هذه الحقبة كتباً ومجلات وصحفاً ودوريات أخرى ، استطعنا أن نجتمع الأغراض والفنون ، التي تناولتها الأقلام ، في الأنواع السككية الأربعة الآتية وهي :

النثر السياسي - النثر الفني - النثر العلمي - الشعر

النثر السياسي :

عرفنا أن المقال السياسي الصحفي ، بمعناه الحقيقي ، لم يشب إلا في جريدة الزهرة ، وأن أستاذ هذه الطريقة ، قد كان صاحب الزهرة عبد الرحمان الصنادلي ، فهو الذي كان بمقالاته يعالج المشا كل اليومية ، الناشئة بين المتصرفين في الإدارة ، وبين أصحاب الحقوق المغصوبة ، والمصالح المعتدى عليها ، ويبسط الشكوى والتذمر ، ويتجه دائماً إلى المقارنة بين ما ينبغي أن يكون عليه التصرف من مراعاة المصلحة القومية ، وما هو عليه في نفس الأمر والواقع من إضرار المقاصد الاستعمارية فيها جرم بالانتقاد ، ويتحدى . ولما تعطلت جريدته انقطع بتعطلها مثال المقال السياسي النقدي ، حتى أنشئت جريدة « الصواب » ، سنة ١٣٢٢ - ١٩٠٦ ، فاهتز لها الأوساط الأدبية والوطنية اهتزازاً جديداً ، وكان صاحبها محمد الجعائلي ، متخرجاً من الخلدونية فكانت بذلك أصول توجيهه أكمل رسوخاً ، وقد أوتي مقدرة بيانية زاحم بها عبد الرحمان الصنادلي أوفاقه ، في صوغ الجملة ، وحبك المقال ، ووضوح الفكرة ، وتناسب المعاني ، والتدرج المنطقي للانتهاء إلى المقصد الأصلي من موضوع المقال . وكان في سياسته عنيفاً على نظام الحكم وتصرف الإدارة قوى الاعتداد بالحق القومي عظيم السخط على سوء حال الوطن وأهله متشائماً من عواقب التصرفات الإدارية ، موقناً بأن لا غاية لها إلا محق القومية الإسلامية ، بانها منهجه السياسي على فكرة الجامعة الإسلامية التي هي أصل

سياسة أستاذه ، البشير صفر ، كما كانت أصل سياسة الحزب الوطني في مصر وزعيمه مصطفى كامل .

وكانت جريدة الصواب في منهجها الاجتماعي إصلاحية بنائية ، تدعو إلى تأسيس الجمعيات الخيرية والشركات الاقتصادية ، وتعمل على ترويض دعوة الإصلاح الديني والاجتماعي ، فتشيد بالشيخ محمد عبده ، والكواكبي وقاسم أمين .

وبذلك اعتبرت « الصواب » لسان النهضة الوطنية ، وعلم الكفاح السياسي ، وانتشرت سمعة صاحبها فعد أكبر كتاب السياسة ، واستقرت الثقة به وبجريدته في الشباب الزيتوني ، بما كان يؤيده من رعاية العلماء المصاحين مثل الشيخ محمد النخلي والشيخ الطاهر بن عاشور .

النثر الفني :

يقابل هذه الطريقة الصحفية السياسية الخاصة ، طريقة نثرية أخرى فنية ، تعتمد على ما كان يعتمد عليه النثر قبل الصحافة ، من القصد إلى إبراز الحقيقة الكلية ، بصورة غير متأثرة بالظرف العابر ، بل معتمد فيها على الملاحظات الذهنية ، واستخراج المعاني والعبر ، وإبرازها في القوالب الأدبية المعينة على نفوذها وخلودها ؛ وقد تتناول هذه الطريقة المسائل السياسية على وضع يتناسب مع أصولها الروحية فلا تخرج بذلك عن منهجها الفني ويمكن أن نضم تحت هذا النوع أغراضا مختلفة من الإنشاء متباعدة في جوهرها لكنها متلاقية في المقصد الفني الذي تقوم عليه .

١ - فهناك وصف الخواطر ، وتمثيل المجردات ، وإبراز الأحاديث النفسية في قالب المحاورات ، وهذا يعتمد التفنن الخيالي واختيار أروع طرائق العرض وأبلغ قوالب التعبير ؛ وإن أوضح مثال لكتاب هذه الطريقة كاتب تكون بمواهبه الفطرية ومطالعاته الأدبية وميله الذوقي وحياته التي قضاهما بين العزلة ومجامع الأنس الأدبي والفني ، هو محمد بن الأمين

الخلاصى وله فى هذا الباب أثر خالد ، اشتهر به ؛ هو « حديث مع الراية » وهو مقال نشر تباعا فى جريدة الصواب سنة ١٣٢٣ - ١٩٠٥ بناء على وصف خواطره السياسية ، عند نظره إلى العلم الفرنسى مرفرفا على مدينة تونس مشرفا منها على البحر ، فأثار ذكريات التاريخ الفرنسى ؛ والانتشار الاستعمارى وبث ذلك العلم ثقته فى مبادئه الأصلية مع مطارحته الشكوى مما يجرى فى ظله من انحراف عن تلك المبادئ . وسمع منه التوجيهات والاعتذارات فى حوار هادى . مقنع فيه تهكم يستعرض ما ملأ نفوس التونسيين من آلام لتصرف الإدارة الاستعمارية فى حظوظهم بالصور البغيضة ؛ فهذا ضرب من ضروب النثر الفنى .

٢ - وهناك فن الرواية ، ولم يتولد فى الأدب التونسى إلا فى هذه الحقبة ، وأول رواية ظهرت هى رواية « الهيفاء وسراج الليل » كتبها شاعر القيروان ، وداعية الإصلاح الدينى ، صالح سويسى ، أقامها على هيكل القصة البسيطة ، ضعيفة روح العقدة الروائية ، وأسسها على الدعوة إلى العلم والتخلق بالخلق الإسلامى الصحيح ، وتشنيع الأوهام الباطلة الملتصقة بالدين ، والتنويه بالدعوة الإصلاحية وعظمة رجالها ، مشيدا بذكر الشيخ محمد عبده فى مصر والشيخ محمد النخلى ، فى القيروان ، وجعل محورها حياة شاب ، نشأ على الفطرة السليمة ، بعيدا عن العلم والحضارة ، ثم ارتحل فى طلب العلم ، فكانت فطرته السليمة تنفره مما عليه المسلمون من البدع ، فى أعمال رجال الطرق الصوفية والعوائد القبيحة فى معظم شؤونهم العامة والخاصة ، فكان يتعجب من تقصير أهل العلم فى معالجة ذلك الفساد ، ويرى أن أحق الناس بوصف العلم وأرجاهم للنفع العام ، هم الذين جمعوا إلى علمهم غيرة وهمة إصلاحية مثل محمد عبده ومحمد النخلى .

وابتدا نشر هذه الرواية ، تباعا فى مجلة « خير الدين » سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٦ ونوهت المجلة بأنها أول رواية ألفت فى المملكة التونسية ؛ ويعتبر مؤلفها ، صالح سويسى ، أول كاتب تفانى فى سبيل الإصلاح

الاجتماعي ، ووقف عليه نثره وشعره ولم يكن قد زاول تعليمها منظما ، ولكنه سما إلى هذه المنزلة بفطرتة الطيبة ومواهبه الأدبية العجيبة ، وتأثره بنوادي أنصار الإصلاح بمدينة القيروان واتصاله بالشيخ محمد النخلي ، وقد حضر بعض دروسه العامة التي كان يلقيها مدة العطلة الدراسية بالقيروان (١) .

٣ - وهناك فن ثالث يلمح ببياب النثر الفني وهو التحرير الوصفي ، المتعلق بالسير والبلدان والمعالم والجمامع والعوائد ومحاورات المجالس ، ويمكن تفريعه إلى فرعين (أ) الرحلات (ب) الأخبار الدولية .

(أ) أما فن الرحلات فقد استمر حيا ناميا في هذه الفترة ، يستمد من زهرته في الحقبة السابقة ، وقد امتاز فيه ثلاثة كتب هم : محمد بن الخوجة ومحمد الخضر حسين ، وعلى الورداني .

كان أولهم ، محمد بن الخوجة ، من كتاب جريدة الحاضرة ، وكان ذا معارف تاريخية واسعة ، ومطالعات في الكتب العربية والفرنسية ، واعتناء خاص بالتاريخ التونسي .

وقد رحل ، أول مرة إلى باريس سنة ١٣١٨ - ١٩٠٠ ، بمناسبة معرضها الدولي ، فخرر خمس رسائل طريفة كاتب بها جريدة الحاضرة ، استوعب فيها وصف باريس ومعرضها وما شاهد فيها من الجمامع والمعالم والمواكب ، متعلقا في جميع أوصافه ، ببيان الأصول التاريخية النظامية ولما يتناول حديثه ، وهي طريقة امتاز بها ، فكان بسببها عاملا قويا من عوامل إمداد الثقافة العربية بالتاريخ الفرنسي ونظم الدولة وأوضاع الحضارة في فرنسا ، وقد طبعت رسائله هذه كتابا مستقلا باسم « سلوك الأبريز في مسالك

(١) أنظر ترجمته في كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ، لزين العابدين السنوسي



باريز ، نشر في نفس السنة بالمطبعة الرسمية بتونس ؛ وهو في طريقته الكتابية ميال إلى احتذاء طرائق النثر القديم على المنهج الأندلسي ، الذي كان مهيمناً على الأدب التونسي في القرن الماضي ، ينجح إلى إيراد الفقر الماثورة ، والقوال المشهورة ، وتنزيل أبيات الأمثال والمعاني ، فكان لتحريره قبول عند أصحاب الثقافة القديمة وانصار الأدب التقليدي .

وكان الثاني ، محمد الخضر ، كاتباً بليغاً ، ذا طبع خاص ، وأسلوب قوى الروح الأدبية ، فصيح العبارة ، بليغ التركيب ، ينزع إلى طرائق كتاب الترسيل الأولين ، من أهل العصر العباسي وقد بلغ قمة الإجادة الفنية في نثره ، رحل إلى الجزائر ، سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٦ ، فكتب تلخيص رحلته بوصف وجيز للمسالك والمعالم ، واهتمام بذكر العلماء والأدباء وما كان له معهم من المحاورات ، وما عن له من الملاحظات والأفكار ، نشرت تباعاً في مجلة السعادة العظمى ، ثم رحل في سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢ ، إلى مصر وسوريا وتركيا ، فكتب رحلة بديعة ، نشرت تباعاً في جريدة الزهرة ، طائفة باعتبارات وأفكاره ومقابساته ومساجلاته ومقاطيع من شعره .

وكان الثالث ، علي الورداني وهو من خريجي الصادقية الأولين ؛ قد رحل إلى الآستانة وأقام في رعاية الوزير خير الدين وانتدب سنة ١٣٠٥ - ١٨٨٨ في بعثة علمية إلى أسبانيا ، برفقة العلامة الشهير ، الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي ، فكتب رحلة نشرت تباعاً بجريدة الحاضرة ، كانت أول ما طلع على قراء العربية ، من وصف عيان للآثار الإسلامية في أسبانيا بعد طول العهد ، وإن كان تحرير هذه الرحلة لم يبلغ مبلغ الجودة الفنية . وملاحظاته التاريخية لم تعتمد على معرفة واسعة لأطوار التاريخ الأندلسي .

(ب) وإذا كان محمد بن الخوجه قد اشترك مع هؤلاء الكتاب الرحالين في الفرع الأول من فرعي التحرير الوصفي ، فإنه قد امتاز دونهم بالاختصاص بالفرع الثاني ، وهو فرع الأخبار الدولية .

فقد كان موظفاً عالياً ، مقرباً من رؤساء الحكومة ، فعنى فيما يكتبه في جريدة الحاضرة ، بنشر المقالات المتعلقة بوصف الحفلات الرسمية والمواكب الملكية ، أو التعريف بالنظم والمؤسسات الدولية ، أو الترجمة لرجال العصر ، بطريقة تعتمد على ثقافته التاريخية ، وتجنح إلى تقريب ما يجري في الحكومة ؛ من قبول العموم ؛ واهتم بمعانات التراكيب الفخمة التي تضاف على المعاني البسيطة والحقائق الفارغة ستورا من التعبير الأدبي ، الجميل السائغ ، والتزم طرائق في التسمية والوصف ، كان بها واضعاً لغة التعبير الرسمي أو الإنشاء الدعائي ، صارت لغة تقليدية يسير عليها الكتاتيون في المواضيع الرسمية بعده ، فكان إنشاء الديوان في مصر وسوريا مدة الأيوبيين والمماليك ، قوالب براقية ، تستر مالا يشرف ذكره من الحقائق المؤلمة ، أو تعظم ما ليس عظيماً بذاته من المعاني التافهة .

وفي سنة ١٣١٩ - ١٩٠١ صار مديراً للمطبعة الرسمية ، وأنشأ تقوياً سنوياً ، سماه « الرزنامة التونسية » عوضاً عن « النزهة الخيرية » فتفنن في بسط النظم الدولية ، والتعريف بالدواوين الحكومية وتواريخها ووظائفها . وأفرد أقساماً أدبية وتاريخية ملاءها فوائده ومعارف واعتنى فيها بدراسة النواحي الدقيقة من التاريخ التونسي ؛ وفي سنة ١٣٢٣ - ١٩٠٥ ، أدرج فيها تفصيل رحلتين رسميتين ، رحلة رئيس الجمهورية الفرنسية لتونس ورحلة ملك تونس لفرنسا . ففتق فيهما أسلوبه المبني على المزج بين الفوائد التاريخية ، والأوصاف المقصود رواجها بالطريقة التي ألفها من التعبير المنمق ، فصار بالنسبة لهذا العصر شيخ الكتابة الديوانية ، والمرجع في توصيف بيئته الحكومية بعامة أوضاعها وتقاليدها ، كما كان القلقشندي لمصر وسوريا ، وابن الخطيب للأندلس والمغرب الأقصى .

النثر العلمي :

كان من أثر اتساع المعارف وارتقاء مناهج التعليم ، ووفرة الكتب



والمجلات ، أن ازدهر النثر العلمي ، وخاصة ما يرجع منه إلى بسط التاريخ وإحياء المجد الغابر ، كما كان لإجادة كثير من الكتاب اللغات الأجنبية ومطالعاتهم فيها ، ووقوف آخرين على آثار الأقلام الغربية بطريق التعريب والتلخيص والاقتباس ، أثر قوى في فتح أبواب المعرفة ، وتفتيق أساليب التحرير .

وإن ما كان ينشر في الحاضرة ، من المقالات السياسية والاجتماعية والتاريخية لمثال واضح لازدهار فن النثر العلمي الذي عرف به محرراها الأولان ، على بوشوشة والبشير صفر ، وكانت براعة البشير صفر في هذا المضمار معينة على توليد مظهر آخر من مظاهر النهضة الأدبية هو مظهر الخطابة العلمية . كان البشير صفر فارسها الأوحده في دروسه ذات الصدى القوي والرجع البعيد ، وأثرت حركة الإصلاح الديني تأثيراً بالغاً من جهة أخرى ، في توجيه علماء الإسلام المصلحين إلى تناول المواضيع العقلية والاجتماعية والتاريخية ، بنظر ديني ، وتحليل حكيم ، وتحرير أدبي ظهرت فيه المقالات السامية القيمة التي نشرت بمجلة السعادة العظمى ومجلة خير الدين من أقلام الأساتذة ، النخلي والخضر وابن عاشور ، بحيث كان ذلك مظهراً للون أقرب إلى التحرير الأدبي منه إلى التحرير العلمي الصرف بما يعتمد عليه من النظر والاستنتاج والبحث والقصد إلى سمو البيان وبلاغة التعبير .

الشعر المعاصر :

ابتدأت الصحافة الشرقية تطلق هذا اللقب على الشعر الاجتماعي والحكمي لاسيما الذي يقصد إلى التذكير بالمجد ، والتوجيه إلى مسالك النهضة والتحرر والتجديد .

وبدأ الأدباء والمفكرون بتونس يمنحون ذلك النحو من الأدب عنايتهم وإعجابهم ، ويتطلعون إلى مجازاة شعراء الشرق في ذلك السبيل . حتى كان الشيخ محمد النخلي هو الذي فتحه لهم بسمو همته وطول باعه ، بقصيدة تجاوزت ثمانين بيتاً ، نشرتها جريدة الحاضرة سنة ١٩٣٥ .

ثم كان الشيخ الخضر ، أول من سار بعده على ذلك المنهج ، فنشر في مجلة السعادة العظمى قصيدة بعنوان « الشعر العصري » ، وتلقف تلك الطريقة شاعر القيروان صالح سويسى ، وكانت منسجمة مع سخطه على المجتمع ، وثورته في سبيل الإصلاح ، واعتزازه بالمجد الإسلامى ، فبدأ يتغنى بالقصائد المتوالية في التنديد بسوء حال الأمة الإسلامية ، والفرق الواضح بين عظمة ماضيها وحقارة حاضرها ، فكانت أنغامه كلها تحرقا وعويلا يظهران من عناوين قصائده « السلف والخلف أو صيامهم وصيامنا ، دمعة على اللغة ، « معاول الخلف في صروح الأجداد » . وقد طبع مجموع شعره بتونس سنة ١٣٢٩ - ١٩١١ ، باسم « زفرات الضمير » .

ويعتبر صالح سويسى في هذه الفترة لسان الإحساس القومى ، والنهضة الفكرية على ما يعترى شعره من سقطات صناعية ، أحيانا ، بسبب ضعف تكوينه الأدبى .

وإذا كان غيره من الشعراء ، قد شاركه في هذا المنهج ، فقد تقدمهم بأن جعله منهجه الملتزم ، وبأن كان أقوى اندفاعا فيه إلى درجة استئزال الفناء على الأرض ، فكان بذلك حامل راية الشعر الإصلاحى .

وإلى جنب هذه الطريقة الجائحة الثائرة ، طريقة أخرى تقصد إلى إثارة الهمم الإصلاحية ، وتنعى على الأمة سوء حالها ، بأسلوب غير مقتحم للغرض مباشرة ، هو أسلوب التنويه بحضارة أوروبا ، وتحريك النظر إلى المقارنة بينها وبين مجد الإسلام ، مع الحسرة على ما آل إليه من تأخر وضعة

وقد امتاز في هذا المنهج شاعر من أبناء تونس ، نشأ في ظلال زيتونتها المزدهرة في وزارة خير الدين واتصل بدعاة الإصلاح ، فامتزج بهم وأصبح لسان دعوتهم ، وهو الشيخ محمد الحشائشى ، الذى أنشأ في معرض باريس سنة ١٣١٨ - ١٩٠٠ ، قصيدة في التنويه بحضارة الغرب ، ومقارنتها بعظمة

التاريخ الإسلامي ثم العود بالندبة على حاضره وقد سماها « العقد النضيد »
 في التنظير بين الحضارة الإسلامية وتمدن العصر الجديد وتوقع في قرابة مائة
 بيت طبعت في ذيل كتاب سلوك الأبريز ؛ وله كثير من القصائد في مثل
 هذا الغرض ، إلا أنه ينحط في الصناعة إلى دون ما ينزل إليه صالح سويسى .
 وبهذا يظهر أن نشأة الطريقة الشعرية المصورة لنزعة النهضة الف-كرية
 والقومية ، إنما ظهرت في سبك متين ، ومنطق رصين على يد الشيخ محمد النخلى .
 ثم سمت وأشرق على يد الشيخ الخضر ، إلا أنهما لم يلتزماها . ثم آل أمرها
 إلى الذين اندفعوا فيها فأجادوا في المعاني وقصروا في المباني مثل سويسى
 والحشائشى .

المحاضرة الثالثة

قدماء الصادقية

١٣٣٨ - ١٣٢٩

مضى الطور الذى درسناه فى المحاضرة الماضية ، وقيادة الأفكار بيد رجال تكونت ثقافتهم على المنهج القومى ، ثم التفتت أنظارهم إلى الحضارة الغربية ، ليقتبسوا عوامل القوة التى طالت بها ، فاندفعوا يكييفون لغتهم بكيفية تسمح لها بالتمشى مع وسائل تلك القوة ، ويبرزون من دينهم ما يعين على ذلك التمشى ، فأنشأوا الجمعيات والصحف على أساس ترقية اللغة العربية ، وتجرید الدين عن البدع ، وتقويم المجتمع الإسلامى ، حتى تكتسب شخصيتهم ، العربية الإسلامية ، ما تستطيع أن ترد به صولة المستعمرين .

وتحت غبار هذه المعركة ، نشأ جيل جديد ، فتح عينيه على أرض الوطن ، وهى فى قبضة المستعمر ، فكان اسم المستعمر ، ومظاهر غلبته ، وعوامل قوته ، ومبالغ عظمتة ، مقومات للبيئة الأدبية لنشأتهم ، وكانت لغة المستعمر ومناهج تعليمه ، وتقاليده حضارته ، مقومات لتكوينهم الثقافى ، حتى انعقدت فى نفوسهم عقدة الشعور بالنقص ، وأضلتهم الوسائل عن المقاصد ، فتوجهوا يطلبون عزتهم ، ويدفعون عن أنفسهم شعورها بالنقص ، فى التعلق بلغة المستعمر وثقافته وآدابه ومثل حضارته ، محاولين أن ينتقلوا بأنفسهم إلى عوامل القوة ، حيث هى ، إذ أعجزهم أن ينتقلوها إليهم ، حيث هم ، فبعدوا عن مظاهر قوميتهم ، ونفروا بميزاتها .

وكان المستعمرون ، من جهتهم ، يعملون على معاكسة المنهج الذى تسير



عليه النهضة القومية ، ففرضوا لغتهم في التعليم ، وفرضوا تقاليدهم في حياة الأسرة والمجتمع ، حتى استطاعوا أن يجعلوا تكون الجيل الناشئ تحت سيطرتهم على صورة تختلف عن صورة تكون الجيل الناهض في وجودهم .

وقد عرفنا ، من المحاضرة الماضية ، صور المناهج التعليمية التي سنتها إدارة المعارف ، أول عهد الاحتلال ، وقد بنيت على قصد إخراج الشبيبة الإسلامية بتونس عن محيط ثقافتها القومية ، وامتدت تلك المناهج لتتسع وتنتشر على نسبة انتشار المدارس الفرنسية العربية وتكاثر روادها ، حتى كان عدد المدارس التي من ذلك الصنف ، بعموم المملكة التونسية ، أكثر من مائتين ، في سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ ، وبلغت جملة تلامذتها من خصوص التونسيين . أكثر من خمسة آلاف (١) ، وبذلك برز عنصر الناشئين على الثقافة الفرنسية ، وساد بكثرتهم العددية ، ثم تأكدت سيادته بحسن الحالة المادية التي يتمتع بها أفرادها ، المستخدمون في المصالح العامة عند نهاية تعلمهم الابتدائي ، أو المتقدمون إلى التعليم الثانوي في مرحلته الأولى ، بالصادقية والعلوية ، أو مرحلته الثانية بليسه كارنو ، فأصبح المتعلمون من أبناء البلاد صنفين متباعدين ، وكان من الضروري أن الصنف الذي يتخرج من الجامع الأعظم والخلدونية ، لا يستطيع أن يبلغ من الكثرة أو ينال من الاعتبار ، ما يبلغ وينال الصنف الآخر الذي تؤيده قوة الحكومة ، لتقاوم به الناشئين على المناهج المجافية لمقاصدها السياسية .

وقد كان من شباب الطور الماضي فئة قليلة اتصلت بالتعليم العصري . على غير طريق التعليم القومي الصادقي فزاوت تعليمها فرنسياً صرفاً بالمدارس الحرة ، التي أنشأتها الإرساليات المسيحية ، من قبل الاحتلال ، فلم يندمجوا في حركات الشبيبة الأولى . مع البشير صفر وأصحابه ، واستمروا منكهشين في محيط خاص ، واستمر أفراد منهم مثابرين على إنهاء تعليمهم العالي بفرنسا ،

(١) احصائية رسمية نشرتها الرزامة التونسية سنة ١٣٢٨

وأكثر هؤلاء من أبناء الأسر الكبرى ، التي تعتزى إلى الخاصة الملكية وتترفع عن الطبقات الشعبية ، فزادهم بعدهم عن الوسط القومى ، وانقطاعهم في الأرض الفرنسية ، لتعليم فرنسى ، وحياة فرنسية ، قرباً من تيار الحياة الأجنبية واندماجاً فيه .

ومن حوالى سنة ١٣١٥ — أواخر القرن المسيحى الماضى ، بدأت البلاد التونسية تتلقى العائدين من فرنسا بعد إتمام دراستهم العليا من أطباء ومحامين ومهندسين ، فلما دخلوا بلادهم اصطدموا أولاً بما بين الحياة المدنية التي خلفوها والتي قدموا عليها من بون شاسع ، ثم ، بما وجدوا الممسكين بقيادة النهضة يسعون إلى تحقيقه ، من مثل عليا ، تختلف اختلافاً بيناً عن المثل العليا التي ارتسمت في أذهانهم قبل أن يعودوا إلى الوطن .

وحاول البشير صفر ، جهده ، أن يضم هؤلاء إلى حظيرة عمله ، وأن يفتح نفوسهم لتلقى المثل العليا التي كان يجهد في تحقيقها ، فكان يشجعهم على ترقية معارفهم العربية ، ويقربهم من الشعور بعظمة الماضى العربى التي كانوا عنها بمعزل ، وبذلك أمكن لكثير من هؤلاء الشبان ، أن يلتئموا مع حركة النهضة الإسلامية ، التي تزعمها البشير صفر ، وإن كان تكونهم ، عقلياً ونفسياً ، غير سامح بذلك الإلتئام ، ومن هؤلاء الدكتور البشير دنقزلى الذى لم يمضى زمن على رجوعه ، حتى كان عضواً بمجلس إدارة الخلدونية وأستاذاً بمدرستها .

وأتاحت لرجال النهضة التونسية مناسبات ناشئة من الحركات الفكرية أو السياسية بفرنسا ، مكنتهم من رفع أصواتهم بتمجيد الإسلام وماضيه ، وإبلاغ أوروبا نتيجة الحركة الإصلاحية التي قد تعين على دفع سوء ظنّها بالإسلام ، ورفع ما تعتقده من عدم قابليته التمشى مع مقتضيات الحضارة العصرية .

ففي سنة ١٣٢٣ — ١٩٠٤ انعقد بتونس مؤتمر الجمعية الجغرافية ، وشارك

فيه الأستاذ البشير صفر بمحادثة علمية قيمة عن تاريخ الجغرافيا عند العرب، ألقاها باللغة الفرنسية، فنالت استحساناً عظيماً، وعلقت عليها جريدة «الطائر»، الباريسية بأنها قامت برهاناً على أن ليس هناك فرق أصلي، في التكوين بين الجنس العربي والجنس الفرنسي، واتخذت ذلك مناسبة لدعوة الحكومة إلى سلوك سياسة إسلامية، تسمح لشباب الإسلام بالاندماج في العقلية الغربية.

وفي سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٥ أنشئت بتونس صحف سياسة ذات مبدأ اشتراكي، صدعت بالدعوة إلى الحرية والعدل، فأقبل على المساهمة في تحريرها شبان من الجيل المثقف الجديد، مثل جريدة «البرال» - الحر - التي أنشأها روني بويك، واشترك في تحريرها عبد الجليل الزواش وحسن قلاتي، يدافعان عن حقوق الوطنيين التونسيين، ويستجلبان عطف الفرنسيين الأحرار نحوهم.

وأصدرت بعض تلك الصحف نشرات بالعربية كان يحررها وطنيون تونسيون، مثل جريدة «البروفري» - الترقى - التي كان يحرر نشرتها العربية الأستاذ صالح بن محمود.

وفتحت في مجلس الأمة الفرنسي مناقشات حول القضايا الاستعمارية، وقف فيها رجال من الاشتراكيين مواقف دفاع عن سياسة اللين والعدل في البلاد التونسية، فحزكت إعجاباً في نفوس الشبيبة التونسية، كان له أثر على وجهتهم السياسية، حتى أن مناقشة بشأن المغرب الأقصى، اشترك فيها الخطيب الاشتراكي جوريس، فدعا إلى أن تسلك فرنسا سياسة الدخول للمغرب الأقصى باللين، قد دفعت بالشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى أن يحرر بالاشتراك مع الأستاذ الهادي السبعي - من خريجي الصادقية الذين يحسنون الفرنسية - والمحامي الاسرائيلي سيزار بن عطار، كتاباً باسم «الروح الحرة للقرآن»، طبع بالفرنسية سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٥ (١).

(١) كتبت عليه جريدة الأهرام وترجمت مقدمته في ١٥ أكتوبر ١٩٠٤



لكن الإرهاق السياسي ، والصلف الاستعماري ، وبذاعة الصحف الفرنسية في شتم الجنس العربي ، كان لها أثر عظيم في تكوين التلاقي بين عنصرى الشبيبة وتمتينه ، لا سيما والموقف ، إلى حد ذلك اليوم ، موقف سلبى ليس من شأنه أن يحرك من اختلافات الأنظار ، وتباين المثل العليا ، ما تحركه المواقف الإيجابية الإنشائية .

واستشعر قادة النهضة أن النخبة المفكرة ، التى كانت تسمى يومئذ « الشبيبة » قد تفخمت أمرها ، بتكاثر العدد ، وقوى صفها ، بالممتازين من ذوى الثقافة الغربية العليا ، فرأوا أن الفرصة سانحة للدخول في طور الاحتجاج والمطالبة ، والانتهاز بالنهضة الفكرية والاجتماعية إلى غايتها السياسية ، برفع الستار بينهم وبين الفرنسيين المسؤولين على تسيير السياسة التونسية .

ففي يوم ٥ صفر سنة ١٣٢٤ الموافق ٢٤ مارس - ١٩٠٦ ، تقدم البشير صفر ، بصفته رئيس الأوقاف ، في حفل رسمى عظيم ، أقيم لافتتاح تكية الأوقاف لإيواء العجز ، بخطابه التاريخي ، الذى كان أول صرخة في المطالبة بالحقوق الوطنية والتذمر من الاستعمار ، إذ يقول فيه مخاطباً المقيم العام ستيفان بيشون : « إن جمعية الأوقاف قد بذلت جهدها في تشييد هذا الملجأ على ضيق مواردها ، ولكنهم ما توفر لها من العزم الصادق ، لا تستطيع أن تسدد الحاجات الكثيرة التى تتولد كل يوم ، إلى مثل هذه الملاجىء ، فإن كساد الصناعات والتجارات الأهلية ، وقلة تنشيط اليد العاملة المحلية ، في الأشغال العامة والخاصة وانزاع الأراضى ، وغير ذلك من الأسباب ، يلقى على استمرار بقسم عظيم من أبناء وطننا ، في حالة الفقر المدقع والبؤس » .

وكان لهذا الخطاب هزة استحسان وتأيد بالغة في الفكر العام التونسى كما كان له هزة إنكار واحتجاج أبلغ عند الجالية الفرنسية بتونس ، وفي صحفها ، فاندفعوا يهاجمون البشير صفر ، والشبيبة التونسية ، بل والأمة التونسية قاطبة ، ونظرت السياسة الفرنسية العليا إلى هذا الحدث بعين الاعتبار ، فقرأت له حساباً جديداً ، واندفعت صحف باريسية كبرى تنتقد

موقف الصحف الفرنسية الصادرة بتونس ، وتقدمت جريدة «الطائر» تستلمت نظر الحكومة الفرنسية إلى درس المطالب التونسية ، وتستعمل عطفها على الشبيبة ، التي تعلمت اللغة الفرنسية ، وتغذت بأدائها وأمنت بمبادئ الحرية والعدل ، التي هي أساس الحضارة الفرنسية ، ثم كانت معاملتها على خلاف تلك المبادئ وانتشرت تلك الدعوة ، وتقلدتها الصحف الراديكالية والاشتراكية بفرنسا ، وخطب بها خطباء هذين الحزبين في الجامعات السياسية ، وحتى في البرلمان ، فاتجهت فكرة قسم عظيم من الفرنسيين ، إلى وجوب إدخال النخبة التونسية ذات الثقافة الفرنسية ، في الجامعات والمؤتمرات ، حتى تعرف ميولها وتتضح مطامحها .

وتأثر أفراد من الشبيبة بهذه الدعوة ، ومالوا إلى تعاطي هذه التجربة واطمأن كثير منهم إلى حسن نية الداعين إليها ، حتى وثقوا بأن في السياسة الفرنسية والصحافة الفرنسية ، والفكر العام الفرنسي ، عناصر طيبة يمكن الاعتماد عليها ، ويحسن التقرب منها ، والتعاون معها .

ولاقى البشير صفر وأنصاره الأولون هذه الفكرة بالإعراض والانقباض والتسفيه ، معلنين سياستهم الإسلامية المنسجمة مع سياسة الحركات الوطنية في الشرق ، وخاصة بمصر وتركيا ، وكان أكثر المائلين إلى تقبل المساعي الفرنسية صغار الشبان المثقفين ثقافة غربية عليا ، ويساندونهم أفراد من قرناء البشير صفر ، فيهم رئيس الخلدونية محمد الأصرم .

وجرت الاتصالات بينهم وبين دعاة التقارب الفرنسي التونسي ، ومنهم السفير روني ميلي ، المقيم العام السابق الذي بقي في باريس بعد خروجه من منصبه في تونس ، وفكر كبار الاستعماريين ، أصحاب المؤسسات الاقتصادية المسيطرة على شمالي إفريقيا وغيره ، تنفيذ فكرة التقارب بعقد مؤتمر للبحث في التكييف الجديد الذي ينبغي أن يدخل على السياسة الاستعمارية ، بعد ما بدر من بؤادر النهضة ، فقررُوا ، بمناسبة المعرض الاستعماري الدولي

في مرسيليا سنة ١٩٠٦ ، عقد مؤتمر استعماري ، دعت إليه جمعية الاتحاد الاستعماري الفرنسي ، ومضوا في تجربتهم في جذب الشبيبة التونسية ، فاستدعوا للمشاركة في المؤتمر الاستاذين محمد الأصرم ، رئيس الخلدونية ومدير مصلحة الغابة بتونس ، وحسونه العياشي المحامي بمدينة سوسة المتخرج من الكليات الفرنسية بليبسانس الحقوق .

وشارك هذان في المؤتمر بموافقة الشبان المتقبلين لسياسة المفاهمة ، وعلى كره من البشير صفر وعمد الحركة الوطنية الأولين ، وقدّم محمد الأصرم التقارير الضافية ، وأفاض في المناقشات ، ثم جمع كل مابحث فيه من المسائل وقدمه من المطالب ، في كتاب طبع بالفرنسية في باريس سنة ١٩٠٧ بمقدمة من قلم السفير روني ميلي ، وهي اقتراحات ترمي إلى تعميم تعليم اللغة الفرنسية حتى لا يبناء الكتائب القرآنية ، ومنزج أبناء العرب بأبناء الفرنسيين في المدارس ، منذ الطفولة الأولى ، وإشاعة روح التفاهم والتعاون بين العنصرين في عديد الميادين ، واستعمال النخبة ذات الثقافة الغربية أداة لهذا الوصل . وبهذه البيانات اتضحت الوجهة الجديدة لمطالب الشبيبة المتطرفة في سبيل الامتزاج الغربي ، وتبين افتراقها عن الأصول التي قامت عليها حركة النهضة أولا من المحافظة على الذاتية الإسلامية العربية للبلاد ، وحمايتها من أن تقضى عليها نفسية الغرب وعوائده .

وكان دعاة الفكرتين متزجين ، يعملون في ميدان واحد ، فلما بدأ يتبين لهم يوماً فيوماً ، أن لا توافق بين العنصرين في وسائل العمل ، أحس العنصر الجديد بالحاجة إلى تكوين منظمة مستقلة تجمعهم على قاعدة الأخذ بالوسائل التي ارتضوها ، وكان أول ما تبادر لهم أن العنصر القديم تسود عليه روح ثقافية منبّهة من الجامعة الزيتونية ، وسارية في الخلدونية ، وأن الطبع الثقافي لذلك العنصر لا يسمح بمسايرتهم في فكرة التطور ، التي بنوا عليها منهاج عملهم .

فقرروا تكوين جمعية جديدة ، تكون روحها الثقافية غربية ، وغايتها

وطنية ، تعمل على بث فكرة التطور في الوسط الشعبي ، وتدخل إصلاحاً جوهرياً على الفكر والمجتمع ، والمؤسسات العامة .

وكان أكثر أفراد هذه الكتلة من الذين لم يرتبطوا بالوظائف ، بل اشتغلوا بالمهن الحرة ، مثل عبد الجليل الزاوش وأحمد الغطاس وحسن القلاقي وعلي باش حانبه ، من المحامين ، وحسين بوحاجب وأحمد الشريف من الأطباء ، وخير الله بن مصطفى ، المترجم العدلي ، وكانت ثقافتهم الفرنسية العليا . وانتسابهم إلى الجامعة الفرنسية يجلب لهم إكبار الكتاب والمفكرين ، من الفرنسيين ، كما كان تجردهم عن الوظائف يدفع عنهم سوء الظن ، الذي يسرع إلى الموظفين عندما يمتزجون امتزاجاً قوياً بالعنصر المستعمر .

تكونت من هؤلاء جمعية قدماء « الصادقية » ، آخر سنة ١٣٢٣ - ١٩٠٥ وابتدأت عملها أوائل سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٦ على أساس تقرير حرره الزعيم السياسي الشهير ، علي باش حانبه ، وأسندت رئاستها إلى الأستاذ خير الله ابن مصطفى ، وكان المنهج السياسي ، الذي يعمل عليه رجال قدماء الصادقية تأثير كبير على تكييف النشاط الأدبي لجمعيةهم ، فاتجهوا إلى عطاء من الكتاب والنقاد ورجال الفكر والفن الفرنسيين ، ودعواهم لإلقاء محاضرات باللغة الفرنسية ، في نادي قدماء الصادقية ، فكان ذلك إبرازاً للشخصية الثقافية الغربية للعنصر الصادقي ، وعاملاً على ثقة المفكرين الفرنسيين بملك الشخصية ، وميلهم إلى أصحابها ميل العطف والتقدير .

وبدت جمعية قدماء الصادقية ، في أول أمرها ، ذات صبغة ثقافية غربية حتى ازور عنها أهل الثقافة العربية من خريجي الجامعة الزيتونية والخلدونية وطلبتهما ؛ لكن رئيس جمعية قدماء الصادقية ، الأستاذ خير الله ، قد كان متقدماً في السن على بقية رفاقه ، ومتغنياً بتربية وثقافة وتوجيه تنزع به إلى الاعتدال في الخطة التي كان رفاقه متطرفين فيها ، وهي خطة الاعتداد بالثقافة الفرنسية والإعراض عن كل ماعداها ، وكان معروفاً بذلك عندهم

كما صرحوا به في بعض حملاتهم الصحفية (١)، وهو من جهة أخرى، رجل واسع الفكر، حاد الذكاء، قوى ملكة الابتكار، فبدأ يسعى لحل رفاقه على فتح باب المحاضرات باللغة العربية في ناديتهم، ولم تكن المحاضرات، غير الدروس، معروفة أصلاً بتونس يومئذ، فكان يستمد من المثل المنهجية لمحاضرات الفرنسيين التي ألقى بنادي قدماء الصادقية، ويفكر في مواضيع يمكن أن يحاضر فيها أساتذة اللغة العربية، وعمد التفكير الإسلامي العربي، من شيوخ الزيتونة، وذاكر أفراداً من الشيوخ بفكرته، فرحبوا بها، وأقنع أعضاء قدماء الصادقية بأنهم سيجدون من الشيوخ من يقوم بمحاضرات عميقة الفكرة، محكمة الأسلوب، راقية التعبير، ترفع شأن اللغة العربية، وتفتح الأدب والتفكير العربيين سبيلاً للتطور والارتقاء، فاطمأنوا إلى ذلك، وفتح في نادي قدماء الصادقية باب المحاضرات بالعربية، وكانت تسمى في اصطلاحهم يومئذ «المسامرات»، وقام الشيخ الطاهر ابن عاشور في ربيع الأول ١٣٢٤ - ماي ١٩٠٦، بأول محاضرة عربية في قدماء الصادقية، هي أول محاضرة عربية بتونس على الإطلاق، كان موضوعها «أصول التقدم والمدنية في الإسلام»، نشرت تباعاً في جريدة «حبيب الأمة»، والشيخ أحمد النيفر بمحاضرة في آية «إن الله يأمر بالعدل والإحسان، والشيخ محمد النخلي بمحاضرة تاريخية موضوعها «دولة المأمون»، والشيخ محمد الخضر حسين بمحاضرة موضوعها «الحرية في الإسلام»، طبعت بتونس سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩.

وشاركت الخلدونية شقيقته الصغرى، ففتحت هي أيضاً باب المحاضرات، وكان من محاضريها الشيخ محمد الخضر بمحاضراته «حياة اللغة العربية»، وقد طبعت بتونس أيضاً سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩.

(١) على باش حانبه في النشرة الفرنسية لجريدة النونسي عند الحملة على مشروع المدارس القرآنية ١٩٠٨

كان من أثر هذه المحاضرات ، أن فتحت بابا جديداً للإنتاج الأدبي ، ورفعت شأن البيان والفكر العربيين ، وأدخلت الزيتونيين إلى نادي قدماء الصادقية ، فرجع العنصران إلى الامتزاج ، بعد أن سارا برهة في طريق الافتراق ، وأيقظت دعاة التطور المتطرفين إلى أن غايتهم يمكن تحقيقها بطريق اللغة العربية ، وفي ظل ثقافتها ، وأن وحدة الأمة في سبيل تلك الغاية لا تتحقق إلا تحت لواء العروبة ، الذي هو لواء ذاتيتها القومية ، فتقومت حركة مؤسسى قدماء الصادقية واعتدلت ، وكما كانت ظروف الحركة الوطنية عاملة على توجيه أفكارهم إلى الثقافة الفرنسية لما اعتمدوا على مد الأيدي إلى العنصر الحر من الفرنسيين ، فقد تسكونت في الحركة الوطنية ظروف جديدة ، أثرت في تعديل منهجهم ذلك ، لما أحسوا بأنهم معزولون عن مساندة أمتهم ، وهم يخدمون قضيتها ، وأدركوا الخرج الذي هم فيه ، وقد وقفوا وجهاً لوجه ، مع الصف الفرنسي يشد بعضه بعضاً ، تنصب عليهم من لدن عناطره الاستعمارية التهم والشتائم ، يقذفون مرة بأنهم قلة متطلعة إلى تحقيق ماتصبو إليه كبرياؤها ، ويعيرون أخرى بأنهم ليسوا بخالصى الروح الفرنسية ، وأن عملهم تعصى رجعى ، يستمد من الحركات الوطنية في تركيا ومصر ، فكان هذا الصلف الاستعماري ، عاملاً مرة أخرى على رد الشبيبة المدرسية التونسية إلى حظيرتها القومية .

خرجت الحركة الوطنية من طور التفاهم ، الذي لم يكن إلا تجربة فاشلة ، إلى طور المطالبة والاحتجاج ، وأقصى البشير صفر عن مركز الحركة بفصله عن إدارة الأوقاف وتسميته عاملاً على سوسه سنة ١٣٢٥ - ١٩٠٧ فتقدم على باش حانبه إلى قيادة الحركة السياسية ، بجأشه القوى ، وروحه التي تشبعت تعلقاً بقوميته ، واعتزازاً بماضى أمته ، وبقينا بأن مطالبة التونسي بحقوقه المغتصبة ليس طريقة صحف الفرنسيين ، وإن تسموا أحراراً ، ولا منطقه منطق التقرب منهم والانتفاء إلى حضارتهم ، وإن كان إسماع الصرخة التونسية ، جادة حادة مزعجة للفرنسيين ، بلختهم أمراً لا مئاص

منه ، فأنشأ جريدة وطنية ، باللغة الفرنسية ، هي جريدة «التونسي» ، وأعلن في مقالها الأول برنامجا في المطالبة بحقوق التونسيين ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والتفت الشبيبة الوطنية حول جريدة التونسي ، ووقف الشعب كله يؤيدها ويصدع بدعوتها فزاد ذلك في الالتحام القومي ، الذي قتل نزعات التمايز بين العناصر الثقافية ، واستشعر على باش حانبه وأسرة جريدة التونسي ، ما فرضت عليهم الثقة الاجتماعية ، التي حبتهم بها الأمة ، من وجوب التسامي عن فكرة العناصر والطبقات ، والذوبان في الجامعة القومية ، والاعتزاز بمقوماتها ، فنبذت طرائقها السياسية الأولى ، وأقبلت على منهج قومي واضح ، إذ رفضت أيديها من التفاهم ، فعلمتها بالمطالبة والاحتجاج والكفاح .

ولاحظ الذين كانوا سعوا لعقد المؤتمر الاستعماري بمرسيليا ، أن حركة الشبيبة التونسية تجاوزت الحدود التي خططت بالتعاون مع محمد الأصرم في ذلك المؤتمر ، وأحسوا بالخيبة التي لقيتها إذاعة أعماله عند الشبيبة التونسية ابتداء من كونه مؤتمرا استعماريًا ، بهذا الاسم الجارح ، إلى كون مقرراته ترمي إلى إدماج التونسيين في الفرنسيين على خلاف ما توجه إليه الحركة الشعبية ، فحاولوا تجديد الكثرة ، بعقد مؤتمر ، يكون جوه أتمّ صحوا من المؤتمر الماضي ، فصدرت دعوتهم إلى عقده باسم جديد : « مؤتمر شمالي إفريقيا » ، دعى إليه عدد كثير من رجال الحركة الفكرية والسياسية ، من المتعلمين بالفرنسية ، فشارك فيه البشير صفر ومحمد الأصرم وعبد الجليل الزاوش وخير الله بن مصطفى ومحمد بن الخوجه والصادق الزمرلي والطاهر الأسود ، وفتحت جلساته في باريس ، أكتوبر ١٩٠٨ ، تحت رئاسة الوالي العام للجزائر جونار ، وكان من دعاة سياسة التقارب ، وخطب في افتتاحه السفير روني ميلي خطبا مسهبا سامي التحرير عميق التفكير ، موضوعه : « هل الإسلام غير قابل للانسجام مع المدنية العصرية » ، نوّه فيه بأن معرفة الدين الإسلامي أصل ضروري لدراسة جميع المسائل المتعلقة بشمال إفريقيا

وأن الاتصالات التي بين العنصرين الأوروبي والإسلامي ، في تلك الممالك ،
تفرض على الأوروبيين تفهم الإسلام وإلا فانهم لا يستطيعون أن يحققوا
مصالحهم هنالك ، وندد على الغربيين حكمهم الطائش على جميع الحضارات .
غير حضارتهم ، بالجمود ، مبرهننا على ذلك بمشاهدة التطور الحالى للشرق
ومراجعة تاريخ انتشار الاسلام ، ليشهر بما تركه عهد الحروب الصليبية
في فرنسا ، من عدااء مستحكم للإسلام ، حتى عند غير المتدينين ، مع أن
دين الإسلام قد كان سمحاً في تقبل التقدمات العلمية ، كما يستنتج ذلك من
نصوص الدين الأصلية ، ومن تتبع شواهد التاريخ ، فقد تكونت جامعة
هذا الدين من أمم مختلفة ، وتغذت بالحضارة الفارسية في الشرق ، والحضارة
اللاتينية في المغرب والأندلس ، وانسجمت مع الفلسفة المشجعة على تقدم
العلوم الطبيعية وهي فلسفة أرسطو ، وازدهرت في ظلها الحضارة عندما
خبت أنوارها في أوروبا ، وتتضح براهين ذلك في تاريخ اسبانيا ، التي كانت
مستعمرة لمسلمي شمالي إفريقيا أنفسهم ، حيث تفاعلت المدينتان الإسلامية
والمسيحية ، وتوثقت علائق الملتين ، لولا أن حدثين هامين ، كدرا صفو
تلك العلائق في القرن الخامس عشر ، هما احتلال الأتراك للقسطنطينية
واحتلال الأسبان لغرناطة ، فكان ذلك شؤماً على المملكتين معاً ، ولم يكن
نصيب أوروبا من تلك المصيبة يقل عن نصيب العالم الإسلامي ، إذ فقدت
رقعة الحس ، وانغمست في دماء الحروب الوحشية ، في سبيل فتح أمريكا
والانتشار الاستعماري . فاستعبدت البشر ، واستعمرت الأرض بصورة
لا تتفق مع مصلحة الإنسان ، ولا مع مصلحة الأرض نفسها ، ولم تستفد
إلا مؤخرًا لواجب تفهم العقلية والنفسية المخالفة لها ، فاعتمدت على
ظواهر حكمت بمقتضاها بأن التفاهم مع الإسلام مستحيل ، بما عند المسلمين
من عقيدة القدر ، وما في نظمهم الأساسية من البساطة ، والحال أن عقيدة
القدر عامة في جميع الأديان ، وأنها لم تصطبغ عند المسلمين بصبغتها الخاصة
إلا من أثر الظروف التاريخية الأليمة ، التي أحاطت بهم ، وأن ما كان سائداً

على نظامهم من سذاجة ، قد أخذوا يهذبونه باقتباس الأساليب العصرية ، والامتزاج بها ، وأفاض في ضرب المثل لذلك بالنهضة الفكرية بتونس وتأسيس الخلدونية ، وألح في دفع مخاوف الفرنسيين من أن يكون تطور الإسلام خطراً عليهم ، بأنهم ليسوا بمستطيعين قلب حقائق الأشياء ، وأن نهضة الروح الدينية ، ستقترن بتفكيك بين العقائد وأصول الحكم ، يستطيع به الإسلام أن يبقى ناهضاً في ذاته ، ومتقبلاً لصورة الحكم المشترك في بلاد شمال إفريقيا إذا بنيت على احترام الحقوق ومراعاة الظروف السياسية .

ويدرك المتأمل من هذا الخطاب الذي هو روح المؤتمر ، أنه على ما فيه من سمو في المعنى والسبك يرمى إلى ربط مصالح المسلمين بمصالح المستعمرين بشمال إفريقيا ، بناء على أن المسلمين ليس لهم تطلع سياسي يختلف عن مناهج السياسة الاستعمارية بإبراز قوميتهم منفصلة عن محيط الاندماج ، وقد كان هذا الحكم صحيحاً بالنسبة إلى ما كان عليه الأمر منذ عامين في مؤتمر مرسيليا ، لكن الأحداث تجاوزته ، وأصبحت تطلعات التونسيين . نخبة وشعباً ، واضحة نحو هدف الانفصال ، فلم يكن لهذا الخطاب أكثر من صدى الاستحسان الأدبي ، وتقدمت تقارير التونسيين ترمي عن قوس واحدة إلى مقاومة الاندماج ، وتدعيم الكيان القومي ، فمحمد بن الخوجه يطالب بإصلاح القضاء في نطاق المحافظة على أحكام الإسلام والمحاكم الشرعية وتقويتها ، والصادق الزمرلي يطالب بأن يكون تعليم البنات التونسية ، باللغة العربية ، على مناهج تعليم البنات في تركيا ومصر ، ومحمد الأصرم يطالب بإنشاء جامعة تونسية عصرية تتولد عن الخلدونية وتقسم أعباء التعليم العالي مع الجامعة الزيتونية ، إذ تبقى هذه للعلوم الدينية وتلك للمعارف الزمنية ؛ وخير الله بن مصطفى يطالب بإحداث تعليم أولى للناشئة التونسية يكون هو تعليم الكتاب القرآني ، بتنظيمه وترقيته أساليبه على مثال المناهج المصرية والسورية ، والبشير صفر ، بعد أن يفاخر بعظمة الحضارة الإسلامية ويظهر اعتزازه بالعلم العثماني ويتحدى الأوروبيين بأن الإسلام ليس لقمة سائغة .

يحتاج في لهجة عنيفة على عبث الحكومة بالأوقاف إذ جعلتها عس الاستعمار، ويطالب باحترام استقلالها وقصر حق الانتفاع باستثمار أراضيها وإحيائها على أربابها وهم المسلمون التونسيون، وعبد الجليل الزاوش في تقاريره الاقتصادية والاجتماعية التي هي أبعد عن المساس بمبدأ الانفصال، يطالب بتكوين الملكية العقارية لصغار الفلاحين، واحترام حقوق الشغالين وسن قانون للشغل، وتنظيم التمثيل النيابي للتجار والصناع والفلاحين، ولا يخفى أن ذلك كله طعن في صميم الاستعمار.

ومن هناك سجل المؤتمر خيبته الأدبية في دورة انعقاده، فلم يعد المستعمرون إلى التفكير في مثله. بيد أن هذه البحوث قد كان لها صدى قوى الأثر في الحياة العامة بتونس، إذ أصبحت تقارير المؤتمر توجيهات جديدة لسير النهضة القومية في مختلف نواحي الإصلاح، وكان أقوى هذه التقارير تحريكاً للمناقشة والجدال تقريرى البشير صفر وخير الله بن مصطفى فقد تارت ثائرة المستعمرين الفرنسيين لتقرير البشير صفر، وفتح به باب مناقشة صحفية هامة بين المستعمرين والوطنيين، هي أدخل في الميدان السياسى، أما تقرير الأستاذ خير الله عن التعليم القرآنى، فقد أثار ضجة عملت عملاً كبيراً في تكوين التاريخ الفكرى، إذ كان لمحاولته إصلاح السكتاتيب القرآنية القيمة عليها التعليم الأولى، صدمة عنيفة في نفوس أنصار الثقافة الغربية، أحدثت انشقاقاً هائلاً في صف المفكرين؛ نشأت عنه حرب صحفية عوان انتصب فيها على باش حانبه، في جريدة التونسي يهاجم خير الله ويهدم برنامجه بحجة أن اللغة العربية لا تستطيع أن تكون أداة لتعليم عصرى، ودخل خير الله بن مصطفى ببرنامجه ميدان التطبيق، فأسس مدرسة حرة، سميت «المدرسة القرآنية العصرية»، كانت أول معهد ابتدائى حر لتعليم اللغة العربية، واعتمدت في تعليمها على كتب التعليم الأولى المطبوعة بمصر، وكتب ألفت وطبعت بتونس، وظهرت نتائج هذه المدرسة في مقدرة أبنائها، وأقيمت فيها احتفالات لإجراء امتحانات ومباريات بين تلاميذها كان لها أثر واضح

وإعجاب عظيمين بين أهل البلاد ، لا سيما عند سماع الأناشيد المدرسية التي أصبحت باباً جديداً من أبواب الشعر ، وتواتر إنشاء المعاهد الحرة على مثال هذه المدرسة ؛ فأنشأت الجمعية الخيرية مدرستها العرفانية ، ثم أنشئت مدرسة بسوسة ؛ وبرزت بهذه المدارس مواهب معلمين ومؤلفين لم يجدوا قبلها ميداناً لإظهار مقدرتهم ، مثل الأساتذة محمد صفر ، ومحمد مناشو وسالم بن حميده . وتخرج منها طلبة دخلوا الجامعة الزيتونية فكان منهم أدباء وشعراء وكتاب تميزت بهم مظاهر التطور الأدبي والفكري في هذه الحقبة .

وجاء هذا الانتصار للثقافة العربية عاملاً جديداً في تقريب قادة الحركة السياسية في الروح القومية ، حتى أن الزعيم علي باش حانبة كتب في جريدة التونسي يثنى على هذا المثال الطيب للتعليم العصري بالعربية ، ويصرح بأن صورته ليست صورة الكتاب المذهب التي كان ينتقدها ، وتأكد مظهر انسجام الحركة الوطنية مع الروح القومية بإصدار جريدة التونسي نشرة باللسان العربي في شوال ١٣٢٧ - أكتوبر ١٩٠٩ اشترك في تحريرها الشيخ عبدالعزيز الثعالبي والأستاذ الصادق الزمرلي ، فكان أولهما ينشئ المقالات بالعربية ابتداءً وكان ثانيهما ، مع ما يكتب من المقالات بالعربية ، يعرب مقالات باش حانبة والزواوش وقلاتي عن النشرة الفرنسية ؛ وينقل عن الصحف الأجنبية الأفكار والأخبار ، فأصبحت جريدة التونسي مقر القيادة الوطنية في الميدان الصحفي .

ونشأت في الحياة السياسية مشكلة مستصعبة الكيان القومي وهي محاولة فصل اليهود التونسيين عن نظر المحاكم التونسية لإحاقهم بنظر المحاكم الفرنسية ، فكانت سبباً في عقد أول مؤتمر شعبي وأول مجمع سياسي للخطابة العامة . هو الاجتماع السياسي الكبير المعروف بمؤتمر البليداريوم . المنعقد يوم ١٧ صفر ١٣٢٧ - ١٠ ديسمبر ١٩٠٩ بدعوة لجنة من الوطنيين ذوي النزعة القومية الإسلامية تحت رئاسة الأستاذ أحمد الصافي المحامي . بلغ عدد حاضريه

عشرة آلاف ، وأشاد الخطباء فيه بتعلق التونسيين بقوميتهم ، واعتزازهم بالمحافظة على شريعتهم . وتفانيهم في الدفاع عن احترام جنسيتهم ، وشارك على باش حانبه بمقالاته ، وعبد الجليل الزاوش بخطبه في الجمعية الشورية ، في هذا الموقف ، ولكنهما قرنا بالاحتجاج ضد تجنيس اليهود ، الاعتراف بوجوب إصلاح القضاء التونسي ، فاختلفا بذلك اختلافا جزئياً عن منهج المؤتمر ، تكونت به معركة صحفية بين التونسي وجرائد عربية وطنية منها جريدة « مرشد الأمة » .

ومن يومئذ بدأ سير الحركة الوطنية يتوالى على المراحل التي تقرب كل يوم بين عناصر المثقفين الوطنيين وتدخل الحركة السياسية تحت نفوذ القومية العربية وروح الاتحاد الإسلامي .

وبلغت فكرة إحياء الثقافة العربية وتمكينها من وسائل الانتشار والسيادة مبلغها الأكمل في شباب الجامعة الزيتونية ، ورسخت في نفوسهم دعوة الإصلاح ، فدفعتهم إلى حركة إيجابية قوية ، وحدث بينهم وبين زعماء الحركة الوطنية ، فبعد أن شغلت قضية إصلاح التعليم الزيتوني جميع الصحف الوطنية ، سنين طويلة ، وأثارت مجادلات صحفية متوالية منذ سنة ١٣١٩ - ١٩٠١ ، خرجت من طور النظر إلى طور العمل بدعوة جريدة الصواب في المحرم ١٣٢٥ - فيفري ١٩٠٧ الزيتونيين إلى تشكيل جمعية توثق بينهم حبل التعارف ، وتمنحهم صوتاً مسموعاً لدى أولياء الأمور ، في إصلاح ما عليه تعليم جامع الزيتونة من التأخر ، وكان ذلك عقب فتور وقع بين الزيتونيين وجمعية قدماء الصادقية ، بسبب حادث في إحدى المحاضرات بقدمااء الصادقية ، قيل أن مسيرى الجمعية أظهروا ضيق ذرعهم بكثرة تردد الزيتونيين على ناديمهم؛ فاستجاب لدعوة جريدة الصواب ثلة من الطلبة الزيتونيين المنتمين إلى الخلدونية بزعامة الأستاذ عبد الرحمن الكعك ، ودعوا طائفة من الأساتذة إلى تأسيس جمعية تسمى « جمعية تلامذة جامع الزيتونة » عقدوا لها اجتماعاً تأسيسياً بقاعة الخلدونية في ذي الحجة ١٣٢٤ - جانفي ١٩٠٧ ثم نشأت

اختلافات بين اتجاه الطلبة ، وكانوا يحنحون إلى الأساليب الديمقراطية الحديثة ، واتجاه الشيوخ وكانوا يحافظون على النواميس والتقاليد ، وحاول الطلبة أن يكونوا جمعية خاصة بهم ، والشيوخ جمعية خاصة بهم ، فأخفق السعيان بمعارضة الحكومة في الأمرين ، وكانت حملة الصحافة ، وخاصة جريدة الصواب ، معينة على توجيه الطلبة إلى الاعتماد على أنفسهم ، ونقض الأيدي من الشيوخ . واستمر غايمان الأفكار يشتد ، والحوادث الجزئية تزيد في شدته ، من سوء معاملة موظف لتلميذ ، أو تعاضم شيخ من لجنة الامتحان على تلميذ آخر ، أو مشادة حول شأن من شؤون التقاليد . التي أصبح الطلبة يسخرون بها ، وفي كل ذلك يجد الطلبة التأييد والمناصرة من رجال السياسة والصحافة ، وتعمل على توجيههم مثل الأساليب الاحتجاجية التي تسير عليها الحركات القومية في تونس وفي غيرها من البلاد الإسلامية ، حتى طلعت عليهم الأخبار بنبا حدوث إضراب من طلبة الجامع الأزهر بمصر في ذي القعدة ١٣٢٧ - نوفمبر ١٩٠٩ فتلقوا ذلك باهتزاز بالغ ، وتخطفوا الصحف الشرقية والتونسية المشتملة على ذلك الخبر ، وتأكد عزمهم على سلوك الإضراب طريقا للفوز بتحقيق أمانهم في إصلاح تعليمهم .

ففي ٢٩ صفر ١٣٢٨ الموافق ١١ مارس ١٩١٠ عقد اجتماع عام في جامع الزيتونة الأعظم ، شهدته جميع الطلبة ، وكانوا يومئذ نحو سبعمائة ، وتكلم فيه خطباؤهم فقرروا مطالبهم ، وأهمها عقد لجنة تنظر في تنقيح برنامج التعليم ومناهجه ، وتقديم بتلك المطالب وفد منهم ، فقابل الكاتب العام للإدارة التونسية ، وبادرت الحكومة إلى إعلان عقد لجنة لإصلاح التعليم في ربيع الأول - ١٥ مارس ، وعد ذلك انتصاراً باهراً للحركة ، وبدأت الصحف تتنازع فخر هذا الانتصار ، فينسبه بعضها إلى نهضة الطلبة ، وينسبه الآخر إلى توجيه جريدة التونسي ، وقادة الحركة الوطنية ، وصرح موقف جريدة التونسي في موازنة القضية والانضمام إلى صف الطلبة ، وتوثقت الصلة إلى درجة أن أعلن الطلبة أن جريدة التونسي هي جريدتهم التي تنطق بلسانهم .

واجتمعت اللجنة فعلا ، يوم ٢ ربيع الأول - ٦ أفريل وكلفت أحد أعضائها ، الشيخ الطاهر ابن عاشور ، بتقديم تقرير في أوجه الخلل وطرائق الإصلاح ، وكان هو نائب الدولة لدى النظارة العلمية ، وكان موقفه مع النظارة غير منسجم لما عرف من أفكاره الإصلاحية ، وأعلنت جريدة التونسي تأييدها الصريح لهذا الاختيار وثقتها في المقرر ، فكان ذلك ، مع أسباب أخرى ، محرجا لموقفه ومورطا له في نظر الحكومة ، حتى فصل عن وظيفة نيابة الدولة بعد ذلك بقليل .

ولما مضى شهر على اجتماع اللجنة ، ولم تظهر نتائج لعملها ، عقد الطلبة في ربيع الثاني - ١٥ أفريل ، إجتماعا عاما ، وقرروا الإضراب عن الدروس ابتداء من يوم السبت ١٦ أفريل ، وأبدأ الإضراب وابط الطلبة بالجامع ، لمنع من يحاول الاقراء من الشيوخ ، وتجمهروا أمام دار الحكومة ، وألقى القبض على اثنين منهم ، فتظاهروا أمام مشيخة المدينة حتى أطلق سراحهما ، وصدر أمر الحكومة بإغلاق الجامع ، وتعطيل التعليم ، فقاوم الطلبة ذلك الأمر ، وصمدوا حتى رجعت الحكومة في قرارها . وعقد بالجامع مجمع خطابي عام ، خطب فيه بعد خطباء الطلبة ، على باش حانبه ، فوجد الطلبة وحركتهم ، وفاخر بأنه يعتبر نفسه زيتونياً مثلهم ، إذ كان قد تردد على دروس الجامع مدة عامين ، وأعلن فتح أعمدة جريدته لنشر كل ما يهم قضيتهم ، فكانت له ضجة بالهتاف والتأييد ، وتأكدت بذلك الروابط بين جريدة التونسي والزيتونيين ، وتنازلت الحكومة ، تنازلا جديداً ، بإعلان العفو عن الطلبة المعاقبين ، حتى الذين رفعت بهم قضايا عدلية ، واقتبل وزير القلم ، رئيس لجنة الإصلاح ، وفد الطلبة فانهى الإضراب ، يوم ١٨ ربيع الثاني - ٢٨ أفريل . وفكر الطلبة في الاحتفال بانتصارهم ، وشاع أن حفلهم سيقام بنادي الصادقية ، فكتبت جريدة الزهرة - وكانت مقاومة لجريدة التونسي - وريدة لسياسة الحكومة تحذرهم من ذلك فلم يجد تحذيرها أذنا صاغية ، وانعقد الاجتماع في باحة نادي قدام الصادقية ، وخطب فيه زعماء الطلبة ، ثم قادة

الحركة الوطنية ، عبد الجليل الزاوش وعبد الرزاق الغطاس صاحب جريدة حبيب الأمة ، والصادق الزمرلي ، وعبد العزيز الثعالبي ، بامم جريدة التونسي ، إذ كان مديرها على باش حانبه غائبا بسوسه .

كان هذا الاجتماع إعلانا في الشعب عن اتحاد الشيبتين ، الزيتونية والمدرسية ، واتجاه الحركة الوطنية وجهة قومية إسلامية خالصة ، وكانت أحداث السياسة ، في البلاد الإسلامية الشرقية ، تزيد إلحاحا في حمل جريدة التونسي وأسرتها على هذا السبيل ، فسياسة السلطان عبد الحميد في إشاعة سلطة الخلافة الروحية على البلاد الإسلامية ، وما كان لها من قبول لا سيما بعد الانتصار العثماني على اليونان سنة ١٣١٥ - ١٨٩٧ . ثم سياسة الجناح اليميني ، من جناحى حزب الاتحاد والترقى ، بزعامه المشير أنور (١) في سبيل الاتحاد الاسلامي ، وسياسة الحزب الوطني في مصر ، وما كان لرجال السياسة التونسية من اتصال شخصي بزعميمه العظمين ، مصطفى كامل ومحمد فريد وتكون حزب الرابطة الإسلامية في الهند (٢) سنة ١٣٢٥ - ١٩٠٧ . كل هذه كانت بواعت قوية أبرزت روح القومية الإسلامية في سياسة الوطنيين التونسيين ، وصبغت جريدة التونسي بصبغة لم يبتدىء عليها عملها من أول الأمر . فقد كتب على باش حانبه مقالا افتتاحيا في النشرة الفرنسية لجريدة التونسي ، بمناسبة دخولها في السنة الرابعة ، أعلن فيه بصورة واضحة قاطعة ، تصميمه على الاتجاه القومي الإسلامي . ورفع عقيرته بذلك في وجه الجرائد الاستعمارية الفرنسية مبيّنا أنه ليس من قصد الشيبية التونسية بتاتا قطع صلتها بماضيها ، ولا بحمهور مواطنيها ، ولا أن تتخذ لسياستها روحا تختلف عن روح الفكرة القومية ، التي تتعاون على خدمتها مع الصحافة الوطنية العربية . وفي شوال سنة ١٣٢٨ - سبتمبر ١٩١٠ لما احتفل في الآستانة بإزالة بارجتين عثمانيتين ، كان ممن شهد ذلك الاحتفال التاريخي ثلة من التونسيين

(١) أنظر حاضر العالم الإسلامي الأمير شكيب أرسلان ج٢ ص ١١٦ الطبعة الثانية .

(٢) أنظر حياة الشرق لمحمد لطفي جمعة ص ٢٠٣ ط دار إحياء الكتب العربية مصر .



على رأسهم الدكتور أحمد الشريف ، وخطب بمحضرهم أحد طلبة المدرسة الحربية فذكر أن التونسيين والجزائريين سيقون ، كما كانوا ، عثمانيين ، هم ذكرنيار في جريدته ، المعمر الفرنسي ، على جريدة التونسي وأسرتها ، وأراد أن يشهر بسياساتهم الإسلامية ، فكتب على باش حانبه في الرد عليه يقول : « إن كل مسلم هو من أنصار فكرة الاتحاد الإسلامي ، وإن التونسيين قاطبة أنصار لهذه السياسة ومتعلقون بالرابطة العثمانية ، التي هي نتيجة تلك الفكرة ومظهرها الباهر ، وإذا كانت ثقافتنا العصرية قد أكسبتنا عقلية جديدة ، فإننا بصـفة كوننا مسلمين ، قد احتفظنا بولائنا الخالص للمتين لإخواننا في جميع الأقطار ؛ فالأتراك والمصريون يوحون إلينا بهذا الإحساس كما يوحى به إلينا جيراننا الأذنون في الجزائر أو الشعوب الآسيوية القصوى » فكانت هذه المقالة آية الانسجام ، بين الحركة السياسية وفكرة الاتحاد الإسلامي ، ونتيجة استقرار للاضطراب الذي طغى على الأفكار نحواً من خمسة عشر عاماً . ونشبت الحرب العثمانية الإيطالية بطرابلس ، فمست أحداثها البلاد التونسية مباشرة ، وتسابق الناس إلى التطوع في الجيش العثماني ، وفي صفوف المجاهدين الطرابلسيين ، وتفانوا في الاكتاب لتموين المجاهدين وتسليحهم وإسعافهم ، ودخلت بعثات الهلال الأحمر — آتية من تركيا في طريقها إلى طرابلس — فأقيمت لاقتبالها المهارج العظيمة ، ومرّ كبار قواد الأتراك سرّاً وعلانية ، ملتحقين بالحدود الطرابلسية ، وفيهم أنور ونوري ومصطفى كمال ، فاحتفل الناس بهم وخطبوا بمحضرتهم ونفذوا خطتهم حتى أوصلوهم الحدود آمنين ، وحدثت مشكلة دبلوماسية بين فرنسا وإيطاليا ، بسبب سفينة فرنسية حاول الإيطاليون تفتيشها بتهمة أنها تحمل السلاح ، فقامت المظاهرات الهائلة لحمل الحكومة الفرنسية على قطع علائقها مع إيطاليا والانضمام إلى الشق الإسلامي ، ولما لم يستجب هذا النداء ، أخذت الجرائد تندد بتمسك فرنسا بعصبيتها اللاتينية المسيحية ، وتعلقها بمودة أختها إيطاليا ولو آذتها . ولتحرير سياسته نحو الجامعة الإسلامية أصدر على باش حانبه

جريدة زيادة على النشرة العربية لجريدة التونسي ، سماها «الاتحاد الإسلامي» ، كان هو مديرها ، ورئيس تحريرها الشيخ الثعالبي ، أصبحت جريدة الساعة ولسان الإحساس الشعبي .

واشتد حقد التونسيين على الجالية الإيطالية ، التي هي ضخمة العدد في العاصمة ، وعظمت نقيمتهم على الاستعمار ومظاهره ، فلما حدثت المشكلة القضائية ، بين بلدية العاصمة وبين جمهور الأهالي ، حول صبغة المقبرة الإسلامية الكبرى «مقبرة الزلاج» ، هل هي ملك بلدي أو وقف إسلامي ، وقامت المظاهرة الكبرى أمام المقبرة ، كان من آثار الغليان الشعبي أن حدث استقدام بين أفراد من المتظاهرين وآخرين من الإيطاليين قتل أثناءه وجرح عدد من الطرفين ومن رجال الأمن والجند ، وبدأت الإدارة في استعمال وسائل القمع وامتنع الوطنيون على سبيل التحدي والتمرد إلى ٣١ من صفر ١٣٣٠ - ٩ فبراير ١٩١٢ فأعلنوا مقاطعة ترام العاصمة ، وكان أكثر المستخدمين في شركته من الإيطاليين ، واهتزت الهيئات الحكومية والاستعمارية لتلك المقاطعة واستطيرت غيظا لنجاحها وامتناع قادة الحركة ورجال الصحافة من الدعوة إلى حلها - وكانت النهضة الفكرية والوعي القومي قد بلغا مبلغا لم يبق للاستعمار قبل باحتماله . فأعلنت حالة الحصار والأحكام العرفية العسكرية بكامل تراب المملكة في مارس وعطلت جميع الصحف العربية ، ما عدا جريدة الزهرة التي بقيت نشرة أخبارية ضئيلة تحررت تحت المراقبة ، ومنعت الاجتماعات ، وتوقفت الجمعيات والنوادي ، وأغلقت المطابع ونزل الإرهاق ، سجماً ونفياً وعقوبات إدارية على رجال الحركة الوطنية ، وأبعد أربعة من كبار الزعماء خارج المملكة ، وهم علي باش حانبة وعبد العزيز الثعالبي ومحمد نعمان وحسن قلاطي ، وخرج كثيرون من رجال القلم والسياسة ملتحقين بطرابلس أو تركيا أو أوروبا . فبهم الشيخ الخضر حسين ومحمد باش حانبة ومحمد الجعايبي صاحب الصواب ، فخدمت الحركة الفكرية وساد عليها الركود ، وانقبع الناس كل في محيطه الخاص فلم يبق للأفكار انتشار ،

ولا للإنتاج الأدبي رواج، واتصلت هذه الظلمة بحلك الحرب العظمى، فزاد الحكم العسكري حدة، والضغط الإداري كلباً، وأدرك الفرنسيون حقيقة نوايا المسلمين نحوهم بعد دخول تركيا في الحرب، فبدأوا يأخذون بالتهمة ويعاقبون بأخبار الجواسيس، وامتلات السجون بمن دخلوها بقرارات إدارية، وكان فيهم نخبة الشبان المعروفين بحماسهم القومي، ونشاطهم الفكري، والقلبي، مثل أحمد توفيق المدني وحسين الجزيري، فلم يبق للحياة الفكرية من مظهر إلا انكباب أهل المعارف على كتبهم وأوراقهم في زوايا المنازل، ولم يبق للإنتاج الأدبي من أثر، إلا لمحات من فيوض العواطف وأصداء الآمال الجائشة بالصدور يتناقلها الناس سرّاً، لما في إشاعتها من التبعات السياسية الثقيلة المضنية، وصور من الهواجس والخواطر تحمل آلام النفوس المقهورة، وسخرية الهمم من تحدى الجور والطغيان، أو صور من الانفعالات للأحداث السياسية والحربية، التي كان منوطاً بها مصير العالم الإسلامي.

عوامل التطور الأدبي :

امتاز هذا الدور، من تاريخ القرن الحاضر في تونس، بحرارة الحياة الاجتماعية، وانتشار الأفكار وتحاكّيها، وشعور الكتلة بمميزاتها واختلاف مبادئها ومناهجها، وتوثق الارتباط بين النخب المثقفة والجمهور، بواسطة المجالس العامة، والمحاضرات، والتمثيل، وزيادة على وسائل الارتباط الموجودة من قبل وهي الصحف والجمعيات.

ومن نتيجة هذه الحرارة الاجتماعية أن يشعر المثقفون بمنزلتهم الممتازة بين الجماهير، فيطالعونها بأفكارهم على خلاف ما كان عليه الأمر حين كان المثقفون يعيشون في وسط قريب مستواه الفكري من مستوى الجمهور، فيتكلمون أو يكتبون، وهم شاعرون بأن من توجه إليه خطبتهم وتجاريرهم طبقة محصورة ليس لها انتشار.

كما أن من نتيجة احتكاك الأفكار ، وتصادم التيارات ، أن يشعر المثقفون بقوة المعارضة ووحدة النقد . وقيام الأفكار المخالفة بتجادل وتناظر وتحاجج ، بحيث لا ينتصب ذو فكر للكتابة في موضوع أو التكلم فيه إلا وفي ذهنه صورة المناظر ، مستعداً ليأخذ بمواضع الضعف منه ، فيتحامها ويتجنبها ، ويتولى تقويم كلامه بالنقد والتحليل قبل أن يتولى منه ذلك خصومه ومخالفوه ، فأثر هذا في ارتقاء المنهج الفكري للآثار الأدبية ، وارتفاع الشعراء والخطباء والكتاب فوق المستوى المبتذل ، وبذلك أصبح التدرج في سلم النجاح الأدبي منوطاً بالقوة النقدية والتحليلية وهي من لوازم السمو الثقافي ، فأصبحت قيادة الأفكار بيد أصحاب الثقافة العالية وصارت عوامل التطور الأدبي راجعة إلى ما فتحت الظروف في هذا الدور من فنون الانتاج الأدبي التي كانت أبوابها مغلقة ، وذلك في باب الخطابة بفنيتها العلمي والاجتماعي ، وما كونت من فنون النتاج الأدبي الأخرى من كيفيات وألوان لم تكن تعهد لها من قبل ، فكانت لهذه العوامل آثارها الملاحظة في المظاهر الجديدة والفنون المحدثه التي دخلت على الأغراض الأدبية .

النثر السياسي :

اختص النثر السياسي بالصحافة فازدهر بازدهار الحياة الصحفية ، وتأثر بما تولد فيها من ظروف اختلفت عن الظروف التي عاش فيها النثر السياسي في الدور الماضي .

وأول هذه الظروف هو ما تكون في الصحف الوطنية ، من الاتصال بين التحرير بالعربية والتحرير باللغة الفرنسية ، فقد بدأت المطالب الوطنية تبرز بأقلام الزعماء الوطنيين في قوالب فرنسية استودعوها مطامح الشعب ومرامي مفكرية ، وأدرجوها مقالات في الصحف الفرنسية الصرفة . ثم في الصحيفة الوطنية المنهج الفرنسية الملهج ، صحيفة التونسي ، وانعكست تلك القوالب على العربية وقراءتها بحكم ما بينها وبين الروح الوطنية من صلة ،

فكانت الصحف العربية تكثر من التحدث بها ، ونقلها إجمالاً وتفصيلاً ، ثم نشأت الصحف المخصصة بذلك ، وهي النشرات العربية للصحف الفرنسية فمادت حركة النقل والتعريب ، وشاعت في اللغة العربية مناهج تفكير غربي في تحليل الموضوع وضبطه ، وأساليب تعبير فرنسي في تركيب الجمل ونظمها وخصائص تعبيرها وما تتضمنه من الإشارات والأمثال ، وراجت تلك المناهج والأساليب رواجاً واسعاً ، وانسجمت مع الروح القومية باعتبار كونها معبرة عن أفكار الوطنيين ، ومترجمة عن إحساساتهم فكأنهم أوتوا بها وسائل الإفصاح عما يدور في عقولهم ويحتاج في نفوسهم .

وكان التبرز في إجادة هذا الانعكاس للكانبيين ، صالح بن محمود والصادق الزمرلي ، بما وهبا من حسن تذوق التعبير الفرنسي والانفعال بدقائقه البلاغية ، ثم مارزقا من المقدرة على أدائه بقلم عربي ، يعترف من فصاحة العربية وبلاغتها ما يسيخ تلك النقول للذوق العربي ، ويكسبها من الروعة البيانية ما ينقل إليها عوامل التأثير التي كانت للأصل في صيغته الفرنسية الأولى ، ولا يخفى ما لعمل النقل عن لغة إلى لغة من اعتماد على انتقاء الألفاظ وتعقبها في صوغ الجمل على صورة تتناسب مع الفكرة والقبال المتحكمين في الناقل . وكان هذا العمل من الانتقاء والتفنن ، أوضح في تحرير النشرة العربية لجريدة التونسي . إذ كانت مقالاتها الكبرى تنقل بعمل مشترك بين ثلاثة ، كاتب المقال بالفرنسية وناقله ورئيس تحرير الجريدة ، فيجتمع محرر المقال في الأصل الفرنسي على باش حانية أو عبد الجليل الزارش أو حسن قلاتي ، بمولى النقل الصادق الزمرلي ومحرر الصحيفة العربية الشيخ عبد العزيز الشعالي ، ويتولى الناقل الأستاذ الصادق الزمرلي عوض تعريبه للمقال ، فيدخل عليه من تنقيحات الكاتب الأصلي واختياراته ما يحده أحسن أداء لفكرته وأتم تلاقيا مع المقاصد الأدبية التي نزع إليها ، ثم يدخل عليه من ملاحظات رئيس التحرير ما يضيف عليه الذوق العربي السليم ، والنكتة البيانية المتحررة عن

التأثر بالأصل غير العربي ، إذ كان الشيخ الثعالبي لا يحسن غير اللغة العربية ، فيجمع المغرب بين هذه الملاحظات وتلك ويبرز تعريبه معتمداً على ثلاثة أصول . الوفاء بحق النقل على ما يقتضيه تقابل الأساليب التعبيرية بين اللغتين ، والوفاء بحق فكرة الكاتب وروحه حتى لا تعبر اللغة العربية عن قصده تعبيراً يذو عنه ذوقه ، والوفاء بحق اللغة المؤدى إليها حتى لا تفقد بسلطان النقل ما هو ضروري للمنشآت الأدبية فيها من دواعي الحسن والقبول . وبهذا العمل دخل على التحرير السياسي من النقد الأدبي والاعتناء بقوالب الصياغة ما لم يكن مراعاة فيه من قبل ، وكان لهذا العمل أثره في الناحية التحريرية بصفة عامة حتى على كتاب العربية في صحفها الأصلية .

كما كان لاتساع المواضيع التي عالجتها المقالات المنقولة ، واستيعابها ، والتعمق فيها ، وتحليل عناصرها ، وعرض ما يتصل بها من الآراء ، ومقارنتها ، والاستخلاص منها ، أثر في بعث الدراسة السياسية على منهج أدخل في النظر العلى الموضوعي ، والتفكير العميق ، فمقالات على باش حانبة ، في تجنيس اليهود سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ ، وحسن قلاتي في إصلاح العدالة التونسية ، وعبد الجليل الزاوش في إصلاح النظام الجبائي ، وإصلاح الجمعية الشورية ، وقد نشرت كلها تباعاً في جريدة التونسي سنة ١٣٢٨ - ١٩١٠ ، تعتبر مثلاً للدراسة السياسية العالية التي جددت ما انقطع من عهد الشيخ محمد بيرم ، وزادت عمقا في الدراسة وبسطا في البحث .

ويدخل تحت النثر السياسي لون آخر من الانشاء الصحفي امتاز به هذا الدور ، هو لون الجدل بين الصحف على طريقة المناقشة والمناقضة ، فقد كانت وفرة الصحف وتنافسها وانتاؤها إلى المناهج السياسية والثقافية المختلفة مولداً لمشاحنات بينها ، ظهرت في انتقاد بعضها لبعض ، وتعريض البعض بتقصير الآخر أو غلطه أو خيائته ، وفي التنازع على زعامة المواقف ، والتنازع على ابتكار التوجيهات ، وادعاء كل شرف التأثير في الموقف لنفسه .

وكثر هذا في المناقشات التي بين أنصار الاستقلال الثقافي ، وبين أنصار الامتزاج بالثقافة الفرنسية ، خصوصا في مسألة المدارس القرآنية ، ومسألة إضراب الطلبة فكان هدف مهاجمات الصحافة العربية غالبا في الأمرين بجريدة التونسي ، وكان أبرز الصحف في التهجم عليها ، جريدة الزهرة وجريدة مرشد الأمة . وقد اصطبغ تحرير هذه المناقشات بما يناسبها من التهمك والتورى والنبز ، ووصف الكتاب والصحف بصفات من شأنها أن تشير ذكر مواقف ينكرها الناس ، أو تصريحات تختلف مع المناهج الوطنية التي عليها الجمهور ، وتتبع المقال الموضوع للمناقشة تفصيلا بتتبع أفكاره والتعليق على فقره . وقد اشتهر في هذا الباب كاتب زيتوني بارع القلم ، حرر في صحف كثيرة أخصها مرشد الأمة ، وولع بإبراز حدة النقد والأخذ بالمخائق ، هو الشيخ محمد مناشو ، حتى كان من ولوعه بذلك أن أصبحت الجرائد المتطاحنة تتزاحم عليه فتجد كلها عنده ، ما ترغب فيه من نقد بالغ وتمك لا ذع ، حتى كان يكتب المقال في جريدة والرد عليه في الأخرى ، وهلم جرا ، اعتدادا بقوة في إبراز نقط الضعف ومواضع النقد ، واختيالا بمقدرته في تصريف مسالك القول وتقليب وجوه المعنى ، على غرار مقامة الحريري الدينارية .

وهناك باب ثالث من أبواب النثر السياسي لم يزل مفتوحا منذ أول عهد الصحافة التونسية ، هو باب التعليق على الأخبار والحوادث بما يستخلص عبرها ويستمد منها التوجيهات الملائمة لمبدأ الجريدة ومسالكها ، وقد ازدهرت الكتابة في هذا الباب وتفتقت ، بسبب كثرة الأحداث واختلافها ، وموضوح المناهج السياسية وتباينها ، حتى اتخذه كثير من الكتاب طريقة ملتزمة في تحاريرهم الصحفية ، فلا يبتدئون الكتابة إلا بالتعرض لحدث يجعلونه أساسا لموضوعهم ، ثم يتدرجون في تحليله والتعليق عليه حتى ينتهوا إلى تحصيل الفكرة التي يريدون ، وذلك ما يعرف في الاصطلاح الصحفي باسم السانحة ، ، وقد كان كثير منهم يعنون بهذا العنوان ، وامتاز فيه ، إلى جانب

بطليمه القديمين الصنادلي والجعابي ، الشيخ عبد العزيز الشعالي ، في جريدة التونسي ، لولا أنه كان يطيل في تعاليقه حتى يخرج بها عن الحد المألوف للسانحة عند الصحفيين ، وإن كان يزينها بما عنده من جمال التعبير ووضوحه وحسن اختيار الألفاظ ، والمزج بين الوصف والتعليق ، حتى ينتهي إلى غرضه بانتهاء سرد أطوار الحادث الذي يعلق عليه .

النثر الفني :

بقدر ما لاحظنا من تقدم وسمو في أبواب النثر السياسي ، نلاحظ تأخرا وقصورا في النثر الفني ، وليس منتظرا من الدور الذي ندرسه الآن أن يعين على تقدم النثر الفني وازدهاره ، فقد كان دورا قوامه السياسة والنضال ، ومظهر حياته الصحافة ، وملء تاريخه المجامع والمظاهرات ، وذلك قد يعين على ازدهار أبواب كثيرة من الأدب ، ماعدا النثر الفني الذي هو وليد الشعور والخيال ، فأغراض النثر الفني القديمة تعطلت كلها ، وأوصدت أبوابها ، بسبب انصراف النفوس إلى الحياة العامة ، وخضوعها لشواغل الحس والعقل .

ومع ذلك فإن أقلاما تسرى فيها روح الشعور الفني ، ونفوسا يملؤها فوق الجمال الأدبي ، قد استطاعت ، وهي تخوض غمرات الحياة العامة ، أن تستمع إلى صوت العاطفة المتأثرة ، المنبعث من أعماق ضميرها الفني ، يبلغ وحى الخيال ، ويهيب بها نحو المناهج الفنية ، والمحاسن اللفظية ، والصور المثالية ، فتبقى متصيدة للفرص ، حتى إذا وجدت فجوة من سبل الأحداث ، وهدأة في مصارعات السياسة ، استخرجت موضوعا نظريا من صميم نفسها ، أو تعلقت بموضوع ذي جهة عاطفية من الأحداث العامة ، فأروت غليلها بمعالجته على منهج النثر الفني . ولعل المفرد بين أصحاب الأقلام الصحفية الذي لم تنقطع لفتته إلى ناحية النثر الفني ، هو ذلك الكاتب الذي عرفنا أن هويته الكتابية كانت بالفن للفن ، وهو الشيخ محمد مناشو ، فكان ينشر

أحيانا قطعاً من النثر الفني القائم على تخيل القصص والمجاورات ، وينشر أحيانا مقالات في الأحداث السياسية الكبرى يحنح في تحريرها إلى الطريقة الفنية البلاغية ، وقد ولع بالمحسنات البديعية . ونما فيه هذا الولع حتى أقام آثاره الكتابية على تزيين الفن القولي بزخرف الترانيم ، فكانت له اليد الطولى في فن السجع المزدوج . الذي بلغ فيه أوج الإجمادة ، وخفف من ثقل وطأته على قلبه ، ما كان له من معرفة واسعة باللغة . ومقدرة على حسن التصرف في مفرداتها ، وممارسة متينة لفنون البلاغة والأدب ، زيادة على حسه المرفف في النقد بملكة الذوق المجرد .

أما فن الرحلات ، الذي كنا اعتبرناه ملحقاً بالنثر الفني ، فقد استمر فيه مضطرباً بتحرير الرحلات الرسمية ، محمد بن الخوجه ، على طريقته التي عرفناه بها قبلاً ، طريقة الإنشاء الديواني ، وزاد فيها توغلاً وإطناباً ، فكتب الرحلة الفليارية مجلداً مستقلاً سنة ١٣٢٩ - ١٩١١ والرحلة الناصرية كذلك سنة ١٣٣١ - ١٩١٣ ولم يظهر غيره في هذا الميدان سوى الشيخ محمد المقداد الورتاني ، الذي نشر في سنة ١٣٣١ - ١٩١٣ كتابه د البرنس في باريس ، فكان مظهر أجليلاً لسمو فن التحرير في تسجيل الرحلات الفردية الخاصة في أوربا ويعتبر كتاب البرنس في باريس . أكمل صورة قلبية لنظر العربي الناهض إلى أوربا ، بوصف المسالك والمشاهد والتأثرات النفسية والمناظر الطبيعية والحياة الاجتماعية ، مع إثارة المقارنات التفصيلية بين الماضي الإسلامي والحاضر الأوروبي في كل ناحية من نواحي الحضارة ، فكان المطالع يسير مع الكاتب في تأملاته . ثم ينتقل بدعوته إلى ما يريد من الملاحظات والعبر والمقارنات التاريخية ، فيتلقى المعلومات عن التاريخ الإسلامي ، في ما يرجع إلى فنون الحضارة وأوضاع الحياة المدنية بالقيروان في عصر مجدها ، وقد كان المؤلف عند رحلته مقيم بها ، ومن العاملين على إحياء تاريخها وإبراز آثارها . وإن هذه الرحلة لتعتبر من حيث التعمق في معرفة الحياة الأوروبية ودقة وصفها وبراعة عرض تاريخها وحسن

فهم حضارتها ، وتذوق آدابها وفنونها ، أعلى مبلغ لأمثالها في هذا الباب ، كما
تعتبر من حيث متانة التحرير ، ودقة السبك ، وجمال النكت . مظهراً فائقاً
للنثر الفني ، وفي ما اشتملت عليه من المعارف والمباحث مظهراً فائقاً للنثر
العلمي ؛ ولولا ما شجنت به من الاستطرادات البعيدة لذكر أمور من شؤون
الحياة العادية بتونس لكان مثالا كاملاً لفن الرحلة ، على أن هذا لم ينزل
بهذا الكتاب عن كونه أرقى مثال وأمثل صورة في كل ما كتب من
الرحلات التونسية في هذا القرن .

ولكن عاملاً جديداً نشأ فحرك النثر الفني ووجهه نحو غرض جديد هو
عامل النهضة التمثيلية ؛ فقد عرفت تونس التمثيل في أول القرن الرابع عشر ،
فما أجنبيّاً ، تقوم به المسارح الأوروبية فتقدم تمثيليات بالفرنسية أو الإيطالية
وكان بعض أهل البلاد ، ولو من لا يحسن هاتين اللغتين ، يغش المسارح
ويعجب بمناظرها . حتى أن الصحف العربية كانت تعلن أحياناً عن تلك
الحفلات (١) ، ولكن النظر إليها لم يكن إلا نظرات شوبه روح العبث والتلهي
وفي سنة ١٣٢٥ - ١٩٠٧ قدم على تونس ، من مصر ، جوق الكوميديا
المصرية فمثل بالعربية رواية « العاشق المتهم » ،

فهناك أدرك الناس معنى من الذوق الأدبي في التمثيل ، فاهتم به الأدباء
وعلمت الصحف على الرواية وتمثيلها فتكون بذلك فن النقد المسرحي ، وكان
أول كاتب في هذا الغرض ، الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بمقال في نقداً
رواية العاشق المتهم ، نشر بجريدة التقدم ؛ وتحرك بهذا الاهتمام بعض من
ولع بالفن التمثيلي فأسسوا أول جمعية تمثيلية تونسية . باسم جمعية « النجمة
التمثيلية » سنة ١٣٢٦ - ١٩٠٨ ولم تفرز بمركز معتبر في نظر الطبقة العالية من
المثقفين حتى قدمت في سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ فرقة سليمان قرداحي ، ومثلت

رواية «صلاح الدين الأيوبي» ، من تأليف الشيخ نجيب الحداد ، فوجد الناس من موضوع الرواية ، وسمو تحريرها الأدبي ، وبراعة الممثلين ، ما علق اهتمام الصحف والأفكار بفن التمثيل ، وأجبر أهل الثقافة على اعتباره فنا من فنون الأدب ، وبابا من أبواب التربية الشعبية ، فتأسست جمعية تمثيلية ، بهناية الشيخ عبد العزيز الثعالبي سنة ١٣٢٨ - ١٩١٠ سميت جمعية الآداب ، ثم أسست جمعية أخرى «جمعية الشهامة العربية» ، وفي سنة ١٣٢٩ - ١٩١١ ظهرت أول مسرحية لكاتب تونسي ، هي رواية «السلطان بين جدران يلدز» من قلم محمد الجعابي مثلتها فرقة إبراهيم حجازي ومثلت جمعية الشهامة رواية للشيخ محمد مناشو عنوانها «الانتقام» .

وفي سنة ١٣٣٢ - ١٩١٤ قدمت فرقة الشيخ سلامة حجازي ، فهام الناس بتمثيله روايات «صلاح الدين» ، و «شهداء الغرام» ، و «مجنون ليلى» ، و «هملت» ، وفتنوا بتغنيه بالقصائد السيارية .

سلام على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه أو تمحوه هواه من القلب إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم فأننى في غرامى صاحب الألم وفاجأت الناس فى هيامهم صعقة الحرب العظمى ، فرجع الشيخ سلامة وانتهى بذلك هذا الدور الذى خلف للأدب عاملا جديدا من توجه الكتاب نحو الرواية التمثيلية ، وإقبال الجمهور على تذوق هذا اللون الجديد من ألوان الروعة الأدبية .

النثر العلمى :

قضت الحياة السياسية على النثر العلمى بما قضت به على النثر الفنى ، فاختلفت المجالات فى عجاج المعركة الصحفية ، وانقطع صوتها فى ذلك الضجيج ، وأقفرت الصحف من المقالات العلمية ، حتى الحاضرة ، بعد انقطاع البشير صفر عنها وعن الخلدونية ، بانتقاله إلى سوسه . بيد أن أصداء الحركة العلمية الناشطة لم تزل

متجاوبة في الدروس والمحاضرات ، ومثل الانتاج العلمي في الشرق والغرب لم تزل تحرك الهمم نحو البحوث التاريخية والآثرية التي تجلو عظمة الماضي الإسلامي في تفاصيله .

وقد ظهر في هذا الدور شاب موالع بالدراسات التاريخية والمباحث الآثرية هو الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الذي خلف البشير صفر في تدريس التاريخ بالخلدونية ، فأدخل عليه من خصائص منهجه ما كون له وجهة جديدة .

نشأ حسن حسني عبد الوهاب في خدمة التاريخ التونسي ، على تتبع دراسات المستشرقين والآثريين والأوربيين التي تطبع كتبها جامعة أو تنشر مقالات في المجلات العلمية ، فتما فيه ذوق البحث التفصيلي ، والتنقيب الأثري والعناية بتحقيق المصادر وإحيائها ، وغلب نفسه عن الانقطاع للدراسة والبحث ، والعكوف على المطالعة والتحرير ، فحافظ الميكاتب القديمة ، وتعرف إلى المخطوطات العربية ، وتنقل بين الآثار ، جامعا وباحثا ودارسا وموضحا وكبرت نفسه اعتزازا بأجماد التاريخ التونسي ، وعظمت همته حرصا على التعريف بها ، ولما أسند إليه تدريس التاريخ بالخلدونية كان عاملا على بث تلك الروح في طلبته ، وعلى الدأب على توسيع دائرة بحثه وإنتاجه ، فأنصل بمرآكز البحث التاريخي والنشر العلمي ، في الشرق والغرب ، وشارك في التحرير بالعربية ، في مجلات علمية محترمة بالشرق مثل مجلة « المقتبس » وبالفرنسية ، في كثير من المجلات والنشرات التي تقوم عليها معاهد الاستشراق ومجامع الآثار ، في أوروبا ، زيادة على ما كان ينشر من البحوث التاريخية في الصحف التونسية ، وخاصة بجريدة الزهرة ، وتوفر أولا للقيروان وآثارها ، فأصدر في سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢ أول تأليف له طبع مستقلا ، وهو كتاب « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » وضعه بمناسبة تأسيس ناد أدبي بالقيروان سمي « نادى ابن رشيق » واهتم فيه

بدراسة بن رشيق وأدبه ، ولكنه اهتم فوق ذلك ، بوصف لمعالم القيروان وخططها وحضارتها على أسلوب وصفي يعتمد على إبراز نتائج المعارف التاريخية والبحوث الأثرية ، في قالب حي ، يصور مدينة القيروان على ما كانت عليه حياتها العمرانية والعلمية والأدبية في عصرها الزاهر ، على أسلوب يمكن المطالع من الوقوف على تلك المعارف الواسعة في مطالعة وجيزة ممتعة ليس فيها كلفة البحث ، ولا عناء الدرس . ثم تفرغ لتلخيص التاريخ التونسي عامة ، على منهج علمي دراسي متين ، فسبب كتابه ، خلاصة تاريخ تونس ، المطبوع سنة ١٣٣٢ - ١٩١٤ فقسم التاريخ إلى أدوار ، وأوجز في كل دور الكلام على دوله وأحداثه السياسية وحالة الحضارة وأعلام الرجال ، مع التنبيه على أهم الآثار الباقية من كل دولة وكل دور ، فكان أول كتاب سد حاجة المتطلعين إلى معرفة تاريخ تونس في أسلوب سهل محكم ، وعلى منهج يتفق مع الأساليب العصرية والأذواق الحديثة . وأصدر بعده كتاب : المنتخبات المدرسية ، الذي قرب فيه للطلبة ما كان صعباً جمعه على العلماء ، من نصوص الشعر والنثر ، الصادرة عن الأدباء التونسيين في عصور التاريخ العربي ، مع تراجم وجيزة تبصر الناشئة بماضيها وتمكن فيها ذوق البحث التاريخي ، إلى جانب الذوق الأدبي ، والمملكة العربية السليمة .

الخطابة :

أثرت ظروف الحياة الاجتماعية ، في هذا الدور ، على تطور الخطابة وارتقاء تأثيراً كبيراً .

فنشأت الحياة السياسية ، واختلاف النظريات والمناهج ، وانتشار روح الحماس الوطني ، واشتراك الجماهير الشعبية في العمل السياسي ، وقيام الاجتماعات والمظاهرات ، من جهة ونضوج فكرة الإصلاح الديني من جهة أخرى ، وتحرك الشباب الجامعي في السبيل الإصلاحية ، من جهة ثالثة ، وفتح باب المحاضرات العلمية ، من جهة رابعة ؛ قد كانت كلها عوامل متلاقية على النهضة بالخطابة ، في أبوابها المختلفة ، وترقية ملكتها ، عند الزعماء السياسيين والوعاظ الدينيين ، والشبان ، والأساتذة .

فقد كان مؤتمر البالماريوم ، أول مناسبة لظهور ملكة الخطابة السياسية ، وكان النجاح الذي لاقاه خطباؤه ، في الخطابة بمعناها الحقيقي ، وهي الخطابة الارتجالية ، التي تستمد معانيها ، وتعابيرها ، ووسائل تأثيرها ، من مقام الخطبة ، وروح المستمعين ؛ وتعتمد على طرق الإقناع ، بما يصحبها من عوامل التأثير ، من ذات الخطيب ونبزاته فكان لهب الحماس الذي اشتعل في الجمهور من خطبة الدكتور أحمد الشريف وخطبة الشيخ سالم بن حميدة برهانا على ارتقاء ملكة الخطابة الارتجالية باللغة العربية الفصحى وبلوغ هذين الخطيبين فيها مبلغا عاليا .

ثم كان إضراب الطلبة الزيتونيين ، مناسبة حملت رجال الحركة السياسية على معاناة الخطابة بالعربية ، إذ لم يكن في وسعهم أن يتقدموا إلى طلاب العربية وأهل البلاغة والفصاحة بما يحيط قيمتهم في أنظارهم ، وكان ما ظهر به على باش حانبه من قوة خطابية - مع أنه لم يكن مكينا من اللغة العربية - دليلا واضحا على سمو الموهبة الخطابية المودعة فيه ، وسمو الهمة التي سمحت له بأن يبرز من نفسه خطيبا عربيا مرموقا بعين الاعتبار ، وكان في تلك المجامع للصادق الزمولى من ميعة شبابه وشدة حماسه وحسن نبزاته وفصاحة منطقته وجمال عبارته ، ما ترك الناس يشبهونه بخطيب مصر العظيم ، مصطفى كامل ، كما كان للخطباء اللذين ظهروا من بين الزيتونيين ، في شبابهم الباكر ، مثل إبراهيم بن شعبان ومحمد شويشه ومحمد العبيدي ، مكانة في الخطابة ألفت اليهم الأنظار وباعجاب وثناء أجمعت عليهما الصحف في تلك المناسبة .

ولكن الذي بزالكل في الخطابة ، بما اجتمع فيه من بلاغة القول ، وحسن المنطق ، وبداعة البداة ، والمقدرة على التردد في خطابه بين الصعود والنزول ، حتى يخرج بإعجاب الخاصة وانفعال العامة ، مع حسن تؤدته ، وتمسكه بأهداب العربية الفصحى ، ونكت آديها ، وطول نفسه في الخطابة حتى يخطب الساعات المتوالية ، فلا يضجر ولا يتململ ولا يحتد ولا يفتر ، إنما هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي أجمع العالم على تقدير قيمته الخطابية

وشهد له شاعر العراق الأكبر معروف الرصافي بأنه أعظم خطيب عربي عرفه هذا القرن. (١)

أما الخطابة العلمية ، فقد كان ميدانها من قبل محصوراً في الدروس ، وكان بطلها البشير صفر ، فلما فتحت جمعية قدماء الصادقية باب المحاضرة العلمية ، ظهرت مواهب بهرت المستمعين بالفصاحة وقوة الإيضاح وجمال التنسيق وبلاغة العبارة واستيعاب موضوع البحث وتحليله وجمعه ، وقد أجمعت شهادة الصحف ، على اختلاف مشاربها ، على أن زعامة الخطابة العلمية ، على الجملة ، قد انحصرت في الشيخ الطاهر ابن عاشور والشيخ الخضر حسين .

وأما الخطابة الوعظية الدينية فقد تركناها في المحاضرة الأولى ، تحاول الخروج من ركودها على يد الشيخ سالم بو حاجب ، فظهر في هذا الدور رجال من تلامذته . انتهجوا منهجه في طرق المواضيع الاجتماعية الحية ، أبرزهم الشيخ أحمد بيرم ، الذي استمع إلى خطبته الزعيم المصري محمد فريد (٢) وأثنى على حسن اختياره للمواضيع الحية . وكانت مجلة السعادة العظمى ثم الصحف من بعدها دائبة على الدعوة إلى تطور الخطابة الجمعية والتنويه بصنيع الشيخ أحمد بيرم . فتتابع الخطباء على انتهاج سبيله ، وكان أتمهم نجاحاً في ذلك الشيخ الصادق النيفر ، فهو الذي صبغ الخطابة الجمعية بصبغة الخطابة الحقيقية ، فكانت خطبه ارتجالية تتناول المواضيع ذات المساس بالحياة السياسية وكانت له سمعة أكبر خطيب ديني .

الشعر:

كانت نهضة الشعر عظيمة ، شملت أغراضه وقوالبه ، وظهر بها في ميدان الإنتاج الأدبي شعراء كثيرون برهنوا على عبقریات فائقة ، وتحقيق بالشعر أن يكون دور الحركات الاجتماعية والحماس السياسي ، دور نهضته وازدهاره

(١) نهج الطب في الخطابة والخطيب لمعروف الرصافي .

(٢) من مصر إلى مصر محمد فريد في الموسوعات ١٩٠٢ .



فهو الذي لم يزل من عهد الجاهلية ، وتر العصبية ، ونعمة الانفعالات
الجماعية ؛ فإذا لاحظنا أن عوامل النهضة الأدبية ، من نشر روائع الأدب
القديم ، ورواج روائع الأدب الجديد ، وشيوع التحرير والخطابة والنقد ،
قد عملت في رفع مستواه الفني . وصقل ديباجته ، فإن عوامل النهضة السياسية
والاجتماعية قد وفرت له الأغراض . وفتحت في وجهه أبواب النفوذ في
الناس ، والتجاوب مع انفعالاتهم النفسية .

وإذا كان الدور الماضي قد دفع بالشعراء الى التغنى بإحياء المجد الإسلامي ،
والتطلع إلى عظمة مستقبله ، فإن روح الانبعاث الإسلامي ، والغيرة على عزة
الإسلام ، وعزة راية الخلافة ، قد حركت القرائح بالشعر الحماسي ، المتولد
عن الأحداث الحية ، والمتأثر بما تحركه تلك الأحداث من الشعور القومي
السامي ، فتطورت روح الغيرة القومية إلى شكلها الإيجابي العملي ، الذي يشيد
بالروح الكفاحية ويدعو إلى الجهاد ويمجد المجاهدين ، وكان أقرب الأحداث
مساساً بإحساس الشعراء التونسيين هو حدث حرب طرابلس ، فاندفع
صالح سويسى وسالم بن حميدة والصادق الفقي ، يصرفون حماسهم في وصف
المعارك ، ومواقف الأبطال ، ويتطاولون على الغارة الإيطالية بالتهكم والتحقير
والتحدى ، فأخرجوا ضرباً من الشعر صورت فيه الحرب الطرابلسية ،
بمقابلاتها الدامية ، وبما وراء المقابلات من عواطف وانفعالات على طريقة
شعر الملاحم ، وظهر في هذا الباب شاعر لم يشتهر من قبل ، وبلغ قمة المجد
الشعري من بعد وهو محمد الشاذلي خزنة دار .

وجاءت حركة الاكتئاب للهِلال الأحمر العثماني وما أقيم في سبيله ،
وتكريم مبعوثيه من احتفالات ، فكانت مناسبات لصوغ العاطفة الحماسية
في قوالب من الشعر الوجداني ، أدمت القلوب وأبكت العيون .

وكان للانفعال بحركة الكفاح السياسي التونسي ، وما فيها من مصادمات
دامية ، ومظاهرات إيجابية وسلبية ، مظهر آخر فيه الاعتزاز والحماس والتدمير .



وندبة الحق والحرية والدعوة إلى الثأر والتنويه بالضحايا والتعجيب بالثبات والصمود .

وحركت حياة التعليم القومي الحرق رائح الشمراء للشعر المدرسي والأدب الصبياني ، بنظم الأناشيد المناسبة لغنى الصلبة الصغار في الأغراض القومية والأوصاف الطبيعية ونظم القصص الصغيرة والأمثال المضمروبة على السنة الحيوان واختص بذلك رجال التعليم مثل الشيخ محمد مناشو ، وله القديح المهلى والشيخ سالم بن حميده .

وانتشر هذا الضرب من الأناشيد ، فنظمت فيه قطع لتفشد في ختام الحفلات التمثيلية ، لانسجامه مع روح الجامع ومناسبته للتلحين الغنائي ، فكانت هذه الأناشيد غالباً ، من الموشحات ذات المذهب والدور .

ثم إن حياة الضغط والإرهاق ، زمن الحكم العرفي وسنى الحرب العظمى قد أثرت في تكوين شعر وصفي يتطاوح فيه الشاعر ، مع نفسه ، الآلام والآمال ، ويناجيها بما يشفى غليله في القاهر المستطير ، فكان في الذين أودعوا السجون من رجال الأفلام ، مثل حسين الجزيري ، من يصف حياة السجن ، شعر ساخر وروح تهكمية نقدية ، وفي الذين غربوا واغتربوا ، من يشكوا الغربة ويحن إلى الوطن ، مثل الشيخ الخضر حسين ، وفي الذين ضاقت نفوسهم بويلات الحرب من يناجي الأيام بانتظار انفراج الأزمة وتبلى الفكرة وعودة حياة السلام ، أو يبدئها الآلام من مظاهر الإرهاق التي اتخذت علة الحرب لها سبيلاً . أو يتحرق صوقاً إلى يوم الهزيمة الماحقة التي تريبه في فرنسا المستعمرة ما يتمنى لها من شر ودمار ، وفي راية الإسلام ما يصبو إليه من غلبة وانتصار .

المحاضرة الرابعة

الصحافة

١٣٣٨ - ١٣٤٦

مضت ثمان سنين منذ إعلان الحكم العرفي سنة ١٣٣٠/١٩١٢ إلى إعلان رفع حالة الحصار في جمادى الثانية ١٣٣٨ مارس ١٩٢٠ ، لم يتحرك فيها للفكر والأدب ساكن ، وتوسّطت هذه الفترة من الزمن أربع سنين ، كانت أبلغ في قتل عوامل النهضة الفكرية والإنتاج الأدبي ، هي مدة الحرب العظمى . ثم انتهت بصدمة نفسية ، تسببت عن انتصار فرنسا والحلفاء ، وانسحاب تركيا مهددة مدروس الشريعة سنة ١٣٣٦ - ١٩١٨ ، وما حاق بالعالم الإسلامي كله من إحاطة الاحتلال الاستعماري . ولم يكن يغذى النفوس ، طيلة سني الحرب إلا الأمل في ارتفاع الكابوس الاستعماري ، بانكسار فرنسا وحلفائها ، وتجدد القوة الإسلامية بانتصار تركيا ، دولة الخلافة ، وقد تسبب انقطاع الصحف والكتب من الشرق وتعطل المواصلات بصفة عامة ، في وضع تونس والمغرب كله ، بمعزل عن الحركة العربية التي ظهرت في الشرق منذ سنة ١٣٣٤ - ١٩١٦ ، فلم تكن أنباؤها ودعوتها يصلان إلا من طرق استعمارية غير جديرة بالثقة .

فلما وضعت الحرب أوزارها ، وارتفعت الحواجز ، وجد الناس أنفسهم في جو جديد قامت فيه آمال الشعوب الإسلامية على غير الأسس التي كانت مرتكزة عليها من قبل : فالبلاد العربية ، وتركيا نفسها ، قد سلكت للكفاح



طريقاً جديداً ، بعد ضياع الأمل في الخلافة ، هو طريق الاعتماد على الكفاح الشعبي الحر .

والعالم كله قد تطلع إلى تجديد أوضاعه على قاعدة السلم وحرية الشعوب ، اللذين نادى بهما الرئيس ويلسن وانهقد عليهما مؤتمر فرساي سنة ١٩١٩ - ١٩١٩ ، يتمخض عن حلم الشعوب الضعيفة ، ومهتف الضمير الإنساني : عصبة الأمم .

وكانت حياة الأمل قد هيأت للناس للإقبال على التفكير والخلوة لتلقي وحي المشاعر والضمائر . وكان تعاقب الانفعالات المتعاكسة محدثاً يقظة سريعة في النفوس وهزة بعثت النشاط الفكري ، وأنهت حالة الجمود الذي كان مخيماً على أهل الثقافة وأوساط الشباب .

واتصل الشعور الاجتماعي بالحياة العقلية ، اتصالاً وثيقاً ، إذ أصبح ميدان الملاحظات عالمياً واسعاً ، وأصبحت بواعث الاهتمام مدركات عقلية لا مشاهدات حسية ، إذ صار أبسط مبادئ النظر في كفاح الأمة لاسترجاع حقها في الحرية يدور على إدراج قضيتها تحت قواعد ويلسن ، وعلى تطبيق الدعوات المبدئية للحركة لأوروبا ، من الثورة الاشتراكية في ألمانيا وإيطاليا ، والثورة البلشفية في روسيا ، والحركة الاشتراكية في فرنسا . والتنظير بالحركات التحريرية في تركيا ومصر والبلاد العربية .

فلم يكن من المنتظر أن يجد هذا التطلع مستقراً ، إلا في وسط الشباب المثقف ، وأن لا يطلب لنفسه وجهة إلا نحو ذوى السمو العقلي والإحساس القومي الواسع ، ممن اكتسبوا الثقة في مواقف القيادة السياسية .

وكان الشيخ عبدالعزيز الثعالبي ، بماله من ماض ، في السياسة ، والإصلاح الديني والاجتماعي ، والأدب ، أحق الشخصيات بحسن الانسجام مع هذا التطلع الشاب . فسرعان ما أحاطت به العناصر الباقية من رجال الحركة الوطنية السابقة ، ورجال الصحف العربية المعطلة ، وجددوا السعي في بعث

معالم النهضة التونسية ، وتجديد العمل السياسي ، في سبيل التحرير ، وأصبح
 الثعالبي زعيم النهضة التونسية المطلق . وكان الاستعداد للعمل في الحياة
 العامة ، قوياً في الطلبة الزيتونيين ، والفكرة الإصلاحية مختصرة فيهم بما
 كانت تجد من التغذية والتعهد طيلة فترة الركود ، من كبار الأساتذة الممتازين
 بسمو أفكارهم وحسن انسجامهم ، مع تطلع الشباب ، وطرائقهم التجديدية
 في التفكير والتدريس ، وهم الشيخ محمد الصادق النيفر ، والشيخ عثمان
 ابن الخوجه ، والشيخ محمد مناشو ، فاندفع الطلبة صفّاً واحداً وراء هؤلاء
 الأساتذة ، يعملون في السياسة والاجتماع ، عمل الجد والتفاني . وانتشرت
 من جوهرهم توجهات النهضة الجديدة في الرأي العام ، وتكون من الشباب
 الزيتوني في هذه البيئة كتاب عاجوا ، تحت قيادة أستاذهم الخطابة والكتابة
 في شؤون السياسة القومية والإصلاح الديني والفكري والاجتماعي ، برز
 منهم بصفة مرموقة ، أحمد توفيق المدني - ومحي الدين القليبي - وزين العابدين
 السنوسي - ومحمد المهدي بن الناصر - ومحمد المنصب المستيري - والطاهر
 الحداد - ومحمد الحبيب .

وتركزت مظاهر الحياة الفكرية والأدبية كلها حول الحركة السياسية
 وزعيمها عبد العزيز الثعالبي وجعلت أول هدف لها تحرير الصحافة برفع
 التعطيل الذي كان مفروضاً عليها بالأحكام العرفية .

وسافر الشيخ الثعالبي في شوال ١٣٣٧ جوان ١٩١٩ إلى باريس لفتح
 طرق العمل بالاتصال بمحيط مؤتمر الصلح في فرساي ، وزعماء الحركات
 التحريرية في العالم ، الذين كانوا حول ذلك المؤتمر ، وتجديد اتصالاته برجال
 السياسة والصحافة ، من الفرنسيين الذين كانوا على اتصال به من قبل ، في
 عهد العمل الماضي مع الزعيم علي باش حانبة .

وكان من أول نتائج هذا السعي أن رفعت حالة الحصار ، وألغى قرار
 تعطيل الصحف في رجب ١٣٣٨ مارس ١٩٢٠ فعادت الصحف المحتجبة



وصدرت صحف كثيرة جديدة كانت كلها متلاقية في المنهج ، تدعو إلى التكميل الاجتماعي ، والإقدام على المطالبة بالحقوق وإنشاء المشاريع ، وتنويع كلها لساناً واحداً ، بالشيخ الثعالبي وتؤازره وتستمد التوجيه من لدنه . وبدأ السعي فتحركت هممة العمل الجماعي في نفوس الناس ، وأصبح تكميل الجماعات في سبيل الأعمال العامة أشرف المقاصد الوطنية . وانطلقت الصحف تكون الارتباط بين الشعب وبين مركز العمل السياسي في باريس ، وتشرح أصول البرنامج السياسي الذي يكون الارتباط عليه ، وهو برنامج يقوم على أن حكم البلاد ينبغي أن يكون شعبياً دستورياً نيابياً ، وأن أجهزتها القضائية والإدارية ينبغي إصلاحها على أساس قومي عصري يوجه التصرف الحكومي ، نحو المصلحة الشعبية على مبدأ ضبط المسؤوليات وتفريق السلطة .

وأفاضت الصحف في شرح النقط التفصيلية لذلك الإصلاح ، استمداداً من الكتاب الذين نشره الشيخ الثعالبي ، باللغة الفرنسية ، في باريس ، باسم « تونس الشهيدة » ، غفلاً عن النسبة إلى مؤلف ، وتوجهت إلى مهاجمة الإدارة ، وانتقاد تصرفاتها ، في جميع نواحي الحياة العامة بمقياس ابتعادها عن تلك الأصول ، وإذ أصبحت دعوة الصحف ، على كثرتها ، دعوة إجماعية ، فإن الرأي العام قد تأثر بالبرنامج الذي تدعو إليه تأثراً سريعاً ، وسرى في البلاد عزم إجماعي قوامه عقيدة وطنية ، مبنية على أن غاية العمل الشريف الذي ينال به الفرد منزلة الإنسانية الكاملة هو العمل في سبيل المصلحة العامة .

وأن وسيلة ذلك العمل هي الخلاص في سبيل تحرير سياسة البلاد من قيود الوضع الاستعماري ، الذي يمنعها من التقدم ، وإنشاء المؤسسات الصالحة .

وأن آية هذا الإخلاص ، الاتحاد والتكامل وتنظيم العمل الجماعي في كل ناحية من نواحي الحياة ، ليقم المنشآت الحرة ، منسقة مع الكفاح السياسي ومبنية على روح التضحية .

وتقدم رجال الحركة السياسية لتحديد خطة المطالبة بخرروها في ثمان
نقط تتناسب مع ما يشكو منه التونسي ، يومئذ ، من سياسة الجور والتمييز
العنصري الاستعماري .

ونشطت كتل الشباب للعمل الإيجابي فنظم الطلبة الزيتونيون في رجب
١٣٣٨ مارس ١٩٢٠ مظاهرة هائلة أمام دار السفارة الفرنسية احتجاجاً على
احتلال جيوش الحلفاء لعاصمة الخلافة : استامبول ، ثم في شوال وفي جوان ،
سافر الوفد الدستوري إلى باريس لتقديم المطالب إلى الحكومة الفرنسية
بصفة رسمية ، وتقدم وفد آخر إلى الملك ، فلقى منه ومن أنجاله من التأييد
والنضامن ، ما أكسب الحركة الدستورية قوة ورسوخاً .

ودخلت الإدارة الاستعمارية في أعمال القمع والانتقام ، فأوقفت عن
وظائفهم الموظفين الذين شاركوا في الوفد المتقدم بين يدي الملك ، وكان من
بينهم الأستاذان محمد الصادق النيفر وعثمان ابن الخوجة ، ولما انتهت مدة
الإيقاف وعاد الشيخان إلى العمل في الجامعة ، أقيم لهما مهرجان استقبال عظيم
خطب فيه الطلبة وأنشد شعراؤهم ، فكان ذلك تقدماً جريئاً في طريق الثبات
على الكفاح .

وألقى القبض على الشيخ الثعالبي في باريس ، فحمل إلى تونس ، تحت
حراسة السجن وأحيل على المحكمة العسكرية ، فقضت بسجنه ثلاثة أشهر ،
خرج بعدها ، في صفر ١٣٣٩ أكتوبر سنة ١٩٢٠ ليشرّف عن كسب على
توجيه الحياة السياسية والفكرية للبلاد على المنهج النظري الذي يؤمن به
ويدعو إليه .

كان الثعالبي داعياً دينياً ، ومصلحاً اجتماعياً ، قبل أن يكون زعيماً
سياسياً ، فلذلك كانت جهة النهضة الدينية والاجتماعية من حياة الأمة ، آخذة
بنظره وسائدة على شعوره ومصرفة لفكرته . وكان نظره السياسي محل
اختلاف بينه وبين كثير من عناصر الأمة التونسية ، لكن نظره الإصلاحية

كان محل اتفاق . بسبب ما هيأت حركة النهضة الفكرية السابقة للنهضة السياسية من توجيه شائع مضطرد .

وعلى ذلك جاء ضبط الخطة التي قررت لهذا الازدواج ، وإعداد الأدوات التي استعملت لتنفيذها ، فكان للخطة منهج نظري ، وضعه الشيخ الشعالي ، يتلخص في أن مصدر التوجيه هو الدين الإسلامي ، وأن الدين قوامه العلم والأخلاق ، ووسيلة نشره الدعوة والتناصح ، وأن من حق الدعوة الإقدام في سبيلها ، والاستخفاف بما يتعرض إليه القائم بها ، من متاعب أو يناله من إرهاب ، وأن أمر المسلمين قد استمر منتظما طالما كان أهل الدعوة ، وهم العلماء ، قائمين بواجبها ، فلما قصر وا فيها اختل أمر المسلمين ، وطغت عليهم الأمراض الاجتماعية ، وقامت أمم أوروبا تنازعهم السيادة . وأن تونس ليست إلا جزءاً من ذلك الهيكل الإسلامي الشرقي ، تداولت عليها أطوار السعادة والشقاء ، كما تداولت على سائر بلاد الشرق الإسلامي ، وأن دعوة ظهرت في الشرق الإسلامي ترمي إلى إصلاح شأنه ، بتجديد ما كان سبباً في سعادته الأولى ، فاصطدمت هذه الدعوة بعدوين هما : الجامدون من أبناء البلاد ، والمستعمرون من الدخلاء عليها ، ودخلت في الكفاح في وجههما معا . وأن مصر هي مستقر هذه الدعوة ، ومركز هذا الكفاح ، وعنها تلقى رجال الإصلاح بتونس دعوتهم ، وعلى مثالها سيروا كفاحهم ، فاعتمدوا كما اعتمدت هي ، على الجرائد والمجلات ، في تلك ينشرون الدعوة ، وفي هذه يحررون الحجج . وأن نكبة الصحافة التونسية بالتعطيل ثمانية أعوام قد أوقفت سيرها نحو التقدم ، فلما انتهت الحرب ، التي كان حظ التونسيين من ويلاتها على عكس حظهم من غنائمها ، علق الناس أملهم في الحرية على مبادئ ويلسون فكان أملاً خلباً ، ولكن الأثر الأدبي قد بقي في نفوسهم بعد تلاشي الأمل السياسي ، فكان من النتيجة الحتمية ، لإشاعة تلك المبادئ وتعلق الآمال بها ، أن انفتحت آذان الجبابرة للإصغاء إلى شكوى المغلوبين ، وقويت نفوس المغلوبين على الشكوى والاحتجاج .

وبرزت الجرائد التونسية ، بعد فك عقالها ، تبث دعوة الحرية ، وتناضل المستعمرين في سبيل إيتاء الأمم المغلوبة حقها ، وتهيب بأبناء الأمة نحو التناصح بالحق والتعاون على إنشاء المؤسسات النافعة ، فلزم أن تكون دعوتها هذه راجعة إلى مبدأ يؤلف بينها ، وخطة توحد وجهتها نحو الغاية المثلى ، وذلك لا يتحقق إلا باستناد الجرائد ، التي هي لسان الدعوة ، إلى مجلة تكون مستودع الفكرة ومنبع التوجيه ولسان القيادة الحكيمة التي تأتمر الصحف بأمرها وتصدع بكلماتها .

هذا هو برنامج الثعالي ، الذي جعله عهد زعامته ، وأنشأ بمقتضاه مجلة الفجر في ذي القعدة سنة ١٣٣٨ أوت ١٩٢٠ ، مفتوحة بمقال بسط فيه هذا المنهج ، الذي اطر د سيرها عليه ، ثم سعى في توسيع نطاق الطباعة بالدعوة إلى تأسيس مطبعة كبرى ، كوّن لها شركة مساهمة ، وهي مطبعة النهضة ، على نية أن تصدر عنها صحيفة يومية كبرى . وأن تجد الصحف الأسبوعية فيها تشجيعاً وتسهيلاً .

وبهذا الانسجام بين الفكر والعمل والالتزام بين وسائل الدعوة كلها ارتبطت النهضة الفكرية والأدبية بالحركة السياسية ، وسيطر النفوذ السياسي على ميادين الإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي ، فأصبح الحزب الدستوري ، يهتم بمقاومة البدع الدينية ويحارب العوائد الفاسدة ، ويعمل على توجيه المشاريع الخيرية والاقتصادية ، حتى استحكم الشعور بهذا الارتباط في نفوس العاملين في السياسة والمشاريع فسووا في شرف الكفاح كل عامل في الحزب السياسي أو الصحافة أو الجمعية الخيرية أو النادي الأدبي ، وعاملتهم الحكومة أيضاً بهذا الاعتبار . فاعتبرتهم جميعاً ، كالحلقة المفرغة ، هم دعاة التشويش ونواديمهم ونشرياتهم يؤر تشويش وتمرد ، فزادت بذلك في تقوية اللحمة بينهم .

ونهضت الجمعيات الثقافية من رقادها ، لجمعية قدماء الصديقة بعد أن انقطع نشاطها وفقدت مقرها ، فأودعت مكتبتها في دار الجمعية الخلدونية ،

نهضت بتكون مجلس جديد لإدارتها ، تحت رئاسة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، فأصدرت مجلة أدبية راقية ، باسم «المجلة الصادقية» ، قام بإدارتها ورئاسة تحريرها محمد السعيد الخالصي فلم يصدر منها ثلاثة أعداد حتى احتجبت ، ونظمت محاضرات في نادي الخلدونية قام بها محمد العربي الكبادي ومحمد الشاذلي خزندار وعبد الرحمن الكعكاع ، واستمرت تدأب في سبيل استقلالها وتجديد ناديها ، فلم يتم لها ذلك إلا في سنة ١٣٤٢ - ١٩٣٤ ، تحت رئاسة الأستاذ مصطفى الكعكاع ، فكانت تلك السنة حافلة بالمحاضرات ومظاهر النشاط الأدبي في النادي والمكتبة ، وتوجهت المحاضرات وجهة جديدة نحو المواضيع التحليلية الدقيقة ، والنظريات الأدبية الجزئية والمشاكل الفكرية والدراسات الأدبية النقدية ، مثل محاضرات محمد بن الحسين «هل الفنون مطية للرقى» ، «هل الكاتب يكون الوسط» ، «هل تتطور اللغة العربية وآدابها» ، ومحاضرة الطاهر صفر «هل تطورت اللغة العربية على يد جبران» ، ومحاضرة عثمان الكعكاع «ابن الرومي والشعر اليوناني» .

كان أكثر المحاضرين البارزين على منبر قدماء الصادقية في هذا الطور ، من الشبان المتخرجين بالصادقية ، أصحاب الثقافة المزدوجة ، في حال أن الشبان الزيتونيين ، الذين كانوا عماد الأدب والصحافة ، قد بقوا بمعزل عن هذه الناحية ، يتطلعون متحرقين إلى إمكان الوسائل للظهور تحت اسم جمعية تبرز شخصيتهم الزيتونية ، وكان الشيخ محمد مناشو هو الذي يحرك فيهم ذلك التطلع وينميه ، ولكن الحكومة امتنعت عن الترخيص لهم في تكوين جمعية ، كما كانت امتنعت من قبل ، فاستمروا يعملون في نطاق ضيق ، ثم لما أيسوا من النحصيل على رخصة إصدار مجلة تسلموا في مستهل سنة ١٣٤٠ مجلة من صاحب امتيازها تسمى مجلة «البدر» ، وجعلوها مجلة جمعيتهم التي سموها «الجامعة الزيتونية» ، وكتبوا ذلك على عنوان المجلة ، فكان الشيخ مناشو المشرف عليها وتلميذه محمد الحبيب مديرها ، وسارت على منهج بحث على داق ، ودراسة تاريخية وأدبية عميقة ، تسودها الروح الدينية والأسلوب العلي

واستمرت الحركة الفكرية سنتين ، على هذا الوضع المتين ، مستندة إلى الحركة السياسية متقوية بإجتماع كلمة الأمة وراءها .

فلما حدثت الأزمة السياسية سنة ١٩٢٢/١٣٤٠ بسبب دخول الحكومة في محاولات إصلاحية ، حدث في صفوف الوطنيين انشقاق هائل ، بين أنصار المنهج السياسي الشرقي الذين كان يتزعمهم الثعالبي ، وأنصار المنهج السياسي الغربي ، المعتمدين على تأييد الحزب الاشتراكي الفرنسي ، بزعامة حسن قلائي ، ضعف أمر الحركة السياسية ، وتكسرت على نفسها بانصراف الصحف إلى المعركة الحزبية ، لما أسس حسن قلائي الحزب الإصلاحي وأصدر جريدة « البرهان » تدعو إلى قبول الإصلاحات ، والدخول في سياسة المراحل ، التي تنتهي بالبلاد إلى نظام من الارتباط بفرنسا قائم على أساس نظام الدومنيون الإنكليزي وظهرت الدعوة الشيوعية ، وحركة العمال ، فضايقت الحركة الدستورية في الميدان الاجتماعي ، والتهبت الحركة الدستورية بموقف الملك المقدس محمد الناصر ، لما هدد بالتنازل عن العرش تضامنا مع الدستوريين ، ثم خمدت بالحل السياسي الماكر الذي حلت به الأزمة ، ثم بوفاة الملك العظيم ، فكان ذلك نازلا على الحركة الفكرية بفتور تضائل منه أمرها فتوقفت المجلتان الراقيتان ، واحتكرت الأفكار والأقلام معارك السياسة والانتخابات ، وانسحب الثعالبي من الميدان ، ففارق البلاد واستقر بالشرق .

إلا أن شبابا طموحا ، على الهمة الأدبية ، من أسرة مجلة البدر ، وأركان جمعية الجامعة الزيتونية ، لم تغلبه عوامل الفتور فثبت صامدا يجاهد في سبيل المحافظة على الشعلة الأدبية ، هو زين العابدين السنوسي ، ابن الشيخ محمد السنوسي الذي عرفنا بقيمته فيما مضى ، فكون له مطبعة باسم مطبعة العرب ، على ضعف ماله من الوسائل المادية ، وتحيل على المنع القانوني ، بإصدار نشرة شهرية على طراز مجلة البدر في صورة كتاب ذي أجزاء سماها « العرب » فمنعت الحكومة رواجها من العدد الرابع فاستمر ينتحل لكل عدد إسما يدل

على ثباته في إصدار مجلة العرب التي لم يرخص فيها ، فكانت أسماء الأجزاء تختلف بين المقالات ، ومقالات العرب ، ود لطائف العرب ، واستمرت الحكومة تلاحقه وهو يراوغها على هذا النحو إلى سنة ١٣٤٤/١٩٢٦ .

ودخلت الحركة الحزبية داخل الجمعيات ، فانصرفت عن أعمالها الثقافية والاجتماعية إلى المنافسات والمناقشات الانتخابية ، ودخلت الجمعية الخلدونية وجمعية قدماء الصادقية والجمعية الخيرية وجمعية التمثيل العربي ، في شبه حياة برلمانية ملئت بالمؤامرات والدعاوى ففترت عن القيام بما أسست له ثم أخذت إلى نوم طويل .

ونزلت فوق هذا الاضطراب السياسي دواعي اضطرابات أخرى كانت أشد أساسا بالحياة الفكرية ، مثل مسألة الخلافة ومسألة الحجاب ، فإن موقف فرنسا في الحرب الكبرى ، ضدًا للسلطنة العثمانية ، كان عاملا في تقوية حماسة المسلمين في التعلق بالخلافة ، فلما انجلمت الحرب العظمى عن الحركة الكمالية تعلق الناس بها واتخذوا الغازي مصطفى كمال علم الخلافة المجدد شباها . واعتبروا انتصاراته العظمى ثارا مما ينال المسلمين كلهم في الشرق والغرب من عدوان الأوربيين ، وأقيمت الحفلات لمشروع الهلال الأحمر وعقدت المجامع للتنويه بالمواقع والتهنئة بالانتصارات .

ولما أعلنت الجمهورية التركية وتطورت السلطنة إلى خلافة وجد دعاة الخلافة الإسلامية من صبغتها الدينية المحضة ذريعة لعمالهم فتأسست سنة ١٣٤١ - ١٩٢٢ لجنة الخلافة الإسلامية برئاسة أحمد توفيق المدني وأعلنت بيعة الخليفة واتصلت به (١) ، وسرعان ما جاء قرار إلغاء الخلافة سنة ١٣٤٣ - ١٩٢٤ فصعق المسلمون بتونس لذلك وأنكروه كما صعق له وأنكروه العالم الإسلامي كله ، وتمسكوا ببيعة الخليفة عبد المجيد واستمر الأئمة في الجوامع يخطبون باسمه وهو مبعود في سويسرا ، وكاتبوه بالتأييد كما كاتبوا حكومة أنقرة بالاحتجاج . وأعلن عن انعقاد مؤتمر الخلافة بمصر فبقوا ينتظرونه في بلبلة واضطراب



ثم انعقد سنة ٤٤ - ٢٦ وشارك فيه الشيخ عبد العزيز الشعالبي والشيخ محمد الصالحى من كبار المحامين بتونس فلم يسفر عن نتيجة ، وظهر كتاب الإسلام وأصول الحكم ، للشيخ على عبد الرازق أثناء انتظار نتيجة المؤتمر وقامت حوله الضجة بمصر فكان لها صداها بتونس وكتب الشيخ الطاهر ابن عاشور نقدا عليها نشر تباعا بجريدة النهضة ثم طبع مستقلا بمصر . وانقلبت محبة الكثيرين في مصطفى كمال كرها له ونقمة ، إلا أن أحد المعروفين باستقلال النظر من علماء جامع الزيتونة ، وهو الشيخ عثمان ابن الخوجه كتب في جريدة الزهرة يؤيد ما فعله الكماليون ويصرح بأن الخلافة على وضعها الذى ألغيت به ليست دينية لفقدائها الشوكة التى هى شرطها الاصلى . فتقسمت الأفكار بذلك ، وظهر شق متطرف من شباب الكتاب والمفكرين ينظر إلى هذه المشكلة وغيرها من المشاكل الدينية نظراً مستخفاً بما اصطلح الناس على تسليمه من المبادئ . ونظر الجمهور إلى هذا الشق بانكار واحتراز ، ولم تسمح لهم قلتهم وإجماع الناس على مخالفتهم بإظهار أفكارهم ، فبقوا منحازين فى نوادهم يعترضون بالشيخ عثمان بن الخوجه ، ويجدون من الأفكار التجديدية التى تطالعهم بها الصحف المصرية وخاصة جريدة السياسة الأسبوعية غذاء لأفكارهم وتقوية لموقفهم فكانوا معروفين بميلهم إلى المبادئ الكالية وطريقة على عبد الرازق وطه حسين ومحمود عزمى ، وربما اعتبرهم كثير من الناس ملاحدة وشاعت دعوة السفور وتحرير المرأة فخاضت فيها النوادى والصحف ، وانتصب الكتاب الدستوريون لمقاومتها باعتبار كونها باباً من أبواب الاندماج ، واغتنم هذه الدعوة الحزب الاشتراكى الفرنسى بتونس ، فدعا لعقد اجتماع سنة ١٣٤٣ - ١٩٢٤ خطبت فيه سيدتان مسلمتان ، بالدعوة إلى رفع الحجاب ، وخطب فى الرد عليهما الكاتب الوطنى الشاذلى خير الله ، ومضت جريدة الحزب الاشتراكى بتونس تدافع عن الدعوة ، ومن كتابها مسلمون تونسيون فيهم الأستاذ محمد نعيان وغيره من رجال الحزب الإصلاحى ، وانبعث الكتاب الدستوريون يردون عليهم فى الصحف العربية والفرنسية



وكان ما بين الحزب الاشتراكي والحزب الإصلاحى من التعاون قاضيا على جريدة النهضة لسان الإصلاحيين بالسعى فى تعديل الموقف ، فكان ذلك زيادة فى توريطها فى نظر الصحف الدستورية إذا اعتبروها مناصرة للدعاوى الهدامة الرامية إلى الانسلاخ عن الذاتية القومية ، والتزم كل من الشقين منهجه فى عامة المشاكل الاجتماعية والفكرية التى من هذا الباب ، فكان الإصلاحيون والاشتراكيون أنصاراً للتجديد ، والدستوريون أنصاراً للحفاظة .

عوامل التطور الأدبى :

تعتبر هذه الفترة بتونس ، فترة الأمل ، فقد أدرك أهل البلاد عظمة موقعهم وأهمية مشاركتهم فى الحرب ، فتطاعوا إلى مكان أسمى بين أمم الدنيا ، وارتفعت عن الأبصار غشاوات توجهت بعدها إلى الملاحظات السامية ونبضت القلوب بالعزم ونفضت أصداء الفتور والسكسل ، وكان تأكد الشعور العربى الإسلامى فى النهضة الوطنية ، وربط أمل تونس فى مستقبلها بمستقبل الشرق العربى ، عاملاً على أن تتخذ البلاد لها من نهضة الشرق وتحرره وفيوض المدنية والعلم والأدب المتدفقة منه مثلاً يزيد لها اعتداداً بنفسها ، ويعالج فيها عقدة الشعور بالنقص ، ثم كانت أصداء ما تجاوز به الشرق من آثار النهضة العلمية والصناعية ، وعظا بالغاً للتونسيين بأنهم واصلون إلى ما جدوا فى سبيله ، إذا صححوا العزم وواصلوا السير .

وأن الآثار الفكرية والقلمية ، التى تصلهم من الشرق ، قد كانت موضحة للمسالك التى انتهت منها نهضة الشرق إلى غايتها الحميدة ، وموحية بطرق الدعوة إليها والتغنى بها إيماء كوّن توجيهها جديداً نحو أدب يصور روح النهضة العملية ، لا النهضة الشعورية التى كان يطفح بها الشعر العصرى فى الطور الماضى ، ثم إن الصبغة الجديدة التى اكتسبها النتاج العلمى والأدبى فى الشرق ،

جاءت هي أيضا موجهة إلى تدقيق النظر العلمي والتعمق فيه ، بصورة جعلت غاية العلم والبحث والدراسة بعد أن كانت المعرفة والتحصيل .

وكان لهذين العنصرين ، عنصر النهضة للكفاح التحريري وعنصر النهضة لترقية العلوم والآداب أثر واضح في تغير لهجة الشعر والنثر . واختلافهما عما كان عليه في المعاني والأساليب .

فأقبلت الناشئة الأدبية بتونس تستلهم من مثل الأدب الراجح في الشرق منهج أدبها الجديد لتودعه ما فاض على النفوس من آثار النهضة الجديدة المطبوعة على مثال النهضة الشرقية . كما أقبلت في الناحية الأخرى ، على نتائج القلم الغربي ، التي اتصل بها مباشرة العارفون باللغة الفرنسية منهم ، وقد توفر عددهم وتنوعت فنون معارفهم ، فوصلوا بينها وبين إخوانهم الذين لا يعرفون تلك اللغة ، زيادة على ما وصلتهم بمثل كثيرة منه المجالات الشرقية والكتب المطبوعة بالشرق تعريبا لآثار أدبية أو تآليف فلسفية وفكرية ، وما فاض على أدب العرب في المهجر ، من لمحات جديدة مستمدة من الروح الغربية وآدابها . وهانحن نتتبع مظاهر ذلك التطور في الفنون التفصيلية ، التي حصرنا فيها النتاج الأدبي وهي النثر السياسي ، والنثر العلمي ، والنثر الفني والشعر ، والخطابة .

النثر السياسي :

لما تجددت الحركة السياسية ، على الوضع الذي صورناه ، ظهر النثر السياسي في قالب من اتحاد المنهج ، واتفاق الوجهة ، وتشابه اللهجة ، لم يعهد له من قبل ، وكان تكاثر عدد الصحف ، مقتضيا لتوفر الآثار القلمية في باب النثر السياسي ، كما كان تطور الحالة في النواحي الثلاث ، الفكرية والسياسية والأدبية ، مقتضيا لاختلافه عن ما كان عليه في الروح والغرض والأسلوب .

فأكثر الصحف التي كانت موجودة قبل حالة الحصار قد عادت إلى الظهور ،

وأنشئت معها صحف أخرى تلاحقت بعد رفع حالة الحصار ، ولكل صحيفة من هذه الصحف عدد من الكتاب ، يؤلف أسرتها ويساعد في إدارتها وتحريرها ، فكان الكتاب السياسيون في هذا الدور ، لا يقلون عن مائة ، والمقالات السياسية التي تكتب كل شهر لا تقل عن مائتين .

والمقارنة بين آثار النثر السياسي التي وجدت في هذا الدور والتي وجدت في الأدوار الأخرى ، تدل على أن الثقافة السياسية للكتاب ، قد تطورت واتسعت ، وأن الروح القومية قد اختمرت ورسخت بسبب طول المراس والمران وسمو التكون الفكري والأدبي ، وبسبب ما اتصل بالحياة السياسية من أفق المعرفة الواسع ، على أن عدد القراء قد تكاثر بالنسبة إلى ما كان عليه بسبب تناقص الأمية ، وجمهور الأمة أصبح على اتصال بمجرى الأحوال ، واشترك في مبادئ السياسة وأحاديثها بسبب شيوع الحركة السياسية وتشكلها بالشكل الحزبي .

فصارت المبادئ التي كان الأقدمون يجتهدون في الدعوة إليها والإقناع بها ، مبادئ أولية مسلمة لا يتعلق القصد بالدعوة إليها ، بل يكتفى بالتفريع عنها والتوجيه إلى مقتضياتها ، فاختلف الأسلوب الخطابي الإقناعي الذي هو أسلوب الدعوة إلى المبادئ ، وحل محله أسلوب تذكري توجيهي يعتمد على اتخاذ المبدأ المسلم وسيلة للتذكير به وتوسيع معناه والتوجيه إلى المقصود من آثاره العملية ، فتناقصت بذلك روح العمق في التحرير واصطبغ بالصبغة السطحية ، حتى صارت دعوة الكتاب السياسيين بمثابة خطابة الوعاظ الدينيين ، تتخذ العقيدة أصلاً تذكر به وتوسع أثره في النفس وتوجه إلى ما يقتضيه من سبل الخير . ولا غرو فإن الشعور الوطني قد أصبح عقيدة شعبية راسخة .

وإذا كان هذا شأن الصحف التي هي أداة الدعوة وآلة التوجيه العملي فإن المجلات لم تكن مجالاً لضرب أسمى من ذلك من النثر السياسي ، بسبب أنها لم تكن تشغل بالمواضيع السياسية المبدئية ، ولا تعالج المشاكل بطريقة الدراسات

فإن منها ما لم يكن يتناول السياسة أصلا ، فكان هذا التيار الوطني الجامع بين نخبة الكتاب وعموم القراء ، قاضيا باختفاء صورة الدراسة السياسية في ابتداء هذا الطور بعد أن شاعت وازدهرت في الدور الماضي ، فاقصر النثر السياسي على خصوص المقال ، واستمر كذلك مادامت أغراض المقال منسجمة مع وحدة التوجيه السياسي واجتماع الكلمة الحزبية .

فكانت المفردات التي تدور في هذه المقالات ، هي المفردات ذات الرنة السياسية المثيرة للتعليق أو المقت ، وبذلك أصبح لطائفة من المفردات رواج واشتهار ، فسهلت لغة التحرير ، وقربت من متناول القراء على اختلاف طبقاتهم الثقافية . وتبعته سهولة المفردات سهولة التراكيب ووضوحها ، وتبع تسلسل الأفكار ارتباط الجمل وتواصلها ، وتبع روح الاحتجاج والتهكم الأساليب القوية في إبراز ذلك المعنى بالاستعارات المفصحة عن صورة الحقيقة في خيال الكاتب ، وضرب الأمثال . وسلوك طريقة الحوار مع القارئ بتوجيه الخطاب والتساؤل ، واعتراض الجمل المقتضية استحضار جو التخاطب والشيعة لروح التمشي مع الجدل والبرهان .

وإذا كانت كثرة الكتاب الذين تعاطوا فن المقال السياسي ، وكثرة التحارير المهمة الإمضاء ، التي لا يمكن التحقق من شخصية كاتبها . تمنعان من حصر المجيدين في هذا الباب من فن النثر ، فإننا نستطيع حصر البارزين الممتازين ، الذين سما فن المقال السياسي على مطايا أعلامهم ، في ستة : هم سليمان الجادوى ، ومحمد بن الحسين ، وأحمد توفيق المدني ، ومحمد المنصف المنستيري ، ومحمد محي الدين القليبي ، ومحمد المهدي بن الناصر ، فأولهم سليمان الجادوى يمثل طبقة السكحول . وثانيهم وثالثهم ، محمد بن الحسين وأحمد توفيق يمثلان عنصر الشباب ذى المعارف الغربية الواسعة والثقافة العربية المتينة ، وبقيتهم من الشبان ذوى الثقافة العربية الزيتونية الصرفة .

ومع ما يتحد فيه هؤلاء الستة من الفكرة والمنهج ، فإن لكل واحد منهم

اختلافاً تفصيلياً يبرز منه عنصراً ممتازاً بطابعه الشخصي ، فالشيخ سليمان الجادوى ، صاحب جريدة مرشد الأمة روح كتابته روح حماسة إسلامية وطنية ينهج في تحريره نهج التذمر والاحتجاج ، ويحتد في مهاجماته ويتنمر ، ويستقصي الحجة لموضوعه من كل وجه ولو كان على غير مبدئه ، قصداً إلى إقحام الخصم ، ويبدو في طريقته الثبات على المبدأ إلى حد التطرف ، واليقين المطلق في النظرية التي يدافع عنها ، وأكثر مقالاته نقداً لمواقف رجال الحكم وتصرفاتهم ، بمقياس الخلق الدينى والمبدأ الوطنى ، وأسلوبه البيانى عربى متين يستمد من الثقافة الدينية ويبالغ فى تشنيع الصور ولا يقتصد فى كشف الحقيقة على ما يتصور فيها من شر ، ولو لا ما فى تحريره من قلة الانسجام واضطراب التسلسل المنطقى وما يغرق فيه من الاستطراد والبيانات اللغوية ومسائل العلوم الآلية التى يذو عنها ذوق التحرير الصحفى ، وما يعترى جملة أحيانا من لحن وسقم فى التركيب ، لكان شيخ مدرسة المقال السياسى بحق وإن كان ذلك لا ينزع عنه ما برز به لنظر التاريخ من أنه فارس الدفاع فى سبيل الفكرة الدستورية الذى لا يتراجع ولا يلين .

أما محمد بن الحسين فهو من أبناء المدرسة الصادقية ، وقد تكون تكوناً إسلامياً خالصاً ، بالانشأة على التربية الدينية ، وحذق القرآن العظيم ، وتمرس بأساليبه وتراكيبه ، وحفظ من الأدب العربى المتين الأصيل ، شهره ونثره مادة واسعة تخرج بها . وبلغ من إجادة اللغة الفرنسية ، وتذوق أساليبها البيانية ، والوقوف على مناحى تفكيرها ومناهجها الأدبية . شأواً لم يلحق فيه إلا قليلاً ، ودخل الحياة العامة مزوداً بتلك الثقافة العالية فشارك فى تحرير المجلات والصحف وكان ولعه بتتبع سير الأحداث العالمية وأحكام كبار المفكرين الغربيين ، عليها ، يدفعه إلى العمل على إيصال تلك الدروس إلى الفكر العربى . فكان يكتب فى مجلة الفجر تلميحاً لحوادث الشهر ، هو عصارة النظر الفلسفى لأعظم الأحداث ذات المغازى ، ونشر المقالات السياسية فى كثير من الجرائد الوطنية بإمضاء مستعار عرف به : « ابن جلا » فكانت مقالاته آية فى صحة النظر وقوة الحجة وحسن الاستمداد من تصانيف الحياة

الغربية ما يقوى ثبات الوطنيين في التعلق بقوميتهم والحفاظ على كيانهم ، كما كانت آية في حسن الابتداء وحسن الانتهاء وحسن اتساق الجمل وصلا وفصلا ، وحسن التنزيل وحسن الاقتباس وحسن الاختيار للتراكيب المطابقة للاعتبارات المناسبة .

وإذا كان أحمد توفيق المدني ، يشابهه في الثقافة المزدوجة والنشأة على العربية الخالصة ، فإن طريقة تكونه الفكري وبروز موهبته الكتابية ، قد اختلفت عن طريقة صاحبه فكان اتصاله باللغة الفرنسية ، اتصالاً محدوداً بنهاية التعليم الابتدائي ، ثم اتصل بالمعهد الزيتوني فصقل فيه فطرته على الأدب العربي الصحيح ، واشتغل بشئون الحياة العامة فألقى عليه القبض وأودع السجن شاباً دون العشرين ، فأتقن في السجن اللغة الفرنسية ، وتعاطى لغات أوروبية كثيرة ، وطالع كتب الفلسفة والاجتماع والسياسة ، وخالط الصحف والمجلات الراقية ، فكون لنفسه نبوغه وعصاميته ، علماً واسعاً وفكرة اجتماعية ناضجة وثقافة سياسية قليلة النظير ، فلما خرج من السجن ارتقى بكليته في الحياة السياسية والفكرية ، يخطب ويحاضر ويحرر ويترجم ، وبرزت قيمته الإنشائية في المقالات التي ينشرها بالصحف بإمضائه المستعار « المنصور » ، وهي مقالات تسودها القوة المنطقية مع الحماس الخطابي ، ويزينها التعبير المتين الصافي السهل الممتنع المتحرى دقة الاستعمال اللغوي ، وكشفت مقالاته في منهجها ومادتها عن أسلوبه العلمي وثقافته الفكرية ، فرفع ذلك قدره بين أهل العلم والفكر ممن لا ينتمى إلى وسطه السياسي ، وجذبته ناحية نبوغه العلمي إلى النشر الثقافي الأدبي ، فأصدر في سنة ١٣٤١ - ١٩٢٣ تقويماً سنوياً سماه : « تقويم المنصور » ، وإلى إصداره خمس سنين ثابتاً على مألقي من المقاومة الحكومية حتى أصدر الجزء الخامس بالجزائر بعد نفيه إليها .

وأما محمد المنصف المنستيري فإن اشتغاله بالسياسة لم يحدد من إقباله على العلم ، فتكون تكويناً علمياً زيتونياً صحيحاً على المنهج الزيتوني منهج التحصيل والبحث والتحليل ، فكان في روحه وفكره عالماً زيتونياً بالمعنى الكامل ،

وبتلك الروح العلمية تناول شؤون السياسة في مطالعاته الواسعة ، فكان حريصاً على تحليل المقاصد وربط المعاني حريصاً على جمع الكتب والصحف والوثائق ، فتأثرت كتابته بذلك ، وجاءت مقالاته ممتازة بطول النفس ، والإحاطة بالموضوع وحسن تحليله إلى عناصره الأولية والثانوية ، وقوة الاعتماد في حججه على الوثائق والوقائع المنصرمة مضبوطة بتواريخها ودراساتها ، يدخل موضوعه بمقدمة تربط بينه وبين ما يخوض فيه الناس من شؤون حاله ، ثم يتدرج في عناصره الأولية ، فلا يترك عنصراً إلا بعد الإحاطة بشؤنياته ولو أحقه فينتقل إلى العنصر الموالي وهلم جرّاً فكانت نزعة مقاله نحو الدراسة وبذلك طالت مقالاته ، فكان أكثرها يتنازع في أعداد . واستعصت على متناول عموم القراء فأصبح قراؤه المتمسكون بتتبع مقالاته المعجبون بسمو تحريرها هم الممتازين من قراء الصحف بثقافتهم العلمية ومداركهم الراقية . وتبدو خصوصيته الثقافية في أسلوبه الإنشائي القائم على حسن تخير الألفاظ لمواقعها ، وبسط المعنى الجزئي واضحاً في الجملة ، واستعمال جمل كاملة لربط المعاني والتنبيه على ما بينها من تفرع وتسلسل ، وفي نزعته إلى الاصطلاحات العلمية بدون إغراق يذو عنه الذوق الأدبي ، وحسن الاقتباس والتوليد من الآيات القرآنية والأمثال وأبيات المعاني ، بحيث صار الكاتب السياسي الراقى الذي اصطفت مقالاته بصيغة الدراسات العميقة الدقيقة .

ويختلف عنه في هذا المنهج اختلافاً واضحاً ، قرينه محي الدين القليبي ، إذ لم يكن يقارنه في مستواه الثقافي ، بل كان تخرجه في الكتابة تخرج ارتجال ومران ، شغف بالصحافة والحياة السياسية شاباً فقطعاه عن مواصلة الطلب ، فكان استمداده من واقعيات الحياة وأحداثها ، ولكن استعداده الفطري أبرز منه مواهب غريبة فعالج الكتابة الصحفية حتى تخرج فيها ، وحرر في أكثر الصحف الوطنية ، ثم اختص برئاسة تحرير جريدة «الامة» سنة ١٣٣٩ - ١٩٢١ فكانت اللسان الشبيه بالرسمي للحزب الحر الدستوري ، وكانت مقالاته فيها توجيهات ذات أثر بعيد في حياة الحزب ، وكانت خطته في الكتابة خطة

الدعوة الإقناعية ، يبتدىء بالمقدمات العامة ويسرع إلى إدراج موضوعه تحت كاية المقدمة ، ثم يسترسل في توسيع نقطة الموضوع على المنهج الجدلي ، يلم بأطرافه من غير تفصيل ولا تحليل بل في حبك وانسجام ، يسوقه الارتباط الواقعي أكثر من الارتباط العقلي ، وتمتلكه الحججة الخطابية دون الحججة المنطقية ، في تعبير سلس يستسيغه عموم القراء ، وجمله سهلة التركيب قوية الروح الحماسي تغترف من لغة السياسة وتعتمد التأسي بالأساليب الصحفية الراجحة .

وأما محمد المهدي ابن الناصر فهو في نشأته العلمية وتكوينه الزيتوني ، أقرب إلى المنصف المنستيري ، جمع بين الجد في طلب العلم والاشتغال بالسياسة فجاء تكوينه الثقافي الزيتوني كاملاً ، ورزق ملكة خطابية ممتاز بها بين أقرانه ، وشارك في التحرير في الصحف الوطنية بامضاء مستعار «أبو الضياء» ، فكانت مقالاته وسطاً بين الدعوة السطحية والدراسة المتعمّرة ، وأسلوبه نازعاً إلى الفصاحة الخطابية ، جمل قوية الوقع متينة التركيب متخيرة الألفاظ جميلة السبك الأدبي ، وحجة بسيطة مقنعة تتردد في أطراف الموضوع ببراعة تدفع عنها عيب الالتواء وثقل التكرار .

هؤلاء هم الذين يبدو فيهم تطور النثر السياسي ، وعلى هذا المنهج استمر النثر السياسي في الدور الأول من دورى الحركة الوطنية ، دور التوافق والالتئام . فلما حدث الشقاق بين الدستوريين والإصلاحيين وأنشئت جريدة البرهان سنة ١٣٣٩ - ١٩٢٢ كان ذلك قاضياً على النثر السياسي باختلاف المنهج ، إذ تكونت بالانقسام أغراض جديدة ، وأصبحت المبادئ التي كانت أولية مسلمة ، محل بحث وجدال ، ونشأت المعارف القلبية المحتمدة بين جريدة البرهان وواجهة الصحف الدستورية ، ووضعت الأشخاص موضع النقد والمهاجمة ، والكفاءات والأمانات موضع الاتهام ، واستتبعَت هذه الأغراض ما يرتبط بها من الأساليب الإنشائية ، وبرزت في تلك الأساليب مواهب معينة ، ففي صف الدستوريين ظهرت من الكتاب الذين عرفناهم

مقالات ذات طابع جدلي قضت به المواقف التي فرضها على صحفهم جو التطاحن الحزبي، وامتناز في هذا الباب محمد بن الحسين بما أوتي من قوة الفراسة التي يتجه بها سريعا إلى محل التأثير من الرأي العام. فيجد أحسن الكلمات وقعا على ذلك المحل وأبلغ التراكيب نفوذاً فيه، حتى سلم له من بين أنصاره وخصومه أنه بطل تلك المواقف الذي لا يجارى. وفي صف الإصلاحيين ظهر النبوغ في أقلام محمد بو رقيب وعبد الرحمن الكعكع ومصطفى صفر. ولما كان المنهج السياسي الذي تحتذي به جريدتهم ويقوم عليه حزبهم بعيداً عن التلاقي مع اتجاهات الجمهور، فإن تفوقهم قد انحصر في الإفحام بالأدلة العقلية الواقعية والقهر بالبرهان المنطقي، ولما كانت ثقة العموم بالحزب الدستوري وتسليمهم بزعامه رئيسه الشعالبي يقومان سداً دون بلوغ كلمتهم إلى نفس الجمهور فقد توجهوا إلى تهديم الزعامه وزعزعة الثقة، فاتخذوا طريقاً في المحاسبة على مبالغ الأمانة وعلى ما منيت به مساعي أضدادهم من الخيبة، وتناولوا الزعماء وخاصة الشعالبي بطريقة من التهكم والتورية يراد منها تكوين صورة سخرية مضحكة تفسد صورته التي استقرت في الأذهان وسط هالة من الإكبار والاحترام، فكان ذلك مقرباً لمنهجهم في هذه المعارك من منهج الكتابة الهزلية التهكمية على النحو الذي عرف قديماً في نثر الجاحظ وبديع الزمان والخوازمي وابن زيدون. فصارت كتابتهم أقرب إلى النثر الفني وأدخل في الصناعة البلاغية، وكان أبو رقيب والكعكع من أوسع الناس رواية للأدب وأصفاهم ذوقاً في النقد وأرسخهم ملكة في التلاعب بأوجه التعبير وتصاريح القول، أما مصطفى صفر فكان ناشئاً على طريقة النقل والتعريب متشرباً بروح اللغة الفرنسية وأدائها، يستلهم من فن النقد وطريقة الجدل عند الكتاب الفرنسيين فيودعها في لغة عربية متينة دقيقة الاختيار للألفاظ الكتابية والقوالب الأدبية على منهج الممتازين بالبراعة من رجال الترجمة.

النثر العلمي :

نهض النثر العلمي من كبوته وانتعش بحالة الازدهار النفسي والانسجام الاجتماعي ، ووجد من تعدد المجالات ميدانا فسيحا ، ومن وفرة المطابع مشجعا قويا .

وإذا نحن تجاوزنا كتب العلم والتعليم القيمة وما كان لها من أثر وهدى ، بسبب بعدها عن فن النثر وتمحضها إلى العلم والتحقيق والصناعة التعليمية ، فإننا لانستطيع أن نتجاوز كتبنا في صناعة الإنشاء والأدب وأخرى في التاريخ فكتاب « أصول الإنشاء والخطابة » للشيخ الطاهر بن عاشور قد كان في تحريره العالي ، وعمقه في روح العربية الصافية ، وتحليله لمناهج التفكير وفنون التعبير مظهرا ساميا من مظاهر النثر العلمي المتين ، وكتاب الشيخ الصادق البليش « القواعد الإنشائية » بما حوى من القواعد والتوجيهات وما اشتمل من المثل الأدبية المنتقاة بتقسيمها وتنسيقها والكشف عن مظاهر الجمال البلاغي فيها يعتبر مثالا للنقد الأدبي والتوجيه البلاغي الذي هو من أخص أغراض النثر العلمي ، وكتاب « لب التاريخ » للشيخ محمد الحبيب في حسن صوغه وتنقيح عبارته وإن كان سلوك طريقة السؤال والجواب قد أضعف الروح الأدبية فيه ، وكتاب « التاريخ العام للجزائر » للأستاذ عثمان الكعاك في فصاحة تعبيره وجمال تراكيبه ، وتناسق فصوله ووصوله ، وبراعة أوصافه ، وحسن إبرازه لروح التاريخ ، هو مثال نادر من مثل التحرير التاريخي الذي تعز بنظائره آداب اللغات وكذلك كتابه « المجتمع التونسي على عهد الأغلبية » .

ثم ننتقل إلى النشرات الدورية فنجد مجلتي الفجر والبدر . قد ابتدئا مثلا غزيرة من النثر العلمي وخاصة في الدراسات التاريخية والفلسفية فالشيخ الثعالبي نشر مقالا مسهباً أو كتاباً غير مجموع في مجلة الفجر تباعا هو مقال « سقوط الدولة الأموية » وهي دراسة واسعة للأدوار الأخيرة

للحكم الأموى مع استقصاء عوامل السقوط وأسباب الثورة واستخلاص القوانين العامة لسقوط نظم الحكم بعدم انسجامها مع التطالع الشعبى فى تعبير جزل فصيح ووصف بليغ مسهب قد يعوزه الضبط وتدقيق المعنى ، وفى المجلتين دراسات تاريخية فائقة للأستاذ عثمان الكعاك مع دراسات أثرية وتاريخية له ولغيره تبعد بصيغتها العلمية المحضة وإيجاز تحريرها عن صميم النثر العلمى .

أما التحرير الفلسفى فقد كان فى المجلتين ضئيلا جداً بحيث لا نستطيع أن نسجل فى بابيه إلا مقالات سطحية فى الأخلاق ومقالات فى صناعة التعليم بديعة التحرير نزاعة إلى التحليل النفسى نشرت متتابعة فى مجلة البدر بقلم ثلاثة من شباب المعلمين هم : الطاهر سفر ومحمد الحليوى والبشير بن الطيب على أنها كتاب اسمه : بيان الحكم فى فن التعليم ، ولكن تتابع هذه المقالات لم ينتظم ، ولم يظهر الكتاب مستقلاً فيما بعد .

* * *

النثر الفنى :

اتجه النثر الفنى فى هذه الحقبة اتجاهاً جديداً إذ توقف بعض أغراضه الماضية ونشأت له أغراض كان عنها بمعزل وتقلص أثره من الصحف السياسية وانقطع عن الرحلة فاستعاض بالغرضين الجديدين ، القصة والصحف الفكاهية وخدمهما مع الغرض الناشئ فى الحقبة الماضية وهو المسرحية .

أما القصة فاختمرت روحها عند الكتاب بتأثير عاملين :

أولهما — تذوق فن الرواية المسرحية ومعاناتها ، وما المسرحية إلا القصة فى خيالها وتسلسل أحداثها وعقدتها ، إلا أن قالب الصوغ بينهما يختلف اختلافاً ينشأ عنه اختلاف الأسلوب الإنشائى .

العامل الثانى : كثرة النقل عن القصص الفرنسية ، فقد سبق أن اشتغل

الممارسون للغة الفرنسية بنقل ما روعهم من القصص بطريق الترجمة. ففي سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢ اهتم محمد العربي الجاولي من متخرجي المدارس العربية الفرنسية بنقل قصة « فيديورا » عن الكاتب الفرنسي فيكتور يان ساردو. وتعاون على حسن سبكها بالعربية مع محمد الجعائي فلم تلاق رواجاً كبيراً، إذ نبت عنها الأذواء يومئذ، ولما تجددت الحركة الأدبية بعد الحرب العظمى واقتربت بنمو عدد المتعلمين بالفرنسية وارتقاء ثقافتهم الأدبية اعتنى رجال منهم بتعريب قصص عن الفرنسية أو تلخيصها. واهتمت بذلك مجلة البدر. ثم كانت أحداث النهضة التركية وما حركت في نفوس التونسيين من عواطف الحماس ملهمة الخيال الروائي للكاتب فكانت المثل الرائعة في التضحية والبسالة التي شاعت أحداثها هي مواضيع التخيل ومادة صوغ القصص الروائي. فظهرت روايات صغيرة تعتمد تقريباً على مسامرة الحدث الواقعي وتدخل على جوانبه بسطاً من الوصف وتخيلاً في إبراز الأشخاص والأحداث وتفنناً في التعبير ينقل إلى القراء ما في نفس الكاتب من صورة خيالية هي وليدة الإعجاب والحماس. وأول من فتح هذا الباب في الكتابة هو الشيخ محمد الحبيب بإصدار روايتين موضوعهما تركي، ثم اقتفى سبيله في الكتابة القصصية شاب زيتوني، ظهر نبوغه الأدبي بتوجيه الأستاذين محمد مناشو وعثمان بن الخوجة، وهو الشيخ أحمد خير الدين فأظهر من حسن التخيل وجمال الوصف وجاذبية التعبير ما يمكن لرواياته رواجاً ولسمعته الأدبية منزلة ثابتة.

وأما أدب الصحافة الفكاهية فقد سما به إلى فن النثر العربي الجديد حسين الحزيري إذ جمع إلى ملاحظته الدقيقة وروحه الساخرة ونكتة التهكمية ومنطقه الفكاهي، ممارسة لفنون الأدب العربي، ورواية واسعة فيها، وذوقاً متصرفاً بالنقد من مواقع الكلام ومجاز البلاغة، وكانت الصحف الفكاهية التي صدرت قبل ذلك تكتب باللغة الدراجة وتستعمل الزجل الشعبي والنكتة العامية، حتى أصدر حسين الحزيري جريدة « النديم » ووجهها للخدمة المبدأ الوطني الدستوري وفكرة الإصلاح الديني والاجتماعي، فأسس روح

الأدب العربي لتناول صور الحياة الماثلة بالتهكم والنقد ، وأبدع في التلاعب بالألفاظ والتراكيب والأبيات والأمثال ، ومزج روح النقد الجدى بالدعابة والتعسكيت فجدد للنثر العربي حيويته ومرونته .

وأما الرواية المسرحية فقد كان الاتجاه الجديد لحياة المسرح عاملاً على تعطيل الإنتاج فيها إصالة باللغة العربية ، فإنه لما رجعت الجمعيتان التمثيليتان ، الآداب والشهامة ، إلى العمل عند رفع حالة الحصار ، لم تشتغلا أول الأمر إلا بإعادة الروايات التي مثلت في الدور الماضي . مثل صلاح الدين ، ومجنون ليلى ، وهملت ، والقائد المغربي ، وبإخراج ترجمات جديدة لمسرحيات فرنسية كتبها مترجمون تونسيون ، أو استعراضات نقدية باللغة الدارجة ، وتكونت فرق تمثيلية منشقة عن الجمعيتين فلم تحدث في تأليف المسرحيات شيئاً جديداً . وفي سنة ١٣٤٠ - ١٩٢٢ قدم الممثل المصري جورج أبيض وفرقته فقدم روايات مترجمة عن الفرنسية ، وإن فنه التمثيلى لم تأثر جداً بالذوق الفرنسى ، ثم انفصل جورج أبيض عن فرقته فرجع أفراد الفرقة إلى مصر وأقام هو بتونس ، واتحدت بسبب ذلك جمعية الشهامة مع جمعية الآداب تحت اسم جمعية التمثيل العربى . والتأمت من ممثلى الجمعيتين فرقة يديرها جورج أبيض ويعلمها ويوجهها . ونشطت حركة التمثيل وسمت من الناحية الفنية سمواً كبيراً ، وعظم الإقبال عليها فبلغ عدد الروايات التي مثلتها في موسم ١٩٢٣ - ١٩٢٤ نحو الأربعين رواية . إلا أن جميعها كان من المترجمات إما قديماً أو حديثاً فلم يتسبب المسرح في تأليف مسرحيات تونسية يمكن أن تدخل في النثر الفنى .

الخطابة :

نهضت الخطابة ، فيما نهض من فنون الأدب ، بالنهضة القومية العامة ، بل إن نهضة الخطابة كانت هي القائدة لسير النهضة الأدبية كلها ، فباعت روح النهضة في هذه الحقبة وهو الشيخ الثعالبي على تعدد مواهبه السياسية والعلمية

والقلبية ، كانت موهبته الخطابية هي الأصلية لعامة مواهبه والمسيطرة عليها .
على أن ارتقاء المستوى الفكري في السامعين كان مؤثراً في ارتفاع
فنه الخطابي ، وإن طول ممارسته وسعة رحلته . ثم طول عزلته وسعة
مطالعة ، كانت عوامل في اتساع أفقه الفكري وانبثاق روحه البيانية
فكان هو المقدم في فن الخطابة الاجتماعية غير منازع في هذا الدور كما كان
في الدور قبله .

وتلتحق به في هذا الدور عبقرية خطابية ، كانت ظروفها الخاصة فاصلة
بينها وبين المحيط الاجتماعي ، فلما تطورت ظروفها ظهرت في الأفق الخطابي
كوكباً وضاء يأخذ بالألباب ، ذلك هو الشيخ عبد الرحمن الكعك ، الذي
فارق المعهد الزيتوني سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢ تارك وراءه سمعة نابغ جمع الحسنيين :
حدة الذكاء وقوة الحافظة ، ودخل وظيفة القضاء العدلي ، فتنقل في محاكم
الآفاق وكانت وظيفته تحول بينه وبين الظهور علناً في مجال الحياة الاجتماعية ،
ولكنه مع ذلك كان لا ينقطع بمد الصحف بنفثات يراعه ، وكان ذلك لا
يخفي على المسيطرين على العدلية من كبار الموظفين الفرنسيين فكانوا ينزلون
به مقتهم وتنكيلهم ، حتى استقال من منصبه الحكومي وانتصب محامياً بالعاصمة
فظهر تفوقه في المرافعة أمام المحاكم ، وضرب بذلك للناس مثلاً يحتذى في
الاعتماد على الفصاحة العربية للنجاح في المرافعة ورفع شأن المحامي التونسي ،
وبدخوله في مهنته الجديدة جدد اتصاله بالأوساط الثقافية والسياسية فانضم
إلى أكثر الجمعيات والنوادي وكان المقدم في كل جماعة والمالك لأزمة القول
في كل مادة ، وتردد اسمه مقروناً بالإعجاب ببراعة خطابه وقوة بديته
فتنافست فيه الهيئات ورغبت كل هيئة أن تتوج رأسها بمقدرته العجيبة ،
وكانت اجتماعات النخب في الحفلات والجامع السياسية وجلسات الجمعيات
لا تخلو من خطبة له ، فأصبح بذلك خطيب الطبقة المستنيرة . واكتست خطبه
من قوة الجأش وسرعة الخاطر وحرارة المزاج قيمة إقناعية ، كما اكتست في
من متانة التعبير وبراعة النكته والإطراد في المجال ورنة الجملة وحسن التمثيل

بالروائع الأدبية والوقائع التاريخية جاذبية بيانية ، وكانت خطبته كلها بنت الساعة لا يتكلف ولا يتهيب ولا يسعد ، فإذا استهل الخطاب انهل سيلاً متدفقاً لا يتردد ولا يتلعثم ولا يقطع سياقا ولا يرجع دون غرض حتى يفرغ من خطابه في لهجة وصوت لا يختلفان عن استهلاله إلا قليلاً .

ولم يبق ميدان الخطابة الاجتماعية مقصوراً على هذه الأصناف من مجامع الكهول ، بل فتح فيه مجرى جديد هو حلقة الخطابة في مجامع الشباب الجامعي ، فقد كانت الحركة الزيتونية الماضية كونت خطباء لمعوا في وسط الطلبة في مناسبة معينة ، ثم لم تبرز مواهبهم الخطابية بعد إلا في الوسط الاجتماعي العام ، لأن المظاهر الاجتماعية في حياة الطلبة كانت محدودة غير متكررة ، أما في هذا الدور فقد أصبحت حياة الطلبة ذات مظهر يومي متجدد ، فصاروا يمثلون مجتمعاً أصغر مندرجا في المجتمع الأكبر ، وكانت خصوصيات ذلك المجتمع الأصغر قاضية بتكون فن خطابي ذي خصوصيات متلائمة مع خصوصيات المجتمع ، فروح النظر إلى المستقبل والشعور بعزة الشخصية الثقافية ، واعتبار أساس المجتمع الإنساني على القيم العلمية ، ومرجع الصواب والخطأ في كل عمل إلى النظر المنطقي ، مع سرعة الانفعال بالمبادئ والتهاون بظروف تطبيقها ، هي نفسية الشباب الجامعي التي انسجمت معها الروح الخطابية البادية على خطباء الشباب الزيتونيين في هذا الدور ، ويعتبر أشهرهم وأبرزهم محمد المهدي ابن الناصر الذي سارت بتوجيه كلمه جميع حركات الطلبة الزيتونيين ، وكانت خطابته سامية الروح البلاغية محكمة الأسلوب يمكن لها التأثير رصانته وتعاليه وجهورية صوته .

أما الخطابة العلمية فقد تجددت في محاضرات جمعية قدماء الصادقية وظهر فيها نبغاء اكتملت فيهم صفات الخطيب العلمي مثل : محمد بن الحسين وعثمان الكعك والطاهر صفر .

إلا أن لو نأ آخر من المحاضرة العلمية ظهر في هذا الطور هو لون

المحاضرة الأدبية التاريخية التي لا تقوم على موضوع دراسة ولا نقطة بحث بل تعتمد على الرواية واستعراض الأحداث والتواريخ والنصوص الأدبية الطريفة الممتعة ، وكان ظهور هذا اللون بمحاضرات الشيخ محمد العربي الكبادي التي كان يلقبها أرتجالا بما يرفع منزلتها في الحسن والقبول إذ يزينها بعذب حديثه وواسع روايته ومنسجم ربطه ولطيف استطراده وحسن تأثير ما يلقى من الأدب الذي امتزج بنفسه الشاعرة .

وأما الخطابة الدينية فتعد بقيت زعامتها بيد الشيخ الصادق الغيفري، وكانت تطورات الحياة السياسية - وماله في إقامتها وتوجيهها من باع - زائدة في أحكام الربط بين خطابه الدينية وعمله السياسي ، فأصبح الناس يتناقلون ما يفيضه في خطبه من وعظ بالغ وتوجيه صالح وتثبيت للناس على الحق في مواقف الكفاح السياسي ، وبمساهمته في إبراز المعاني الروحية وقوة استمداده من الحديث الشريف اكتسب منطقاً بلاغاً رائعة ، وبتنازله للأفهام ومسايرته المردار البسيطة في مناهجها المادية فتح لوعظه مداخل النفوس حتى احتل قرارها .

المشعر:

كان الشعر منذ الدور الماضي يسير متقدماً نحو الإجابة في الناحية الاجتماعية ، ثم كان امتزاج الشعور الاجتماعي بالشعور الفردي واتصال الحياة السياسية بالحياة الأدبية من شأنه أن يعين على جودة الفن الشعري ويخرج به عن نطاق التكلف الذي كان مضيقاً عليه .

فإلى صالح سويس وسالم بن حميدة والصادق الفقي انضم الشعراء الذين نشأوا في هذا الدور ، مثل أبي الحسن بن شعبان والهادي المدني ، وحسين الجزيري أو الذين علا فيهم نجمهم الشعري وإن تعاطوا الشعر من قبل مثل



العلمين الشائخين محمد الشاذلي خزنة دار ومصطفى أغا، على أن الشعر العاطفي الفردي قد تكون له في هذا الدور من مؤثرات الرقة والجودة ما طبعه بطابع الكمال الفني الذي ظهر في شعر محمد السعيد الخلصي .

كان ابن شعبان ومحمد الهادي المدني من أبناء الجامعة الزيتونية، استكمل كل منهما بضاعته العلمية، وعرف كل منهما بشدة الذكاء ورشاقة الفهم وغزارة التحصيل واكتمال أدوات الصناعة البيانية . ولكن أبا الحسن ابن شعبان كان أقرب إلى الطبع المعتدل والعقل الراجح، والمدني كان أقرب إلى المزاج القوي والعاطفة الطاغية، وكانت ظروف الحياة الخاصة تقرب بابن شعبان إلى الاطمئنان إلى الوضع الحاضر، وبالمديني إلى التطالع الوثاب نحو المستقبل السعيد، مع أن روح الغيرة الدينية والمحافظة أصيلة فيهما على نسبة متقاربة جداً، وكان ابن شعبان يتقدم سنه أسبق إلى الظهور بنتاجه الشعري في عالم النشر إذا ابتدأت الصحف تنشر قصائده منذ سنة ١٣٣٢ - ١٩١٤ في حال أن المدني لم يبتدئ نشر شعره إلا في سنة ١٣٤٠ - ١٩٢٢، وشعر ابن شعبان في روحه حكيم منطقي ينظر إلى الحقائق بميزان الحكمة ويعرضها في قوالب الحجة المنطقية ويعتمد التسلسل العقلي بين المعاني والقياس المنطقي لتوليد بعضها من بعض مع شغفه بابتكار المعنى وجمال توليده وحسن الاقناع به، إذ تأثر فنه الشعري إلى مدى بعيد بطريقة أبي تمام والمتنبي والشريف الرضي . وفي ديباجته هو حريص على أحكام التعبير في مساواة الألفاظ للبعاني، وسلاسة الجمل وحسن اقتضاء تراكيب الأبيات لقوافيها، وإبداع الطالع وبراعة الاستهلال وطول نفس القصيد وانسجام وحدته والتحام أجزائه وحسن الانتهاء وبراعة المقطع .

وشعر المدني في روحه حماسي شعوري، يستمد المعنى من حرارة شعوره بالشكوى الاجتماعية فيبرزه تصويراً للشعور بالشعر وينظمه مع ما يتصل به في نفسه من ألم أو أمل نظماً يعتمد إلى الشعور القومي المشترك فيحمله تلك الهزة العاطفية حتى تطفئ لزوماً على كل ذي شعور قومي، ويستوعب

جوانب المعنى فيفرع عنها ويولد منها حتى كأنه يستفرغ ما في نفوس المستمعين من معان فيبتدىء بالمعنى الذي تسرع النفوس إلى التعلق به ثم لا يزال متنقلا بين المعاني المختلفة فيها حتى لا يفرغ من قصيدة إلا والنفوس خاوية قد انتزعت مكنوناتها فطارت على أجنحة القوافي . وهو في ديباجته نقاد للألفاظ يتخير منها الفصيح القوي السهل الأخاذ المنطبق على المعنى الإفرادي ، قوام على تنقيح جملة بدفع الكلفة وتصفية النظم وإسلاس التركيب فيأتي بالسهل الممتنع ويسمو في استعارة اللفظ المتألق بجمال الطبيعة ، وفي تكرير جملة يوقع بتكرارها على أوتار المشاعر وفي حسن وضع اسم فعل أو اسم صوت يركز فيه عمود المعنى حيث يتلاقى مع فيض الحس وثورة الطبع كأنه يروح على السامع إذ يهتف بما يتلجلج على لسانه يبدو فنه الشعري في إحسان التعبير وجودة الصياغة وترقيق الديباجة حتى يتكشف جمالها عن جمال المعاني المستترة وراءها في سهولة ومتعة كما هو مظهر الفن الشعري عند الأبحري وابن زيدون .

وأما حسين الجزيري فإن شعره يتلاقى مع نثره في مؤثراته وأغراضه فهو ساخر متهم يستخرج الضحك من روح الألم ويتخير الألفاظ ذات الوقع المطلوب من اللغة الفصحى أو اللغة العامية ، ومدار شعره كمدار نثره على روح الكفاح السياسي والإصلاح الاجتماعي .

وأما خزنة دار وأغا فهما قرينان وفرسا رهان ربطت بينهما أواصر القرابة وتشابه ظروف البيئة والتكوين الذاتي والتخرج الأدبي ، انحدرتا من سلالة المماليك الذين وصلتهم بالأسرة المالكة صلات الولاء والصهر والقرابة ، فعاشوا في قصورهم مهترئين الحياة الشعبية ، في تلك القصور نشأ الشاعران الكبيران فلم يعرفا بيئة غيرها إذ لم ينتسبا إلى معهد ولا اختلطا بمجتمع ولكنهما تعلما واتصلا بالشيوخ وتعرفا إلى الأدباء والعلماء وتعلقا بالمطالعة وشغفا بالأدب والشعر . فلم يزعج عزلتهما إلا دوى النهضة الاجتماعية فانصرفا إليها بمدارك مكتملة تكونت لهما من المثل العليا تكونا عقليا محضا



لا يتأثر بالظروف الواقعية مثل حي ابن يقظان حين انتقل من جزيرته إلى الجزيرة المجاورة ، وأخذتهما من الحياة العامة ناحيتهما المثالية الكاملة في التوجيه العقلي والتوجيه العاطفي ، واختلف تأثرهما بالناحيتين باختلاف مزاجيهما ، فانصرف مصطفى أغا إلى العقل وانفعل بدواعي التطور الفكري والتجديد الديني فكان فيهما من الغلاة ، وانصرف الشاذلي خزنة دار إلى العاطفة القومية وانفعل بآمالها وآلامها ، وجرى جريشاً في خطتها فكان شاعر الحماسة ولسان الثورة السياسية الجامعة .

وتلقفتهما ميادين الحياة السياسية على مقتضى هذا الاختلاف بين المنهجين فاحتضن الحزب الدستوري محمد الشاذلي خزنة دار وكان من صلاته الشخصية الوثيقة بالشيخ الثعالبي وشدة تأثره بمحبته والإعجاب بفكره وبيانه ما وقف شعره على حياة الحزب وعظمة زعيمه ، فارتبطت محررات شعره بالأحداث الوطنية ذات الصدى البعيد ، ورتلت ألسنة الوطنيين قصائده وأناشيده ، وتهافت الصحف الدستورية على نشر شعره والتنويه به وإشاعة سمعته . فعظم مقامه الشعري عند الخاصة والعامة ، واضطهد بالعزل عن وظيفته والسجن فزاد ذلك في رفعة مقامه وسمته الصحف أمير الشعراء كما سمي شوقي بمصر .

واحتضن مصطفى أغا نادي الحزب الإصلاحي ونوهت به جريدتهم ، وكان من شغفه الذاتي وتساميه الفلسفي واعتداده بحكم العقل والمنطق في كل شيء ما أبعد الشقة بينه وبين الحركة الشعبية . وعملت جريدة الحزب الإصلاحي على إغاضة الشاذلي خزنة دار في مناصرة مصطفى أغا وتقديمه ، فكان للمحركة الحزبية السياسية دخل كبير في الميدان الأدبي بالمفاضلة بين الشعراء ، كما كان بين الوطنيين والإصلاحيين بمصر في شأن حافظ وشوقي . واضطبغت قصائد كل من الشعراء بصبغة المسلك الذي ارتضاه لنفسه فجاءت قصائد خزنة دار حماسية تفخر بالانتصارات وتشور في وجه الاعتداءات ، تصدر بمناسبة المواقع الكمالية وحفلات الهلال الأحمر وحوادث التشكيل بالوطنيين والابتهاج برجوع المبعدين وخروج المساجين ووصف المظاهرات

وتشجيع الوفود وانعقاد المجمع السياسية، وتفيض كلها حماسا ووثوقا بانتصار الحق وحسن عاقبة الصديق، ويقوم فيها الشعري على وحدة الغرض وتسلسل عناصره وطول النفس وتلاقي الفقر على طريقة الإطناب، فكانت قصائده كالخطب لها من الأثر في السامعين وقت إنشائها مالا يستطيع الناقد أن يكشف عنه ما لم يحدد الظروف التي مكنت لها حسن القبول. على أن النقد المنصرف للفن الصرف لا يستطيع أن يغطي على أسقام في التراكيب وزخافات في الأوزان وابتذال في المعاني وحشو في الألفاظ كانت الحرارة الفائضة من تلك القصائد تذيبها فلا يحس بها السامعون.

أما قصائد مصطفى أغا فقد كانت بمعزل عن هذه المؤثرات لم تشر إلى الحركة الوطنية بكلمة ولا جرى فيها ذكر زعيم ولا لفتة إلى السياسة. بل تمحضت إلى النظر الفلسفي والوصف الاجتماعي وأقيم هيكلها على الخيال الروائي فبنيت كلها على تصوير المقامات وتخيل المحاورات بروح فلسفية ساخرة قانطة، تنظر إلى البؤس المادي والشقاء العقلي اللذين حفّتا بحياة الناس كما ينظر المعري في اللزوميات. وصوغها جزل واضح التراكيب مستكثر من البديع مطرد في الوصف يتمشى مع تنقل الحوار وتسلسل الأحداث والمعاني فتتواصل فيه الأبيات كأنها جملة واحدة حتى يكثُر فيها التضمين، وربما يتعاصى عليه اتحاد الميزان الشعري مع ما يريد من جزالة وسهولة في التركيب - فيتغلب على ذلك بزخاف أو خبن، وكثيراً ما يقع بسبب ذلك في إهمال القواعد النحوية فيلحن لحناً فاحشاً. على أنه شاعر الحكمة السامية وصاحب الخيال البديع، حقيق بشعره أن يحتل منزلة الاعتبار في مقاييس الآداب العالمية لولا أنه قليل التفنن منسوج على منوال واحد.

وفي شعر هؤلاء الشعراء الاجتماعيين وجدت صور من الشعر العاطفي في وصف الطبيعة ومجالس الأانس والغراميات، وقد أعانت صور الأدب الفرنسي المنقولة عن العصر الرومانطيكي، على توجيه هذه الطريقة وتوسيع

مادتها . والمثال الكامل في إجادة هذا الفن هو الشاعر العاطفي محمد السعيد
الخلصي . تكون في المدرسة الصادقية على روح الأدب الفرنسي ، وأكمل
تكونه العربي بالمطالعة والرواية ، ثم كان حسه المرهف وذوقه الرقيق
وحياته المأخوذة بروعة الجمال والفن والمتعة ، دافعة به إلى التعلق بغراميات
هو جو ولا مارتين وموسى وتفنتهم في التشبيب والنسيب والغزل والوصف
الطبيعي ، فبدأ افئتانه بتلك الطريقة يوجه شاعريته إلى الامتزاج بهم فينقل
عن شعرهم شعراً عربياً ، ثم صار يستلهم من فنهم قطعاً ينظمها ابتداءً تعرب
عن عواطفه وميوله يحدو فيها حذوهم ويقتبس عنهم ، حتى تفتحت بذلك
موهبتة واستقلت فصار يأتي ابتداء بروائع ساحرة من الأوصاف الطبيعية
والغزلية وتصاوير إحساس الغرام والانفعالات النفسية الجميلة من حياة
المرح والمتعة وساعات الانس .

المحاضرة الخامسة

حركات الشباب

١٣٤٦ - ١٣٥٧

يبتدىء الدور الذى يتعلق به حديثنا هذا من سنة ١٣٤٦ - ١٩٢٨ ، أى بعد مضى خمسين سنة أو أكثر ، على رسوخ مؤسسات النهضة الفكرية بإصلاحات الوزير خير الدين ، ومعلوم أن لهذا الزمن الطويل مقتضياته فى تأصل فكرة الإصلاح والإقبال على العلم ، لا نسيما وقد نشأ فى ظل تلك الفكرة جيلان متعاقبان باعتبار أن كل ثلاثين سنة تمثل نشأة جيل جديد ، فتكون بذلك أغلبية العناصر الاجتماعية لدورنا هذا قد ورثت روح النهضة عن الأجداد ، فصار لها دافعا قويا يتصل بالمبادئ والتقاليد .

هذا وإن الأطوار التى تعاقبت على النهضة الفكرية ، وفصلناها فى المحاضرات السابقة كانت معينة على تقوية روحها وتنمية وسائلها ، فانتشار التعليم لم يزل متقدما متكاثرا ، والإقبال عليه لم يزل فى حماس متزايد ، حتى إن الإحصائية الرسمية التى نشرتها إدارة المعارف فى سنة ١٣٤٧ - ١٩٢٩ أفادت أن جملة عدد التلامذة التونسيين المسلمين بلغت قريبا من ثمانية وعشرين ألفا فى المدارس الابتدائية ، وتجاوزت ثلاثة آلاف وخمسمائة فى المعاهد الثانوية غير مندرج فى ذلك تلامذة التعليم القرآنى بالكتاتيب ، وعدد هم على ما فى تلك الإحصائيات نفسها اثنان وعشرون ألفا ، ولا طلبة جامع



الزيتونة الأعظم وعددهم في ذلك التاريخ ألفان، فتكون الجملة خمسين ألفاً في التعليم الابتدائي، وخمسة آلاف في التعليم الثانوي .

وما الغاية التي توضع نصب أعين الطلبة وأولياهم من يوم يدخلون معاهد التعليم الثانوي إلا مواصلة التعليم العالي في كليات فرنسا، فالتعليم الثانوي بتونس يسير على مناهج التعليم الفرنسي، ونهايته شهادة البكالوريا التي هي في الاصطلاح الفرنسي (مفتاح التعليم الجامعي) فلا يقنع من أحرز على المفتاح، دون ولوج الأبواب التي هي أبواب الشرف القومي باعتبار المكانة السامية التي يحتلها خريجو التعليم العالي الفرنسي في صفوف الكفاح الوطني. وهي أبواب الرفاهية والنعمة باعتبار ما تفيء الحرف الحرة التي يتبناها لها الشبان في فرنسا من مكانة وثروة، ولذلك أقدمت العائلات على التضحيات الجسيمة في سبيل إلحاق أبنائها بالتعليم العالي، وبذلت الحركة الوطنية قواها الأدبية والمادية في التنشيط والإعانة على ذلك السبيل، وبذلت الجمعيات الثقافية مثل الخلدونية وقدماء الصادقية معونتها المادية للطلبة المغتربين، كما بذلت المدرسة الصادقية مثل ذلك عملاً بقانونها الأساسي الذي أقيم عليه نص وقفيتها .

فبلغ - بمجموع هذه الجهود الخاصة والعامة - عدد الطلبة المزاوئين للعلوم العالية بفرنسا في الحقوق والطب والصيدلة والآداب والهندسة - مائة وخمسة وثلاثين (١) وبعد أن كانت وجهتهم مقصورة على الطب والصيدلة والحقوق تهيئاً للمهن الحرة، ابتدأوا يتوجهون إلى غايات التخصص العالي في الهندسة العسكرية وهندسة المناجم ويكافحون في سبيل التحصل على حق الاشتراك في مناظرات التبريز في الآداب حتى قبلوا فيها سنة ١٣٤٧ - ١٩٢٩ وبهذا برز عنصر الشباب في الحياة الاجتماعية برونزاً فائقاً بما أتيح لهم من قوة الحكم وقوة الكيف .



وكان شيوع الروح الإصلاحية التي أساسها النهوض العلمي معيّنًا على هذا البروز فإن الحياة الاجتماعية مهما طغت عليها روح الجمود والتأخر، وسادها ناموس السذاجة، ضعفت فيها أهمية الشبان وارتفعت قيمة السن والوجاهة، ومهما سمت إلى التطور والتقدم وآمنت بالرقى الفكرى انحطت فيها قيم السن وارتفعت قيم المعارف والمدارك فبرز الشبان بعلومهم وسادوا وقادوا.

فإذا أضفنا إلى هذا أن العدد الضخم من التونسيين المغتربين بفرنسا في سبيل العلم، قد توفر لهم من الغربة ما ألف بين قلوبهم، ومن ملاحظة الغايات السامية التي يروجوها وطنهم منهم ما وحد صفهم، وأنه تسرب إليهم من البيئة الجامعية الفرنسية شعور الشباب بسمو قيمته ومسئوليته على مستقبل الوطن، والشعور بعظمة الحياة الفكرية والاعتزاز بالانتساب إليها، وأنهم امتزجوا بمجتمع قوام حياته الحرية فساروا على مناهجه في تطبيقها، ورأوا كيف تفادى الجماعات في سبيل عزة الوطن وسعادته، فقويت بذلك روحهم الوطنية، وداخلتها العزيمة والإقدام.

ثم إن شعورهم بذاتيتهم القومية لما يدركون من غربتهم في الأرض التي يعيشون فيها قد وجه اهتمامهم إلى العناصر الغريبة عن تلك الأرض وكل غريب للغريب نسيب. فوجدوا بينها عنصراً يؤاخيهم في الميل ويشاركهم في اللغة ويقاسمهم الآلام، وهو عنصر الطلبة العرب من المصريين والسوريين واللبنانيين والعراقيين، فالتأموا معهم وتعاطفوا وانضموا إلى مجامعهم ونواديهم، التي هي قائمة على أساس الوحدة العربية ومقاومة الاستعمار، فامتلأت نفوسهم إيماناً بالوحدة العربية، وأوحى إليهم ما وجدوا عند الطلبة العرب من ثقافة عربية سامية وبيان عربى قوى، أن يعالجوا نواحي النقص منهم في الثقافة العربية وأن يمارسوا الخطابة بها، ووجدوا إخوانهم الذين يشاركونهم في الشعور بذلك النقص من أبناء الوطنين الشقيقين -

الجزائر والمغرب الأقصى ، فانصرف بعضهم إلى بعض يتعاونون على إلهام روح الثقافة القومية فيهم ، حتى يلتحقوا بموكب العروبة .

فتأسست جمعية طلبة شمالى أفريقيا المسلمين بفرنسا سنة ١٣٤٦ - ١٩٢٨ على مبدأ تمتين الرابطة القومية بين عرب شمالى أفريقيا بالمحافظة على اللغة العربية ، ونظمت لذلك دروسا بالعربية ومحاضرات (١) ، فارتكزت هناك روح وحدة المغرب العربى والمحافظة على قوميته وانتشرت من هناك توجهات سياسية واجتماعية لم يزل غرسها ناميا .

أما الشق الآخر من شقى الشباب التونسى ، ونعنى به شباب الجامعة الزيتونية فإن عوامل التوجيه نحو العروبة والقومية الواسعة ، قد كانت أصيلة بروح ثقافته الإسلامية الصرفة وطبع مناهج تعليمه ، وظهرت تلك العوامل فى صورها الإيجابية ، بما دب فى الشباب الزيتونى من روح النهضة قبل نهاية الحرب العظمى - وزاد فى تقوية عزيمته على العمل وشحذ همته فى الطموح ، نفس الأسباب التى حركت عنصر الشباب المدرسى وهى الراجعة إلى بروز قيمة الشباب فى المجتمع ، كما كان ظهور روح الوحدة المغربية فيه متصلا ناميا ، بإقبال أبناء الجزائر عليه منذ تخرج منه الزعيم الدينى للجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٣٣٠ - ١٩١٢ ، وأقام نهضة الجزائر على استكمال العلوم الإسلامية بالزيتونة .

وكانت المطالبة بالإصلاح غير منقطعة حشرجتها من صدور الزيتونيين منذ أن خلقتها حالة الحصار ، ثم كان الاندفاع فى الحركة السياسية شاغلا عن الإعراب عنها إلى أن صدر قانون جمادى الثانية ١٣٤٥ - ٨ ديسمبر ١٩٢٨ بتنظيم مهنة المعلمين - دول الموثقين ، وإيجاد امتحانات للتحصيل على رخصة الانتصاب لها ، وهى أخص المهن الحرة ارتباطاً بغاية التعليم الزيتونى ، فثار

(١) النشرة السنوية لجمعية طلبة شمالى افريقيا المسلمين بفرنسا ١٩٢٩ - ١٩٣٠
المطبعة المهدية تطوان سنة ١٣٤٩ - ١٩٣٠

الزيتونيون في وجه ذلك القانون وعاودوا مطالبتهم بالإصلاح ، وأعلنوا إضراباً امتد أكثر من شهر ووجدت دعوتهم صدى واسعاً في الرأي العام إذ أيدت مطالبتهم الصحف وتضامنت معهم الهيئات النيابية بالاحتجاجات ، والشعب بالإضرابات .

وتشكلت لجنة في ذى القعدة ١٣٤٨ - للنظر في إصلاح التعليم وتنظيم الإدارة ، وكانت هيئة إدارة الجامع هيئة علمية تتركب من أربعة أعضاء من المجلس الشرعي الأعلى تسمى « النظارة العلمية » ، وتلك الهيئة بذاتها لم تكن منسجمة منذ دخلها الشيخ الطاهر بن عاشور سنة ١٣٣١ - ١٩١٣ بميله الإصلاحى الذى لم يكن يشاركه إياه بقية شيوخ النظارة ، فلم تزل بين تصادم آراء وتنازع مواقف ولم يستطع الشيخ بن عاشور فى محيطها أن ينجز عظيم أمر مما كان يعلق على دخوله فيها حتى جاء اجتماع اللجنة فصدع فيها بآرائه المتماشية مع تطالع الطلبة ، وناضل فى تأييدها نضالاً حاداً انقسمت به اللجنة إلى شقين متميزين ، شق الأكثريه من الموظفين الإداريين والشيوخ الشرعيين وعلى رأسه الشيخ أحمد بيرم شيخ الإسلام يعارض فى الإصلاح الجوهري ويرى المحافظة على صبغة التعليم الزيتوني ، وشق الأقلية من ممثلي الهيئات النيابية وأفراد من الموظفين على رأسه الشيخ الطاهر بن عاشور ، باش مفتى المالكية ومعه الشيخ محمد العزيز جعيط المفتى المالكي ، يؤيدون الإصلاح الجوهري ويطالبون بتوسيع دائرة التعليم إلى حد بعيد .

وأبد الوزير الأكبر خليل بو حاجب رئيس اللجنة ، شق المحافظين فحسبت بذلك المعركة وانتشرت خارج محيط اللجنة ونشأت عنها معركة صحفية عنيفة بين الجريدتين اليومييتين - جريدة النهضة التي كانت تؤيد الشيخ ابن عاشور وبرنامجه الإصلاحى ، وجريدة الزهرة التي وقفت في وجهها تؤيد الوزير الأكبر وشيخ الإسلام وتناصر مبدأهما في المحافظة وانضم الوطنيون الدستوريون إلى جريدة النهضة ، فأصبح أكبر كتابهم يحرر فيها تأييداً

الإصلاح الزيتوني ومهاجمة لخصومه ، وخمدت بذلك نار الحرب بين الدستوريين والإصلاحيين وأيد الشاذلي خير الله في جريدته «صوت التونسي» المحررة بالفرنسية موقف أنصار الإصلاح ووالى هجومه على الوزير الأكبر بذلك السبب ، وشعرت كل من الطائفتين ، المدرسية والزيتونية بما بينهما وبين الأخرى من التلاقي حيث تحركت الأولى في سبيل المحافظة على العروبة وتحركت الثانية في سبيل ترقية التعليم ، وظهر هذا التلاقي جلياً في مؤتمر طلبة شمال أفريقيا المسلمين ، الذي انعقد بتونس لأول مرة تحت إشراف الجمعية الخلدونية في ربيع الثاني ١٣٥٠ أغسطس ١٩٣١ مؤتلفاً من الزيتونيين والمدرسين ، وعُقدت فيه جلسة خاصة بإصلاح التعليم الإسلامي في الزيتونة والقرويين ، فكان مظهراً لتوحد الشباب على اختلاف مشاربه في تأييد حركة الإصلاح ولانسجام برامج العمل في أقطار المغرب العربي ، وسارت الأمة كلها وراء شبابها في ذلك السبيل ، وارتاح المفكرون ارتياحاً عظيماً لهذا الاتحاد الذي أعرب عند الخطباء والشعراء في الاحتفالات والاقبالات التي أقيمت بمناسبة ذلك (١) المؤتمر فاستقرت بذلك القيادة الفكرية في الشباب.

وتواترت مظاهرات الطلبة وإضراباتهم ، وتشكلت هيئة لقيادة حركتهم باسم لجنة الطلبة وانقسمت الأمة بين مؤيدين للطلبة ومنكرين عليهم إلا أن شق المؤيدين كان راجحاً بأكثرية الصحف المناصرة له وموقف رجال السياسة الوطنية في تأييده، ولم تفر عجاجة هذه الفتنة إلا في شوال سنة ١٣٥٠ مارس ١٩٣٢ باستقالة الوزير الأكبر ثم استقالة شيخ الإسلام ثم بتسمية الشيخ ابن عاشور شيخاً للجامع الأعظم وفروعه في ربيع الثاني ١٣٥١ سبتمبر ١٩٣٢ وتغير نظام الإدارة العليا للجامعة الزيتونية بتلك التسوية التي انتهى بها عهد النظارة العلمية وعد ذلك انتصاراً عظيماً للحركة الإصلاحية ابتهجت به الشبيبة وأشاد به الشعراء .

(١) نشرة محاضرة جلسات المؤتمر المطبعة الأهلية — تونس

وكانت الحياة الرياضية التي دبت في الشعب التونسي زائدة في الظهور
العنصر الشباب واستيلائه على القيادة في الناحية العملية ، فقد كان مظهر
الرياضة البدنية ضئيلاً جداً ، في حياة المجتمع التونسي . وكان المثقفون
يستنكفون عن الانسحاب إلى المنظمات الرياضية ، ومنذ أنشئت أول جمعية
رياضية لألعاب القوى ، وهي الجمعية الناصرية سنة ١٣٢٥ - ١٩٠٧ برئاسة
الدكتور حسين بن حاجب ، كان المثقفون يتصلون بحياة الرياضة اتصال
المسيرين والمشرفين لا اتصال العاملين ، وكان المتعاطون للرياضة غالباً من
طبقة العملة الأميين ، ومن هذه الطبقة من يتعاطى كرة القدم في الجمعيات
الفرنسية والإيطالية ، ومنهم أيضاً جمهور من الهواة يتتبع مباريات تلك
الجمعيات . وفي سنة ١٣٣٨ - ١٩٢٠ تأسست جمعيتان تونسيّتان لكرة القدم
« الترجي الرياضي » و « النادي الأفريقي » ، بسعي نخبة من الشبيبة المثقفة إلا أن
اشتراكهما كان كذلك للإشراف والإدارة ، وبقي تعاطى الألعاب الرياضية
مقصوراً على غير المتعلمين ، وبانتشار الرياضة بين أبناء المدارس وشيوع
حمية الانتصار للجمعيتين الإسلاميتين بين الشباب عموماً ، بدأ الشبان
المثقفون ينزلون إلى ميدان العمل الرياضي ، فكان ذلك تأييداً لمركزهم من
الناحية العملية وتدريباً لهم على الاستقلال بإدارة شؤونهم دون استناد على
الكهول ، وتبدى ذلك بصفة جلية عند ظهور الحركة الكشفية ، فرسخت في
الميدانين ملكة الشباب في التسيير والإدارة وشحذت فيهم عزيمة العمل ، وصار
الشباب يؤمن بأن في أترابه من الشباب من هم أهل لأن يسير بتوجيههم وينقاد
لإدارتهم . وتأصلت بذلك فكرة النظام والمسؤولية على صورة لم تكن
من قبل .

واتخذ الشعور القومي من تلك الفكرة النظامية العملية سبيلاً للظهور في
المظاهر الجماعية بتنظيم المواكب والمظاهرات الكفيلة بإشاعة عزة الماضي
وروح الأدب القومي فأصبح اعتماد الجمعيات الثقافية على جهود الشباب ،
والثف حول كل هيئة من الهيئات المسؤولة عن تلك الجمعيات رسمياً ، نخبة



من الشبان تقوم على ابتكار البرامج وتنفيذها ، في الخلدونية وقدماء الصادقة وغيرهما من الجمعيات بالعاصمة وسائر مدن المملكة ، ودخلت بذلك الحياة الثقافية في دور عملي متحرك ، واتجهت الجمعية الخلدونية في الطليعة ، بقيادة رئيسها الشيخ عبد الرحمن الكعك ، إلى اغتنام المناسبات لإقامة مهرج تذكارية لعظماء التاريخ التونسي ، وللأحداث ذات الأثر البعيد في الحياة القومية للعقل والأدب ، إبرازاً للشخصية القومية بثقافة البلاد وتحدياً لتظاهر الأجانب فيها بإعزاز مظاهر السيادة الثقافية لهم وللغاتهم وآدابهم .

ففي شوال سنة ١٣٥٠ - فبراير ١٩٣٢ أقامت الخلدونية احتفالاً بإحياء ذكرى المؤرخ القيرواني الكبير أبي العرب التميمي بمناسبة مضي أحد عشر قرناً على وفاته ، كان بهيجاً واسع الصدى بما ألقى فيه من خطب وقصائد ودراسات . وفي ذي القعدة ٢٣ مارس نظمت الخلدونية مهرجاناً عظيماً لتجديد ذكرى مدينة القيروان بمناسبة مضي ثلاثة عشر قرناً على تأسيسها ، سار لها موكب عظيم من تونس يجمع فحول الشعراء وكبار الكتاب والأدباء وكثيراً من أنصار الثقافة ، وسارت مواكب أخرى من مدن المملكة فتلاقت كلها بالقيروان ، واحتفلت مدينة القيروان احتفالاً عظيماً باقتبال المواكب الأدبية وأقيمت مجامع وزعت عليها القصائد والخطب والدراسات بجامع عقبة ، وخرج أبي زمعة البلوي رضي الله عنه ، ومقبرة قریش ، وخرج ابن أبي زيد ، وخرج سخون ، وخرج زيادة الله بن الأغلب ، وجامع ابن خيرون ، وأقيم سمر في مجمع كبير أقيمت فيه الدراسات والخطب والقصائد من أدباء القيروان والوافدين عليها ، وكان لهذه الذكرى أثرها العظيم في بعث روح الفخر والاعتزاز بعراقة الثقافة العربية الإسلامية ومجد عاصمتها الأولى ، زاد في إيمانه ما بذلت الحكومة من مقاومة وعرقلة وتشيط دون نجاحها .

وفي ١٢ ذي الحجة الموافق ٢٩ إبريل افتتحت الخلدونية أسبوعاً تذكاريًا لابن خلدون بمناسبة انقضاء ستة قرون على ولادته ، جاء بالغأ حد الفخامة

والتنظيم ووزعت فيه الدراسات والخطب والقصائد على أيام الأسبوع فكان سوقاً نافقة للشعر البديع والخطب العالية والدراسات الممتعة .

ومن جهة أخرى كانت الخلدونية تقيم الحفلات التأييدية لكبار الشعراء والكتاب الشرقيين بمناسبة وفياتهم قصداً إلى ربط الصلة الأدبية بين أقطار العروبة . ففي صفر ١٣٤٩ - ١٧ إبريل ١٩٣٠ أقامت حفلة لتأبين محمد المويدي أقيمت فيها دراسة تحليلية لحياته وأدبه وقصائده ، وفي جمادى الثانية ١٣٥٠ أكتوبر سنة ١٩٣٢ حفلة لتأبين حافظ ، وفي رجب ونوفمبر المواليين حفلة أنخم لتأبين شوقي ، وكذلك قضى الله أن تكون الفخامة دائماً في جانب شوقي دون قرينه ، فجاءت باهرة في مظهرها ثرية بما فيها من الخطب والقصائد والدراسات التي نشر أكثرها في نشرة الجمعية الخلدونية لسنة ١٩٣٤ . وفتح في هذه الحفلات باب اشتراك العنصر الموسيقي في الحفلات الأدبية ، على صورة طريفة من الانسجام بين مغزى الحفلة وروح الإيقاع والانشاد ، وكان الداعي إلى ذلك حضور فنانين من أساتذة الفن الموسيقي في الشرق هما : سامي شوا ، والشيخ علي درويش .

وفي ترقية الدراسة العلمية والأدبية وتمتين الذوق الأدبي تعاونت الخلدونية مع قدماء الصادقية في فتح المنتديات الأدبية وتنظيم المحاضرات المفردة أو المتسلسلة ، وكانت جمعية قدماء الصادقية أسبق إلى تنفيذ فكرة النادي الأدبي فقد ابتدأته منذ سنة ١٣٤٣ - ١٩٢٥ ملتقى أسبوعياً لتناشد الأشعار والمساجلات ومنذ سنة ٤٦ - ٢٨ وقد غلب عليها عنصر الشباب صار النادي الأدبي ملتقى يومياً تثار فيه المباحث الفلسفية والأدبية والمشاكل الاجتماعية ويتجاذب أعضاؤه الأحاديث في توجيه الدراسات وتعيين من يقوم بها ، ويعقد مجلس واسع كل أسبوع يلقى فيه أحد أعضاء النادي محاضرة على نحو ما عهد به إليه ثم تجرى فيها المناقشات والردود التي كثيراً ما يتولد منها موضوع محاضرة تلقى في الأسبوع الماضي الموالي لبسط النظرية المخالفة

وكان لكثير من هذه المحاضرات امتداد خارج النادى مس الا نقسام الفكرى الذى يبناه فى المحاضرة الماضية بين المحافظين والمجددين . مثلما وقع فى محاضرة ألقاها راهب مسيحى مصرى أقام مدة بتونس وهو الأب يوسف سلام حول فلسفة ديكرت وانتصب للرد عليه أحد الصادقين المعروفين بسمو الثقافة العربية وسعة المطالعة الفلسفية، وهو الأستاذ يوسف المحجوب . ومثل ذلك ما كان من الصدى لمحاضرة قام بها الشيخ محمد الصالح المهيدى عن حياة امرىء القيس وشعره انتهى فيها إلى أن شخصية امرىء القيس خرافة لا وجود لها فى الحقيقة ، وقد بلغ عدد المحاضرات التى قام بها النادى الأدبى لقدماء الصادقية إلى صائفة ١٩٣٠ مائتين ونيفا .

وفتحت الخلدونية المجمع الأدبى ، وكان احتفال افتتاحه عظيما أنشدت فيه القصائد الرنانة ، وقام فيه الشيخ محمد العربى الكبادى بسلسلة محاضرات عالية فى فن النقد الأدبى وطرائقه ، إلا أن صبغة المعهد الدراسى كانت أغلب على هذا المجمع من صبغة النادى الأدبى ، واهتم المجمع الأدبى باغتنام الفرص لإقامة الحفلات التى تشيد بروابط العروبة وتنشر دعوتها، فكلمما زارتونس عالم أو أديب أو فنان من القطرين الشقيقين الجزائر والمغرب ، أو الأقطار الشقيقة الشرقية احتفل به وخطب أو حاضر ، وكلمما رجع عالم أو أديب أو فنان تونسى من رحلة شارك فيها فى مؤتمر أو اتصل بالحياة الأدبية فى قطر من أقطار العروبة، أقيم له اقبال وتحدث عن الموضوع الذى كان سبب رحلته وعرف بالصلات العربية ونوّه بها الشعراء والخطباء ، حتى أن كتبها أهدتها دار الكتب المصرية من مطبوعاتها إلى مكتبة الخلدونية سنة ١٣٥١ - ١٩٣٢ كانت داعية الاحتفال ومحركة لقراء الشعراء (١) .

وإذا أصبحت روح تآكيد الروابط العربية ، خصوصا بين أقطار المغرب

الثلاثة ، هي المسيطرة على الحياة الفكرية والأدبية ، فإن الحكومة التي كانت تضيق ذرعاً بما لذلك الاتجاه الحر من أثر في تكوين المستقبل السياسي على الصورة التي تخشاها أرادت أن تجعل لها حظاً من هذا العمل قد تتقرب به إلى أهل الثقافة . فسعت في إقامة مؤتمر رسمي باسم مؤتمر اللغة والآداب العربية انعقد بتونس في ٦ شعبان ١٣٥٠ - ١٠ ديسمبر ١٩٣١ وحضره عدد كبير من المستشرقين الفرنسيين ومن علماء المغرب الأقصى والجزائر واشترك فيه كثير من عظماء رجال الثقافة العربية بتونس بإلقاء المحاضرات ، مثل الشيخ أحمد بيرم والشيخ بن عاشور والشيخ محمد الصالح بن مراد والأستاذ محمد ابن الخوجة والأستاذ حسن عبد الوهاب والشيخ محمد البشير النيفر والشيخ معاوية التميمي والشيخ عبد الرحمن الكعكك والشيخ محمد العربي الكبادي والأستاذ عثمان الكعكك وغيرهم ، وكان له أثر في توسيع دائرة النشاط الفكري وإشاعة البحث العلمي ، لا سيما بما كان له في الصحافة من تعاليق وذيول وما كان له من اتصال بالانقسام الفكري وبالتطاحن بين شقي المحافظين والإصلاحيين من الزيتونيين فاغتنم هؤلاء فرصة وجود الشيخ محمد الحجوي من علماء المغرب الأقصى المعروفين بالعمل في سبيل الإصلاح الديني وترقية التعليم ، فأقاموا له حفل إقبال عظيم بالخلدونية ترأسه الشيخ الطاهر بن عاشور فخطب بمجداً المواقف الإصلاحية ومؤيديها وأنشد الشعراء القصائد في التنويه بالروابط العربية بين الأقطار المغربية ، وألقى الشيخ الحجوي محاضرة عن الفتح العربي للمغرب ، ناقش فيها نظرية ابن خلدون ، وقد نشرت في نشرة الخلدونية لسنة ١٩٣٤ وأخرجت في طبعت مستقلة مع القصائد التي أنشدت يوم إقامتها ، بالمطبعة الفنية بتونس .

وإذا كانت الخلدونية مسبوقة في نشاط مجعها الأدبي وإنتاجه بالنادي الأدبي لقدماء الصادقية ، فقد كانت هي السابقة في ميدان المحاضرات العلمية العامة إذ نظمت سلاسل محاضرات ذات حلق مترابطة ، في الأدب والتاريخ والعلوم الطبيعية ، بحيث صارت المحاضرات لا يقل عددها عن ثلاثة في الأسبوع

يقوم فيها الشيخ محمد العربي الكبادي بمحاضراته الطالعية الممتعة في الأدب،
والأستاذ عثمان الكعكع بدراساته التاريخية والدكتور محمود الماطري
والدكتور رشيد المنشاوي بمحاضرات علمية في علم الإحياء وحفظ الصحة،
والأستاذ الهادي الكسوري في علم الفلك والأستاذ الطاهر صفر في الاقتصاد
السياسي، وبرز عنصر الشباب في المحاضرات التاريخية التي قام بها محمد النخلي
(الحفيد) والأديبة التي قام بها أحمد المهدي النيفر — ومحاضرات تاريخ فن
النشر وتاريخ الفرق الإسلامية التي ألقاها محمد الفاضل بن عاشور؛ واستمر
هذا النشاط من أكتوبر ١٩٢٩ إلى آخر ١٩٣٢، وكان لهذه المحاضرات أثرها
الواضح في توسيع دائرة البحث والمعرفة وتوجيه الأساليب الدراسية
النقدية ووضع المثل للخطابة العلمية الراقية، وعظم الإقبال عليها حتى اضطرت
الجمعية إلى تحديد عدد الحضور بتوزيع بطاقات على أهل العلم والأدب وطلبة
التعليم العالي، فصارت هذه المحاضرات بتسلسلها وسموها وانتخاب مستمعيها
نواة للتعليم الجامعي العالي.

وبهذا المظهر الفائق من النشاط الأدبي والإنتاج العلمي أحس أهل الأفكار
في كل جانب بما شجذ قرائهم وقوى عزائمهم فنفض الكثيرون أروية
الخمول وتقدموا إلى ميداني المحاضرة والتأليف، وكان ذوو الأفكار التجديدية
المتطرفة فيمن تحرك بهذا الداعي الجديد، فابتدأ الناس يسمعون نغمات
متحررة تتصل بالمبادئ التي كانت حملات الصحف قضت عليها في الدور
الماضي ونسبتها إلى الإلحاد. ففي ٧ جمادى الثانية ١٣٤٨ نوفمبر سنة ١٩٢٩ قدم
النادي الأدبي لقدماء الصادقية محاضرة من المحاضرات التي أقيمت في جلساتها
الخاصة، في مجمع محاضرة عامة بقاعة الخلدونية، ألقاها شاب دون العشرين
ألقت الأنظار إلى نبوغه الشعري وهو أبو القاسم الشابي.

وكان موضوع هذه المحاضرة «الخيال الشعري عند العرب»، وقد بحث
فيها بحثاً مستفيضاً حقيقة الخيال الذي هو روح الشعر تم استقراره على أن

الأدب العربي خال من الخيال الشعري ، وأنه متسفل في المادية ، لا يستطيع
بجارية الشعر الغربي ، وقد طبعت هذه المحاضرة بعد إلقتها بمطبعة العرب
وأثارت في النوادي الأدبية ضجة كبرى انقسم فيها الناس بين مادح وقادح
وتتبع الكتاب بمقالاتهم النقدية آراء المحاضر واتجاهاته وهاجمته الصحف
الدستورية مثل جريدة النديم بالاستخفاف والتهكم والتشهير وفضيع الاتهام
وانتقد كتابه في مجلة العالم الأدبي محي الدين القليبي بإنكار قوى ومحمد الحليوي
بتتبع معتدل (١) .

وفي صائفة ٤٨ - ٣ أصدر الطاهر الحداد كتاب « امرأتنا في الشريعة
والمجتمع » جعله مقسما على قسمين : قسم تشريعي وقسم اجتماعي ، وتناول
في القسم التشريعي اقتضاء التطور العالمي لتطور التشريع الإسلامي تطورا
يقضي بإلغاء بعض ماورد من النصوص الصريحة إذا عورضت بالمصالح
الحادثة المتلائمة مع مدارك الشريعة ، ثم تناول مسائل تتعلق بالمرأة من
الأحكام الإسلامية كمسألة تعدد الزوجات ومسألة تنصيف الميراث . فصرح
برأيه في لزوم العدول عن مقتضيات النصوص فيها ، ووقعت له في أثناء هذا
القسم عبارات منكرة أخذ عليه منها مس بمقام النبي صلى الله عليه وسلم
وأزواجه الطاهرات ، وقسم اجتماعي وصف فيه أطوار حياة المرأة التونسية
منذ تولد إلى أن تصير أما ، فأثار ظهور هذا الكتاب حركة كبرى بين علماء
جامع الزيتونة الأعظم وسعت النظارة العلمية لدى الحكومة في مصادره فلم
يتم ذلك وشكلت النظارة لجنة من كبار العلماء لتقرير رأيها في الكتاب فنظرت
فيه وقدمت تقريراً في بيان ما أخذه انبنى عليه سحب شهادة الطاهر الحداد
الزيتونية عنه وحرمانه من خصائصها ، وكتب رجال من علماء الدين تأليف
في الرد عليه برز منها كتاب « الحداد على امرأة الحداد » للشيخ محمد صالح
بن مراد طبع بالمطبعة التونسية سنة ١٣٥١ - ١٩٣٢ وكتاب سيف الحق
للشيخ عمر برى المدني طبع بالمطبعة الأهلية سنة ١٩٤٩ ، وأراد أنصار دعوة

التجديد المتطرفة تحدى هذا العمل وإظهار ذاتيتهم فأقاموا حفلة لتكريم الطاهر الحداد استهدف بسببها كل من حضر به من خطب فيها للتهجم القاسى من طرف الكتاب الدستوريين ، فكان حديث هذا الكتاب والتشجيع على مؤلفه ملء الصحف وشغل الأفكار واختص من بين الأقلام التى شاركت فى ذلك ، الشيخ راجح إبراهيم ومحي الدين القليبي وحسين الجزيرى ، وتميزت المواقف جليلة فى هذه المعركة فالتف مؤيدو الحداد حول مجلة العالم الأدبى وجريدة الزمان وظهرت وحدة مهاجميه فى جريدة الزهرة وجريدة مرشد الأمة وجريدة النديم ، ووقفت النهضة موقف حياد تقريبا ففتحت أعمدها للفريقين .

عوامل التطور الأدبى :

ظهر أن هذا الدور كان دور شباب ونشاط عامين فى نواحي الحياة الفكرية والأدبية ، وأن مأساه من طموح الشباب شجع على بروز الشخصية الفردية للعاملين والمنتجين ، وحرك فيهم الإقدام على إظهار أفكارهم ونشر آثارهم وقلة المبالاة بما كان يثبطهم عن ذلك من أسباب الاحتراز ودواعى الخمول ، وكانت ظروف الحركة السياسية التى فصلت عنها القيادة الفكرية ومكنت شق المعارضة من رفع صوته ووضع المسلمات موضع النظر والنقد قد مهدت السبيل لذلك البروز ، واتساع دائرة البحث العلمى وارتقاء مناهجه ووفرة نتاجه ، عملت على تحرير الأفكار وتوسيع دائرة البحث والنظر ، ووضعت مقاييس راقية لنقد الأدب أحس بها المنتجون أنفسهم قبل أن تسلط على نتاجهم من طرف المتذوقين فتطلبوا لأدبهم روحا أسمى وقوالب أمين وأقبلوا يصححون الأوضاع العقلية لشرف المعنى بدقة الفكر وحسن التنسيق ، ويبعدون القوالب الفنية بصقل الديباجة وتهذيب الحواشى والتخلص من الفكرة البسيطة والقالب المبتذل ، وتبادل المفكرون والأدباء

النقد والتوجيه ومقارنة المناهج ، بما أتاحت لهم النوادي والجامع من وسائل التلاقى وتعاطى الأفكار والتسابق في اللحاق بالمثل العليا سواء التي تولدت بينهم من نهضة التفكير وتحرر الأدب ، أو التي طلعت عليهم من خلال مطالعتهم في الكتب والمجلات فعلاوة على رواج المجلات والكتب الشرقية فإن المجلة الأدبية التونسية التي قامت على إذكاء الشعلة بحق هي « مجلة العالم الأدبي » التي أصدرها زين العابدين السنوسي صاحب دار العرب في جمدى الأولى سنة ١٣٤٩ - يناير ١٩٣٠ فصدر منها العددان الأولان باسم « العالم » ثم تحول اسمها إلى « العالم الأدبي » فكانت رائد النهضة الفكرية وسجل التطور الأدبي ، اعتنت بنشر الأخبار عن الاكتشافات العلمية والأثرية والتطورات الأدبية في الشرق والغرب وعرفت بأحدث الكتب وأشهر الكتاب في مختلف اللغات وتوفرت عنايتها بالدراسات الاستعراضية لتيارات الآداب الغربية والدراسات التحليلية في الأدب العربي والمقالات عن المناهج الأدبية عامة ، وكان أهم أعمالها التنويه بالتطور الأدبي بتونس بنشر أشعار المجددين والاعتناء بدراساتهم ونشر القصص والروايات وتوجيه تطورها بنقل القصص الرائعة عن كبار الكتاب باللغات الأجنبية ونشر الأخبار عن الحياة المسرحية ومقالات النقد المسرحي فكان لها أثرها العظيم في ترقية الآداب شعراً ونثراً خصوصاً فن القصة ، والربط بين الأدب والفكر والفن .

وفي أخريات الحقبة التي ندرسها ظهرت مجلستان علميتان معتبرتان إحداهما المجلة الزيتونية ، التي كونتها نخبة من أساتذة الجامعة الزيتونية على مثال مجلة الأزهر يديرها الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضى ، ويرأس تحريرها الشيخ محمد المختار بن محمود واشتغلت بالمباحث الراقية والتحريرات النفسية في العلوم الإسلامية والأدب العربي والتاريخ خصوصاً التاريخ التونسي وعملت على التوجيه إلى البحث العلمي على المنهج الدينى وإشاعة روح الجامعة الزيتونية

التي هي روح المحافظة على الدين ولغته وتقوية الشعور بوحدة العالم الإسلامي واعتبار الإسلام والعروبة أصل ذاتية الوطن التونسي. فكان لصدورها هزة عنيفة اعتدل بها ميل الحركة الفكرية إلى منهج التطرف وشارك في تحريرها كبار علماء الإسلام وأساتذة الأدب والتاريخ، فكانت أرقى مجلة إسلامية من ناحية الدراسة العميقة وكونت حولها هالة من القراء المنتخبين هي أرقى طبقة من قراء المجلات.

وثانية المجلتين هي مجلة «الجامعة» التي ابتداءً صدورها في ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ - يونيو ١٩٣٧ بعناية هيئة مزدوجة من الصادقين والزيتونيين يديرها محمد بن الحسين ورئيس تحريرها الشيخ محمد الصالح النيفر ووالث نشر المقالات القيمة في الأدب والتاريخ والأخلاق والاجتماع، وروائع الشعر العربي والمنقول، فكانت ديوان البحث العلمي والتوجيه الدراسي المتباعد عن كل توجه إلى منهج معين ولعل ذلك ما يشير إليه تسميتها بالجامعة ورمزها بوضع صورة المعهدين الزيتوني والصادقي على غلافها لأنها كانت ذات الموقف المحايد بين الاتجاهين: الذي مثله مجلة العالم الأدبي من قبل والذي تمثله المجلة الزيتونية.

ثم إن حرارة الاندفاع نحو التطور الفكري التي كانت متركزة في قضية إصلاح التعليم الزيتوني أمدت الشعراء والكتاب بما صبغ أدبهم بصبغة مزدوجة بين الفكر والعاطفة إذ أصبحت الدعوة إلى الإصلاح أصلاً من أصول المنهج الذي يسير عليه تفكير الكتاب وحماسة الشعراء ويتضح من هذا أن الدعوة التجديدية، سواء كانت معتدلة أو متطرفة هي التي جمعت في هذا الدور بين نواحي الحياة كلها في الدين والاجتماع والفكر والأدب فصار مظهر الطموح عاماً وروح الشباب سائدة وتفاعلت هذه النواحي بتوحد روح التوجيه الجامعة بينها، فالتجديد الديني أثر في حركة الأدب يتلاقى فيها

مع التجديد العقلي ، ولتحرر الأدب أثر في روح التجديد الديني ومظاهره وللحياة الاجتماعية في تطالعها إلى التجدد والحرية استمداد من الفكر والأدب وانعكاس عليهما ، وهذه الحركات كلها من التلاقى المطرد المنعكس نتيجة في التطور السياسي الذي ظهر في الإنشقاق بين قادة الحركة الدستورية .

النثر السياسي :

كان ما بيناه في المحاضرة الماضية من تأثير الحركات السياسية بظهور الحزب الإصلاحي وخروج الشيخ الثعالبي ، مستتبعا فتورا ظاهرا في الحياة الصحفية قضى بتضاؤل شأن النثر السياسي في هذا الدور إذ قلّ عدد الصحف الدستورية ونقص انتشارها وتوجه أكثر الباقيين من كتابها إلى المعركة الفكرية القائمة بينهم وبين الذين تنمروا لهم من أصحاب الدعوة التجديدية المتطرفة .

وكانت الصحيفة اليومية القديمة « الزهرة » محايدة بعيدة عن الدستورين ولكن صدور الجريدة اليومية الأخرى التي أصدرها الحزب الإصلاحي سنة ١٣٤٢ - ١٩٢٤ وهي « جريدة النهضة » قد كون ارتباطا بين الزهرة وبين الكتاب الدستوريين بدافع المنافسة الصناعية من جهة ، ودافع الاعتماد على نشره يومية عتيقة في مقاومة نشرة يومية مثلها من الجهة الأخرى ، فعاش بذلك الجدال القلبي بين الجريدتين قويا عنيفا ولكنه كان أكثر ما ينصرف إلى المسائل الاجتماعية والدينية والجزئيات الإدارية ، فلا يتناول الأصول السياسية ، إذ كان الاختلاف قد استقر واشتهر وعلم كل أناس مشربهم .

وكانت جريدة النديم بطريقتهما الفكاهية النقدية دائبة على خدمة مبدئها الحزبي ومقاومة النهضة وتناول المجددين ولكنها بأسلوبها الذي يدخل في النثر الأدبي ، ومواضيعها التي تتصل بالحياة الدينية والفكرية ، لم تؤثر في بعث النثر السياسي ، وكان ظهور جريدة « صوت التونسي » باللغة الفرنسية ، نشرة رسمية للحزب الدستوري ، قد ركز النشاط فيها وصرف رؤوس الحزب

إلى الاشتغال بسياساتها ولو لم يكونوا من المحررين فيها ، ولم يطل ما بين تلك
الجريدة والحزب من الاتصال فاستقل بها صاحبها الشاذلي خير الله ، وظهرت
الحركة الشعبية الهائلة في ذى الحجة سنة ١٣٥١ - مارس ١٩٣٣ - في مسألة
التجنيس ودفن المتجنسين في المقابر الإسلامية ، فنشط الحزب نشاطاً عظيماً ،
وأصدر جريدة جديدة هي جريدة « العمل التونسي » ، حرر فيها كتاب الحزب
الذين عرفناهم من قبل ، وطائفة من العناصر الجديدة الشابة ذات الثقافة الغربية ،
منهم الطاهر صفر ، وصدرت لها نشرة فرنسية كان يكتب فيها أصحاب القلم
الفرنسي مثل الحبيب بورقيبة ، ومحمد بورقيبة ، ومحمود الماطري ، والبحري قيقة ،
ومع ذلك لم يظهر النثر السياسي بصورة ممتازة في النشرة العربية لجريدة العمل إذ
كان أكثر انصرافها إلى الجزئيات الإدارية وعلاج مسألة التجنيس من ناحيتها
الدينية وما حولها من الأحداث والإجراءات ، وسرعان ما حدث الانشقاق ،
فاستقلت كتلة الدستور الجديد بجريدة العمل وأصدر جماعة الدستور القديم
جريدة « الإرادة » ، ودخلت الجريدتان في المعركة الحزبية الكبرى التي تقابل
فيها شقا الحزب الدستوري . وظهرت مقدّرات فائقة في الجدل الصحفي
بين الجريدتين فكان في الشق القديم الذين عرفناهم في الدور الماضي ، مثل
محمد المنصف المنستيري ومحي الدين القليبي ، وظهر في مقابلاتهم من الشق
الجديد كاتب نزل حديثاً إلى ميدان المعارك السياسية ، هو الطاهر صفر .
وهو صادق من ذوى المكانة المعتبرة في اللغة العربية وأدبها ، وتخرج في التعليم
العالي من باريس بكلية الحقوق ومدرسة العلوم السياسية ، وله قدم راسخة
في الفلسفة والآداب الفرنسية ، بحيث يعتبر أرقى من أنجبته البلاد التونسية
علماً وفكراً وأدباً من ذوى الثقافة الغربية فانتصب يناقش كتاب الدستوريين
القدماء في دواعي الانشقاق ، مؤيداً منهمج مكوّن الدستور الجديد ، وتنشر
مقالاته في جريدة العمل التونسي ، أو في جريدة الزهرة تحت عنوان المنبر
الحر الذي فتحته للشقين ، وكانت أكثر مقابلاته مع محي الدين القليبي ومحمد
المنصف المنستيري ، وهو في تحريره واسع النظر ، يريد أن يلم في كل نقطة

جزئية بجميع أطرافها ، دقيق النقد يتتبع فكرة مناظره بالمناقضة التفصيلية
حكيم في إيراد الحجة المنطقية ، والنقض الجدلي ، يشبع موضوعه تقليبا
وتحليلا ، ولكنه لا يستقل بابتكار موضوعه فهو إما مقرر لفكرة أورد
الكلام أو واصل لخال ، حتى إن مقالاته المبتدئة كثيرا ما تتصيد من المقال
فكرة معارضة فتندفع في بسطها وتقريرها ثم تكرر عليها بالنقض ، فروح
البيان روع مدرس ، وتلك هي موهبته الحقيقية التي لم ييسرها ، وهو في
تعبيره متين الجملة مطمئنها يؤدي تمام المعنى المراد مستوعبا واضحا ، يطيل
السياق بمتابعة الجمل وربطها بالتعليل والتفريع والمقابلة والاستئناف . خالص
التركيب من مسحة النقل والتأثر باللغة الأجنبية ، لا يتعلق بالنكت الأدبية
والتلاويح والتلاميذ والمعارضة ، بل يرسل الكلام جادا جزلا مستويا
يهاجم الآراء ويقارع الحجج .

النثر العلمي :

توفرت دواعي النثر العلمي وتعددت أغراضه وتفننت نواحيه ، بسبب
اتساع دائرة البحث وتوافر مواد المعرفة ، وانطباع الأفكار على ملكة
النقد والتحليل ، وسمو الهمم إلى التحقيق والدراسة والإنتاج ، وإذا نحن قطعنا
النظر عن التأليف العلمية التي تدخل في حد العلم لا في حد النثر العلمي رأينا
أن مجال النثر العلمي في هذا الدور إنما هو في مقالات المجلات لا في الكتب ،
فمقالات عثمان الكعاك في التاريخ والأدب واستعراض المذاهب الأدبية
والفلسفية ، هي من أرقى مثل النثر العلمي الذي عرفناه من قلم هذا الكاتب
في الدور الماضي ، على ما زادت من تعمق في البحث ومكانة في أسلوب العرض
وقوة في الاستدلال والاستشهاد ، وظهر في النثر العلمي لون جديد فيه شائبة
النثر الفني ولكن صبغة النثر العلمي أعلق به ، وهو لون المقالات الأدبية
المنهجية التي تعالج أصول الأدب وتدرس مقاييسه بناء على قواعد علم النفس

وعلم الجمال ، وقد امتازت مجلة العالم الأدبي بنشر مقالات عظيمة الشأن في هذا النوع ، مثل مقالات صاحب المجلة زين العابدين السنوسي « الوضوح والإيهام في الأدب » ، و « الأدب القومي » ، و « الطريقة القصصية » ، ومقالات محمد الحليوي « العبقرية » ، ومقالة محمد عبد الخالق البشروش « الأسلوب » ، ومقالة أبي القاسم الشابي « الشعر كنهه ومقياسه » ، ومقالة محمد الفاضل بن عاشور « الخيال العام في الأدب العربي » . ويعتبر محمد الحليوي أبرز الكتاب في هذه الناحية وأتمهم تسديداً في بسط النظريات وتعليقها وحسن تطبيقها على خطة فيها أمانة الوصف ونزاهة الحكم وحسن الانسجام في الجمع بين روح الأدب العربي ومقاييس النقد الغربي التي يصلها به .

أما الدراسات الأدبية المتعلقة بالطرائق والأشخاص فقد ظهرت منها مثل كثيرة في المقالات والمحاضرات ولكن الذي طبع هذا الفن بطابع الدور الذي ندرسه فأخرج عملاً واسعاً مبتكراً فيه التسجيل والتحليل مع النقد والتوجيه إنما هو زين العابدين السنوسي بكتابه « الأدب التونسي في القرن الرابع عشر » ، الذي طبع في جزئين بمطبعة العرب سنة ١٣٤٦ - فقد جمع فيه منتخبات شعرية لـ ٢٦ شاعراً تونسياً من المعاصرين ، واهتم بتقديم كل واحد من هؤلاء الشعراء بدراسة توضح حياته من حيث ترتبط مع آثاره الأدبية وتحلل طبعه وذوقه ومنهجه الأدبي ، فكان لعمله قيمة كبرى بما فيه من الابتكار وكونه مصور عصر أدبي لم تسبقه الأقلام إلى تصويره ، زيادة على ما في تحليله من تعمق وتدقيق وما لبيانه من وضوح وجمال تعبير ومقدرة فائقة في ضبط الكلمات والجمال التي تبرز خصوصية الفكرة أو المنهج بصورة تميزه تمييزاً لا يبقى مجالاً للالتباس .

النثر الفني :

استمر النثر الفني سائراً في الأغراض التي انحصرت فيها في الدور السابق وهي المسرحية والقصة والصحافة الفكاهية ، ودخل في غرض جديد هو غرض الوصف الاجتماعي .

فالمسرحية خرجت عن دائرة الترجمة التي قصرت عليها في الدور الماضي، وعاودها نشاط الكتاب التونسيين في وضع المسرحيات ابتداءً ، وذلك بظهور فرقة «السعادة» التي أسست سنة ١٣٤٣ بعد ١٩٢٤ واحتجبت مدة ثم عادت نشيطة سنة ١٣٥٠ - ١٩٣٠ ليقوم عليها نخبة من أدباء العربية على رأسهم محمد الحبيب ، وهو الذي وضع لهذه الفرقة مسرحيات مستمدة من التاريخ التونسي أو التاريخ الإسلامي عامة مثل «الواثق بالله الحفصي» و«فتح فارس» ومسرحيات مستمدة من صميم الحياة التونسية الماثلة مثل «جيل اليوم» .

واقدر كان لزبارة فرقة رمسيس وعلى رأسها يوسف وهي وفاطمة رشدي سنة ١٣٤٦ - ١٩٢٧ ثم عودة فاطمة رشدي ، بعد انفصالها عن فرقة رمسيس سنة ١٣٥١ - ١٩٣٢ - ومعها عزيز عيد وحسين رياض وعباس فارس تأثير كبير في شحذ الأذواق وترقية فن الإخراج فتأسست جمعيات جديدة ونشطت الجمعيات فسعى مصطفى صفر ، الذي عرفناه في الدور الماضي كاتباً عبقرياً ، وقد صار شيخ مدينة تونس ورئيس بلديتها ، في توحيد الجمعيات التمثيلية في جمعية واحدة باسم «الاتحاد المسرحي» سنة ١٣٥٥ - ١٩٣٦ ، وأمدّها بذوقه وجأهه فأفادها ذلك نشاطاً ونجاحاً ، إلا أنها توجهت نحو التمثيل باللهجة العامية ونشطت وضع المسرحيات فيها ، ومع ذلك لم يخل عملها من تنشيط على وضع مسرحيات بالعربية الفصحى . وفي ظلها قام حميدة الحبيب بإخراج مسرحيات فكاهية قصيرة محورة من مقامات الحريري .

وفي سنة ١٣٥٧ - ١٩٣٨ كون محمد الحبيب جمعية الكوكب التمثيلي على الأصول التي كان يعمل لها في جمعية السعادة ، وتولى هو وكتاب آخرون وضع مسرحيات ذات قيمة مثل «الناصر لدين الله» و«يوم غرناطة» و«الزوجة الثائرة» لمحمد الحبيب و«ولادة وابن زيدون» لعبد الرزاق كركباكه و«المنصور ابن أبي عامر» لأحمد المختار الوزير و«زيادة الله بن الأغلب»

ود الحكم الأموي ، ود المعز الصنهاجي ، لخليفه السطنبولي ؛ فكانت ثروة عظيمة مجدية هذه التي أفادتها الحياة المسرحية للنثر الفني بتونس ، وتبعنها فوائد جسيمة أضيفت إليها في توفر مادة النقد المسرحي التي اعتنى بها ووفق فيها زين العابدين السنوسي في مجلة العالم الأدبي .

أما القصة فقد اختصت بها مجلة العالم الأدبي ووجهت إليها بالمقالات النقدية ونشر المثل المنهجية ، وما انفك زين العابدين ينمادي بوجوب تحرير القصة التونسية من طوابع الحياة الفرنسية وإبرازها صورة للحياة التونسية الشرقية بما فيها من ألوان وأذواق ، وأتى هذا التوجيه بنتائج ، فكان فيما نشرته مجلة العالم الأدبي أقاصيص ذات لون تونسي مستمد من صميم الحياة الشعبية والنفسية العربية ، إلا أن أكثر ما نشر من تلك القصص الرائعة كان ممضى بامضاء رمزي يظهر أنه ليكاتب واحد وإن اختلف الإمضاء ، فكان مرة « الراوي » ، وأخرى « المحدث » ، نشر له نحو ثمان قصص ، وأقل تلك القصص ما نسب إلى اسم كاتبه مثل « قصة روح ثائرة » ، لأبي القاسم الشابي ، وقصة « دموع القمر » لمصطفى خريف ، وقصة « زوجة احمد شرودة » لمحمد عبد الخالق البشروش و « هل كان مجنوناً » للتيجاني بن سالم . والمنهج التحريري لهذه القصص متقارب ، فهو جمل تصويرية متناسقة تعتمد أبلغ وسائل التصوير في اللغة العربية وأنسب الاعتبارات بالتخييل ، في الإبتداء بأكثر المقامات أو الجمل تشويقاً لروح القصة ، وحسن ترصيع الرواية بالحوار ودقة استعمال الجملة الفعلية وخاصة المضارعية وإبداع تقييدها بالجمل الحالية والظروف الفجائية .

وأما الوصف الاجتماعي ، فيكاد يختص به كاتب واحد ، هو : الطاهر الحداد ، وقد أظهر براعته في هذا المنهج في كتابيه ، حركة العمال التونسيين . و « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » ، وعلى ما تعلق بقسمه التشريعي من هذا الكتاب من نقد وإنكار وتغليط وتقصير وتجهيل ، فإن أهل المعرفة بالفنون البيانية مجمعون على تقدير الوصف الدقيق والبيان المعجب اللذين ظهر بهما

القسم الاجتماعي ، حتى سمعت أكبر أساتذتنا في البلاغة العربية وأشدهم تمسكا بالقديم وأكثرهم تشنيعاً على القسم التشريعي ؛ وهو شيخ الاسلام محمد ابن يوسف وناهيكم به ، يكرر التصريح بأن بلاغة تحرير الطاهر الحداد ودقة تعبيره في منزلة قل أن تنال .

الخطابة :

إن الأسباب التي أوضحنا بها ضيق دائرة النثر السياسي كافية للدلالة على أن الخطابة السياسية قد تضائل شأنها أيضا بعد أن انتظمت الحياة السياسية في النظام الحزبي وأصبحت المواقف والأعمال تملئ على أتباع الحزب بالطريقة التدريبية الرابطة بين مركز القيادة وشعب الحزب ، وارتكز العمل السياسي النظري على الكتلة الملتفة حول جريدة صوت التونسي . ولما حدث الانشقاق بين قادة الحزب الدستوري واضطر كل من الطرفين إلى التوجه إلى الشعب ، كانت طريقة البيان إما محاورات في مجالس ، وإما إقناعا للجماهير باللهجة الدارجة ، ولكن حياة الطلبة الشبان قد كانت لها مواضعها الخطابية ولها خطباؤها ، وذلك ما ظهر أول الأمر في الطلبة الزيتونيين وبينما في المحاضرة الماضية ، ونمت عوامله وازدهرت مظاهره في هذا الطور بما داخل حياة الطلبة الزيتونيين من النشاط فكانت مواقفهم في الإضرابات والمجامع بتقرير خططهم حول لجنة الطلبة ، مناسبات لظهور المواهب الخطابية الارتجالية وارتفاع شأن النابغين فيها ، مثل محمد الصالح المهيدى ومحمد بوشربية .

أما أولها فهوزعيم لجنة الطلبة مدة ست سنين ، وكان له بعد نظره ورجاحة فكره وهدوء مزاجه ما جعل إرادتهم الجماعية معلقة بتوجيهه الحكيم ، وكانت خطبه الكثيرة في جموع الطلبة مظهر التعقل والاعتزان والروية والإقناع بالحجة ورشاقة السير الدقيق ، وكان بيانه قويا منطقيا ، وجمله فصيحة محكمة منسقة مطبقة المحز قوية الأثر في التوجيه ، تبعث على التأمل ولا تتجه

إلى إلهاب الحماس حتى ينبعث بها حماساً إرادياً عقلياً تلقائياً .

وأما محمد بوشربية فهو أديب ساخط ثائر ارتوى من مناهل الأدب العربي بصفوته شعراً ونثراً ، إذا تكلم انثالت في كلامه القوالب البليغة البديعة وتزاحمت النكت والإشارات والأمثال ، فألقاها بجأش ثابت وصوت قاصف كالرعد ورمى بصواعقها المحرقة ، فلا يبالي على من وقعت ، واستمر في قوته سامياً في البيان ، عنيفاً في تناول المعاني ، يشهر بالضعف والاستخذاء والاقتناع بالدون ، فتلهب النفوس بحرارة بيانه وتكاد تنطلق نحو غاية خطابه قبل أن ينتهي إليها ، نال بذلك مكانة عظيمة بين الطلبة قريناً لهم ثم أستاذاً محبباً على تعاضده وصلابة عوده ومرارة كلمة الحق الصريح التي لا تفارق منطقته ، فأصبح المنظور إليه في المواقف الحاسمة التي إذا قال أما بعد فمر خطيبها ، يرسل القول سمحاً واضحاً متين الجمل متناسقها مليئاً بالتهكم والنكت وتجاهل العارف ، بارعاً في ربط انتباه السامع بمعاقد خطابه إذ يبنيه على تخيل الحوار واصطناع التردد .

وكما كان للزيتونيين في حياتهم هذا الجو الخطابي المكهرب ، فقد كان لطلبة التعليم العالي بفرنسا ، جوهم الخطابي أيضاً ، بعد أن تكونت وحدتهم الاجتماعية على نحو ما وصفنا في صدر هذه المحاضرة ، فكان خطابهم يتناولون المواضيع الوطنية ، ومشاكل الحياة الطالبة ، فعالجوا فيها الخطابة حتى برزوا بها إلى الجماهير متدرجين بتدرج المناسبات التي يسلك بها الطالب من الحياة الطالبة الخاصة إلى الحياة الاجتماعية العامة .

ويعتبر أكمل هذا الصنف من الطلبة ، مقدرة خطابية . على البلهوان ، فقد كان استعدادده للخطابة بالعربية مكتمل الشروط منذ تخرجه في التعليم الثانوي بالصادقية ، ثم كانت حياة الطلبة الأفارقة والعرب في باريس ، هي التي شحذت موهبته وصقلت مقدرته وأخرجته خطيباً مصقلاً قوى الجأش حاد القول حماسي الروح ، يبتدىء خطابه رصيناً ثابتاً ليناً تغلب عليه الروح

الفكرية والميزان المنطقي ، فيبسط المعاني في تقرير وتقريب وتنظير ومقارنة ، في لهجة أستاذ محاضر ، ثم لا تزال حرارة الموضوع تصعد به عن مستوى النظر المنطقي إلى أفق الإحساس الوجداني ، فتصعد معها حرارة نفسه المنفعلة حتى تطغى عليه الروح الحماسية فتفصله عن الجو الذي كان فيه فإذا هو نائر عنيف يرمي في بيانه بحجارة من سجيل ، فلا يفرغ من خطابه إلا وقد نقل سامعيه إلى ذلك الجو الذي خلق فيه فإذا هو وإياهم في بحران الحماس المتقدم والإرادة العارمة الهاجمة .

ولم يزل مرانه الخطابي يمد روحه ، وسمو ثقافته يرفع بيانه ، وسعة مطالعته ودراسته للأدب العربي تهذب تعبيره ، حتى أصبح بين أقرانه الخطيب الممتاز الذي لا يناع طول نفس وسلامة تركيب وفصاحة لفظ وبلاغة جملة .

وإذا نحن تجاوزنا ميدان الخطابة العامة إلى ميدان الخطابة الخاصة ، وجدنا للمجامع العلمية والمحافل الأدبية ، خطيبها الارتجالي الذي لم يزل ظاهر التفوق ، الشيخ عبد الرحمن الكواكبي ، الذي أظهر من بدائع خطبه الارتجالية في هذا الدور ، في الحفلات والذكريات وتقديم المحاضرين ، ماسد باب الظهور معه على كل مزاحم ، وقد طالما أخرج كبار المحاضرين وهو يقدمهم بكلماته الارتجالية تناوله لموضوع المحاضرة بيديته تناولا يشفق معه المحاضر وهو ينتظر نهاية التقديم من أن تكون الكلمة الافتتاحية لم تبق في الموضوع مقالا لقائل .

ثم وجدنا للخطابة العلمية أساتذتها الذين نبغوا فيها وفازوا بالإعجاب والتسليم ، حتى جعلوا هذا الباب على ما برعوا فيه واتقنوا وجودوا أعظم مظاهر الارتقاء العلمي والأدبي في هذا الطور ، وهم الذين أوردنا أسماءهم ومواضيع محاضراتهم عند الكلام على محاضرات الخلدونية .

الشعر :

كان من آثار طموح الشباب، وهو الميزة الأصلية لهذا الدور، أن وثب الشباب ينازعون الكهول والشيوخ قياد الشعر حتى امتلكوها، فسلطوا بذلك على المناهج الشعرية روح التجديد التي كلما نزل الشباب منزلاً أشاعوها في أرجائه، فوصلوا تطور الشعر بتطور التفكير وتطور الأوضاع الاجتماعية، وأفسحوا الميدان لوثبات متحررة من القيود، هدامة للحواجز، تنبث طلقاً في أشواطها لا تستلهم غير الإحساس ولا تستوحى غير الفكر، وبهذه الوثبة دخل الشعر في طور تلون فيه بلون غير لونه في الطور الماضي، إذ اتجه في استمداد معانيه إلى الطبيعة المطلقة والإحساس الفطري، فسقطت الخواص والأعراض التي كان الفن الشعري يتكيف بها من قبل حتى نزلت منه منزلة الذاتيات.

وإذا كان الواقع ينطق بأن ميدان الإنتاج الشعري لم يخلص للشبان ولا تحرر للذين ظهروا في هذا الطور، فإن التأمل العميق يدل على أن روح الشباب طغت طغياناً مطلقاً، وأن كل من بقي من شيوخ الشعر وكهوله ثابتاً في الميدان فإنه لم يثبت إلا لأنه قد تشبب فبرزت آثاره الشعرية مطبوعة بطابع غير الذي طبعت به من قبل، حتى انسجمت بذلك وحدة الأصول المنهجية بين الشبان والمتشبهين، إلا الذين تحيزوا إلى ركن خاص فأقاموا فيه على فنهم المألوف لم يدخلوا المعمعة ولا كان لهم من الامتداد إلى الجمهور والتجاوب معه ما كان لهم من قبل.

وحسبنا برهاناً على هذا أننا نجد عكس الطور الماضي «خزنة دار» و«آفة» قد خفت ضجيج التحدث بهما منذ استهل هذا الطور الجديد، أما أحدهما وهو «خزنة دار» فاحتجبت آثاره عن الصحف والمجامع بتاتا، وأما الآخر فقد بقي يظهر بين الفينة والفينة، قصيدا على ما عهد من شعره في الأفق الأدبي خفياً كالسهى، وقد كان له من قبل مطلع الشمس والقمر، وفي مجموع

الأمريين ما يدلنا على أن القيادة انتقلت وأن الميدان قد ساده قوم آخرون.
وما سر ذلك إلا أن محيط التلقى قد تغير وتحول، وأن الروح التي استمدتها
شعره من المحيط فنال بها مكانته لم تبق مستقرة فيه .

وإذا كان أقرب أبطال الطور الماضي من روح الطور الجديد وأكملهم
استعداداً للانسجام معهم وقابلية للتشبيب أو لاستصحاب الشباب، هم المدني،
و«ابن شعبان»، و«الخلصي»، فإن ثلثين من هذا المجموع قد قضت عليه ظروفه
الخاصة بالبعد عن الميدان إذ لم يبعد عنه بحكم التنافس بين الروح والروح كما
ابتعد «أغا»، و«خزنة دار»، فالمدني قد طوح به وظيفه العدلي في الآفاق، فانقطع
عن مشاركات الحماس وملهمات الإحساس، وانقطعت آثاره الشعرية طيلة هذا
الطور، ومحمد السعيد الخلصي، كان أمعن في البعد إذ انتقل إلى المغرب الأقصى
فلم تبق له صلة بالحياة التونسية وذكر ياتها إلا لماماً، فلم يبق إلا ابن شعبان،
الذي كانت وفرة إنتاجه الشعري، وتطور لونه، تسمح بأن نعتبر هذا
الطور موسم حياته الشعرية، لنصرح بأنه تشبب فكان بتشبيهه نقطة التحول
أو هبة اللقاح .

ثم يأتي «الطاهر القصار»، الذي كان في ابتداء هذا الدور قد تجاوز الثلاثين
ومع ذلك فقد كان شاعره الاجتماعي الذي تكيفت أغراض شعره بتطلعات
الجيل، والتحم طبيعته الفني بذوق العصر، وتجاوبت لغته السهلة وبيانه
المطبوع ومعانيه المولدة المنشروحة الباسمة مع اصدااء الأحاسيس والأحداث
الجائلة في البيئة العامة .

لم يكن إنتاجه الشعري مظهر واضح قبل هذا الدور، فكأن العوامل التي
خلعت على هذا الدور صبغة الشباب، قد كشفت عن نفس الطاهر القصار
شباباً غضاً رائقاً كان مضروباً بينه وبين الناس بحجاب .

فإذا هو يشرق بانعكاس شباب الروح العامة عليه فينمو ويزكو ويتصل
بالبيئة حتى يذوب فيها، فتصبح له روحاً، ويصبح لها لساناً .

وحقاً أن أدب القصص، ينبغي أن تطلب له روح من غيره، لأنه لسان بلا روح ومنهج بلا رائد إلا روح الشعور الاجتماعي ورائد الفكر العام، فهو مرهف الحس، خفيف الروح، حاد عصبية المزاج، سريع الانفعال بما يسمع سريع النسيان لما ينفع به سريع الامتزاج بالوسط الذي يدخله، يتنقل في المجالس ارتياداً للأنس ولطيف الحديث وبراعة النكتة، فيجول به من كل مجلس طعم، ثم لا يلبث أن يلهيه عنه طعم حلاً من مجلس آخر، فلا يبقى في النهاية إلا الأثر المكنون في حسه المشترك من توالي التذوقات واختلافها، فإذا خلا بنفسه واستلهم فنه، طفحت مكنونات نفسه فما هي إلا صورة دقيقة لمحل التلاقي بين ما تذوق من أحاديث. وكذلك شأنه في مطالعته الأدبية، يروى الأشعار ويتأثر بها، ويطالع روائع النثر وآيات العلم والفكر فتأخذه بالإعجاب، ولكنه لا يحفظ ولا يذكر ولا ينقل، فسرعان ما تغيب عنه الألفاظ والأساليب فلا تبقى له إلا روعة الحسن والإعجاب بالإجادة. فإذا تطلع إلى إبداع فنه الشعرى تعلق بمثل عليها، يسمو إلى وحدتها الجمالية الجمالية، ولا يحصى مناحيها التفصيلية، فجاء شعره صورة لما تأثر به طبعه من تلك المثل، لا صورة لها هي بذاتها.

وبذلك أيضاً تأتي له ما امتازت به ديباجة شعره من السهولة والسهولة والرقّة، وما كان له من القبول والرواج عند مستمعيه وقارئيه، لأنه لا يتطلب مفرداته إلا من المأنوس الواضح الدلالة، ولا يصوغ تراكيبه إلا على المنهج الأصلي البسيط لتأليف الجمل فكان شعره السهل في لغته وتراكيبه، الممتنع في معانيه التي هي بنت طبعه، وبذلك لم ينزل بالفن الشعري بل فتح في شعره معارج تسمو بالناس إلى علياء المعاني بالبيان السهل، فحاز بذلك لقب الشاعر الاجتماعي إذ أصبح شعره روح المحافل والمجامع، أما هو فلعل ما أحس به من أن عمله متجه إلى فن التعبير دون ابتكار المعاني، هو الذي كون طموحه إلى تلقيب نفسه ببخترى العصر.

ويشارك ابن شعبان والقصار في منهجهما الاجتماعي ، محمد بوشريّة
وقد عرفنا منهجه الخطائي ، إلا أن شعره كان اجتماعيا باعتبار الموضوع
لا باعتبار الأسلوب لأنه يتجه بنظره إلى المجتمع وادوائه وعيوبه فيتهم به
ويألم له ويشكو منه ويثور عليه فلا يتلاقى مع اتجاهات الناس بل ينفرهم
ويقسو عليهم ويزجر في وجههم ، فهو في روحه وأسلوبه حكيم وجداني ،
وإن كان موضوعه اجتماعيا ، إلا أن تعلقه بالفكرة الإصلاحية والروح القومية
هو الذي أساغ بعض قصائده المجهور في هذا الطور ، لاسيما حماسياته
التي يثور بها في وجه الظلم والجهل والتأخر ، وقلما كان ينشد في المجمع في هذا
الطور إلا أن مانشر من شعره أوجد صدى واسعا وأحدث أثرا قويا في
توجيه النهضة الإصلاحية والثورة القومية في وجه الاستعمار ، ويعتمد فيه
الشعري على الإغراق في المعاني والمبالغة في اظهار الصور الكريهة بالتمثيل
البليغ والاستعارة البديعة التصوير واختيار الألفاظ القوية الوقع المستمدة
من ثورة الطبيعة الطاغية على طريقة أبي الطيب في الإفراط ، كما يعتمد بيانه
على قوة التعبير وصراحة الجملة وحسن تنضيد الأبيات بتحري البديع
المعنوي وتحاشي الكلفة والنبوة ، فيأتي شعره جزلا محكما قويا مسبوكا متناسبا
المعاني منتظما الجمل مفصلا على عناصر الموضوع بحسن التصريح وحسن
مواقع الفصل والوصل .

وهناك طبقة أخرى من الشعراء هي التي أنيط بشعرها روح التطور
الشعري المميز لهذا الدور ، وهي طبقة الشعراء الوجدانيين الذين يتجهون
إلى وصف شعورهم بالأشياء وحكمهم عليها لا إلى وصف الأشياء بذاتها ،
وقد كان لعوامل التحرر وإبراز الشخصية أثر قوى في توجيه الشعراء إلى
هذه الناحية . على نحو ما كان في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر ،
فكثير الشعراء الوجدانيون كثرة لا يمكننا معها استقصاء الفحول منهم
فضلا عن عداهم .

وفي استطاعتنا أن نقسم طريقة هذا الشعر الوجداني إلى مسلكين ،
المسلك الحكي والمسلك الغزلي ، فنأخذ للمسلك الحكي مثاله في أبي القسم
الشابي والمسلك الغزلي مثاله في عبد الرزاق كربا كه .

وإذا نحن اكتفين بالشابي عن مصطفى خريف فلا نـ مصطفى قد كان
له بعد فقد الشابي أفق ممتد شع فيه شعره تتناوله محاضراتنا المقبلة ، ولأن
الشابي نفسه كان يرى أن مقاييس الشعر التي هـام بها وسار عليها أكثر
ما تتحقق في شعر خريف حين اعتبره أول شاعر تونسي في جوابه عن
الاستفتاء الذي أجرته مجلة العالم الأدبي في ربيع الأول ١٣٥١ - أغسطس ١٩٣٢ .

وإذا نحن اكتفين بكربا كه عن محمود بورقيبة ، فلا نهما قريعان تنازعا
عهدا طويلا لقب « شاعر الشباب » ، ولأن كربا كه نفسه يصرح بمناسبة
استفتاء العالم الأدبي بأنه يرى طريقته متجلية في شعر أبي رقيقة وروحه
متجددة فيه .

وبعد فلا شك في أن أبا القاسم الشابي هو آية الشعر في هذا الطور ، وأن
منهجه السائر على خطة محددة مدروسة مرتبطة بنزعتة التجديدية العامة ، هو
أكمل مثال للمنهج الشعري الجديد .

عاش أبو القاسم الشابي عمرا قصيرا لم يتجاوز سبعة وعشرين سنة ، في
بيئة عائلية محافظة مطمئنة منعم عليها لا تعرف البؤس ولا الحرمان ، ونشأ
على الثقافة الإسلامية العربية بجامع الزيتونة ، فأتقن القرآن والعربية وتمرس
بالآداب فغاص في الدراسة والمطالعة ، ثم ظهر نبوغه الشعري وهو ابن خمسة
عشر عاما ، فابتدأ ينظم الشعر الجيد على الطرائق المألوفة في مثل البلاغة
العربية في الأغراض المطروقة ، وعنى بمطالعة الدراسات الاستعراضية
للآداب الغربية والنصوص المنقولة من تلك الآداب إلى اللغة العربية ولم يكن
يحسن لغة أخرى .

وحببت إليه العزلة والانكماش حتى صار محيط حياته محيطا نظريا بجنا

بين المطالعة والتأمل والحديث النفسى ، ونمت فيه بذلك روح الملاحظة والاعتبار حتى تربت فطرته العقلية على المنهج الفلسفى فكان ينظر الى الوجود من خلال المناظر الطبيعية ، والى المجتمع الإنسانى من خلال الصور المرتسمة منه فى مادة مطالعته وتأملاته ، وفيما يجد فى نفسه من الحقائق الشعورية ، ودفعت به غريزته الفنية الى تصوير تلك الانفعالات على نحو المثل الأعلى الذى يتطلبه لفنه فوجد الطرائق الأدبية التى كان سائرا عليها قاصرة عن الوفاء بما يريد فضاقت نفسه بفيضها الفنى ضيقا ولد فيها ثقلا وانقباضا ووحشة سوداء من معاناة طرق الإفصاح عن مكنوناتها ، حتى ضاق ذرعا بالحياة وما الحياة عنده إلا الحياة الأدبية - واصطبغت فلسفته بصبغة التشاؤم المظلم .

وتداعى كيانه الجسمى بطول الاحتباس واستفحال الألم الباطنى ، فإذا جرائيم السل تهجم فتستقر بـكلتا رئتيه ، وإذا شبح الموت منتصب أمامه ، هنالك صممت نفسه على التخلص من اوقارها بتمهيد مسلك تنفذ منه إلى التعبير عن مشاعرهما على النحو الذى تطلب ، فانبعثت أمام عينيه صور من الأدب الغربى الذى تعرف إليه من خلال المترجمات ، وأنس بما فيها من صور قائمة وروح متشائمة ، ونقل نفسه بدافع التقمص الشعورى إلى الحياة الغربية التى لم يعرفها ولم يقع بصره على ألوانها ، فالغاب والضباب والراعى النافخ فى نايه والثلج كلها أمور لم يعرفها الشابى ولم يعيش فى دائرتها ، ومع ذلك كانت أكثر الألفاظ دورانا فى شعره ، فكان استعماله إياها أقرب إلى الاستعمال الرمزى منه إلى الاستعمال التمثيلى والمجازى ، ووجد من شعر جبران خير رائد له فى هذا الطريق ومساعد على سلوكه فتعلق به حتى تخرج على منهجه وامتزج بروحه فأتى بالتأملات العجيبة العميقة فى العواطف الإنسانية وأسرارها والوجود وحقائقه وأظهر التلاقى المتحقق فى ذاته بين الحياة المودعة والموت المتوقع فمزج الحياة بالموت وركب من مزيجها وحدة الوجود .

ولم تستعص اللغة العربية ومناهجها الأدبية عن محاولاته المرهقة ، بل

لانت له كما يلين الصخر انحت الفنان ، فجاءت قوالب شعره رقيقة صافية
محكمة النسيج رائقة النظم شديدة التعبير معتدلة المقاطع ثرية من طلاوة
الفصاحة ورونق البديع ، بحيث أن أشد الناس إنكاراً لمذهبه في تجديد
المعاني والأغراض لا يقدر أن يغض من براعته العجيبة في إتقان الصناعة
البلاغية التي هي مقياس الجودة المشترك بين المشارب المتباينة .

أما عبدالرزاق كركباكه فقد تكونت روحه الشعرية بقوة مراسه للأدب
وشغفه بالفن البلاغي بذاته ، إذ تخرج على الشيخ ماناشو ، فامتزج الميل البلاغي
في نفسه بميول عواطفه الغريزية إلى الجمال والحب والأنس والمتعة ، فجرى
في مسالك الحياة بنور الشباب حتى كان كما يقول هو عن نفسه (١) . بسمه
وجميع . ودمعة صريع ، يحرقني البعاد ، وينهكني السهاد ، وتعبث بي عين
الريم ، واهتز للحسن هزة الكريم . وأنى أو من بنفسى وما خلقت ، وبغرامى
وما أثار ، حتى يصل بي المقام إلى أن أردد قول بشار ، أنا فى شرعتى وحيد .
فلما خالط الحياة قوى الاعتداد بفننه القولى وفننه الغرامى ، جاء شعره صوراً
جميلة لانفعالات نفسه من الحياة الغرامية والمجاس الفنية ، على ديباجة جزلة
الألفاظ متينة التراكيب مشرقة بالنسيج الرفيع والطرز البديع . ومع كونه
غزلى الروح الشعرية فإن تعلقه بالفن للفن ، كأستاذ ماناشو ، قد حجب إليه
التنقل بين أفنان الأغراض فخاض الاجتماعيات ولكنه لم يؤث فيها ما أوثق
فى الغزل من رقة المعانى وانسجامها ، فجاءت اجتماعياته مخسولة المعانى
مضطربة الأغراض ، ولكنها برزت فى قوالب جزلة وتراكيب متخيرة
ذات وقع جميل يزيده حسن اختياره للأوزان المنشطة ، وقوة فصاحته فى
إلقائها .



المحاضرة السادسة

الاذاعة

١٣٥٧ - ١٣٦٣

كما كان فتور الحياة السياسية في الدور الماضي ، يمكننا لتغلب النشاط الفكري والأدبي ، وسيطرتهما على الحياة العامة ، فإن النشاط السياسي الذي تبع حوادث التجنيس وحوادث الانقسام الدستوري ، قد جاء قاضيا بتضاؤل النشاط الفكري ، فانقطعت الاجتماعات الأدبية وتعطلت المحاضرات وخفت صوت الشعر ، ثم إن امتداد النشاط السياسي إلى الحياة الشعبية ، بعد استقرار الانفصال بين الشقين . وامتلاك الدستور الجديد قياد الأغلبية ، وخروجه بالحركة إلى المحيط الشعبي الواسع ، كان معطلا لنشاط الحركة الفكرية ، إذ انصرف الناس كلهم إلى الكفاح السياسي واندجت نخبة أهل الفكر في العنصر الشعبي .

وتضايق الحكم الاستعماري ، تضايقا شديداً ، من هذا التعاضم بالانتشار والتقوى بالالتحام ، فبدأ يعمل على قتل الحركة السياسية بالمصادمة والعنف والإرهاب . من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ - سبتمبر ١٩٣٤ ، فلم تزد الحركة الوطنية بذلك الا اشتداداً واتسعت دائرة المظاهرات والمصادمات ، فضيقت حرية الصحافة ، وعطلت صحف كثيرة منها الإرادة والعمل والتونسي ، وحلت الأحزاب ، فزادت حركة التمرد الشعبي شدة وغليانا ، ونزل الطلبة الزيتونيون والصادقيون ، إلى ميدان العمل السياسي ، وتفاقم خطر



الاضطرابات في الحاضرة وبلدان المملكة، واتسعت دائرة النشاط السياسي إذ خرجت عن حدود النظام الحزبي، وتطوع بالقيادة شبان ممن رجعوا حديثاً من فرنسا مستكملين دراستهم العالية، وحاولت الحكومة الفرنسية العدول عن خطتها، فابتدأت في ذى الحجة ٥٥ - فبراير ٣٧ بإبدال المقيم العام، وإعلان العفو عن المبعدين، وإطلاق الصحف المعطلة، والاعتراف بالأحزاب، ولكن حزب المعمرين الفرنسيين بتونس ثار في وجه هذه التجربة حتى قضى عليها بالإخفاق، ولم يمض عليها أكثر من تسعة أشهر، فعادت الحركة الوطنية إلى سبيل القطيعة والتمرد والتصميم على التضحية وعلى تحرير الوطن التونسي بأيدي التونسيين ودمائهم، وانطلق الشبان، من طلبة المعهدين الزيتوني والصادقي، يعملون منادين لتطبيق هذه الخطة التي انعقد عليها مؤتمر الحزب الدستوري الجديد في شوال سنة ١٣٥٦ نوفمبر ١٩٣٧ فدخلت بذلك الحركة في طور العصيان المدني والتصادم مع السلطة، وساد الاضطراب في الطلبة، وأصبحت الصادقية مركز توجيه حركات الشباب بقيادة الأستاذ علي البلهوان، وتوجهت الإدارة إلى هذا الأستاذ بالتهديد فزاد ذلك الطلبة اضطراباً وإصراراً على موقفهم، ثم قررت فصله فأعلن الطلبة الاضراب وأغلقت الحكومة المعهد، وأضرب طلبة الجامع تضامناً مع طلبة الصادقية، وأضربت البلاد إضراباً عاماً، وتظاهرت الجماهير أمام دار السفارة الفرنسية في ٨ أبريل، ودعى الأستاذ البلهوان من الغد إلى دار المحكمة الفرنسية ليعتقل، وتظاهر الطلبة أمام المحكمة، فاصطدموا بأعوان الأمن اصطداماً مدبراً، كوّن المقتلة التاريخية الكبرى، مقتلة ٩ أبريل، التي سقط فيها من الطلبة المتظاهرين نحو المائة قتيل، وخيم الحزن على البلاد واستمر الاضراب الشامل وحالة الفزع حتى أعلنت حالة الحصار، وألقي القبض على زعماء الحركة، ودخلت البلاد تحت الحكم العسكري، فتوالت أعمال القمع والإرهاق، ودخلت الحركة الوطنية في طورها السري الرهيب، وتواصل القنوط والسخط والحقد الكمين، لشدة الإرهاق وفداحة

الاعتداء ودوس الكرامة الوطنية ، فبعد ان كانت السياسة عملاً ، صارت روحاً وعقيدة ، امتلكت مشاعر كل فرد من الأمة التونسية ، فلم يبق في نفس أحد مجال لدواعي العمل العقلي والإنتاج الأدبي ، وكان القمع الحامل على الهدوء بالقهر قد عكس الاضطراب الى دواخل النفوس ، وعزيمة التطلع الى المقاومة مع عدم التمكن منها قد كونت حماساً باطنياً مكبوتاً زادت في حرارته جميع القرائح العلمية والأدبية والفنية ، فتعطل الإنتاج تعطلاً تاماً ، بسبب الركود النفسى الذى بلغ درجة الذهول لولا أن بارقاً نزل من علياء الاثير ، فألفت النفوس عن غير إرادتها إلى تعهد الناحية الأدبية منها ، هو صوت المذيع العربى .

كان المذيع معروفاً بتونس منذ شيوعه . ولكنه لم يكن رائجاً فى العائلات والنوادر ، الا فى عدد قليل من العائلات المترفة التى تستمتع بالموسيقى الغربية وحديث اللغات الأجنبية ، إذ لم تكن تسمع فيه اللغة العربية إلا شيئاً قليلاً من محطة الجزائر لم يكن التونسيون يأبهون به .

فلما تأسست محطة الإذاعة بمصر ، أحس أهل الغيرة على انتشار العربية بارتياح نفسى عظيم إلى أن وسيلة من وسائل الانتشار والسلطان الأدبى ، كانت الثقافات الغربية تصول بها على الثقافة العربية ، قد تمكنت اللغة العربية منها ، فدخلت بها فى زحام مع الثقافات الأخرى يهتز العرب ويفخرون به ، وتشرح نفوسهم لآمال السمو والعظمة التى ستناهلها اللغة العربية من وراء ذلك .

فبدأت المذاييع تتكاثر فى العائلات العربية ، نزولاً من ذوى الثقافة واليسار الى الطبقات الموالية ، وبدأ الناس ينعمون بالحديث الأدبى الممتع والمحاضرة العلمية المجدية والإلقاء الفصيح والفن الراقى ، ولكن العوائق الفنية التى كانت تمنع من الاستماع فى وضوح وصفاء إلى محطة الإذاعة بالقاهرة ، بسبب مزاحمة محطات أخرى غربية اياها على الموجة ، قد ترك المشغوفين بالإذاعة العربية يتحرقون على تلك المصادفة الممقوتة ، ويثورون فى و

الزمان الذي لم يزل يعطى الغرب وثقافته أسباب التغلب ، عن قصد أو عن غير قصد ، ثورة سجلها الزجال المصري بيرم التونسي أحسن تصوير في زجل بديع نظمه في تونس ونشر في الجزء الثاني من ديوانه ، ومع ذلك فإن هزة الشوق الى ذلك الصوت المحبب ، لم تزل تحمل الناس على الاصطبار وتملاً أحاديثهم تصاليق على ماسمعوا وما فاتهم ، وتدبيراً للحيل الفنية للفوز بالاستماع وتباصراً بها ، وتكاثر المذاييع في المنازل وانتشرت في المقاهى فأقبل عليها من لم يكن يغشاها ، ممن لا تتوفر لهم الوسائل للحصول على مذاييع ، وبخاصة الطلبة الزيتونيين ، فتحرك بذلك الركود الأدبي ، وتجددت بين أهل الأدب أحاديث التعليق والنقد ، ومشارات المباحث العلمية والأدبية ، وانتعشت الروح القومية المنكودة بهذا السبب الجديد من أسباب اتصال الأخوة العربية ، الذي امتد الى تونس متغلباً على عمل الاستعمار في قطع المواصلات وازدهت بتلقى الاخبار عن حياة مصر الشقيقة الحبيبة ، حياة استقلال وكرامة ، فكم صفق الناس في المقاهى والنوادي ، وكم استدعت العائلات أقارب وأصدقاء ، للاستماع الى ما تنقله الاذاعة ، عن افتتاح البرلمان ، أو عن محاضرة دينية في الأزهر ، أو عن مجمع سياسي يخطب فيه أحد الزعماء . فكان ذلك يغيظ الحكومة ، ويشعرها بما ينطوى عليه من المغازى ، حتى أيقنت بأن صوت الإذاعة المصرية قد أصبح متعلق قلوب التونسيين ومناطق أهوائهم ، وأنه بعث فيهم الروح التي كانت تبعثها الأحزاب والجمعيات بعد أن ظنت الحكومة إنها ماتت وقبرت .

واتخذت الدعاية الاستعمارية من جهتها أيضاً ، هذا الطريق ، لإبلاغ صوتها فأنشأت إيطاليا حصص إذاعة عربية ، روجتها بالنشرة المتعلقة بها التي تعمل على جذب الروابط الأدبية من البلاد العربية نحو إيطاليا . وأنشأت فرنسا حصص إذاعة كذلك من محطة باريس ، ولكن الإذاعات الإيطالية كانت أقرب إلى مداخلة النفوس ، بسبب أن المزاخمة التي بين الاختين

اللاتينيتين ، كانت تدفع بالتونسيين دفعا فطريا إلى الميل نحو عدو عدوهم المباشر ، زيادة على تفوق الإذاعات الإيطالية من ناحية الإتقان الفني والصناعي .

وبتظاهر هذه الأسباب ، بدأت تروج في الأوساط الإدارية بتونس فكرة إنشاء محطة الإذاعة ، تنازع محطة القاهرة ومحطة إيطاليا مالهما من الأثر على توجيه الرأي العام التونسي ، وبينما الفكرة تدرس والمباحثات تجري بين تونس وباريس ، أسرع رجال من أهل المال والمعاملات إلى استثمار هذه الفكرة ، بإنشاء محطات محلية صغيرة حرة ، فأنشئت سنة ١٣٥٦ - ١٩٣٧ محطة بتونس ، وأخرى ببزرت . وثالثة بصفاقس ، ونشطت محطة تونس ومحطة بنزرت في الإذاعة باللغة العربية ، واستدعنا الأدباء والمفكرين ورجال الفن للإذاعة والاشتراك في الإشراف على الإدارة ، فتحركت القرائح بذلك حركة نسبية ، ووضعت بتملك المناسبة مشاكل دينية متعلقة بحياة الإذاعة استتبعته صدور تحريرات فقهية اشترك فيها كبار العلماء واشتغلت بها الصحف والمجلات العلمية ، كمسألة قراءة القرآن في الراديو ، ومسألة نقل الخطب والصلوات والدروس الدينية من المساجد ، ومسألة الاعتماد على خبر الصوم والفطر بطريق الإذاعة ، وبدأ الإنتاج الأدبي ينتعش ويتلون بلون خاص بالإذاعة ، وظهرت صور حياة الإذاعة في الشعر والنثر .

وقوى عزم الحكومة على تنفيذ فكرتها في إنشاء محطة الإذاعة التونسية بما لقيت تلك التجارب الفردية من النجاح ، فتم إنشاؤها سنة ١٣٥٧ - ١٩٣٨ وأقبل الأدباء والشعراء والباحثون على إلقاء أحاديثهم في الإذاعة فكانت برامجها الثقافية باللغة أقصى حدود الرقي ، وقد جعل الإشراف على الإذاعات العربية ، لأستاذ من أشهر الكتاب وأوفرهم إنتاجا في الأدب والتاريخ ، هو عثمان الكعاك ، صاحب الملكية السامية في التوجيه وابتكار مواضيع البحث ، إذ كان من أكبر عناصر النشاط والإنتاج في حياة الجمعيات الثقافية .

ويعتبر اتصال النتاج الأدبي بالإذاعة بعد افتتاح المحطة الدولية الرسمية،
طوراً جديداً للحياة الأدبية، أدخل عليها عوامل كسّفت حياة الشعر والنثر
والخطابة العلمية تكييفاً جديداً، ويرجع تفصيل تلك العوامل إلى
النقط الست الآتية .

١ — المطافآت المادية :

فقد كان الإنتاج الثقافي قائماً على مجرد الهمة الأدبية والتضحية في سبيلها.
فلم تكن مقالات الصحف ولا المحاضرات ولا غيرها تفيد صاحبها أى جزاء
مادى، فلما نظمت الإذاعة على أصل أن كل عمل له مقابل مادى، كان ذلك منشطاً
جديداً على الإنتاج، إذ أصبح الأدباء يتوصلون بمجهود قرائتهم إلى التوسيع
على أنفسهم فى الرزق من باب شريف لا يناله شؤم حرفة الأدب .

٢ — ضبط الخطط :

فبعد أن كان الأدباء يستلهمون من أنفسهم اختيار المواضيع وتأليف
عناصرها فيبرزونها على الصحف أو على المنابر وقد انتظمت عناصرها غالباً
بحسب نزاحمها على فكر الكاتب عند النظر أو التحرير، أصبحوا يتلقون
الاقتراح بها من طرف الإذاعة ويطالبون بتقديمها محررة قبل إلقائها، فيعينهم
ذلك على ضبطها وتخطيطها قبل الشروع فيها، فأصبح مظهر الانتظام
والتسلسل ووفرة المادة الفكرية، سائداً على أثارهم، إذ أصبحوا يكتبون
كما يراد منهم بعد أن كانوا يكتبون كما يريدون .

٣ — الإيجاز :

فإن تحديد الأوقات وقصرها، كان ملزماً لكل محاضر أن يجمع أطراف

موضوعه وأن يتجنب الانتشار والاستطراد ، وأن يودع كلامه أحسن القوالب اللفظية مطابقة لمقتضى الحال بالإيجاز ، وبذلك اتسعت ملكة محاسبة الكاتب نفسه على تحرير مقاله باجمع الأساليب للإيضاح والاختصار .

٤ - الفن في ابتكار المواضيع :

فإن ضيق المقام بسبب تحديد الحصة من جهة ، وكثرة الاستنفاد اليومي من جهة أخرى ، قد تلاقيا على تجزئة المواضيع على نقطها الدقيقة ، فبرزت مواضيع تفصيلية طريفة ، وخطرت في الأفكار مواضيع من أثر إلحاح الدواعي في تناول ما يقتضيه البرنامج .

٥ - تكوين مناسبات التمرق في التعاون بين الكتاب والأدباء

وبين أهل الفن التمثيلي والفن الغنائي :

فقد مضى على الأدباء حين وليس لهم ناد يجمعهم ، ولا طريقة تمكن بعضهم من الاتصال ببعض ، وكان أكثر منتجي الأدب لا تسمح لهم الأوضاع والفرص بالاتصال بدواخل الحياة الفنية ، إلا فئة قليلة معينة من الأدباء المتصلين بالحياة المسرحية ، إلا أن مشروعاً أدبياً فنياً ، أنشئ قبيل إنشاء الإذاعة ، هو مشروع الجمعية الرشيدية وهي جمعية فنية راقية أحدثت لتشجيع الفن الغنائي التونسي وإحياء قديمه ، وتكونت من هيئة أدبية تشرف على النقد والتصحيح والإنشاء ، وهيئة فنية تتولى التلحين وتشرف على صحة الإلقاء ، فأتصل بذلك مجهود الأدباء اتصالاً وثيقاً بمجهود الملحنين والمغنين ، واشترك الملحنون مع الأدباء في إبداء مطالب فنهم ، في نظم القصائد والتواشيح ، كما اشترك الأدباء معهم في إبداء ملاحظ الذوق الأدبي ، والعربية الصحيحة على ما يلحنون ويغنون .

فلما فتحت محطة الإذاعة ، سارت على هذا المنهج في دائرة أوسع ، إذ

شملت من كانوا يتصلون بالرشيدية وغيرهم ، وعممت أسلوب التعاون على الفن التونسي والفن الشرقي على السواء ، فدعت الأدباء إلى تأليف قطع في أغراض لتغنى في ظروف مضبوطة بتعيين الحفلات والملحنين والمغنيين ، فأصبح كل من الشقين ، الأدبي والغنائي ، يشعر بأن عمله جزء من عمل تام يشترك فيه مع الشق الآخر ، وانتبه كل إلى مقتضيات صناعة الآخر ومقاييسها.

٦ - انتشار المستمعين

وهذه أيضا نقطة لها أهميتها العظمى ، إذ لا يخفى أن الخطابة العلمية كالخطابة العامة ، تتأثر تأثرا عظيما بحال المستمعين ، فقد يلقي الخطيب في مجمع خاص كلمة أو فكرة لا يلقىها في مجمع غيره ، وقد يعتمد على أن مدارك سامعيه تتطلب بسطا أو اقتضابا ، وأن فيهم من يقنع بالدون أو من لا يرضيه إلا كمال التحقيق ، فلما أصبح المحاضر يتكلم في بيت ضيق مفصول عن الدنيا ، وهو يشعر بأن كلامه يدخل على المستمعين في زوايا المنازل ، فكما استحضر في ذهنه صنفا من أصناف الناس ، أو شخصا ممن يخشى بأسهم في النقد ويرهب مقامهم في المعرفة ، توقع أنه أحد من يصغون إلى خطابه ، فتطلب الكمال المطلق . وأخذ بالاحتراز من كل جانب ، علاوة على أن هذا الانتشار قد أكسب المحاضرين شعورا بتزايد امتدادهم الأدبي ، إذ خرجت آثارهم عن حدود الحصر التي كانت تعيش فيها وسط المعاهد والنوادي .

وبهذه الأمور متلاقية ، اصطبغت الخطابة العلمية صبغة جديدة ، إذ تبسطت وسهلت ودقت وجادت قوالبها ، حتى التحقت بالنثر الفني ، وسمت فيها روح التحقيق واستيفاء حق المواضيع ، حتى التحقت بالنثر العلمي . وإن كان هذا قد أفقد الخطابة العلمية براعة الارتجال ، كما أضعف في الشعر روح الشخصية ، إذ أصبح شعراء الإذاعة ينظمون ما يطلب منهم ، لا ما تفيض

به خواطرهم ، فانصرف قرائحهم إلى الصيغ والقوالب أكثر من المعاني ،
وظهر على الشعر الاعتناء بالديباجة واصطناع البديع .

هذا والإذاعة وراء ناحية المتكلمين ، ناحية أخرى ، تطورت بها
تطوراً ميز هذه الحقبة من تاريخ الأدب ، وتلك هي ناحية المستمعين ، فإن
المذيع قد انتشر في العائلات والجامع الشعبية انتشاراً مهولاً ، فيقل أن تجد
بيتاً في الحواضر جمع حاجياته الأكيدة وخلا من مذيع ، ولم يبق مقهى ،
كيفما كانت حالته ، ولا خان ولا منزل قوافل ، في المداشر والقرى ، وحتى
في مضارب الخيام ، إلا وتسمع فيه جعجعة المذيع ، فكان ذلك مبلغاً صوت
الأدب ودعوة الفكر وحديث السياسة ، إلى مناطق كانت منقطعة عن تلك
النفحات انقطاعاً مطلقاً ، وفي البيوت ، حيث الأثرية الغالبة من النساء
غير متعلّيات ، شاعت أصوات المذيع وكوّنت شغفابه وإقبالاً على الاستماع
بأغانيه وتمثيلياته ، وأحاديثه باللغة الدارجة ، فهجمت بين ذلك الأحاديث
الدينية والأدبية ، ووجدت المرأة داعياً طيباً للاستماع إليها والاستفادة بما
تحيط به مداركها ، وتعلقت بمظاهر ما تسمع ، إما لروعة الحديث الديني وبعد
أثره في نفسها ، أو لحسن منطق المحاضر الأدبي ، أو للاهتمام باسمه المعروف ،
وكان هذا الاستماع في أول أمره ، كما قيل .

ولم أفهم معانيها ولكن شجيت قلبي فلم أجهل شجائها
إلا أنه بالتكرار والتعود ، وتحرك الهممة ، وغريزة حب المعرفة ، بدأ
المستوى يرتفع شيئاً فشيئاً ، وبدأت الأسئلة تترى على المثقفين والمثقفات
في البيئات القروية والبدوية والمنازل العائلية ، حتى تعود المستمعون الإصغاء
في سهولة إلى الأحاديث التي كانت مستعصية عليهم ، وأصبح ما يأخذون منها
أكثر مما يدعون ، وانتظمت العلاقة بين الحديث وبين المستمعين الذين
رفعهم إليه من حضيض الجهالة .

أما من حيث اللغة فإن اللغة العربية الفصحى ، التي تلقى بها أكثر أحاديث الإذاعة

وأسماءها منزلة ، لا سيما الأحاديث الدينية ، تختلف عن اللهجة العامية الدراجة بتونس ، كما تختلف اللهجات العامية عن اللغة الفصحى في غير تونس من البلاد العربية . ويقرب الناس من المقدرة على الكلام باللغة الفصحى ، على نسبة بعدهم من الأمية ، ولم تكن ظروف حياة الأميين تسمح لهم بالاستماع إلى الحديث بالعربية الفصحى ، إلا في الخطب الجمعية ، فكان ذلك يبعد بمفردات اللغة وتراكيبها عن الجريان على ألسنتهم ، وابن خلدون يقول : « السمع أبو الملكات اللسانية ، فلها شاعت أحاديث المذيع في أوساط الأميين . كثر مرور الألفاظ والتراكيب الفصحى على أسماعهم ، فألفوها ، وارتقت المعاني النفسية التي يعربون عنها بارتقاء مستواهم الفكري ، فتطلبوا المفردات لأدائها ، فوجدوها فيما علق بأذهانهم من المذيع ، وبذلك بدأت المفردات العامية تتناقص والمفردات الفصحى تكثر . وصيغ النطق تعتدل ، حتى تطورت اللهجة العامية تطورا عظيما ، اختلفت به اختلافا كبيرا عن لهجة الجيل الماضي ، وسمت به نحو اللغة الفصحى ، بصورة قربت جداً تحقيق الأمل الذي تسمو إليه همم المصلحين ، من تقريب اللهجات العامية من اللغة الفصحى وذلك من أمثـن دعائم الوحدة العربية الكاملة .

كان هذا التطور في الحياة الأدبية بأثر الإذاعة ، وشيكا أن يرد إلى الحياة الأدبية نشاطها في ميادينها القديمة ، فإذا بقنبلة الحرب العالمية الثانية تنفجر في رجب ١٣٥٨ - سبتمبر ١٩٣٩ فدخلت بذلك البلاد التونسية تحت الحكم العسكري من جديد ، وعادت حياة الخوف والضيـق واللاء وأضعاف ما عرفتـها في الحرب العالمية الأولى ، وسبق التونسيون مجندين لإجابة دعوة النفير العام فمنهم من التحق بميادين القتال في أوروبا ، ومنهم من بقي في الجيوش المـرابطة بخط مارت على الحدود الليبية ، توقعـا لدخول إيطاليا في الحرب ، وما هو معروف من طمعها في احتلال البلاد التونسية ، وبدأ نظام التقسيـط يدخل على المعاش فانصرف الناس إلى معاناة الحياة المنغصة ، وهجمت جيوش

ألمانيا على فرنسا في ربيع الثاني ١٣٥٩ - ١٠ مايو ١٩٤٠ فلما أوشكت أن
تكتسحها وأندرت حالة الدفاع الفرنسي بالانهيار، أعلنت إيطاليا الحرب على
فرنسا فكانت القضية - وأصبحت البلاد التونسية دار الحرب ومقر الفزع،
واضطربت حياة العاصمة التونسية تحت نذير القذف الجوي من الطائرات
الإيطالية، فخرج الناس على وجوههم لاجئين إلى البوادي، وفارقوا حياة
الرفاهية التي كانوا عليها، فحرقوا شتط العيش وأفترق الشمل ونقص
الأموال والأنفس والثروات، ولم تطل بهم هذه الشدة إذ استسلمت فرنسا
لطلب الهدنة. فانعقدت في جمادى الأولى ١٣٥٩ - يونيو ١٩٤٠ فارتفعت حالة
الذعر وعاد أهل العاصمة، وقد قروا عينا بالهزيمة الفرنسية، وزادوا
ابتهاجا بما أوجبه معاهدة الهدنة من تنقيص عدد الجيش الفرنسي، ورجوع
أكثر المجندين التونسيين إلى الوحدات التونسية، إذ التجأت فرنسا إلى
إكثار عددها تعديلا للنقص الذي فرض على جيش الاحتلال، واستقرت
بتونس لجنتان، ألمانية وإيطالية، لمراقبة تطبيق شروط الهدنة، ففقد ذلك
على ما كان للفرنسيين على حظوظ البلاد من هيمنة مطلقة. ولكن عداء
انجلترا لحكومة فرنسا المنهزمة، قد تولدت عنه أزمة كبيرة بفقدان
كثير من المواد الأولية، بسبب المقاطعة الاقتصادية والحصار البحري وانقطاع
سبل المواصلات في البحر المتوسط، فعادت الشدة أهل المملكة التونسية،
لكنهم قنعوا بالأمن وصبروا على الضيق، وكان مذبذب برلين يؤلف النفوس
حول به ينطق به من تطاول وتهكم على فرنسا، وما يحمل من أنباء الانتصارات
الألمانية، فتكوّن عطف في الفكر العام التونسي على قضية ألمانيا، إذ كانت
أقل دول أوروبا شأنًا في الاستعمار، وغدت هذا العطف ذكريات عهد الموقف
الألماني في الحرب العالمية الأولى إلى جنب الخلافة العثمانية، وما عرف عن
سياسة ألمانيا النازية من بغض لليهود وعزم على قطع أملهم في فلسطين،
وما كان يصدر عن مذبذب ألمانيا من تنويه بانضمام رجال من عظماء القادة في
العالم الإسلامي إلى ألمانيا ومناصرتهم سياستها. حتى بلغ الحماس مبلغاً متناهياً
في الاهتزاز فرحاً وفخراً لانتصارات ألمانيا، والتعلق بإذاعات برلين.

وفي وسط هذا الازدهار القومي ؛ أشرق على التونسيين نور جديد من أنوار الأمل ، وهبت عليهم ريح طيبة من شعور العز والكرامة ، بولاية الملك المقدس ، محمد المنصف ، عرش تونس في جمادى الثانية ١٣٦١ - يونيو ١٩٤٢ ، لما عرف به من وطنية ، وما أظهر من تعلق بالخير وعطف على الشعب ونفور من الفرنسيين ، ولم تمض على ولايته خمسة أشهر كاملة حتى عادت البلاد التونسية إلى حياة الحرب والمصاعب ، إذ تركت فيها الواجهة الحاسمة لحرب أوروبا . ففي الوقت الذي نزلت فيه قوات الحلفاء على طول الساحل الشمالى لبلاد المغرب العربى ، من الدار البيضاء إلى الحدود التونسية الجزائرى ، فى ذى القعدة سنة ١٣٦١ - ٨ نوفمبر ١٩٤٢ بادرت الجيوش الألمانية الراجعة متقهقرة بعد هزيمة العلمين ، باحتلال المطارين الرئيسيين فى تونس وبنزرت ، ثم توالى تلاحق عساكرهم وعتادهم ، بمختلف الطرق البرية والبحرية والجوية ، واستقرت قدم الاحتلال الألمانى الإيطالى فى منطقة العاصمة وما وراءها ، إلى أقصى الحدود الجنوبية ، وفى الشمال الشرقى إلى ساحل البحر وتقدست جيوش الحلفاء من الغرب ومن الشمال الغربى ، فبلغت سلسلة الجبال الوسطى ، وأصبحت المملكة التونسية مقسمة إلى شطرين : تفصل بينهما خطوط النار .

وفارقت الجيوش الفرنسية عن آخرها ، العاصمة ، فانحازت إلى منطقة احتلال الحلفاء وبقي الملك والحكومة التونسية فى منطقة الاحتلال الألمانى الإيطالى ، فكان ذلك مبلغ الأمل القصى عند التونسيين ، إذ رأوا عاصمتهم خالية عن جيش الاحتلال ، ونزل السكان الفرنسيون والمعمرون وحتى المقيم وبقايا الموظفين ، عن أوج تطاولهم ، فكان ذلك أعظم باعث للاختيال بالعزة القومية ورافع للكابوس الذى كان نازلا على النفوس من إمعان المستعمرين فى الضغط والإرهاق ، وتعرضت العاصمة وجميع المدن إلى قذف جوى عنيف أكثر الخراب والفناء وقضى بالجللاء ، حتى إن مدنا كبرى ، كمدينة سوسة ، أصبحت خاوية على عروشها ، وشاعت فى العائلات المصاب

والأحزان ، وذاق الناس كلهم أمر الدواهي في الغربة والتشرد والجوع والخوف وتلاشي المتاع والثروة وانقطاع طرق الاستزاق ، ونزلت بوسط المملكة كوارث أشد هولاً ، إذ أصبحت متداولة بين القوتين ومصادمات المصفحات ومنازلات الجيوش والمعارك الجوية تغاديهما وتراوحها ، وانتشرت المجاعة بسبب تعطل استغلال الأرض وضيق نطاق المواصلات ، كما أصاب ذلك مناطق الاحتلال الألماني ، للأسباب نفسها ، ودامت هذه الحالة قريباً من ستة أشهر ، فلم تنته هذه الشدة بعد أن بلغت مداها إلا في ٨ ربيع الثاني ١٣٦٢ - ١٢ مايو ١٩٤٣ ولكن انتهاءها كانت إلى شذائد أخرى مست بالروح القومية مساساً بالغياً ، فإن رجوع الجيوش الفرنسية ضمن جيوش الحلفاء الظافرة ، ومرآجل نفوسهم تغلّى حقدّاً على العرب ، لما نالوا منهم بمظاهر الشناعة والازدراء ، قد كان عاملاً في فتح طور جديد من الإرهاق ابتداءً بخلع الملك وانتشار القتل بالحكم العرقي العسكري ، وانتهى إلى محاولة قلب النظام تماماً ، بتسيير الإدارة على طريقة الإلحاق المباشر والعدول عن طريقة إدارة الحماية ، إلا أن هذا الإرهاق لما كان آتياً في ظروف تختلف عن ظروف الإرهاق أول عهد الاحتلال فإن عوامل الصمود في وجهه ، والتمرد عليه قد توفرت ، بصورة أبرزت موقف التونسيين في وجه الاستعمار أحدى مما كان عليه قبل الحرب ، فلم يلبثوا ولم يهنوا ، بل أقبلوا على المحتل ينازعونه السلطة ، وعلى وطنهم يستلمونه عظمة الخلد ، وبدأت الحياة الأدبية تعاود سيرتها الأولى ، فعادت الصحف العربية فور دخول الحلفاء العاصمة بصدور جريدة الأخبار عن مطبعة النهضة ، جريدة يومية ، ثم عودة الجريدتين اليوميّتين ، الزهرة والنهضة ، واستئناف الإذاعات بمحطة تونس ، في رجب ويوليو ٦٢ - ١٩٤٣

وبرزت لسكان المدن عظمة مدنها ، وحببها إليهم التلاقي بعد الفراق ، فأقبلوا على تجديد المعالم وتنظيم الحياة الاجتماعية ، وكانت روح تجديد بناء المدن ومعالمها ، قد أكسبت المجتمعات حرارة القومية التي تصحب أطوار

تأسيس المدن ، وطول حنينهم إلى الديار قد ألهب في نفوسهم شعلة الوطنية ، واختلاف الأطوار والأجناس التي تعاورت البلاد ثم ذهبت كغشاء السيل ، قد زادهم حباً لأنفسهم وإعظاماً لشخصيتهم القومية ، فتطلعوا يطلبون لشخصيتهم مظهرها في روابط الجامعة المستمدة من شعورهم بمقومات شخصيتهم الملية ، فاندفعوا نحو البلاد العربية الشرقية يستمدون منها غذاء الروح القومية ، مجدين في اغتنام كل فرصة من فرص الاتصال ، فكانت زيارة الأميرين السعوديين ، فيصل وخالد ، في ذي الحجة وديسمبر ١٣٦٢ - ١٩٤٣ مناسبة لمظاهرة ابتهاج حارة داوية بالهتاف ، لا سيما عند زيارتهما لجامع الزيتونة ، وكذلك كان سفر وفد الحج الرسمي سنة ١٣٦٢ - ١٩٤٣ والسنتين بعدها ، على قلة عدده وضيق حريته في السير والإقامة ، وصارت الإذاعات العربية من مصر ولندن ، محل الاعتناء والإقبال . وكثرت الاتصالات بمحطة لندن بالأسئلة والاقتراحات ، وأصبحت نشرتها « المستمع العربي » أكثر النشرات الأدبية الآتية من الخارج ، رواجاً بالبلاد التونسية ، وكانت الدعوة إلى تكوين الوحدة العربية ، مركز الاهتمام ، والأعمال التمهيدية في سبيل إنجازها ، مبعث البشائر ، حتى وضع أساس « جامعة الدول العربية » في بروتوكول الإسكندرية شوال ١٣٦٣ - سبتمبر ١٩٤٤ ، فأصبحت هي روح الحياة القومية ومحور الحركة الفكرية وغاية الاتجاه السياسي .

مظاهر النشاط الأدبي :

لم يكن للحياة الأدبية في هذا الطور لون جديد ولا مظاهر متميزة ، ولم يظهر فيها كتاب ولا شعراء ولا خطباء غير الذين كانوا بارزين في الدور الماضي فلما بمتوجهين إلى النظر إلى فنون النتاج الأدبي . ولا إلى تحليل المنتجين وطرائقهم ولكننا نكتفي بإلقاء نظرة عامة على مظاهر الحركة الأدبية ، وأغراض

الشعر والنثر ، تدبين بها الصورة التي تكيفت بها الحياة الأدبية عند استعادة نشاطها في هذا الطور .

كانت حياة الأدب قد تركزت في الإذاعة ، ثم لما جفّ تيارها بالتهاب الحرب وعاد بعد انتهائها ، عادت الحياة الأدبية إلى مركزها متأثرة بالعوامل التي شرحتها من أثر الإذاعة .

وعن الإذاعة تولدت حياة النشر الأدبي بعد الحرب العالمية الثانية ، بصدر مجلة « الثريا » في ذي الحجة ١٣٦٢ - وديسمبر ١٩٤٣ ، أصدرها الكاتب العام للإذاعات العربية ، الأستاذ نور الدين بن محمود ، وهو من الأدباء البارزين ، المتصلين بمختلف فروع حياة الفكر والأدب والفن ، وجعل مادتها مما يلقى في الإذاعة من الدراسات الأدبية والتاريخية وقطع الشعر والنثر . وانتشرت هذه المجلة في تونس وعموم المغرب العربي انتشاراً واسعاً ، ووصلت إلى الشرق ، فأكدت الصلات الأدبية ، بين تونس وبين كثير من مراكز الإنتاج العلمي والأدبي ، واندعشت برواجها حركة النشر الأدبي في البلاد التونسية ، فاستأنفت (المجلة الزيتونية) صدورها ، وأحييت نخبة من الأساتذة مجلة « المباحث » التي كان أصدرها ثم أبطلها منذ سنين الأستاذ محمد عبد الخالق البشروش ، فكانت سجلاً لأرقى فنون النشر العلمي ، وامتازت بإشراف نابغ من أساتذة اللغة العربية المتخرجين من الجامعة الفرنسية ، هو الأستاذ محمود المسعدي ، وبمنهج كتابته التي سارت على طريقة طريفة من النثر الفني ، هي طريقة القصة الفلسفية الرمزية ، ودراسات هامة في الأدب والتاريخ ، من أقلام بقية أسرة المجلة ، ومنها مقالات كثيرة تكتب بالفرنسية ثم تعرب .

وأصدرت جريدة النهضة في المحرم ١٣٦٣ - يناير ١٩٤٤ عدداً أسبوعياً خاصاً بالأدب والتاريخ والأخبار العلمية باسم « النهضة الأدبية » يشرف عليها الأستاذ الطيب العناني ، وخصصت الزهرة ركناً أسبوعياً لذلك ولكنها لم تبرزه نشرة خاصة كما فعلت زميلتها النهضة .

وسارت محطة الإذاعة على إقامة مهارج تذكارية وإذاعات ممتازة. ابتدأها بمهرجان الذكرى التاسعة لأبي القاسم الشابي، ووالتها بمناسبة عيد الأضحى وزيارة الأميرين السعوديين، وعودة الحجيج، ورأس السنة الهجرية، وعيد المولد النبوي الشريف. وفي ٢٨ ربيع الأول ١٣٦٣ - ٢٣ مارس ١٩٤٤ أقامت مهرجاناً عظيماً للذكرى الألفية لأبي العلاء المعري، افتتح باجتماع كبير في المسرح البلدي القيت فيه الخطب والدراسات والقصائد ونقلته الإذاعة كاملاً. ثم خصصت أسبوعاً لدراسة المعري والإشادة بذكره.

وأصدرت مجلة الثريا عدداً ممتازاً حافلاً مخصصاً بأبي العلاء، كما أصدرت عدداً ممتازاً خاصاً بالحج والبلاد العربية، بمناسبة سفر وفد الحاج، في ذي الحجة ١٣٦٣ - ونوفمبر ١٩٤٤، فكانت هذه الذكريات منشطة لحركة الأدب وموسعة لدائرة الدراسة ومسلطة روح الذكرى المجيدة والافتخار بالماضي والاعتزاز بالعروبة، على أغراض الشعر والنثر، حتى أصبحت روح المجد والنخوة والذكرى وحماسة القومية العربية، روحاً سائدة على الفكر والأدب، لا يخلو عنها منطق شاعر أو كاتب، ولا تنفصل عن مجمع، مثقف أو أمي وقد جعلتها الإذاعة سمر الأسر في البيوت، وروح الجماعات في النوادي.

وبانتشار الدراسة الأدبية، وذيوع النشر الأدبي، عمت الملكية النقدية أهل الثقافة، قراء الصحف ومستمعي الإذاعة، وشاع فيهم التطلع إلى أرقى المثل في الجودة الفنية، وأصبحوا ينظرون إلى كثير مما كان يهيج به الناس من قبل، من قوالب التعبير، نظرهم إلى الساقط المبتذل، فحمل ذلك الكتاب على السمو بتحريرهم والتوفر على تجويده، حتى يتوافق مع تطلعات القراء، فأكمل النثر من حيث صوغه ومتانة ديباجته، وزال عن تحرير الصحف شيء كثير مما كان يعتريه من مظاهر الضعف والسقم والابتذال، فسما في حد الفصاحة وأشرق بسلامة التركيب،

المحاضرة السابعة

الإصلاح الزيتوني

١٣٦٣ - ١٣٧٠

أثر انتعاش الروح القومية ، وارتقاء المستوى الثقافي ، بالأسباب التي أوضحتها المحاضرة الماضية ، أثراً قوياً جداً في التقریب بين مختلف العناصر التي تتألف منها الأمة التونسية ، فأصبح الإحساس القومي أقوى العوامل الشعورية في إبراز ذاتية الفرد وبذلك تضاءلت عوامل التفرقة والتمايز بين عناصر الأمة ، سواء ما يرجع منها إلى المنازل الاجتماعية أو ما يرجع إلى المكونات الثقافية .

وما الإحساس القومي إلا إحساس كل فرد بما فيه من اعتداد بالمجد وفخر بالنسبة الإسلامية التي تعزز وجوده حين تربطه بوجود الملايين من أمثاله ، وتفرق بينه وبين القاهرة المستبد ، وتبرز استمرار بقائه سيداً في وطنه ، ثابت الكيان ، على رغم المساعي الاستعمارية التي تنازعه الأرض عاملة على مخمته .

والفرد حين تشور في نفسه هذه المعاني ، يتوجه بملاحظته إلى محل وجودها في كل من يشترك معه في هذا الاندساب القومي ، فيعظم في نظره ابن ملته بعظمته هو في نفسه ، ويتقمص كل منهما ذاتية أخيه ، فتلتحم الرابطة القومية ، وتتلاشى الفوارق وتتجه النفس الشاعرة إلى محل التلاقى ، في معالم المجد القومي .



وإن أعظم معالم المجد القومى ، فى البلاد التونسية ، وأجمعها للمعانى التى تمثل عظمة الماضى وضمان الحاضر والمستقبل ، هو جامع الزيتونة ، فإنه باعتبار كونه أعظم مساجد العاصمة يمثل قدسية الدين ، وباعتبار كونه أقدم مبانيها ، مضى على تأسيسه اليوم ألف ومائتان وإحدى وستون سنة ، يمثل عراقة المجد ، وباعتبار كونه معهدا تعليميا ، يجمع علوم الملة ويخرج حفظها ، يمثل عظمة الحضارة الإسلامية وسلطان الثقافة العربية ، فليس بدعا أن الأمة التى تحرك شعورها بالشخصية القومية واتصلت تلك الحركة فى نفسها بحركة الارتقاء الثقافى ، يتجمع تقديرها وإجلالها حول المعلم الشامخ الذى تتمثل فيه عظمة ماضيها بمتزجة بحياة ثقافتها ، فهى إذا أرادت التسلى عن أكناد حاضرها المؤلم باستعادة ماضيها السعيد ، اتجهت بها تلك الإرادة اتجاهها ، شعوريا أو غير شعورى ، إلى جامع الزيتونة .

وهل يستطيع إنسان تحدثه نفسه اليوم فى مصر أو فى الشام بالانسلاخ عن محيط العصر الذى يعيش فيه ، والعودة إلى حياة البلاد فى ماضيها ، إلا أن يجد خياله قد حل به أمام الجامع الأزهر أو الجامع الأموى .

فإذا أضفنا إلى هذا أن النسبة الغالبة فى المثقفين بتونس إنما هى لارىحى جامع الزيتونة ، أصحاب الثقافة العربية الصرفة ، وإن منهم جميع معلى اللغة العربية فى المدارس الحكومية والحرية ، وجميع رجال المحاكم الشرعية والعدول الموثقين والأكثرية الغالبة من حكام المحاكم الأهلية وموظفيها ومن المحامين ، ونسبة معتبرة من موظفى المصالح الإدارية . وإن أكثر الأدباء والكتاب والمحاضرين منهم ، وأن المدن الصغيرة والقرى ، قد انحصر المثقفون فيها تقريبا فى الزيتونيين ، لتجمع ذوى الثقافة الغربية من الموظفين الكبار وأصحاب المهن الحرة فى العواصم الثلاث الكبرى ، تونس وصفاقس وسوسة ، زيادة على أن الصبغة الدينية التى لثقافة الزيتونيين ، تمكن من الارتباط بينهم وبين الطبقات الشعبية مالا يتمكن لذوى الثقافة الغربية ، ثم أضفنا إلى

ذلك أن سيطرة الفرنسيين على الإدارة وغلبتهم على الحياة الاجتماعية، كانت ترفع من قيمة المثقفين بثقافتهم، من التونسيين، وتعوض لهم بأهمية الكيف مافاتهم من أهمية الحكم، وإن تزعزع نفوذ الفرنسيين، بالاحتلال الألماني وما تبعه، قد كون للثقافة الفرنسية أزمة عظمى، فتعطلت مدارسهم، وانقطعت صحفهم ونشرياتهم، وانسحبت جيوشهم وجالياتهم عن كثير من البلدان، وأصبحت لغة الحاكمين غير لغتهم، فأحس التونسيون جميعاً بأن ليست الثقافة الفرنسية في البلاد إلا غريبة، وأن ما كان يخيل إلى الناس اصالتها وأهميتها ليس الا وضعا عارضا، هو رهن بالنفوذ الاستعماري الذي يكافح التونسيون جميعاً في سبيل التخلص منه. فبهت ذلك اعتزازا باللغة العربية والثقافة القومية، كان عاماً في نفوس الوطنيين كلهم، ولما كان أظهر في نفس العنصر الذي ينتسب الى تلك الثقافة انتساباً أصلياً، فكان فيهم اعتزازاً بأنفسهم، وكون في نفوس اخوانهم غبطة لهم، واعترافاً بقيمتهم، كانت الأوضاع السابقة لظروف الحرب تحجبهما وتصرف عنهما، فجاءت العقيدة الوطنية الصميّة تكشفهما وتبرزهما، وبذلك صار اعتبار التعليم الزيتوني والزيتونيين أصلاً من أصول الروح الوطنية، ومظهراً من مظاهر ثورة التونسيين قاطبة في وجه الاستعمار، وتضحيتهم في سبيل ذلك بالخطوط الشخصية.

وكان الاستعمار الفرنسي، من جهته، عاملاً على تعزيز هذا التلاحق وتدعيم هذا التكتل، فإن نقمة السلط الفرنسية، العسكرية والمدنية، على التونسيين قد كانت عامة، واضطهادهم إياهم جاء شاملاً لا يبقى ولا يذر، وحيث اتحد الوطنيون كلهم فيما لقوا من جور الاستعمار بمجرد النسبة القومية العربية، واجتمعوا في السجون والمحتشدات ومواقف تنفيذ الحكم بالإعدام، بجامع وطنيتهم وعروبيتهم، بعد أن اجتمعوا، مدة الحرب، في الملاجئ واتحدوا في معاناة الحياة المضطربة، فإن ذلك زاد في تدعيم وحدتهم، فكان في نفوس المثقافة الفرنسية إباء من أن يشعروا بأن شيئاً مستمداً من المستعمر

وثقافته ، يميزهم عن إخوانهم في الملة ويفصلهم عنهم ، فنفروا من الثقافة الفرنسية ، وسلخوا مؤثراتها عن أنفسهم ، وتقمصوا ما في إخوانهم ، من روح الاعتزاز بالثقافة القومية .

ولما انحلت الحركة الوطنية المنظمة ، باضطهاد الزعماء السياسيين وحل الأحزاب وتضييق الرقابة على الصحف ومنع الاجتماعات . اتخذ الشعور القومي مجراه في مظاهر الحياة الدينية ، فاحتفى بالمساجد ، وتدرع برجال الوعظ والإرشاد من العلماء الدينيين ، وأظهرت جمعية « الشبان المسلمين ، نشاطا عظيما في التوافق مع هذا الاتجاه الشعبي ، فنظمت مجالس التذكير في المساجد ، بالعاصمة وجميع بلدان المملكة وقراها ، وأسست فروعا للحفاظ على القرآن الكريم ، بتنشيط الحفاظ وتنظيم الإملاءات ، وفتحت دروسا ليلية لمبادئ القراءة والحساب وعرض الأفلام التثقيفية ، وأقامت المحاضرات ومهارج الذكريات الدينية في العاصمة والمدن الكبرى ، وكان رئيسها الشيخ محمد الصالح النيفر ، لا ينفك متنقلا بين المراكز ، يتعهد نشاط حركتها ويغذيها ويوجهها ، وما جمعية الشبان المسلمين ، في روحها ورئاستها وغلبة عناصر مسيرتها ، إلا أداة الوصل بين الثقافة الزيتونية وبين الجمهور غير المثقف ، فكان نشاطها في هذه الفترة من أقوى العوامل في بروز عظمة الجامعة الزيتونية لنظر الرأي العام ، وتمهيد الطريق لمن ليس من خريجي تلك الجامعات الدينية العظمى ، لأن يتصل بروحها الثقافية .

فكان من طبيعة هذا ، مع ما انضم إليه من العوامل المتقدمة ، أن يدخل على رجال التدريس بالزيتونة شعورا ساميا بعظمة مركزهم الاجتماعي ، وعظمة الرسالة التي يحتملون مسئوليتها ، لاسيما وقد أحسوا من التفاف ملك البلاد ، صاحب الجلالة محمد الأمين الأول ، أعز الله نصره ، إلى جامعتهم باهتمام وتنويه ، نطق بهما حضوره حفل افتتاح السنة الدراسية ٤٣ - ٤٤ والخطاب العظيم الذي ألقاه هناك ، مانح نفوسهم وقوى عزائمهم على العمل في تنظيم جامعتهم وتدعيم مركزها وإعلاء كلمتها ونشر رسالتها .

فتقدموا في شوال ٦٣ - نوفمبر ٤٣ إلى الحكومة متذرعين بسوء وضعهم الإداري ، وانحطاط مرتباتهم ، يطالبون بمنحهم حقوق الموظفين كاملة ، واعتبار تعليمهم تعليماً رسمياً ، وحين قوبلوا بالتجاهل والمماطلة ، أعلنوا الإضراب ، فكان إضرابهم أول موقف من مواقف التحدي والمقاومة ظهر في وجه السلطة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية ، على شدة الضغط الإداري وتكالب الحكيم العرفي العسكري ؛ واهتزت الحكومة لذلك ، فبذلت جميع الوسائل السلمية والإرهابية لحل الإضراب فلم تفلح ، وسعت في إصدار مراسيم ملكية بإجراءات استثنائية للقمع ، فامتنع جلالة الملك ، وهدد بالاستقالة ، وأقيمت مظاهرة شعبية كبرى ، أمام القصر الملكي بحمام الأنف ، لتأييد جلالته في الموقف ، وتوالت مظاهر التأييد الشعبي لحركة المدرسين ، وأضربت الأسواق التجارية بالعاصمة ، فكان ذلك مع مظاهرة حمام الأنف ، أول مظهر لانبعاث الكفاح الشعبي متأثراً بالروح الزيتونية ، واضطرت الحكومة إلى النزول عند رغبة المدرسين ، فصدر تصريح رسمي بتسليمهم على النحو الذي أرادوا ، وعد ذلك انتصاراً عظيماً لهم وللحركة الشعبية عامة ، قوى روح التمرد على السلطة الغاشمة ، وضرب للناس مثلاً رائعاً من انتصار الثبات في الكفاح الشعبي على كل قوة من قوى الضغط والإرهاب ، وسرت في الطلبة روح الاعتزاز بعظمة جامعتهم ، وشرف موقف أستاذيهم ، فأقبلوا يحدّدون قواهم ، بتأليف الجمعيات وتكوين المؤسسات الطلابية ، فتكونت في صفر ١٣٦٣ - وفبراير ١٩٤٤ جمعية « مكتبة التليذ الزيتوني » ، ثم جمعية النواد الزيتوني ، التي انقلب اسمها بعد إلى اسم « الإخوان الزيتونيين » ، وبدأت كل من الجمعيتين تعمل في تنظيم الطلبة وابتكار الوسائل لترقية مستواهم الأدبي ، وتنمية مظاهر وجودهم الاجتماعي ، وكان تسيير هذين المشروعين بأيدي الطلبة أنفسهم .

وحين اطمأن المدرسون إلى ما تم لهم من النصر الباهر ، في تثبيت المركز الإداري المنين لهم والجامعتهم ، التفتوا إلى توحيد صفوفهم ، وتنظيم حياتهم الجامعية بصورة تعينهم على حسن الاضطلاع برسالة التدريس

والهداية ، فقررُوا في صائفة ١٣٦٣ - ١٩٤٤ عقد مؤتمر للمدرسين ، سمو رئيس هيئته الشيخ محمد الشاذلي بن القاضي وأمينها العام الشيخ محمد الصالح النيفر ، وانعقد المؤتمر في شوال وأكتوبر فانهى إلى وضع برنامج مفصل لخطط إصلاح التعليم ، انعقد اجماع المدرسين عليه ، واتفقت كلمتهم على مطالبة مشيخة الجامعة والحكومة بالشروع في تنفيذه . كما اتفقوا على أن الواجب يقضى على الشيخ الطاهر ابن عاشور ، الذى كان اعتزل منصب المشيخة سنة ٥١ - ٣٣ - بأن يعود إلى منصبه القديم ، وقوبلت هذه الرغبة بالتأييد ، من طرف جلالة الملك ، وكان شيخ الجامعة إذ ذاك ، الشيخ صالح المالح ، نفسه ، مقتنعاً بوجوب تنفيذها .

وعقدت الحكومة مجلساً للنظر في برنامج الإصلاح التى طالب بها المدرسون فى ذى القعدة ١٣٦٣ - نوفمبر سنة ١٩٤٤ ألفته من العلماء وكبار الموظفين ورجال الثقافة ، فكان اتجاهه مؤيداً لتلك البرامج ، إلا أن العراقيل الإدارية عطلت تلك النتائج دون البروز فى القالب القانونى النهائى .

وفى ربيع الأول ١٣٦٤ - وفبراير ١٩٤٥ سعى الشيخ الطاهر ابن عاشور شيخاً للجامع الأعظم وفروعه ، فتلقى المدرسون والطلبة وعموم الخريجين والرأى العام التونسى تلك التسمية بأعظم الابهاج ، وابتدأ أثناء تلك السنة الدراسية فى تطبيق الإصلاحات ، التى كان ينادى بها من زمان بعيد ، حتى انعقد عليها الإجماع فى مؤتمر المدرسين ، وكانت الإدارة الفرنسية تنظر إلى هذا العزم بعين الإنكار ، وتبث فى سبيله ما تستطيع من العراقيل ، ولكن شيخ الجامع تقدم ، يؤيده جلالة الملك وتناصره العائلة الزيتونية بأسرها ، ينجز مراحل الإصلاح ويقوى الروح الزيتونية ، ويضع الحكومة من انجازاته وابتكاراته ، أمام الأمر الواقع .

وكان أهم هذه الأعمال ، وأبعدها أثراً فى نشر الروح الزيتونية ، أن المعهد الزيتونى بتونس الذى يشتمل يومئذ ، على ثلاثة آلاف طالب ، بين

طلبة التعليم العالي وطلبة التعليم الثانوي ، قد كان له فرع واحد بالعاصمة ،
 وخمسة فروع في بلدان المملكة ، وكانت فروع بلدان المملكة إسمية ،
 مفصولة بينها وبين الاتصال المباشر بالإدارة العليا بالعاصمة التي هي «شيخوخة»
 الجامع الأعظم وفروعه ، فكانت إدارة الفروع محلية ، وأسانذتها محليين
 لا اتصال بين مختلف مراكزهم ولا اندماج لهم في هيئة المدرسين بالعاصمة ،
 وكان ذلك قاضياً على تعليم الفروع بالفتور المتناهي ، فلما ولي الشيخ ابن
 عاشور المشيخة بادر إلى القيام برحلة تفقدية في الفروع كان لها أثر عظيم
 في الروح الشعبية ، سجلته القصائد والخطب والمقالات (١).

واشتدت الحكومة في مقاومة هذا الارتباط فغلبت ، ونمت حياة التعليم
 بالفروع ، وانشئت فروع أخرى كثيرة ، فعمت المملكة التونسية وتجاوزتها
 إلى الجزائر ، وتكاثر عدد الطلبة ، حتى لم ينته الدور الذي ندرسه اليوم من
 تاريخ الحركة الفكرية بتونس . إلا وعدد طلبة الجامعة الزيتونية ، أصلاً
 وفروعاً ، يتجاوز عشرين ألفاً . وعدد فروعها بتونس والجزائر خمسة
 وعشرون .

ولست هذه المحاضرة بمتسعة للإمام بمراحل التطور في الحياة
 الزيتونية التي تمت في هذه السبع السنين ، ولا مواقف الكفاح التي حفت
 كل مرحلة من المراحل بسبب ما وضعت الإدارة الاستعمارية في كل مرحلة من
 السدود والعوائق ، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أن الثبات في وجه تلك العراقيل
 والنجاح في إنجاز نقط البرنامج الذي أقيمت عليه الحياة الزيتونية الجديدة ،
 قد زاد سلطان الحياة الزيتونية على الروح الشعبية مكانة ورسوخاً ، فأصبحت
 الجامعة الزيتونية محل اعتناء العناصر الشعبية كلها ، ومركز التفاف جميع
 المنظمات القومية ، تعمل على مناصرتها وتبرز إلى الجمهور تحت اسمها .

وكانت الجمعية الخلدونية ، بما سبق بيانه من اتصال روحها بالروح



الزيتونية منذ نشأتها، أسبق الجمعيات الوطنية إلى تأييد حركة الزيتونة ونشر أزرها، ففي ذى القعدة ١٢٤٠ - وفبراير ١٩٢٥ أقامت حفلة لاقتراب الشيخ عبد العاشور بمناسبة عودته إلى المشيخة، خطب فيها رئيسها الشيخ عبد الرحمن الكعاك، مؤكدا عزم الجمعية على اتخاذ موقفها إلى جانب الجامعة الزيتونية لقطع المرحلة الأخيرة في سبيل تمكين الثقافة القومية من التطور والازدهار والسيادة وأقامت جمعية الزيتونيين، التي تجمع الخريجين من رجال الفضا الأهل والإدارة والمهن الحرة، حفلا في ربيع الثاني ١٢٤٠ - ومارس ١٩٢٥، خطب فيه شيخ الجامع مجيبا الخطباء والشعراء فقال: «ما كان نخر جامع الزيتونة بشيوخ الشريعة وأساطين التدريس في عديد الأجيال، بأعظم من نخره بنخريه، من كبار الوزراء وعظماء الكتاب ومشاهير الحكام والمحامين ورجال الصحافة والاقتصاد، فلنعقد العزم على خدمة شرفنا الأثيل الذي يمثله معهدنا الرفيع العماد، فنكون أحقاء بمجد بنوته، ونضمن له النجاح في خدمة الجامعة الإسلامية وبخاصة الأمة التونسية».

فكان لهذا الاجتماع أثره في إشاعة روح التكتل الزيتوني في نفوس المنقطعين عن الجامعة من أبنائها، على نسبة تساوى شيوع تلك الروح بين المتصلين بالجامعة من العلماء، وتؤكد ارتباط تلك الكتلة العائلية العتيدة بالعمل الصالح في الحياة العامة.

واتجهت الصحافة الوطنية كلها هذه الوجهة، فصارت تعتبر العنصر الزيتوني في المجتمع التونسي، العنصر القومي النير المسئول عن العمل والتوجيه واستجاب الزيتونيون والرأي العام إلى ذلك، فصارت جميع الندوات السياسية والوفود، لا تنعقد، ولا تسير إلا بهم، والمظاهرات لا تخرج إلا وهم في مقدمة قادتها.

وارتبط العنصر الشعبي من ذلك ارتباطا محكما بالتوجيه الديني، فلهذا بذلك الطريق على الدعوة الاشتراكية والشيوعية، التي كانت تتسرب إلى

العمال من باب الحركة النقابية ، ورفض جميع التونسيين أيديهم من الأمل في تلك المبادئ الأجنبية ، وآمنوا بأن لا سبيل إلى تدعيم كياناتهم الاجتماعية إلا بمنظمات مستمدة أصولها من روحهم القومية ومبادئهم الملية ، فتكونت الجامعة العامة للموظفين التونسيين منفصلة عن جامعة الموظفين التي كانت تجمع التونسيين وغيرهم على أصول اشتراكية مخافة لروح القومية . وتكونت نقابات مستقلة للعمال التونسيين كان ابتداء ظهورها بصفاقس بزعامة فرحات حشاد . وفي صفر ٦٥ - ٢٠ يناير ١٩٤٦ انعقدت بالخلدونية الجلسة التاريخية الجامعة التي التأمت فيها جامعة الموظفين مع جامعة نقابات العمال المستقلة تحت اسم « الاتحاد العام التونسي للشغل » ، على قاعدة الرابطة القومية والأصول الإسلامية . وأصبح الاتحاد العام التونسي للشغل في روحه وتأسيسه ومبادئه العليا وأغلبية عناصر قيادته المركزين والمحليين ، إسلامياً بل زيتونياً . ولما تم له النجاح بذلك والقضاء على الحركات النقابية المخالفة ، تكونت على مثاله جامعة النقابات الفلاحية ، ثم اتحاد الصناعات وصغار التجار ، منتسبين كذلك إلى روح التوجيه الزيتوني . وانعقد في ٢٦ رمضان ١٣٦٥ - ٢٢ أغسطس ١٩٤٦ المؤتمر القومي العظيم « مؤتمر ليلة القدر » ، جامعاً لكافة العناصر الوطنية على اختلاف الأحزاب والكتل . فأعلن المطالبة باستقلال البلاد استقلالاً تاماً وانضمامها إلى جامعة الدول العربية ومنظمة الأمم المتحدة ، وكان العنصر الزيتوني بارزاً بين مكوفى المؤتمر ، وزاد بروزاً حين اعتقلت طائفة من المؤتمرين بتهمة التآمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي ، فكان فيهم ممثل الزيتونة ، وقامت المملكة كلها احتجاجاً في وجه ذلك الاعتقال بالإضرابات التي شملت جميع التجار والصناع والعمال والموظفين ، وإعلان الامتناع عن اتخاذ مظاهر الزينة يوم عيد الفطر ، وامتناع جلالة الملك من عقد الموكب الرسمي تضامناً مع الأمة في إعلان أسفها .

ومن يومئذ انطبعت الروح الشعبية في تونس بطابع مصوغ من مادة الروح الثقافية للجامعة الزيتونية وهي مادة الرابطة القومية الواسعة والحرص على الالتئام مع الأمم الإسلامية الشرقية وبخاصة الأمة العربية. فأصبح الاتجاهان السياسي والثقافي يسيران على خط واحد ، هي خطة طلب الذاتية القومية التونسية لمقوماتها التونسية ومقوياتها في الاندماج في العالم العربي .

وأصبحت الجامعة العربية باعتبار ناحيتها الثقافية والسياسية ، الغاية التي يتجه كل عمل فكري أو اجتماعي في تونس إلى تحقيقها ، ففي ربيع الأول ١٣٦٥ يناير ١٩٤٦ أسست الجمعية الخلدونية معهداً للدراسات العالية باسم « معهد البحوث الإسلامية » ، يصرح نظامه الأساسي بأن غايته : « بحث روح الثقافة الإسلامية وقيادة ذوى الثقافة إلى الشعور بوحدة العالم الإسلامي وعظمته » والوقوف على حقائقه الوجودية ؛ وتكوين الاستعداد لدراسة حرة لا تتأثر بالظروف العارضة ولا بالتيارات الخارجية فتستوحي سيرها من المعارف التاريخية والجغرافية المستندة على الأصول الصحيحة المتمشية مع روح الجامعة الإسلامية الكبرى . « وأقيم منهجه الدراسي على اعتبار العالم الإسلامي مؤلفاً من أربع وحدات هي : الوحدة العربية ، والوحدة الهندية ، والوحدة الطورانية ، والوحدة الإيرانية ، فكانت محاضراته تتناول المسائل السياسية والثقافية والاقتصادية وتدرس أوضاع البلاد المندرجة في كل وحدة من الوحدات الأربع - وتدرس المؤسسات والرجال - فكان عدد محاضراته في بحر الخمس السنين التي بين تأسيسه ونهاية الحقبة التي ندرسها ، يتجاوز ٥٠ محاضرة في كل دورة دراسية . توزعها أساتذة فيهم من القدماء ، عثمان الكعاك وعلى البلهوان ومحي الدين القليبي ومحمد الصبحي فرحات ومحمد الصالم المهيدى والطيب العنابي والصادق بسيس ومحمد الفاضل ابن عاشور ، ثم التحق بهم من الشبان الذين تخرجوا من المعهد نفسه في دورتيه الأولىين محمد الحبيب بن الخوجه ومحمد العروسي المطوي .

وكان لهذا المعهد أثره العظيم جداً في تقوية الروح القومية الواسعة

وتركيز دعوتها في شباب الجامعة الزيتونية الذي كان أكثر عناصر الشباب إقبالا عليه، وكانت حفلات افتتاح كل دورة وانتهائها، مواسم مشهودة في حياة القومية العربية فاض بها الروح الشعري لقصائد الهادي المدني والظاهر القصار ومصطفى خريف ومحمد زيد وطفحت بها الصحف الوطنية على اختلاف مشاربها، والتأمت بها وحدة المثقفين حول روح العروبة على اختلاف صبغتهم الثقافية.

وظاهرت الخلدونية هذا العمل بإنشاء معهد الحقوق العربي، ومعهد الفلسفة فلم يطرد نجاحهما لتزاحم الأول مع المعهد الرسمي الذي يتخرج منه حكام العدالة التونسية ومحاموها، بعد أن قررت الحكومة توسيع نطاق دراسته بإضافة المواد التي كان مختصاً بها معهد الخلدونية، ولاندماج الثاني في مناهج التعليم الثانوي الذي أنشئ حديثاً بالخلدونية للتهيئة لشهادة البكالوريا العربية، فإن للخلدونية من عهد تكونها، معهداً ثانوياً حراً يزاول فيه طلبة المعهد الزيتوني دروساً في الرياضيات والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا واللغات الأجنبية، وكانت مناهج دراسته مقصورة على المرحلة الأولى من التعليم الثانوي. وتنتهي بشهادة رسمية تسمى «شهادة التحصيل على المعارف العملية» وفي سنة ٦٦-٤٧ قررت الخلدونية إحداث شهادة جديدة تسمى شهادة البكالوريا العربية، المقصد منها تهيئة الطلبة للالتحاق بكليات التعليم العالي في جامعات الدول العربية الشرقية وإمداد الجامعة الزيتونية بأساتذة مساعدين، ونظمت تعليمياً ثانوياً عصرياً كاملاً باللغة العربية ينتهي بالإحراز على هذه الشهادة.

وبشيوع هذا التوجيه أقبل الطلبة على الالتحاق بالبلاد الشرقية لاستكمال دراستهم العالية باللغة العربية وساعدتهم الجمعية الخلدونية على ذلك، وابتدأ التحاقهم بجامعات سوريا ومصر والعراق من سنة ٣٦٦ - ١٩٤٧ فكانوا في أول الأمر جمع قلة واطرد عددهم في نمو حتى تجاوز اليوم المائة.

ووفاء بعهد التعاون بين الزيتونة والخلدونية أحدثت الجامعة الزيتونية

سنة ٦٦ - ٤٧ لمعاهدها الثانوية مناصب تدريسية خاصة بالرياضيات والطبيعات والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ينتخب لها متولوها بطريق المناظرة بين خريجي الخلدونية، ثم قررت تكوين ارساليات على نفقتها للتخصص في هذه المواد بجامعة الشرق العربي، فارتبط بذلك التعليم الثانوي في تونس بالتعليم العالي في الشرق وفتح باب التخرج في العلوم العالية باللغة العربية، بعد أن كان مقصوراً على الذين يلتحقون بالجامعات الفرنسية بعد مناوله التعليم الحكومى بتونس، وانتظم تطور التعليم الزيتوني تطوراً وصل بينه وبين روح العصر مع الإبقاء على مميزاته القومية، وتمت للطالبة الزيتونيين وسائل استكمال عدتهم الثقافية بالجمع بين دراسة اللغة العربية وبين الدراسة العصرية بأداة الثقافة القومية التي هي اللغة العربية، فقوى فيهم الاعتداد بأنفسهم وقوى في الأمة الاعتداد بهم واتساع الأمل في مستقبلهم والازدهاء بالاستغناء بهذا الارتباط الثقافى بالشرق عن الالتجاء إلى الاستعانة بفرنسا في تكوين النهضة الثقافية العصرية، وتعاضمت همّة العائلة الزيتونية الملتزمة من مشيختها وأساتذتها وطلبتها ورببتها الجمعية الخلدونية، بما تمكن لها من وسائل النهوض المنشود التي أعانتها على ما كانت تطمح إليه من الوفاء بواجب أداء رسالتها العصرية في ظل الثقافة الإسلامية التي هي روحها. وشعرت بعظمة امتدادها ومثانة الرابطة التي وصلتها بالعالم الواسع الذي تحن إلى الاتصال به من طريق العروبة والإسلام.

وكان الأمل القديم الذى يغذى نفوس الزيتونيين، هو أن يقيموا لهذه الرابطة مظهراً قوياً يعززها ويسمو بها، بعقد مؤتمر علمى بتونس يتناول نواحي الثقافة الإسلامية ويشترك فيه ممثلون للبلاد الإسلامية شرقاً وغرباً من العلماء والمفكرين والكتاب ومندوبى الجامعات والمنظمات الثقافية. وانتدبت الخلدونية لتحقيق هذا الأمل فقررت سنة ٦٧ - ٤٨ الدعوة إلى عقد مؤتمر اسمه «مؤتمر الثقافة الإسلامية»، يكون انعقاده بتونس في ذى القعدة ٦٨

وسبتمبر ٤٩ . ووجهت الدعوات في نطاق واسع جدا وشكلت للمؤتمر هيئة مثلت فيها جميع عناصر المثقفين بتونس ، تحت رئاسة الشيخ محمد المختار ابن محمود وكيل شيخ الإسلام الحنفي . وأعدت للمؤتمر مناهج عمل راقية دقيقة ، وكان أمليها أن يكون ذلك المؤتمر تاج الانتصار لتمكين الصبغة القومية من روح الثقافة التونسية ، وبذلك نظرت إليه الحكومة فصوبت نحوه المدمرات على نسبة تلك الأهمية ، وإذا كان المؤتمر قد انعقد فعلا في ميغاده ونال حظا عظيما من النجاح ، فإن شيئا عظيما جدا من البلبلة والفشل قد أحاط به وبناتجيه حتى كأن مواكبه الباهرة كانت توديعاً لذلك العهد السعيد من التفاف الأمة حول نهضة الثقافة الإسلامية .

إن سير الإصلاح الزيتوني قد كان شجى في حلق الاستعمار ، لأن اتجاه السياسة الاستعمارية منذ احتلال فرنسا لتونس ، إنما كان لغاية معروفة ، هي سد أبواب التطور في وجه الثقافة القومية ، ومنع اللغة العربية من أن تكون أداة النهضة الفكرية ، حتى إذا ألحت عوامل التطور والنهضة على المجتمع التونسي لم يجد لها سبيلا إلا من الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية . فصارت تونس بذلك مرتبطة ارتباطاً دائماً بفرنسا يجعل حاجتها إليها وتعلقها بها ضربة لازب .

وقد أوضحت المحاضرات الماضية أنه كلما اطمأن التونسيون أو بعضهم إلى مظهر من مظاهر ارتباطهم الثقافي بفرنسا ، جاءت ظروف اليقظة القومية المنبعثة من شعور الأمة التونسية بشخصيتها وتعلقها بجامعتها القومية ، قاضية على ذلك الاطمئنان ، وصارفة وجهة الوطنيين التونسيين عنها ، وأن بروز فرنسا للتونسيين بوجهيها ، وجه الديمقراطية والاشتراكية ييسم للإنصاف والتفاهم والتعاون ، ووجه الاستعمار يقسو في غلظته ، فينفر من الاقتراب منه ، قد جعل حياة التونسيين مع الفرنسيين بين كروفر ، لا يقبلون على النظر إلى أحد الوجهين حتى يحملهم النظر إلى الآخر على الفرار .

فلما جاءت الحرب العالمية الثانية بما أعقبها من الأحداث ، قابلتهم فرنسا بوجه واحد كالح متجههم لا مجال فيه للاقتسام . فصدوا صدوداً باتاً ورجعوا إلى أنفسهم فتكثروا حول ثقافتهم القومية ، ونفض المدرسيون أيديهم من الثقافة ، ونفض العمال أيديهم من الاشتراكية ؛ ونفض السياسيون أيديهم من الديموقراطية ومبادئ حقوق الإنسان ، وثاروا ثورة رجل واحد يحمون كيانهم ويستردون سيادتهم مستندين إلى العالم الذي تربطهم به ثقافتهم القومية .

فلم تجد فرنسا لها في مقاومة هذه الثورة الجائحة سبيلاً إلا أن تربص بهم الدوائر وتتصيد الفرص لتضعف فيهم روح التكتل بفصلهم عن مدد الثقافة القومية الذي هو لمة الاتحاد . فكانت تطاولهم منتظرة من سير الزمان أن يمكنها من أزمة يقع فيها الاتحاد الشعبي فتتهبها .

فلما سمت النهضة الزيتونية إلى أوجها بالدعوة إلى عقد مؤتمر الثقافة الإسلامية ، أخذت الحكومة تبرز من مطالب المدرسين التي كان أيدها مجلس الإصلاح ما هو راجع إلى الحقوق المادية من مرتبات ومنح وضمائم للوظائف حتى تبدو مطالب الزيتونة مطالب مادية فتفتر حرارة تعصب الرأي العام للقضية الزيتونية وينفض الناس عنها انفضاضهم عن كل أمر مادي من شأنه أن يشير الحزازات والفروق ويقضي على روح التكتل التي لا تسير إلا مع المعاني الأدبية السامية .

وبدأت جذوة هذه الفكرة تتقد ، والصحف الاشتراكية تنفخ في ضرامها ، بروح النعمة التي امتلكتها من انفصال الحركة السياسية عن الحزب الاشتراكي وتوغل التونسيين في النزعة القومية ، ومن إفلات قيادة الحركة النقابية من يد الاشتراكيين ، ومن استحكام روح العداء لليهود بالحماسة لقضية العرب بفلسطين ومقاومة الصهيونية والثورة على قرار التقسيم ؛ ومن اليهود أبرز عناصر الحزب الاشتراكي بفرنسا وبشعبته بتونس كما هم في العالم كله .

ونحسست الحكومة أثر هذه المكائد فبدأت تعمل على نصب العراقيل في سبيل حركة الإصلاح الزيتوني ، بمقاومة إنشاء الفروع والتضييق في الاعتمادات المالية ومنع الأساندة التابعين لإدارة المعارف من إلقاء الدروس التي كانت تنتدبهم لها الجامعة الزيتونية والخلدونية ، والامتناع من منح تأشيرة الدخول للأساندة الذين انتدبوا من مصر حتى أحاط بمشيخة الجامع عجز قاهر عن المضى في إنجاز الإصلاحات . فأعادت الحكومة جمع مجلس الإصلاح في المحرم ١٣٦٩ مارس ١٩٥٠ لتعقب ما كان قرره في سنة ٦٤ هـ على أمل أن الظروف العامة والتركيب الجديد للمجلس يقضيان بتخاذل وتراجع ينقض بهما مجلس الإصلاح غزله ، وأحسن الطلبة الزيتونيون بأن قضيتهم قد أحاط بها الخطر وأن اطمنأناهم القديم إلى ما كان يحمي مصالحهم من تساند القوى الشعبية والرامية قد انقطعت أسبابه ، فتقدموا إلى الدفاع عن مصالحهم بأنفسهم ونظموا حركة طالبية قوية أسسوا لقيادتها هيئة باسم « لجنة صوت الطالب الزيتوني » ودخلوا في كفاح مع الحكومة عنيف المواقف ، نشأت منه مصادمات بينهم وبين كثير من العناصر الوطنية بسبب مآدب بين الفريقين من عقارب السعاليات ، وتوصل الطلبة بكفاحهم المرير إلى الانتصار وقبلت بعد عناء مطالبهم ، فصدرت المراسيم بإحداث بناية جامعية كبرى لإيواء التعليم الزيتوني ، وأنشئت شعبة العلوم العصرية وأحدث لها شهادة تهية للتعليم العالي بالشرق وتقررت الإرساليات الزيتونية ، إلا أن هذا كله لم يدفع ضرر ما اتصل به مما أصاب الحياة القومية من انشقاق قواها وإحجام كثير من العناصر الوطنية عما كانت مندفعة في سبيله من مناصرة هذه الحركة وإحلالها محل الكرامة والفداء . وبذلك ابتدأ طور جديد في تاريخ الحركة العسكرية ، هو طور الساعة الحاضرة الذي تقف بنا عنده هذه المحاضرات .

مظاهر التطور الأدبي :

إذا كانت الحقبة التي ابتدأت بنهاية الحرب العالمية الأولى قد سميناها فترة الأمل ، فإن هذه الحقبة التي تبتدىء بنهاية الحرب العالمية الثانية هي فترة النجاح والانتصار ، فجميع التيارات الفكرية والأدبية التي نشأت في تلك هي التي استرسل سيرها وقوى انصبابها في هذه الحقبة ، فجميع عوامل اتساع الأفق الأدبي والسمو الفكري والعاطفي والروح القومية المحققة للتجاوب المنسجم بين النتاج الأدبي وبين التلقى العام ، قد قويت واستحكمت وتلاقحت مع العوامل التي تلاحقت عليها من طموح الشباب وانتشار الثقافة بالإذاعة ، وما تولد عنهما من العوامل ، فنمت وزكت وبلغت أوجها .

ثم جاء انتشار روح القومية وتحقيق الآمال القديمة في عز العروبة وسيادة ثقافتها ، ملهما الاعتزاز والفخر والحماس ، فانطبعت به الطرائق الأدبية في الشعر والنثر والخطابة .

وإذا كان أعلام النثر السياسي الذين سادت أقلامهم في هذه الحقبة هم الذين أمسكوا بزمام الزعامة في هذا الفن في الأدوار الثلاثة الماضية ، فإن أغراضهم وأساليبهم قد اكتسبت في هذا الطور من نخوة الانتصار وقوة الثقة في المستقبل وقوة الاعتزاز بتحقيق ما جاهدوا في سبيله أمورا ظهرت في تكيف دعاويهم وبراهينهم بالوضوح والانسجام ووصل الحججة المنطقية بالدليل الواقعي ومزج الفكرة السياسية بالروح الحماسية القومية . وإذا كان للنثر السياسي في هذه الحقبة مظهر جديد في غير أعلامه المعروفين وطرائقهم من أمثال ابن الحسين والمنستيرى والقلبي ، فإنما هو ظهور كاتب جديد ملأت آثاره الأفق السياسي بما بدا عليها من شباب الروح وشباب الفكر وشباب الأسلوب ، هو الطيب العنابي الذي حرر في كثير من الصحف الوطنية واختص بتحرير سوانح جريدة النهضة عهداً طويلاً فكانت روحه القومية وثابة إلى الشرف والحق وصدق الموقف ، وفكره نزاعاً إلى الحججة

المادية التي لا غبار عليها وبيانه معتمدا على الإقناع الواضح والنمكة الجميلة
والتهكم القوي المنال والاسترسال العقلي المحكم في عناصر الموضوع ، مع
حرافة المواضيع ودقتها ، وصوغ الجمل المترابطة الملتحمة ، سهلة سائغة
ينحيل إلى مطالعها أنها نزلت إلى مستوى الحديث العادي وهي متمسكة بسليم
العربية ومرتوية من صميم آدابها . على براعة في اختيار الألفاظ البديعة
التصوير وحكمة في تصريف المواد والاشتقاق منها كثيرا ما تجعل محور
الفكرة مرتكزا على كلمة مرتجلة جريئة الاشتقاق تقوم بذاتها في تصوير
روح المقال .

وسما النثر الفني سموا واضحا إذ كثرت آياته في المجلات والصحف حتى
دخل طور الشعر المنشور .

أما الخطابة الاجتماعية فإن ما أتيج لها من الأغراض والمناسبات في
المجامع الدينية والسياسية والنقابية ، قد وفر مادتها وأبرز مواهب رجالها
ومكن لهم من امتداد النفوذ ما لم يتمكن للخطباء من قبل . وإن الذي يعتبر
ظهوره بارزا في هذا الطور إلى جانب البارزين من قبل في الخطابة الاجتماعية
بالعربية الفصحى ، هو محمد الصبحي فرحات الذي ظهرت قيمته الخطابية
السامية في الحياة النقابية فكان يرتجل الخطب الطويلة النفس الصحيحة المعاني
والأساليب القوية الروح البعيدة الأثر في التوجيه ، فدخل بها عشرات
الآلاف من المستمعين تحت سلطان الدين والقومية الصميمة ويدفعهم إلى
استلهم المثل العليا لحياتهم من الماضي الإسلامي وروح العروبة الطاهرة بما
يضرع من الأمثال ويقوم من الشواهد التي ترفع الأملين إلى مدارك المثقفين ،
فكان بخطبه الرنانة روح المبادئ القومية الإسلامية التي تكون عليها الاتحاد
العام التونسي للشغل ،

والذي ظهر بارزا في ميدان الخطابة الدينية الجمعية هو الشيخ محمد الشاذلي
ابن القاضي الذي كانت خطبه بجامع حمودة باشا تثير الحماس وتسيل
العبر وتبعث العقيدة الدينية الصميمة في النفوس ، وكان لها أثر قوي في تمكين

الروح الدينية من السيطرة على النهضة القومية حتى أسرعت الحكومة إلى فصله عن وظيفة الخطابة لما عرف من بعد مدى تأثيره فيه .

وكذلك وجدت الخطابة العلمية مجالها الواسع في نشاط المحاضرات بالخلدونية وقدماء الصادقية ومختلف منظمات الشبان التونسيين والجزائريين حتى بلغت الدراسة العلمية بالمحاضرات أسمى مقاييسها . وشاع في الشباب ذوق المحاضرة العلمية وصقلت فيها ملكتها .

وأما الشعر فإن مادته الحماسية قد اكتملت فاكتمل فيه مظهر الجزالة والقوة وإسلاس التراكيب الفصيحة الفخمة وابتداع القوافي الأخاذة والمعاني العميقة والصور الرائعة ، وقد عاد إليه الهادي المدني بعد طول الانقطاع ، وعلا فيه نجم مصطفى خريف الذي تركناه في مشرقه قرينا للشابي ، فكان محور الإجادة الشعرية في هذا الطور بين المدني وخريف . فعاودته من المدني عبقريته وقد اكتسبت من طول المران وخبرة الزمان ما سماها إلى صف الفحول العالميين من شعراء المعاني ، ومن حسن الحاضر وبشائر المستقبل ما بلغ بروحه الحماسية أشدها ، وظهرت من خريف حكمته التي دخلت من الحكمة الطبيعية النفسية إلى الحكمة الاجتماعية القومية ، فصيرت الطموح القومي فلسفة ثابتة الأركان وشعرا نيرا البيان . وظهرت قصائد هذين الفحلين في صورة الملاحم القومية السامية الروح المتينة النسيج الشريفة المعاني ، تأخذ من الأحداث وروح المجامع معانيها المجردة فتضطرد في وصفها والإشادة بها وترفع مغازيها الروحية السامية ، حتى أصبحت بحق روح الشعور القومي وصورة العالم المثالي المشرق ، الذي أضاءت بأنواره بصائر الداعين إلى القومية الكبرى ، وصدق فيها بلوغ الشعر في هذه الحقبة أوج كماله .

الحاضرة الثامنة

الموقف الحاضر وأعقابه

استمرت البلاد التونسية ، طيلة الثلاثة الأرباع التي انقضت من قرننا
الهجري الحاضر ، تعيش في معترك ثقافي عنيف تأثرت به حياتها الاجتماعية
وحياتها الفكرية وحياتها الأدبية

ولست في حاجة لأن أبين أن المعترك الثقافي ليس هو المعترك العلمي ،
فإن العلوم تتلاقى فتتداخل وتتلاقح وينتظم كل منها مع الآخر وينتظم
مجموعها في الكل الثقافي للأمم ، فليس للعلم أوطان ولا عصبية .

أما الثقافة ، فهي ملكة تلمق العلم وتصريف الفكر ، لا مادتهما ، فهي ككل
ملكة من ملكات الشعور والإدراك ، ناشئة من الشخصية ومرتبطة بها ،
ولذلك تختلف في كل أمة باختلاف شخصيتها عن شخصية غيرها من الأمم
اختلافا ناشئا من اختلاف الطبائع والأقاليم وذاكرات الماضي وطرائق
التعبير وفنون الآداب وغير ذلك من مقومات الشخصية القومية لكل أمة ،
بحيث لا يستطيع أي فرد أن يكون لنفسه ثقافة كما يريد ، بل هو مدفوع بعوامل
تكونه إلى ثقافة معينة ، فإما أن تنشأ فيه فيكون مثقفاً وإما أن لا تنشأ فلا يكون
مثقفاً أصلاً ، ولذلك يقول الدكتور طه حسين في بيان أثر الأدب القومي
للأمة الإسلامية في تكوين مثقفيتها : « إن الذي يحهل أدبنا العربي وبخاصة
الإسلامي ، لا يعتبر مثقفاً وإن برع في أي فن من الفنون ، لأن ذلك الأدب
يمثل ماضينا تمثيلاً واضحاً جلياً ، وليس بمثقف من يحهل ماضيه . »



ومن هنا نشأت في حياة كل أمة من الأمم التي غلبت على أمرها في الحروب الاستعمارية ، معركة من معارك تنازع البقاء ، هي المعركة الثقافية ، فالمستعمر بما فيه من حرص على تلاشي شعور الأمة بشخصيتها القومية ، حريص على القضاء على ثقافتها حتى يمكن لأفرادها أن يندمجوا فيه ويعيشوا معه في الأرض التي غلبوا عليها ، غير متطلعين إلى الانفصال والاستقلال بأرضهم إذ لا يجدون في أنفسهم شعوراً يميزهم عنه من ثقافتهم القومية .

ولما كان تطلّعهم إلى الثقافة تطلّعاً فطرياً ، وحرصهم على العلم باعتبار كونه سلاح الحياة ووسيلة الكمال الإنساني ، حرصاً جبلياً . فهو يعطيهم من العلم ويمدهم من الثقافة بما لا يمكن أن يجعلهم مثقفين ، فيمدّهم بتعليمه وينشئهم على ثقافته ، تقريباً لاندماجهم فيه بسبب كونهم لا ثقافة لهم ، لا بسبب كونهم قد صاروا مثقفين حقيقة بثقافة المستعمر .

وقد كشفت محاضراتنا المتقدمة على أن هذه المعركة الثقافية الاستعمارية قد كانت بتونس بالغة أشدها ، فإن الاحتلال الفرنسي قد حمل إليها ثقافتها مفروضة لا معروضة ، فجعل اللغة الفرنسية لغة التعليم ، ولقن الناشئة التاريخ الفرنسي والآداب الفرنسية وروح القومية الفرنسية من أول عهد الطفولة ، ولم تبق اللغة العربية أداة للتعليم إلا في الجامعة الزيتونية على أنها لا تتناول مواد استكمال الثقافة العصرية ، بحيث يصير المتخرج من الجامعة الزيتونية غير مثقف ، لأن وسائل التوافق مع بيئته العصرية تعوزه ، والمتخرج من المدارس الحكومية كذلك لأن وسائل الارتباط بمقوماته الملمية تعوزه .

وهبت الأمة التونسية تدافع عن هذا الوضع الفاسد في توسيع دائرة التعليم الزيتوني وتعصيره وإنشاء التعليم الحر باللغة العربية ، حتى توصلت بعد طول الكفاح المضني إلى إيجاد تعليم عربي مستكمل ووسائل التوافق مع البيئة العصرية مرتبطة بمناهج التعليم في بقية الأقطار العربية ولكن هذه النتيجة ، لم يتوصل الكفاح التونسي إلى تحقيقها إلا في الجيل الثالث من الأجيال الناشئة تحت حكم الاستعمار ، ولم يكن تحقّقها إلا في طائفة قليلة من

طلاب الثقافة بتونس . أما الأثرية فقد أوقعها ضعف وسائل الكشف تحت طائلة الثقافة المفروضة ، فبقيت الشخصية القومية بين تجاذب وتدافع ، بتصادم تيارين ثقافيين يصول أحدهما بالقوة المادية ، ويعتمد الآخر بالقوة الروحية .

وكانت الثورة النفسية العامة في الشعب التونسي عاملاً قوياً في تغليب جانب الثقافة القومية ، إذ كانت توحى إلى الشباب الواقع تحت طائلة التيار الأجنبي بما يبعده عن التأثير بدوافعه ويمده بثقافة قومية مستمدة من روح الثورة الشعبية تعوض عليه بعض الشيء مما فاتته من التكون الثقافي القومي الكامل . وبذلك لم تتم للمستعمر مقاصده كاملة في الذين انشأهم على مناهجه الثقيفية ، إذ كان لهم من روح الثورة ما يصلهم بماضيهم وجامعتهم القومية ولو في إجمال وغموض ، وإذا كان الشباب التونسي يتلاقى بالمال في الجفاء لثقافة المستعمر وقلة الثقة بها . فإن وراء هذا التلاقي اختلافاً عظيماً متولداً من اختلاف منشأ أي هذا التوافق . ويتجلى هذا الاختلاف في أن أحد عنصرى المتعلمين وهو الذي تخرج في المجالس الحكومية قد تزود بمادة ضعيفة من معارف اللغة العربية وآدابها والدين الإسلامي وحضارته وتاريخه ، واتخذ لتفكيره أداة غريبة عن نفسه هي اللغة الفرنسية واكتسب من أساليب التعليم العصري ما يمكنه من حسن التطبيق وحسن التصرف ، وأن العنصر الآخر ، وهو الذي تخرج من المعهد القومي الزيتوني ، قد تزود بمادة غزيرة من معارف اللغة والدين واتخذ من اللغة العربية أداة منسجمة مع روحه للتفكير والتحصيل ، ولكن قصور أساليب التعليم العتيقة التي درج عليها ، وضيق مادة التعليم الذي زاوله عن كثير من العلوم اللازمة لكمال الثقافة ، قد قعدا به عن حسن التطبيق وحسن التصرف ، فنشأ في وحدة العنصر المثقف سوء انسجام واضطراب وتنافر لم يستطع معه أن يحتل على الوجه الكامل أمانة الثقافة وأن يوفى بحق أدائها للعناصر الشعبية ، فروح الثورة على الاستعمار والتطلع إلى إحياء المجد الإسلامي تجمع بين المثقفين وغيرهم من

عموم العناصر الوطنية . وإذا تجاوزنا هذا القدر المشترك ، للبحث عن الخصائص التي تميز المثقفين عن الجمهور ، لم نجد منها ما يطرد إطراداً ثابتاً يصلح لتمييز وحدة المثقفين الشاملة لعصريها . ومن هنا أصيب التوجيه القومي بخلل عظيم إذ انعدم فيه التجاوب بين التطلع الشعبي والإرشاد الثقافي ، بقصور ملكات المثقفين عن الاستعداد ، إما لقصورها عن حسن الانسجام مع روح الشعب ، وإما لقصورها عن حسن الانسجام مع البيئة العصرية . فأصبح النتاج الثقافي غير سائغ لتلقى الطبقات الشعبية ، ولم يجد له الانتشار الذي يضمن حياته ونموه ، ففقد عاملاً عظيماً من عوامل الازدهار ، وهو ملاحظة استعداد المتلقين والحرص على ربط النتائج الثقافية بذلك الاستعداد .

على أن هناك سبباً آخر قضى بتضاؤل الثقافة القومية بتونس ، وهو التباس الثقافة العصرية بالثقافة الفرنسية ، بسبب ما أحدث تحكم السياسة الاستعمارية في التعليم من حصر علوم الحياة وأحوال العصر الحاضر في مناهج التعليم الفرنسي بما فيه من قصد سيء الى تقريب المتعلمين من روح القومية الفرنسية . فنشأ عن ذلك أن صار سبب الاتصال بين الأمة وبين المكونات العصرية للثقافة مصطبغاً بصبغة ذلك الانحصر ، وفقدت تلك العلوم شرفها وتسلط عليها ما في نفوس الأمة كلها من جفاء للتعليم الفرنسي وثورة عليه ، حتى أصبح المتعلم لها ، فضلاً عن غيره ، كارهاً إياها غير مستسيغ هضمها .

وانضم إلى هذين العاملين من عوامل ضعف الثقافة عامل آخر ليس هو خاصاً بتونس ولا غيرها من البلاد ، بل هو آفة من آفات المدنية العصرية عامة في الشرق والغرب ، لم يزل كبار الكتاب والمفكرين في أوروبا يشكونها ويحاولون علاج داءها ، وتلك هي آفة الفتنة المادية التي طغت على النفوس ، فقتلت الهمم العلية ، فإن عظمة الصناعة واتساع وسائل العيش وكثرة المرافق والمباهج ووفرة المغريات . قد عودت الناس على الاقتصاد في الجهد

وملأت أوقاتهم بوسائل المتعة، ووسعت حاجتهم إلى المال، وقوت حرصهم على تحصيله، وجعلته فيما بينهم مقياس القيم، فأصبحت مهمة الطلبة منصرفة إلى الشهادات وخصائصها والمهن وحظوظها، وأصبحت همهم الخربجين والأساتذة متعلقة بالمناصب والرتب وما وراءها من متع الحياة، فضعفت الدوافع النفسية التي كانت تحبب إليهم الثقافة لذاتها وتحملهم على المصابرة في سبيل التحصيل والبحث والإنتاج

وتولدت عن هذه الأسباب الثلاثة أزمتان خطيرتان تأثرت بهما حياة الثقافة العربية أثراً سيئاً جداً، هما: أزمة النشر، وأزمة التعليم.

أما أزمة النشر فقد ابتدأت من ضعف الروح الثقافية في المتعلمين، وعن ذلك تفرع مظهران مختلفا المحل، هما: ضعف الهمة في الإنتاج، وقلة الحرص على التلقي، وابتدأت نتائج الثقافة القومية الصحيحة تطفح على البلاد التونسية من الشرق، فكان المثقفون يرون فيها المثل العليا للإنتاج الثقافي، فيزيد ذلك في ضعف همة الإنتاج عند أهل الإنتاج، بما يدركون من بعد عن اللحاق بتلك المثل العليا، ويزيد ذلك زهادة في التلقي عند أهل التلقي.

وتأثرت الطباعة تأثراً مادياً سيئاً بذلك، فأكملها أقدمت مطبعة على ترويج أثر من النتاج التونسي، تلمقت من الخيبة عبرة قاسية مريرة تمنعها من العودة إلى الإقدام على مثل ذلك، فقصرت المطابع من الجهة الصناعية عن ملاحقة حياة الطباعة العصرية. وبدأت آثارها ضئيلة المظهر، فزاد ذلك في صدوف الناس عنها وعاد عليها هي بفداحة الخسارة والإمعان في الخلل، حتى أحجمت عن تعاطي النشر فأصبح المنتج مضطراً إذا أراد نشر أثر من آثاره أن يتولى هو الانفاق عليه. ووجد أهل الإنتاج من سوء حالة الطباعة تبريراً لفتورهم، فحملوا الأمر على سوء حالة الطباعة، وما هو في الحقيقة إلا أمر متداخل الأسباب متفاعل النتائج. وانتهى الأمر بعد الحرب العالمية الثانية إلى أسوأ حالاته فأصبح لا يبرز كتاب واحد بالمطابع التونسية إلا بعد سنة أو أكثر لولا أن تحوير مناهج التعليم الزيتوني، والسير نحو تعريب التعليم الابتدائي في مدارس الحكومة. نشطاً على نشر



كتب دراسية مقررة في المناهج . فكان نجاح الناشرين في ترويجها مشجعاً لهم وللمؤلفين .

وأما أزمة التعليم ، التي هي الأصل الأصيل لأزمة النشر وجميع الأزمات الثقافية الحاضرة في البلاد التونسية ، فإنها ابتدأت بتفريق التعليم إلى شقين ، أحاط بكل منهما نقص لازم ، فأصبح مفروضاً على الأجيال الناشئة أن تتخرج على صنفين من المعلمين ويبقى جهاز البلاد الثقافي مشطوراً دائماً إلى شطرين :

وقد جابهت هذه المشكلة أولاً الجامعة الزيتونية لما أرادت أن تكيف تعليمها بالصورة المثالية المرجوة للتعليم القومي بتونس ، ثم بدأ يتمهد السبيل للتذليل هذه المشكلة بالخرابطين الزيتونيين الذين أتموا دراستهم العالية بجامعة الشرق العربي ، ومنهم اليوم من يقوم بالتدريس في المعاهد الزيتونية وفي المعاهد الدولية التابعة لوزارة المعارف ، وحاولت الجامعة الزيتونية التقدم في تمهيد هذا السبيل باستدعاء أساتذة من الشرق ، فحالت دون ذلك العوائق التي نشأت من الوضع الإداري الماضي .

وإذا كان ذلك الوضع قد تغير الآن ، بدخول البلاد في عهد استقلالها الداخلي ، فإن المعركة الثقافية لم تنته بابتداء هذا الوضع الجديد ، لأن فرنسا وإن رفعت يدها عن توجيه سياسة التعليم بتونس ، فإنها قد احتفظت بحق فتح المدارس على نفقتها وشن مناهج التعليم فيها على الخطط التي تراها . وأن الذي يتبع البعثة الثقافية الفرنسية بتونس الآن يتجاوز نسبة ٦٠٪ من معاهد التعليم علاوة على ما يتبع المؤسسات الأجنبية الحرة من مسيحية وإسرائيلية .

فالمعركة الثقافية قد انفصلت عن المعركة السياسية حقاً ، ولكن هل يكون هذا الانفصال من عوامل قوة الشق الفرنسي في المعركة الثقافية أو من عوامل ضعفه ؟

إننا إذا لاحظنا ما كنا بيناه في المحاضرات الماضية ولخصناه في صدر هذه المحاضرة من أن التحكم الفرنسي ، بما فيه من عدوان وطمع ، هو الذي كان يحول بين مناهج التعليم الفرنسي وبين استحكام النفوذ في الأمة ، بما استمر في الحياة الشعبية منذ الاحتلال من ثورة على الفرنسيين وإعراض عن كل ما يأتي منهم . فإن العلائق الجديدة بين تونس وفرنسا ستخفف من حدة هذه الثورة . وسيقدم الفرنسيون إلى التونسيين في المستقبل ثقافة معروضة لا مفروضة ، ينفقون عليها من ميزان دولتهم لا من الميزان التونسي مليارات الفرنكات ، ويبرزونها للتونسيين عملاً فكرياً إنسانياً بعيداً عن كل مظهر من مظاهر الحكم والإرهاب ، فلهل هذا التفكيك بين ثقافة الفرنسي واستعمارهم ، يكون عاملاً في فتور روح الإعراض التي كان التونسي يلقى بها الثقافة الفرنسية ، يوم كانت مرتبطة مع الاستعمار وآتية من يده .

فإذا اعتبرنا مع هذا أن الثقافة الفرنسية لها من وفرة إنتاجها وقوة وسائل عرضها وانتظام تجددتها وارتباطها المحكم بالعوامل الثقافية الثلاثة ، الفرنسي ثم اللاتيني ثم الغربي يحلق بعضها وراء بعض ، فإن الأمر ينتهي بنا إلى تصور قوة عالمية هائلة تتزاحم مع قوة محلية محصورة ضئيلة الإنتاج ناقصة وسائل التقوى ، ويحق لنا هنالك أن نتوقع للثقافة العربية خسارة المعركة ، وللثقافة الفرنسية الفوز بها ، وذلك ما يوجب علينا النظر إلى وسائل تقوية الثقافة العربية والعمل على تحقيقها بجد ، حتى تكون هي الفائزة بالمعركة ، وحتى لا تنسلخ البلاد التونسية عن وحدة الأمم العربية .

ووسائل هذا التقوى تنحصر في وسيلة وحيدة هي تمكين الثقافة العربية بتونس من الارتباط بالثقافة العربية في بلاد العرب بأسرها ، ارتباطاً متيناً محكماً مطرداً منعكساً عاماً في جميع مظاهر الحياة الثقافية . ويتحقق ذلك بتحقيق النقاط العشر الآتية :

١ - تشجيع الإنتاج العلمي والأدبي بتكوين وسائل الرواج للآثار



التونسية في الشرق العربي بالتنويه بها وتيسير وسائل انتشارها ورصد الجوائز المخصصة لها من طرف جامعة الدول العربية والدول والجامعات والجامع العلمية .

٢ - تقوية حركة النشر بتمهيد طرق الرواج للمنشورات التونسية والإعانة على ترقية فن الطباعة واشتراء جامعة الدول العربية ووزارات المعارف والجامعات والمعاهد والجامع لمقادير من تلك المطبوعات على معنى التشجيع .

٣ - التعاون مع الدولة التونسية بإمدادها بالأساتذة للجامعة الزيتونية ومعاهد التعليم العمومي ، وتشريك تونس في المؤتمرات العلمية التي تقرب مناهج التعليم وإصطلاحات العلوم ، وفيما ينشأ عن تلك المؤتمرات من مقررات ومعاهدات ثقافية .

٤ - التعاون مع الجمعيات المشرفة على التعليم الحر بالتيسير عليها في إنشاء معاهد ثانوية تسير على مناهج التعليم في البلاد العربية وإمدادها بالأساتذة على نفقة الدول العربية وقبول المتهيين في تلك المعاهد لاجتياز امتحانات نهاية التعليم الثانوي أو إرسال لجان الامتحانات إلى تونس ، حتى يتوفر بذلك عدد المتهيين لمواصلة التعليم العالي بالشرق .

٥ - تسهيل الالتحاق بالتعليم العالي على الإرساليات الرسمية ، بتقرير معادلة الشهادات وتهميمها في فروع التعليم العالي كافة .

٦ - تشجيع القاصدين للالتحاق بالتعليم العالي من غير الإرساليات ، بإعفاءهم من الرسوم ومنحهم الإعانات الكافية ، من الجامعة العربية ووزارات المعارف والأوقاف .

٧ - انتداب أساتذة تونسيين لإلقاء الدروس والمحاضرات بالجامعات والمعاهد في الشرق ، واستخدامهم في التعليم الثانوي .

٨ - تكوين إرساليات علمية من الأساتذة وطلبة الجامعات والمعاهد، للبحث والدراسة في الشؤون التونسية وتكوين القوافل السياحية الجامعية، وقبول قوافل مثلها من تونس .

٩ - تشجيع المسرح العربي التونسي بعرض تمثيلياته في الشرق ورصد الإعانات التشجيعية للفرق والجمعيات التي تكافح للحفاظ على التمثيل بالعربية الفصحى وإمدادها بالمشرفين الفنيين .

١٠ - الحرص على تعريف الشرق بالحياة التونسية وحضارتها ونظم الدولة والمؤسسات والشخصيات وإبراز روح العروبة السائدة على البلاد . ووراء هذه النقاط العشر تفاصيل وتفاريح هي كفيلة بتحقيقها .

وقد بدأ بالفعل العمل في تحقيق بعض من هذه النقاط ، والأمل أن إطار السير على ما وقع الشروع فيه ، والابتداء السريع بتطبيق البقية هو الذي يكون ضماناً لمستقبل الثقافة العربية في البلاد التونسية ، وإنعاشاً لحركة الفكر والأدب ، وتعزيزاً لروح العروبة التي هي أساس الروح الوطنية التونسية ، حتى تلتئم وحدة العرب كاملة سالمة ، ويصدق للتونسيين القول الذي لم يزلوا يتغنون فيه بالشطرة السائرة لشاعرنا الاجتماعي القصار :

« العز لله ثم الفوز للعرب » .



نصوص أدبية

قيداً في



مقدمة

لقد دعا معهد الدراسات العربية العالية الشيخ محمد الفاضل بن عاشور رئيس الجمعية الخلدونية والأستاذ بالجامعة الزيتونية بتونس - إلى المساهمة في أعمال المعهد بإلقاء سلسلة محاضرات عن الحركات الأدبية والفكرية في تونس .

وقد لبى الأستاذ هذه الدعوة ، وحضر إلى القاهرة ، وألقى ست محاضرات في الموضوع المذكور .

ولما كانت الكتب والمجلات والجرائد التي تشير إليها المحاضرات غير موجودة في مكتبات الشرق العربي ، رجونا أن يزود المعهد بمجموعة من المختارات الأدبية ، لتُنشر ملحقاً بالمحاضرات .

إن الصفائف التالية تتضمن هذه المختارات الشعرية والنثرية ، وهي تظهر الأدوار المختلفة للحركة الأدبية والفكرية في تونس .



محمود قبادو

من المقدمة

إن مولانا لما تآقت نفسه إلى أن يترك بحر هذه المملكة رهوا * وسمت
همته إلى أن ينتهج لها طريقاً عفوا * فيجتلي منها روضة أنفاً * ويبتني من فوق
غرفها عرفاً * ثنى عطف أصمعيه * ولوى عذار أصغريه * إلى حفظ نظام
ألفتها بالسلطان والبرهان * وقطف جنى خلفتها فن الشراسة والليان * إيقافاً
بانطباع البرهان * في صقيل الماويه * وجلال السلطان . للسجنجل الصديه *
وتلازز الملك والدين في قران * حتى كأنهما فرسا رهان * إذ الملك يجري
من الدين مجرى السيف من يد البطل * ويقوم منه مقام الحاجب من المقل *
لكنه جل جلاله * وعم نواله * قد خار لمولانا ومولى المؤمنين * وأولانا
وأولى العالمين * بأن مد له باعاً لا يطوله باع * في رقعة من الأرض ليست
بأوسع الرقاع * وجدد به فيها من رسوم الفضل كل دارس * وأحيا ذكره
بها بين الحصون والمدارس * استغفر الله بل ضاعف منه طلبها المقلع بوابل * كمثّل
حبة أنبت سبع سنابل * فهل كانت تونس تونس من طور المشيرية ناراً *
أو تبتني لجندها في مسالك الحرب مناراً * بلى وقد كانت دوحة الملك في البلاد
الإسلامية وارفة الظلال * شائكة الصيال * فكيف وقد لقيت ما سجاها
ولحاهها * وعجاها وعظاها * فأضحت في كل قراره * حوارا في محاره * وأمست
في جميع البقاع * أذل من فقية بقاع * يطأها الخافي * ويعلوها السافي * قد
فصمت أو اصرها * وغابت نواصرها * وأصغى أناؤها * وألغى بناؤها * وتولى
مجدها بعدوليه * وعطل جيدها بعد حليه * فلا جرم أن أنهض إليه بهذا
الغرب * كما أنبأ به سيد الأمام (صلى الله عليه وسلم) أهل الغرب * طائفة قد حالفوا
الحق وحالفهم * فلا يضرهم من خالفهم * وملك لأمرنا زمامهم * وجعله في



بجديد الدين أمامهم * فبيت التدبير مسامرا * وخمر التفكير مخامرا * وشعر
لتأسيس الملك ذبلا * وقضى أمره ليلا * وطفق يمتحن بمسبار الروية دفينه *
ويجس بأنامل الرفق شرايينه * فإذا هو لما ألف الحمام واستوحش الرياضة
ألم به أعياء فهاضه * وشتان مارايض ورايض * وباسط وقابض * فإن الدولة
الإسلامية لما نشرت لها رؤية الرعب * وخفقت في كل قلب * لم تزل الكفرة
في طلاب المنجاة منها تمشي تحت كل كوكب * وفي ارتياد المفازة عنها تنتشق كل
كوكب * وما منهم إلا من آب بعدالدين * بخفي حنين * إلى أن قضى القدر المتبع
والجد المريح * بأن يكون إقبال المراد * وإقبال المراد * في هذا العهد الحديث
غب ذلك السعي الحثيث * لأحلام السفنج * رجرة الفرنج * فاستحدثوا تلك
الطامة التي هي إحدى الكبر * وذات الودقين التي لا يعفو لها أثر * لراحة
البشر * التي لا تبقى ولا تذر * الصواعق الصناعية * الصادرة عن الأسلحة
النارية * فأداروا بها دائرة البوار * على اليلب المدار * وأباحوا حما الدلاص
المأذية * والموضونة الحطمية * وقلصوا ظلال القنوات * وبتروا البيض
الباترات * فزف حديث البسالة للمنزل المهجور * ولعبت به .

سلاح لم يكن إلا لغدر به قتل الأشداء الجبان

ولما طبقوا من أمنيته المفصل * وأصموا من رميتهم المقتل * شب عمر
جندهم عن تطوق أوزار الحروب السالفة * وشمخ طور طورهم إلى الأشراف
على أوزار مستأنفة * فعطفوا أعنة أفكارهم إلى مقدمة جدودهم وساقطاه
وصرفوا وجوه أنظارهم إلى قلبها وبحبوحتها * وعادلوا بين كفتي التمييز بين
ميامنها ومياسرها * وشنوا غارات التنقيير بين جحافلها ومناسرها * فوجدوا
الهيئة التي أفرغ القدماء الكتائب في قلبها * ونظموا الجنود في سلك مراتبها
ليس بينها وبين سلاحهم النارى موافقة شن وطبقه * ومواخاة حريق وحرقة
فرغبوا عنها إلى التعانى التي راضوا بالعلوم الرياضية صعبا * وفتحوا بأقاليد
التجربة أبوابها * ولم يزالوا كل أونة يزيدون نعمة في طنبورها * وبلبلوا في
صنبورها * يوزعون لها كافة أوزاعهم * ويجتأبون بها أودية إفزاعهم *

وصدقت فيهم كلمة الله العليا * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا * فقل لأقوام
عن سنن عوائد الله يعمهون * وفي تيه أطراح الأسباب يهيمون * قد برح
الخفاء ولكن لا تفهمون * أم هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون *
أولئك قوم أتوا البيوت من أبوابها وأدمنوا القرع * وإن يجيب سبحانه
سائلاً بلسان القابلية بمنح * وإنما الحرمان أن تتنكب السبل عن ضلة أو يأس *
وقد قال سبحانه وتلك أيام نداؤها بين الناس *

الرملة :

رعى الله أياماً لنا ولياليا	سعيناً بها للمجد والدر مسعد
تطارحنى الآمال وهى مطيعة	وتغنى جفون النائبات وأسهد
ليالى لم أذمم بها شقة النوى	ولولا إغترابى كنت أثنى وأحمد
قضيت بأرض الروم منها مآرباً	وعدت لأرض كان لى فيها مولد
وما عن قلا ولت عنها ركائبى	ولكنها الأوطان للحر أعود
طويت لها البیداء بين مهامه	ويممت لج البحر والبحر مزبد
نزلت بأقليلية عنه بعدما	لقيت به ما لم أزل منه أرعد
وأدهم زنجى فريت أديمه	بأدهم يعبوب يغير وينجد
كان سهيلاً بين عينيه غرة	ونجم الثريا فوق خديه موقد

استقبال صبح سنة ١٢٧٣ :

الشكر لله لا أحصى عليه ثنا	على موحد من آلائه وثنا
يا زائرى فى صباح الأربعاء لقد	اجنيتنى من ربيع الأانس خير جنا
أمنية لم تزل نفسى تشوق لها	دهراً وتتهم الأيام والزمننا
هل يعلم اليوم حسادى فأرحمهم	إنى بلغت من الأيام كل منا

يا نفس بشراك وافاك الحسين فلا
 قد طالما أرقّت جفنيك غيبته
 واليوم فانتصفي من كل ذي حسد
 قد أنستنا وأنستنا بأوبته
 أهلا بأكرم من قرت برؤيته
 أهلا بشمس ذكاء مشرق بهرت
 أهلا به وبروض من بلاغته
 أهلا بمجمع أخلاق مطهرة
 أهلا بمن كلما مرت شمائله
 أهلا بمن ملكك رقي مكارمه
 أهلا بمن أشعرت قلبي زيارته
 أهلا بمن كدت من وجد ومن طرب
 أهلا بأكرم خلق الله منزلة
 أهلا بمن قد أراش الله جل به
 أهلا بناشر ذكرى والمشييد به
 أهلا بملجم أعدائي ومسكبه
 ياسيدا لا يرى إلا العلاء وطنا
 كل بلقياك مسرور ومبهج
 لو أنصفوني وما الأنصاف شيمتهم
 ألسنت أو شجهم قربى وأولهم
 دم أيها الزائرى فضلا وتكرمة

وصف شعره

وما كل ذي نظم يلقب شاعرا
 أرى الشعر علها واسعا وسجية
 إذا رمته انثالت على جواهر
 تكاد معانيه تسابق انمطه

ترين للدهر إلا المنظر الحسن
 فاليوم فاغتمضي في قربه وسنا
 أمسى سرورك في أحشائه حزنا
 أيامنا ما أساءت في البعاد بنا
 عيني وشنف ذكر لاسمه أذنا
 شهبها النهى في سناء باذخ وسنا
 يحني الوري قننا منها يهز قنا
 أبدى بها الله فينا فضله علنا
 يوما بذكرى حار الفكر وافتتنا
 قدما واعظم بها في ملكنا ثنا
 برد النعيم وهاجت لي به شجنا
 إلى لقاء تجافى روحى البدنا
 عندي وأقربهم من مهجتي سكنا
 جناح عزمي وآواني به ركننا
 إذا أخو الضغن واراها بما اضطغنا
 في نشر فضلي على عي بهم لسنا
 هنيئ في واصلك الأحباب والوطنا
 لكن أوفرهم حظا بذاك أنا
 إلا قليلا لو افونى برسم هنا
 ودا وأقومهم في بر كم سننا
 شمسا يعم سناها من ناي ودنا

ولم يك ليث العنكبوت الذي قبا
 إذا اصطجبا لم يعدم القائل الأربا
 يضيق نطاق النطق على ضمها وعبا
 على أنه سلسال سيب قد انصبا

فإن تكن الأصداف حجب جـ — واهر فألفاظه ليست لما ضمنت حجبها
 كأنهما روحان راما توحداهما — فعانق كل منهما إلفه صبا
 تسامى له فكري بسقطى محله — ق وغاصر له نطقى أعلى الدرر الثعبا
 فاقضى الليالى الدهم غير مغور — وأثنى على التعريس أيامى الشهباء
 لعمرى لقد أصبحت منه مجليا — بشا وإذا أجرى له سابق أكبا
 همى ليس يعشو إلا عشيان لنوره — وليس يحوم إلا عميان له لحبا
 جلوت به عذراء فكر يتيمة — أبى الدهر يوما أن يضم لها تربا
 طوت نسج فحلى طيء وتلقفت — سحيرا تنبا ابن الحسين به عجبها

اوربا

لذاك ترى ملك الفرنج مؤثلا — بعلم على الأيام يمتد يمه
 ومملكة الإسلام يقاص ظلها — وينقص من أطرافها ما تضمه
 على أنها أجدى وأبسط رقعة — وأوسط أقلها من الطبع عظمه
 وأعرق فى منمى الحضارة موقعا — وأطول باعا يفلق الهام دمه
 وقد ماتنا هت فى الفنون توغلا — وجمع طم الصنع فيها ورمه
 ودوخ مغزاها الأقاليم سبعة — وتاخمها من سد ياجوج ردمه
 فلم يجد المستعبدون لعزها — سوى العلم نهجا للرئاسة أمه
 فكان لهم منه النفوذ إلى المنى — ولا سيما ثغر خبا منه حجمه
 فمن لم يحس خبرا أروبا وأهلها — ولم يتغلغل فى المصانع فهمه
 فذلك فى كن البلاء داجن — وفى مضجع العادات يلهمه حلمه
 هم غرسوا روح التمدن فرعه الر — ياضى والعلم الطبيعى جذمه
 أيجمل يا أهل الحفيظة أنهم — يبزوننا نفرا أنا كان نخمه
 لقد قتلوا دنيا الحياتين خبرة — فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

خير الدين

الشورى

إن الممالك التى لا يكون لإدارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد نخيرها وشرها منحصر فى ذات الملك ، وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها ، ويشهد لذلك حالة الممالك الأورباوية فى القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم فى ذلك الوقت من الوزراء من لهم شهرة إلى الآن بتمام المعرفة والمروءة ومع ذلك لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتى استبداد الملوك المشار إليهما .

لا يقال أن مشاركة أهل الحل والعقد للأمر فى كليات السياسة تضيق لسعة نظر الإمام وتصرفه العام لأننا نقول هذا التوهم يندفع بمطالعة الأحكام السلطانية ، لما وردى فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض ، هى أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده وليس بممتنع جواز هذه الوزارة فان الله تعالى يقول عن نبيه موسى عليه السلام « واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشد به أزرى وأشركه فى أمرى ، فإذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الأمانة أجوز .

قلت فإذا جاز تشريك الإمام لوزير التفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنقيصاً من تصرفه العام كان تشريكه لجماعة هم أهل الحل والعقد فى كليات السياسة أجوز لأن اجتماع الآراء إلى مواقع الصواب أقرب ولهذا لما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة شورى بين ستة قال : أن أنقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الأربعة (ميلاً منه إلى الأكثر لأن رأيهم إلى الصواب أقرب قاله السيد السند)

الذي فيه عبد الرحمن بن عوف على أن المولى سعد الدين في شرح العقائد لم يمنع المشاركة في تصرفات الإمامة وقصر منع التعدد على منشأ الفساد حيث قال في أثناء مبحث الإمامة غير الجائز هو نصب إمامين مستقلين يجب طاعة كل منهما على الانفراد لما يلزم عليه من امتثال أحكام متضادة ، وأما في الشورى فالكل بمنزلة إمام واحد لأن تعدد الأشخاص لا ينافي وحدة الإمامة التي مدارها على وحدة الأمر والنهي وقد سلم كلام السعد محشوه كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم وقرره الخيالي بقوله : وقد يجاب أيضاً وبالجمله فكأنهم معترف بصحة كلام السعد في نفسه وظاهر حينئذ احروية جواز الشورى في كليات السياسة بالمعنى الذي أشرنا إليه إذ هي دون الشورى في سائر التصرفات. ثم أن الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضيق لدائرة خطة الإمام وعموم تصرفها باعتبار أن نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظر الإمام ومراعاة كونه مظهر آله لاستبداده بتمشيته وإدارته مع ما يستبد به من التصرفات التي لا تقتضي المشاركة كاجراء الخلطة السياسية والمتجربة مع الأجانب ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الأحكام ونحو ذلك من التصرفات التي هي محل وحدة الأمر ،

(من كتاب أقوم المسالك)

محمد السنوسي

من أبهج ساحات الآستانة دآت ميدان ، وهي في الأصل معدة لسباق الخيل طولها تسعمائة قدم وعرضها ربعمائة وخمسون قدما ، وكانت فيها مسلة حجرية أصلها من مدينة « تيفس » المصرية وعمود قسطنطين صاحب التمثال النحاسي ، وعمود الحية الذي هو من نحاس على شكل حبل ملفوف وعلى رأسه ثلاث حيات يقال أنه في الأصل أقيم في عهد اليونان رسدا لتفجير الأفاعي ولهم عنه خرافات مروية عن الكهنة .

وأما الباب العالي فهو عبارة عن قوس مرتفع هو مدخل دار الملك وقد أدركت هنالك أمام مقر الوزارة الحربية وهي السر عسكرية مجالا لكراريس المتنزهين والمتنزهات يتجول فيها الشبان والعذارى والمخدرات والغواني على اختلاف نظر وإرسال خاطر يبعث الأنس ويضطرب النفس ، وربما تحصلت فيه مواعيد الوصال بمبادئه الخفية السارية سريان النسيم من نفس كل كريم مع قيام حراسة الضباط بحضور رئيس الضبطية لمنع التجاهر بما لا يليق ، وأعظم أيام التنزه فيه يوم الأربعاء من كل أسبوع ، وقد هالني وجود ذلك المتنزه في بلاد اقتضت شريعة أهلها حجاب النسوة ولكن بعد إقامتي هنالك رأيت أن داخلية إدارة جميع البيوت منوطة بالنساء ومن حقوقهن شراء لوازم البيوت بأنفسهن فضلا عن شراء لبسهن وألبساء أبنائهن وتلك سنة الروم القديمة وبذلك كان اختلاطهن بالأسواق ومحلات التجارة أمرا معروفا أما ما يحتج به فهو نقاب شفاف لا يحجب ما وراءه وكثير ممن يستعملن التدخين في الطريق وهن من المخدرات الرفيعات وربما استترن بشمسيات من الحرير صغرى يجعلنها على رؤوسهن ويحتجبن بها إذا أردن ، وجميع الكراريس مفتوحات المنافذ وكثيرا ما تصدر الأوامر للنساء باستعمال الخمار الصفيق فلم تبلغ الحكومة من ذلك مقصدها ، فكأن طريقة نساء

الروم بقي عليها نساء الترك ، ومن المتنزهات المشتهرة بحسن المياه وعذوبتها
 الشملجة وهي موضع رياض غير أن طرق الوصول إليها وعرة صعبة طبيعية
 ترتقى في جبل عالي على غبار في الصيف ووحل في الشتاء وقد توجهت إليها
 في يوم نزهة في صحبة العلامة الشيخ محمد بيرم وبنبه ودخلنا هنالك إلى مرسح
 فيه تشخيص رواية باللسان الأرمي وكان أحسن البساتين فيما رأينا هنالك
 بستان محمود بن عياد التونسي وبداخله وادي صناعى يلتوى على عدة برك ،
 أعده صاحبه للسبح به مع الغواني من تابعاته ومملوكاته ، وقد كان أبو يوسف
 رضى الله عنه لاحظ في سبج المملوكات مع مالك اليمين مكشوفات ما في حرمة
 نظرهن لبعضهن إذ نظر عوراتهن محرم عليهن وإن لم يكن محرما على
 مالكن فالواجب اعتبار المالك اعتبار ذلك . وشهرة مياه الشملجة بين ظرفاء
 الأستانة في صفائها وعذوبتها وبرودتها بحيث أنهم يعدونها من مفاخر
 بلادهم الطبيعية .

(الرحلة الحجازية)

جريدة الحاضرة

(حيا الله قراء الحاضرة)

ما سام في روض الصحائف ناظره غير الالى حضروا منازره ناظره
فتمدنوا ورأوا بهمين تبصر معنى الحضارة في رياض الحاضرة

حي على خير العمل . لخدمة الأمة والوطن . وبلغ النفس إلى غاية الأمل
من بذلها في السعي الحسن . فأحب العمل إلى الله أدومه . وشكر المنعم
من أسباب المزيد .

نحمد الله على جميل النعم ونشكر عظيم فضله . ونسأله التوفيق إلى خير مام .
والتوفيق من طوله . لا اله إلا هو المنعم الذي توالى أنعمه . بحسن المدد
الذي ينقطع ولا يبيد .

ونصلي ونسلم على أكرم من جاء بحكمة الارشاد . فهدى الناس بالشرع
العظيم . وأوضح طرق السعادة للعباد . ودعاهم إلى الصراط المستقيم . ذلك
الرسول الذي هو أفصح هذا الكون وأعلمه . سيدنا محمد خاتم المرسلين
من الرب الحميد .

وعلى آله وأصحابه الغر الكرام . الذين دوخوا غالب المعمور . وقاموا
بنصر الحق ونشر الأحكام . بما لم تزل حكمته تتجدد بتجدد العصور . وعلى من
تبهم فأصابته في غرضه أسهمه . ونجح بما أختاره من السبيل المفيد . يلي هاته
الفاحة رعاك الله أيها المسرح طرف الطرف في مراع اللطافة والظرف .
أن اخوانا من أبناء البلاد تنادوا إلى سبيل الارشاد تحملهم الغيرة على اقتحام
الآخطار . وسلوك الأخيار . فجمعتهم وحدة حب خير البلاد ولا يتجرد
عن حبه إلا من لا خير فيه .

وتصافخوا على ما يفيد العباد . بما يقوم به غرضهم ويستوفيه . ذلك أن



البلاد التونسية . ما زالت بحمد الله مظهرا لجميل الآثار ، على اختلاف
الاطوار . وتقلبت في فنون من الحضارة والتمدن في هذا العصر الجديد . ونشرت
فيها المعارف والتنظيمات على الوجه المفيد . بيد أن كثيرا من جميل آثارها
ومفيد أخبارها . وبواعث استبصارها . لم يكن منشورا . إلا بما يتناقله
الرواة على اختلاف اللغات فنراه على غير الحقيقة مذكورا . وهذا داعي
تقدم هاته العصاة . إلى ما يظنون وبه إلا ما به . من فتح هاته الصحيفة التي
يؤملون منها القيام بتلك الوظيفة . إلى غير ذلك من إرشاد أبناء البلاد . إلى
ما فيه السداد . على وجه يدعو إليه داعي هذا العصر في كل مصير أما ما يتعلق
بطريق تنظيم الصحيفة وأجرائها مجرى النفع العام . فكل حكمه إلى ما تظهره
الأيام . والله في عبادته علم غيب يصيرون إليه وعلى كل حال نرجوا أن تأتي
في هاته الجريدة . على ما يهم أبناء الوطن من المقالات المفيدة . وما يؤل
بفضل الله إلى نجاحهم من النصيح والإرشاد كما أننا نذكر فيها أهم ما يصل إلينا
من الحوادث الداخلية سواء كانت بحاضرة تونس أو بغيرها من بلدان المملكة
وننقل أهم الأخبار السياسية خصوصا ما كان منها متعلقا ببلاد المسلمين
وننتقي من تلك الأخبار ما كان واضح الصحة خاليا عن الأغراض .

نهتم في نقلنا على أشهر الجرائد السياسية مثل « الديبا » و « الطان »
و « التيمس » و « الاستندار » والرفورما وغيرها ومع ذلك أنا رأينا
في بعض الأبواب بعداً عن الصواب أشرنا إليه ونبهنا القارئ إلى
عدم الاعتماد عليه .

وننشر في هاته الجريدة جميع ما يرد إلينا من الرسائل بشرط أن تكون
مفيدة للعموم ولا نترك حق الجريدة من الأوامر الرسمية والقوانين الدولية .
نسلك في سيرنا طريقا معتدلة وإن نحمد أبدأ عن الحق إكراما لخاطر
زيد أو خشية من سطوة عمرو .

وبالجملة فلاننا لولا جهدا في جعل هاته الصحيفة نافعة لأبناء الوطن
حائزة على رضى العموم .

(٢٤ ذى القعدة ١٣٠٥ و ٢٣ آغشت ١٨٨٨)

العدد الأول السنة الأولى

الحرية

طالما قرعت آذاننا نواقيس هاته اللفظة في مواقع متضادة فأوقعتنا في حيرة من معناها . ذلك أنا نرى الأمم المتقدمة والشعوب المتقدمة في السيادة والمعارف والقوات العملية والصناعية التي هي منابع القوات المادية إذا سألناهم عن أعظم أسباب ما وصلوا به إلى هاته الدرجة بعد غباوة العصور السالفة والعبودية التي كانوا فيها بين يدي نبلائهم فضلا عن ملوكهم تجدهم يشكرون الحرية وفي صفحات التاريخ ما يشهد لهم بأن منبع تقدمهم وتقدمهم إنما هو الحرية التي خرجوا بها من سلطة النبلاء إلى الرعي في مراعي الحضارة والتقدم بتعلم العلوم واجتناء ثمراتها المادية والمعنوية وأثر ذلك من عهد ملك فرنسا لويز السادس عشر في خروج الأمة إلى ذلك المرعى الخصيب في ١٤ يولية سنة ١٧٨٩ من المآثر التي بقي لها عيد سنوي بين الأمم الحرية وبها أصبحت اليوم مملكة فرنسا حاضرة الحضارة والتقدم ومنبت المعارف والتقدم . ومثل ذلك حرية الولايات المتحدة أمريكا التي أسستها في يوليو ١٧٧٦ خروجا من سلطة أنكلتير واتخذت ذلك اليوم عيداً تحت إسم عيد الحرية وما زالت الأمم تطالب حريتها من نبلائهم وملوكهم فيخرجون من الاسترقاق الذي تسكن على أجيال منهم كل على حسب ما ساعده به الحال .

ولما ظهر ذلك في نظام العمران البشري صار حكماء الملوك ينتزعون من أنفسهم قوة السلطة ويعطون لرعاياهم حريتهم التي خلقهم الله عليها وأخرجهم الله من بطون أمهاتهم أحراراً فاستعبدتهم الملوك بظلم القوة التي كانوا يستعملونها في غير ما اتفقوا به عليها ولذلك اضطروهم تقدم العصور إلى إرجاع الأمانات إلى أهلها فأعطوا لكل واحد حقه وصانوا بذلك حقوقهم فعظمت سيادتهم بالكمالات الإنسانية لا بالادوات الوحشية .



كمال الوفاق بحسن الارتفاق

إن حاجة المخلوق إلى سواه أمر ضروري ولا غنى عن سواه مفتقراً إليه كل من عداه إلا الله جل جلاله أما الحوادث فما من حادث منها إلا وهو محتاج إلى غيره فالجواهر تحتاج إلى الفراغ الذي تحل فيه والأعراض تفتقر إلى جواهر تقوم بها ثم أن الجواهر تختلف احتياجاتها باختلاف أجناسها فليست حاجة المعادن كحاجة النبات ولا حاجة النبات كحاجة الحيوان ولا حاجة عموم الحيوانات كحاجة الإنسان ولعلماء التحليلات من أهل الكيمياء مزيد علم بدقائق تلك الحاجات يدل على كمال حكمة مبدع الكائنات وفي كل شيء له آية . تدل على أنه الواحد ننظر هنا في حاجة الإنسان (والإنسان مدني بالطبع) حيث أنه يحتاج إلى ضروريات معاشه بالأكل والشرب والاستقلال والتدفي وليس هذا الاحتياج مختصاً به بل يشاركه فيه سائر الحيوانات غير أنها تتطلب ضروريات ما تحتاج إليه بالانفراد من غير تعاون بخلاف الإنسان فإنه يختص بمزية التعاون في الارتفاق بالأمور الضرورية وقد انضم لارتفاق الإنسان بها ثلاثة أشياء امتازت بها صورته النوعية العالية على غيرها من أنواع الحيوانات .

والمميز الأول الانبعاث إلى الشيء عن رأى كلي بحيث أن الإنسان ربما ينبعث إلى نفع معقول ليس له داعية من طبيعته فيقصد أن يحصل نظاماً صالحاً في المدينة أو يكمل خلقه أو يهذب نفسه أو يتفصى من عذاب الآخرة لو يمكن جاهه في صدور الناس وهذه الأمور لا يصل إليها الحيوانات إذ البهيمة إنما تنبعث إلى غرض محسوس أو متوهم من داعية ناشئة من طبيعتها كالجوع والعطش ونحوهما .

المميز الثاني أن يضم إلى الارتفاق الظرافة إذ البهيمة إنما تطلب ما تسد به

خلاتها وتدفع بها حاجتها والانسان ربما يطلب ذلك على وجه تقرر به عينه وتلتذ به نفسه ترى ذلك منه في مأكله وملبسه ومسكنه .

المميز الثالث استنباط أوجه الارتفاقات الصالحة وعمل المدركين لها بما تتسع به دائرتها يشهد ذلك حدوث المرافق الكثيرة في البلدان وتجدها بتجدد العصور حتى حصلت من ذلك حياة صالحة ولما كان الناس في ذلك على أطوار وأحوال اختلفت باختلاف طبائعهم وعوائدهم ومقدرات أفرادهم كان الارفاق حدان فالارفاق الأول هو الذي لا يمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات القاصرة كالبدو سكان رؤوس الجبال مما يحصل به ضروري الأكل واللبس والإيواء .

والارفاق الثاني ما عليه أهل الحضر والقرى العامة التي ازدحمت فيها الحاجات وتقدمت فيها الأعمال وكثرت فيها التجارة فوصلوا إلى الحضارة والتمدن وكثرت بينهم الرفاهية فنشأ عنها من الترف ما بلغت إليه الملوك وهذا التمدن نشأ عنه ارتفاقان آخران .

فالارتفاق الثالث : هو الوازع بين المتمدينين حيث أن ضرورة الاجتماع والتسابق في الترف دعت إلى التعامل وتزاحم الأغراض وذلك موجب لخلل الانتظام فاستوجب حفظه أرفاق الحياة بإقامة الحاكم لينود بعض الناس عن الحقوق .

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا والارفاق الرابع : ناشئ على الثالث ضرورة أن الحاكم مهما كانت منزلته من العلم والعدل إلا وللناس في معارضته اختيار سيما مع ما بداخلهم من الشح والحرص والحق ففضلا عن التهلك والانهماك وذلك يقضى بهم إلى عدم الانقياد له فضلا عما يقع في النفوس من بغضه ورميه .

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل وهو يستوجب إرفاقه بدولة وحامية وسلطان يقهر الجبابرة والعتاة

والبغاة بما لديه من القوة الكافية لحفظ الأمة بإجراء أحكام الحكم .

ونحن إذا أردنا أن نبسط القول على هاته الارتفاقات يمكن لنا أن نقول إن الارتفاق الأول الضروري لنوع الإنسان من أعظم أصوله اللغة للمعبرة عما في الضمير فهي أول أصول الارتفاق فلو لم يكن الواحد عارفا بمقاصد صاحبه اضطرب الاجتماع واختل النظام ويتسع نطاق اللغة ما اتسعت الحاجات وباختلاط الأمم المختلفي اللغات يلزم لحفظ أصل الارتفاق الأول تيسير أسباب حفظ اللغات وتعلمها تسهيلا له وذكر التلمساني في العمدة أن زيد بن ثابت الأنصاري النجاري رضى الله عنه كان ترجمان النبي صلى الله عليه وسلم بالفارسية والروسية والقبطية والحبشية تعلم بالمدينة من أهل هذه الألسن ومن الارتفاق الأول الزراعة والغرس وحفر الآبار والطبخ والأتدام واصطناع الأواني والقرب وتسخير البهائم للانتفاع بظهورها ولحومها وجلودها وصوفها وألبانها ومنه اللباس الذي يتخذ من الجلود أو الصوف أو أوراق الأشجار وهذه الارتفاقات الأولية لا بد لها من صناعات أولية يحصل منها هذا الارتفاق من النجارة والحداة والنسيج إلى غير ذلك معا هو ضروري للارتفاق الأول .

وأما الارتفاق الثاني : فهو يحصل به تهذيب الأخلاق بتدبير المنزل على وجه يحفظ حقوق الزوج والأولاد والملكية والصحبة مع آداب فن المعاش ولطافة المأكل والملبس والمسكن وحفظ حقوق المعاشرة وهذه كلها إرتفاقات تحتاج إلى بثها ونشرها بين أهل المدينة ليعملوا بها حقوق المدن .

أما الارتفاق الثالث : فهو حكمة ضبط المعاملات والمعلومات والاكتسابات وهذا يحصل بوضع حدود للحقوق والاشتراكات وإلزام العمل بها حتى يمكن بذلك حفظ الألفة والمحبة بين الأفراد على وجه تنتظم به المدينة وتحفظ به الحقوق المدنية ولا شك أن ذلك كله يحصل بحفظ السياسة المدنية .

وأما الارتفاق الرابع : فهو يحصل بحفظ واجبات سير الملوك وانتظام الدولة وأمانة رجالها وكفاية حاميتها وقوتها مما جميعه مدون في أصول السياسات الدولية ويتميز هاته الأنواع من الارتفاقات بتبين أن تألف الأمم وتعاونهم على ما يحصل به انتظام الحياة الاجتماعية يتوقف على حفظها وبحسن الارتفاق يحصل كمال الوفاق .

العدد ٣ - السنة الأولى (يوم الخميس ٩ ذى الحجة ١٣٠٥ و ١٦ آغشت ١٨٨٨)

جريدة الحاضرة

رفع التباس

أخبرنا في العدد قبل هذا بعود جريدة الزهرة الغراء إلى عالم المطبوعات بعد تعطيلها حيناً من الدهر قياماً بواجب الرصافة الصحافية ولما تصفحنا العدد الأول منها وجدناه محشواً بالتعريض بجريدة الحاضرة مع لهجة تشف عن حزازات وأحقاد من أجل ذلك التعطيل بما يوهم أن الحاضرة ربما كانت من أكبر أسبابه مع أنها اقتصرت على أدراج مضمون القرار الصادر فيه بعد أن أبدت تعجبها من ذكر قصون المسجون الذي دفن حياً بعد أن مات من أثر الضرب المبرح وأدرج في أكتفائه وأعيد لسجن جقار حيث سمع أنينه راع من الرعاة أخرجه من ملجئه فاستبعدنا هذه القصة كما هو المعقول إذ بعد كل البعد أن لا يموت الملاحود مفدوداً بعد انقضاء أربعة وعشرين ساعة على لحده - وشفعت الحاضرة ذلك الأعلام الذي تلقته من دواوين الحكومة بالأسف على هذا التعطيل ورأته شديداً فقالت ما نصه بالحرف الواحد:

تعطيل جريدة الزهرة

قضت حكومتنا المحمية على رصيفنا محرر جريدة الزهرة الغراء بتعطيل جريدته تعطيلاً مستمراً وأصدرت قرارها رسمياً بذلك نشرته جريدة الرائد التونسي يوم السبت الفلراط وما كان ذلك إلا لما نشرته من الأخبار الزائفة بإزاء نظام السجون حيث لم يثبت لدى الحكومة ما نسبته جريدة الزهرة لحراس جبل جقار من أعمال التوحش والتعدي على مساجين المكان كما أشرنا لذلك في عددنا الفارط ونحن نرى أن هذا العقاب شديد بالنسبة للهفوة وإن شئت الخطيئة التي ارتكبتها رصيفنا المومي إليه ولعل الباعث على ذلك هو تنبيه أصحاب الجرائد الأخرى لما يجب عليهم من الاعتدال واتباع طريق

الحق فيما ينشرونه ويذيعونه بين العامة حتى لا يضلوا أفهام الناس بالباطل وأيضاً لمراعاة جانب الحكومة التي مننت عليهم بإسقاط الضمان المالي فلا يطعنون في جانبها بالباطل ويلصقوا بها وصمة الظلم حال كونها تعامل الناس بالحسنى والمعروف وتبذل ما في وسعها من الاستطاعة لما فيه خير البلاد ومن ذلك صنيعها لجبل جقار الذي كان القصد من أحداثه أحياء مواته وإقامة العمارات والمغارس والمزارع بأراضيها الفسيحة وهي أعمال تعود بالفائدة حتى على المساجين أنفسهم حيث كانوا مجبورين هناك على تعلم الصنائع اليدوية والفلاحية خصوصاً مع التمتع بأرباح مالية منحتها عدالة الحكومة إياهم فكان طعن الزهرة بإدارة أحراش جبل جقار هدماً لأصل المشروع نفسه حيث كان مؤداه جعل النتيجة منه سلبية عوض أن تكون إيجابية كما هو الواقع ونحن نأسف لفقدان جريدة الزهرة ولكن ليسكن أمرها عبرة لإخواننا الصحافيين يدعواهم للاقتداء بصنيعنا من اتباع خطة الاعتدال في كل ما يكتبون وينشرون لا على معنى إخفاء الحقائق أو الخوف من زيد أو عمرو ولكن لكون خير الأمور أوسطها .

ومنه أن الحاضرة لم تتشف في رصيفتها الزهرة التي استاءت من نوع التعطيل بالمستمر فناقشت في العبارة حيث قالت هذه أول مرة عطلت فيها الزهرة بحكم إداري لمدة غير معينة (لا تعطيلاً مستمراً كما زعم من يهمل ذلك) ومن تمعن في مدلولات هذه الألفاظ علم أن الخلاف بين التعبيرين لفظي . أما كون الزهرة تعطلت في هذه الديار بحكم إداري فليس من الغرابة في شيء فقد تعطل من قبلها من هو أعرق منها في الصحافة ولكن العجب من حمل عقيرتها وتجاهرها بالبغضاء على الحاضرة ورميها بصفاءها بالشماتة كأنها كانت ضيقت عليهم رحب القضاء وتعريضها بمن شرح عبارتها لمجلس الوزراء ودسها الدسائس التي لا تروج لجريدتنا هذه بالاعتراض على أرباب الحل والعقد لتعطيلهم الزهرة بسبب جبل جقار وتغاضيتهم عن الحاضرة لنقلها وقابع بلاد الكونغو وما كشفه أنصار الإنسانية من أنواع التعذيب الشنيع والتمثيل الفظيع ببعض أهالي تلك الديار السودانية .

جريدة الزهرة

نهضة أدبية

رعى الله السادة أبناء الوطن قد رأينا من نهضتهم الأدبية ما ينشرح له الصدر إذا ما بزغت الزهرة حتى اقتنوها باليدين ولم تكن غير ساعة إلا ونفدت وعز وجدها مع كثرة ما طبع منها وأقبل على إدارتها وفود من المشاركين لها والمادحين الذين تكمروا بزيارة مديرها وتفضلوا بالاعراب عن احساساتهم الشريفة نحوه وأعقب ذلك ورود التحريرات الرائقة مما جادت به قرائح ذوى الأفكار النيرة والأقلام الساحرة منها قصيدة فائقة من صوغ أفكار الأديب اللوذعى والأريب الألمعى السيد صالح سويسى الشاعر القيروانى ونصها :

أعز نفس لها الألبصار قد شخصت
وأفضل الناس فى الدنيا وأمجدهم
إني عجبت وأيم الله من رجل
فإن رأيت من الأقوام منقصة
فاعلم بأنهم عن دينهم غفلوا
أترك النصيح فى الدنيا لأمتنا
فكم رأينا رجالا للورى نصحوا
فالنصح أحسن شئ أنت باذله
وهذب القوم صاح إنهم تلفوا
أوراق نفع تجوب الأرض قاطبة
لا سيما من غدت للوطن خادمة
لا غرو أن خفيت عنا بطاعتها

من فى الحياة لنفع الجنس قد خدمت
من يحيى أمته بالرشد إن عدمت
يحيا وأمته بالجهل قد قتلت
أو أمة فى مضيض النذل قد سقطت
والسن الوعظ عن إرشادهم خرس
وكل نفس إلى الإرشاد قد خلقت
ومن مزايهم المسكونة ابتهجت
فاستعمل النصيح أن الصحف قد نشرت
إن الجرائد للتهذيب قد جعلت
جواله لسبيل الخير قد سلكت
جريدة الصدق من عناقه احتجبت
إن المقادير تخفى كلما حكمت

وحيث كان لها في الوطن محمّدة
فقد تجلّت كمثّل الخود بارزة
فنعم الفكر بالارشاد يا أملي
صحيفة حرة تبغى العلاء إلى
فعضدوها أهيل القطر أجمعكم
وغير خاف على أنظار حضر تكم
فالله يجعل للخيرات وجهتها
وان ينل أمة الإسلام قاطبة

وحسن ذكر به بين الملا عرفت
من خدر عفتها كالشمس مذبذغت
فهذه (الزهرة) الغراء قد ظهرت
أهل البلاد ومن بالغيرة اشتهرت
فانها بلسان الحق قد نطقت
بما لها من رشاد قبل ما خفيت
ويلهم الناس للإرشاد ما بقيت
من كل خير به الأنفاس قد ختمت

(صالح سويسى)

مجلة السعادة العظمى

نشكر لحضرة الفاضل البارع الأكتب السيد على بوشوشة مدير جريدة
الحاضرة الغراء بما أبداه من الابتهاج والتنويه بشأن هاته المجلة قبل صدورها
وبعده ونعما تلك الملاحظة التي محض بها نصحننا وهي اعتمادنا دائماً على الأقوال
الراجعة في كل المسائل الدينية .

ولقد انطبق خالص هاته النصيحة ورب السكبة على ما انطوى عليه الفؤاد
واستقر عليه صحيح الاعتقاد .

أثر ما تجلت هذه العجالة للعيان تلقيننا من نحو جماعة من الفضلاء الكرام
عدة مراسلات طالحة بما يرشح لنا وقوعها موقع القبول والاستحسان فأردنا
نشرها على حسب ورودها وفاء بعهد الأدب .

ومنها ما حرره العلامة المحقق صفوة الخيرة الشيخ السيد محمد الطاهر بن
عاشور أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم .

إلى العلامة التحرير صديق السيد منشى مجلة السعادة العظمى ، أيده الله
على سلام وتحيية وإجلال كما يليق بذى قلم سعى بصريه في تقويم الأمة
وتأييد شرعة الحق واطلع لأهل لغتنا العربية شمساً طالما حججها دونهم سحاب
مركوم ، وأعقب نهارها ليل هطل سماءه أفول البدر وأدبار النجوم ، أما بعد
ما سكنت هواجسى ولا اختلف إدراكى بأن كنه حياة الأمم ونفثة روح
استفاقها من سنة الجهالة وفساد الاخلاق ليس غير بث الفضيلة وإيقاف
العيون إلى الواجبات والحاجات الأولية بعد حيرتها في ظلمات الشبهات التي
غشبت أبصارها وخيلت لها جميع ما يحيط بمركزها مهاوى تتوقع السقوط
إلى قعرها فلا ريبه أنها إن أشرقت عليها أنوار التيقن أضاءت لها الأرجاء
فتقدمت نحو غايتها بخطا واسعة فما وصلها إليها بعد بعزير .

أما إن ذهبت أفكر كيف يكون إيصال هذا المعنى إلى أمة كاملة وأى لسان يسمعها إن ناداها وهى تملأ من الكون فضاء رحباً ، وتختلف فى الشرب الخلاف الذى صير جمعها صعباً ، فإنى لا أجد خليقاً بذلك غير اسانين لسان التعليم (وانه للسان حكيم) لكنه يشتمل على عقيدة ربما لا تجعله نافعا فى ذكرى الذاهلين ، وعظة إلى المسرفين ، ولسان النشرات العلمية التهذيبية تموج صدى صوته تجاوزيف حروف الطبع فيخترق آذاناً طالما تصامت عن عظة الواعظين ، ويبلغ إلى قلوب غرق بها منام الحالمين ، فلا تسلم بعد عنها وقد أشرقت عليها أنوار المعارف كيف تنهض إلى سماء حقائق الأشياء فتصافح أفلاكها فإن عجزت عن إدارتها لا تعدم تقدر حرركاتها .

ثم ما زلت راجياً أن أرى منا ناهضاً يحى لهاته الأمة فخاراً ، ويقول لأهلها أمكثوا إني آنست ناراً ، فهذا رجائي قد أسفر عن مجلتكم العظمى وعسى أن يقارنها من تعصيد الموارد ما تحقق به الآمال ، وسيكون إن شاء الله من اسمها للأمة أصدق قال لكنك ستجد فى صنيعك هذا السنأ شاجرة وصدوراً ثائرة . وعلوياً متغامزة كما وجد الناهضون من قبلك فإن استطعت أن لا تزيدك أراجيفهم إلا معرفة بكبر نفسك وتصميماً على غاية فكرك ولهوأ عن قولهم فإنهم حاسدون ، ويأساً من نصرتهم فأولئك هم الخاذلون . ولتكن استعانتك وتوكلك على من كفل الهداية إلى الصراط المستقيم فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم وإليك تحية صديق مخلص ونصير موازر .

ومنها ما سبك نظامه الفاضل العالم الماجد الشيخ السيد محمد الحشائشى الشريف متفقد الخزائن الكتيب بالجامع الأعظم ونصه :

تشرفت باستطلاع فكركم الأسمى
تطوقت الأعناق من سمط نظمته
وقد شنف الأسماع مناو قد غدى
إليك أبا عبد الإله محمداً
وما ذاك إلا الدر ترسمه رسماً
فأكرم به ذخراً وأعظم به علماً
يزيل عن الأبواب من نوره الوسماً
شهادة عبد قاصر صاغها نظماً

بجلتكم روض من العلم يانع
وماذا أقول في مجلة فاضل
وقد خلصت من كل بدعة زايغ
ومن لم يشارك في السعادة قاصر
سترقى بفضل الله أغصانه النجما
حوت صنوف العلم مانور الفهما
فحقا بأن تدعى سعادتنا العظمى
على نيلها فاسعد ودم جهبذا قرما

ومنها ما كتبه البارع الأديب الماجد الشيخ السيد العربي الكبادي أحد
أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم ونصه بعد الديباجة .
وما كان فضلك ليمعنى أن أشكره ولا لينسيني الشيطان أن أذكره لذلك
تحركت مني الأدب صبورة نسجت عليها العناكب وهبت عليها الصبا
والجنايب فقلت :

سعادتكم فينا لقد طلعت شمسا
ولله ما خطت يراعتهك التي
مجلة علم لم تجل في ضلالة
تقول لقاريها مقالة مرشد
قدمتم ودامت للآثام سعادة
فكل لها أضجى مشوقا كما أمسى
برقة ما تبديه تستملك النفسا
ولكن جراحات الضلال بها توى
سنقرئك الحق المبين فلا تنسى
وأيد العدا لا تستطيع لها مسا

محمد بن الأمين الخلصي

حديث مع الرؤية الفرنسية

حدثني أيتها الرؤية عن تاريخك العجيب وكيف بلغت بك الحظوظ وساعدك البخت حتى بلغت هاته المنزلة السامية وعهدى بك وقد انزويت في ديار قومك بعد أن طاف بك نابليون بونبارت داهية الحروب والسياسة وهو يملك فلم يستطع أن يثبتك في شبر من الأرض ولم يقدر على تشيبتك في الديار المصرية أكثر من سنوات قليلة قضيتها وأنت شديدة الارتعاش غير آمنة ولا مطمئنة ورغما عن تديرات نابليون الأكبر في استمالة الشعب الإسلامي بتلفيقه من ألوانك الثلاثة خلعا خلعها على الكبراء والأعيان ليأنسوا بك ويتخذوك شعاراً فما ازدادوا إلا نفرة وجفاء .

وأراك اليوم خافقة على هاته الديار وقد أشرفت على البحر المتوسط من هاته الناحية واخترقت القارة الأفريقية طامحة إلى تكوين مملكة واسعة تمتد في شمالها وأرى في مغامر عيونك نظرة الشوق إلى استيعاب هذا الخط المستقيم حتى لا تترك للعابر في هذا الساحل مسير قدم لا يرى فيه إلا ألوانك الثلاثة تحرسه وتحنيه فأتوسل إليك بشرفك أيتها الرؤية إلا ما شرحت لي سر هذا الاقتدار وأسباب هاته الصولة وبأى وسيلة قدرت على إخضاع هاته الملايين العديدة المشهورين بالأثفة والعزة والذين كانوا لا يدينون بالطاعة إلا لرؤية الهلال تلك الرؤية التي طالما نصروها واستماتوا في سبيل شرفها وأراقوا دماءهم الغالية فداء لحياتها وأجدك قد حملت محل هاته الرؤية المبهجلة عند هؤلاء الأقوام بدون شديد عناء وكبير كلفة كأنهم لما أبصروك نزعوا ما في قلوبهم من غل واطمأنوا برؤيتك غير ناقلين ولا خائفين .

فتبسمت الرؤية المثلثة وقد آنست من لهجتي سداجة خالية من التعصب



والغبط وتوسمت في وجهي حب الاكتشاف عن أسرار ارتفاعها وعلو
مكانها ورسوخ قدمها فتنازلت لنملي على مر أحاديثها ما يشفي غلة بحثي وقالت
أن لم أصل إلى ما وصلت إليه اليوم من السمو إلا بسعي أبنائي واجتهادهم في
جلب المصالح وخدمة الإنسانية خدمة جعلتهم مر موقين بعين الاعتبار من
سائر المستظلمين بظلي والداخلين تحت حمايتي لأنهم إذا دخلوا قرية أصلحوها
وجعلوا أهلها أعز وأرشدوهم إلى المنافع وسلكوا بهم سبل السعادة والرفاهية
وأمدوهم بما في وسعهم من علوم ومعارف ومع ذلك يثنتوهم على أصولهم
وعوائدهم ويحترمون شعائره ولا يمسون جوهر جنسيتهم بسوء ولذلك
تراني محبوبة عند سكان الأقطار الكثيرة الذين يرون من حسن حظهم
دخولهم في كفالاتي التي ذاقوا حلاوة ما يجنون منها من ثمرات نافعة فكذا
كنت أحل في مكان بدون أن أجد مقاومة أو أصداف معاندة لأنني ملأت
العالم بصدى مقاصدي الحسنة التي يحبها كل من سمعها ويودها كل محب لنفسه
وجنسه وأراني قد اقتنعتك بهذا البيان وكفيتك حيرة الاستغراب من رأيك
إياي وأنا واقفة في موقفي هذا على رؤوس هاته الملايين الكثيرة ولكنني
حدثتك بهذا الحديث وأنا مضطربة الفكر شديدة الحسرة لأنني أراك ناحل
الجسم من أثر الجوع مشوه الخلقة من أثر المشقة خلق الثياب من أثر الفقر
فارغ الفؤاد من أثر الجهل وكذب أحسبك لا تجهل ما أقصه عليك وأنت في
هاته الحالة التعيسة وقد قضيت تحت ظلي خمسة وعشرين عاماً خلقتك قد بلغت
في أثنائها مبلغ أبنائي الحقيقيين الذين ما طاوعتهم على التبرع بظلي هذا على
أرضكم هذه إلا بعد أن أخذت عليهم موثقاً غليظاً أن يسلكوا بكم سبل
الارتقاء ويفتحوا في وجوهكم أبواب الثروة ويهيؤكم لمستقبل سعيد لأنني
لا أَرْضَى أن أخفق على ديار سكانها أشقياء وأولياؤها تعساء وأنني لأفضل
البقاء على طيتي الاسطوانية منكشحة في هاته الأثواب الملونة ولا أنشر على
رؤوس قوم يهددهم الجهل ويؤلمهم الفقر ولا يليق بشرفي أن أحى قوما
تولاهم الذل وبلغت بهم المسكنة إلى درجة أطباق الظلمة على أبصارهم فلا

يهتدون إلى النجاح سبيلاً ولو لم تكن مقاصدي حسنة لما رأيتني أرفرف على
ديار كانت مستنيرة بضوء الهلال وخير لي إذا كانت مقاصدي عكس ما شرحت
لك أن أترككم وهلاككم ولا يعنيني تكامل بدره أم بقي على الضعف والتقهقر.
فقلت لله ما أطيب حديثك أيتها الرؤية الحرة وما أبرد هذا الحديث
الاحساس على كيدي فهل سمعته منك أبنائك وهل علموا بتفكيراتك هاته
الشريفة يوم أقبلوا علينا فقبلناهم فرحين مستبشرين بضيافتهم .

قالت نعم وأنا الشهيدة عليهم يوم رفعوني على أسوار بلادكم وأنتم
تنظرون إلى نظر المستبشر الذي لا يتحفز للمقاومة ولا يرمي ببصره إلى
الانتقام والتغيظ ولذلك كنت هادية الخاطر من شرحة الصدر لعلمي بأن أبنائي
سيفون وعدهم ولا يبخلون عليكم بالارشاد الصحيح والمسالك النافعة وأزيدك
أنى ازددت وثوقاً وارتياحاً لما سمعتهم يؤكدون عهدهم وقد قام فيهم وزير
الخارجية لذلك العهد وهو المسيو سان هيليار قائلاً ماموداه : « مستشهد أعمالنا
في تونس بأننا لا نقول غير الحق وانا لا نفكر في ضم تونس إلى أملاكنا
ولم نمتلكها وحيث كانت الأحوال على ما يرام فستكون وجهتنا مصلحة
البلاد ومصلحة المدن والانسانية معاً » وكثيراً ما سمعتم يصرحون بمثل
هذه التصريحات فازداد إعجاباً وتيهياً وتهب على نسيمات السرور فأتمايل ذات
اليمن وذات الشمال لأنى لا أحب أن يدخل تحت ظلى من في قلبه مثقل حبة
من الجهل أو أسمع من فمه كلمة سخط من الفقر ولو كنت تعلمت وتمتعت بما
يتمتع به أبنائي لأغنيتني عن هذا الحديث الطويل ولقد ساءتني رؤيتك وأنت
في حالة بؤس وشقاء تسترحم حتى القلوب الغضة والطباع الغليظة .

فقلت اعذريني أيتها الرؤية العزيزة واسمحي لي أن أفارقك فإنى لا أريد
أن أكدرك بعد ما علمته من سلامة ضميرك وحسن مقاصدك نحونا وأجدك
تأملت كثيراً من اكتشافك عن حالتى النعيسة التى استنبطت منها قياساً صحيحاً
على حال الأمة التونسية قاطبة المغمورة بحمايتك أيتها الرؤية المحترمة فأذنى لي

بالانصراف من بين يديك عساك تستريحى من منظرى الذى آلمك كثيراً
ومنعك أن تزهو مع الريح الذى أراه يساعذك على الرقص والخفقان .
قلت لها ذلك وهممت بالقيام وقد علتني سحنة الياس وفارت في وجهي
غلو دموية أثارتها تخيلاتى المحزنة وشعورى بأنى أعيش حقيقة في الوقت
الذى يظنوننى أتقلب فى نعم السعادة والرفاهية .

فتأثرت الرؤية من منظرى ودفقت من عينيها دمعتان كبيرتان دفعتهما
تأثيرات الشفقة والحنو على شعورها الرقيق وسكنت أنا من عبرات الحسرة
دموعاً حارة فنظرت إلى وقد أخذت تكفـكف دموعى وتروح على وجهي
بذيلها الأحمر لترد حرارة تذكيها تأثيرات متوالية وبسطت لى من طرف
ذيلها الأبيض ما سترت به كتفى المكشوفة لحر الشمس وقالت :

حيث كنتم فى هذا الدور من الانحطاط فمالي أسمع الموسيقى تصدح فى
شوارعكم وتستمد من أموالكم الضيقة كأنكم استكماتم لوازمكم من الجمعيات
العلمية والتجارية والخيرية فقلت لها وقد غشيت من الخجل ما غشيت أيتها الرؤية
العزيزة إن فى قومي طائفة يعتقدون الترقى بالطبول والمزامير فقالت عجل الله
بشفائهم من مرض هذا الظن وأرشدتهم لما فيه نجاحهم .

فأحذيت أمامها إظهاراً لتشكراتى واكتفيت بفراستها عن أن أصرح
لها تصرّحات أراها من الفضول بعد ما أنست من لهجتها إخلاصاً حقيقياً
ومن حركتها سعياً أكيداً لتحقيق أمانى الشعب التونسى فأشرت لها بتحية
الأوبة فقاطعتنى قائلة إن لسان الجرائد هو أعظم عامل يؤثر على أبنائى فانشروا
على صفحات الجرائد ما شئتم من مطالب عادلة ترمى إلى إصلاح حالكم وتقويم
شؤونكم ولتكونوا ناطقين بكل حرية فإن أبنائى لا ينقمون عليكم هاته
الخطئة فهم من أعز نصرائها وهذه اللون الأحمر الذى تراه شعارى هو صبغة
من دماء أبنائى يوم ثار ثائرهم ينادى بالحرية فلم يهد حتى نالها .
فقلت عفواً أيتها الرؤية الحرة فلو شرحت لك حديث الصحب والجرائد

وأبنت لك قيمتها في أعين أبنائك لازددت أسفاً ذلك لأننا نتكلم بلغتنا العربية وهي لغة لا يفهمونها ولا يعترفون بها إلا قليلاً ولذلك كانت مطالبنا عديمة الأهمية كأننا نصرخ في الفضاء ولقد انتدبنا من بين أبنائك من أبنائه عنا ليتكلم بلساننا وتنطق بلغته فزادنا نكبة على نكباتنا ولا أحب أن أفضحه أمامك أيتها الأم الشفوقة .

فقالَت الرأية وقد ظهرت عليها أمارات الاهتمام اني قد استوعبت جميع مقاصدك رغماً عن عجزك والكنتك ففارقني يومك هذا وارجع إلى بعد حين فاني مرسله اليوم بنصيحة فمناظرة ماذا يفعلون وقد اخترتك سفيرا بيني وبينهم وسأجرك إن شاء الله الرسول الأمين (أمين)

جريدة الصواب — عدد ٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٣٢٣ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٥)

محمد بن الخوجة

وفي سحر يوم الأحد ٢٦ ربيع الثاني الموافق ١٠ في يولية الذي هو يوم السفر الميمون قدم القطار الملوكي وأخذ موقفه بمحطة خير الدين منتظرا وفود الحضرة العلية فأقبلت أبقاها أمة تجر ذيول العز وترفل في حمل السعادة مخوفة بسمو ولي عهدهما الفخيم وكافة آل بيتها الكرام وجناب المولى الوزير الأكبر وجناب صاحب الطابع وجناب شيخ المدينة وجناب عامل الأحواز وبقية الذوات فما امتطت متن القطار حتى اخترق بخاره عباب الفضاء وجد في السير نحو الحاضرة فوصلها في الساعة الرابعة ونصف تماما وإذ ذاك انتظم من رجال الحاشية وعساكر العسة المصونة موكب بهيج سار نحو سراية المملكة حيث كان في استقبال مولانا العلي كافة الضباط والمأمورين والعمال والموظفين من سائر الطبقات بملابس التشريفات الكبرى فخطوا بلثم الراحة الكريمة قياما بواجب الموادعة والطاعة والاخلاص لسيدنا الكريم وفي تلك الأثناء أقبل على الحضرة العلية جناب معتمد السفارة العامة مصحوبا برجال حاشيته بلبوسهم الرسمية وبعد أن قدم جناب المعتمد مراسم احترامه ووداده للحضرة الشامخة انتظم الموكب من السرايا إلى مرسى تونس فركب مولانا العلي عربة الأعياد الكبرى وأجلس على يساره جناب المعتمد الفرنسي وركب أمراء البيت الملوكي ورجال المعية وبقية الذوات في عشرة من العربيات وسار الموكب في أبهة بهجته وجلاله مخترقا صفوف العساكر الفرنسية والتونسية وأفواج الخلائق وقد غص بهم رحب الفضاء مارا على بطحاء القصباء فشارع باب المنارة فشارع باب الجديد فنهج الجزيرة فنهج الصادقية فبطحاء السفارة فميدان البحيرة فشارع البورت وكانت هاته الشوارع قد أخذت منذ البارحة حظها من مظاهر الزينة الفائقة ومجالي الاحتفال الشائقة مزدانة بعدد لا يحصى

من مجموعات الأعلام التونسية والفرنسوية علاه لشأن هذا الحادث الميمون وقيامه بواجب الأكرام لأمير البلاد الذي أسبغ نعمه الضافية على العباد كما أقيمت سرادقات أنيقة وزينة باهرة بأسكلة المرسى الموصلة للباخرة الحربية المعدة للركاب الملوكي موشحة الجوانب بالأقمشة الرفيعة مكلة الأطراف بالاستور المزركشة الموشاة بالطغراء الملكية مفرشة بأنفس البسط والزرابى الشرقية بما كان مجموعه آية في حسن التنسيق والترصيع .

لما كانت الساعة السادسة تماما حل الركاب العالى لدى السرادق الأكبر المواجه للباخرة الحربية (دونوا) المخصصة لركوب سموه من تونس لحلق الوادى فدخله آمنا بين ضججات الهتافات والهيام ونغمات النشيد الوطنى وقعة السلاح وأصوات المدافع مخترقا صفوف الذوات والأعيان من سائر الطبقات العسكرية والمدنية وأرباب المظاهر والحيثيات المتسابقين لبدء شعائر احترامهم وولائهم ومراسم وداعهم للذات الملكية .

ثم تقدم الجنب الملوكي نحو الطائر الميمون وقبل أن يركبه صافح مصالحة المكرام كلا من الذوات الفرنسيين الحاضرين ثم قبل يده الكريمة على معنى تحية الوداع سموه الى البيت الحسينى السنى وسائر الذوات الحاضرين من التونسيين وفى تلك الأثناء كانت أفواج الوافدين على جوانب الرصيف لاهجة بالدعاء للمقام المملوكى وألسنتهم تنادى من أعماق أحشائهم بعجالة (الله ينصر سيدنا) وجوارحهم تختلف فرحا وسرورا لفرط ما داخلهم من الهيام والوجد والاخلاص المبرهن على تعلقهم بأذيال العرش الملوكي الحسينى خلد الله بقاءه .

ولما كان الجنب العالى بمدرج الباخرة هتف كمنذاتها وربانها بضجرات الهتاف والترحاب مكررين لفظة « هورا » الدالة فى عرفهم على الدعاء بالنصر والبقاء فامتطى مولانا الجليل متن تلك الباخرة مصحوبا بجنباب المعتمد الفرنساوى وسمو نجلية الأسعدين وجنباب الوزير الأكبر وبقية رجال الحاشية المعينين للسفر مع سموه الملوكي وهم الذين ذكرنا أسماءهم آنفا ولما

صعدت الحضرة العلية وحملت بالتختوان المزركش المعد لجلوسها رفع العلم
 الملوك الحسيني على أعلى صواري الباخرة وكانت كلها مزدانة بالرايات من
 جميع الملل والنحل وإذ ذاك تجلى حضرة مولانا على الحاضرين مرارا بزيادة
 عنايته مشيرا إليهم بمظاهر التحية والتعطفات السنية وكان الناس كأنما على
 رؤوسهم الطير والمنظر من أبهى ما تراه العيون ولما تحرك الفياض وأقلع من
 مرساه قاصدا مياه حلق الوادي عاد أولئك الجموع وكلهم السنة ناطقة بالدعاء
 لسموه ببلوغ المرام وبقائه ملكا على نهر الأعوام ولما مرت الباخرة دونوا من
 بوغاز حلق الوادي وأمام رأس جبل المنار اجتمع على جوانب ساحليها
 كثير من أهاليهما على اختلاف الملل والنحل وابتهلوا بصوت واحد من أعماق
 صدورهم بخالص الدعاء بمآدل على تعلقهم بأذيال الملك الأرفع والكهف
 الأمنع أمير البلاد ومن أخلص في حبه الحاضر والباد.

الرزامة التونسية سنة ١٣٢٣

محمد النخلى

الشعر العصرى

وردت لنا القصيدة الآتية جادت بها قريحة الفاضل الفقيه الأديب المدرس
الشيخ السيد محمد النخلى القيروانى أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم فى
التذكير بمحامد المدنية الإسلامية وما كان للإسلام من الأيادى البيضاء والقدر
المعالى فى إشراف أنوار العرفان ونشر لواء المعارف العمومية يستنهض بها الهمة والحمية
لسلوك هذه الطريقة المرضية وحيث كتبنا على أنفسنا أدراج هذه التنشيطات
الأدبية فقد نشرناها تباعا لضيق المقام ونصها بلفظها الرايق ومعناه الفائق .
هو المجد فى الإسلام أثله العلم
تعال نباكر روض آثاره التى
وقم نقطف زهرا جنيا منشقا
لعل أناسا يحنحون بحزمهم
فى كتب التاريخ إيقاظ نائم
تكلس فوق الدين كلس ابتداءنا
فأصبح أقوام يقولون ما اشتها
لعمري الهدى أن الهدى هو ديننا
فسل دولتى رومان والفرس ماعرا
يسوقونهم للحكم بالشرعة التى
والا فتدميم بدمعة عادل
على ذا مضى الإسلام يصعد راقيا
فقد جناحيه بشرق ومغرب
دوت من صدئ آثارهم كل بقعة
كذا كان قومي إذ سواهم سواذج

على مقتضى دين به انقشع الوهم
على صحف التاريخ يبدو لها رسم
لنا شق ذى لب يروق له شم
لأحياء ميت قبل أن ينخر العظم
قضى العمر فى نوم يروقه حلم
فلم تنخرق منه الأشعة كي نسما
وغاب حماة الدين فانتشر الوهم
وما بعده إلا الظلال له ركم
بلادهما والحق سيف به القصم
شذا عطرها يحيى الموات له نم
يخاف عذاب الله أن ينقض الحكم
إلى أن غدا من تحت أخمصه النجم
وجازا كمتشاف القوم ما حجز اليم
وأرغم جبار وحق له الرغم
ولا علم إلا الحس لم يتله فهم

بها علموا أن الكمال هو العلم
 يشونه حيث الجهالة والوهم
 وحيث استبد الحكم واحلوا لك الظلم
 بأرض سوانا فاستنضاً الغور والأكم
 وعطل في الأعمال ماشبه القدم
 لها من طباق الأرض يستخرج الفخيم
 ارتنا محال الاعتياد له تم
 إلى نقطة دقت وسيلتها العلم
 يغطي على ماجد أن ضوعف الحزم
 قصاراه واستعداده ماله حسم
 وفيما أناخ الجهل وانتشر النظم
 وأهمل علم في تناوله الفخيم
 تيقنها وهم وظننها رجم
 يجهزه شرع تضيء به الدهم
 جراثيم أسقام يموت بها الجسم
 يقدمها اخواننا نفعا جم
 وبالدين للاصلاح والرشد فأتوا
 على نيل مافيه لعلياه ختم

إلى أن أتاح الله أسباب خلطة
 هم استبضعوا من أرضنا العلم متجرا
 وحيث استرق القوم أرووس شعبهم
 فصارت شمس العلم تطرح نورها
 وأشرق نور الاختراع على الوري
 ووافتهم من عنصر النار خدمة
 وشفعها سر الطبيعة كهربا
 وما زالت الأعلام تبغى تصاعدا
 ويخطر بالأفكار أحداث مبدع
 ألم تدر أن العقل لم ينتهي إلى
 أجمل أنا شرك القوم في النهي
 أضعنا أصول الدين وهو فخارنا
 ولم نحفظ إلا على كل بدعة
 تركنا غذاء أودواء لداينا
 ولم نرتدع عن فعل ما استخلفت به
 فهذي بحمد الله بعض معارف
 فعضوا عليها بالنواجذ صعدا
 ولم أر عيبا مثل نقص بقادر

(جريدة « الحاضرة » ١٨ محرم — ٣٠ أبريل سنة ١٣١٨ و ١٩٠١)

نضارة النخلة - الامام

بلغ هذا الخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأشار عليه بعض الصحابة بالنهوض بنفسه لفارس أن يكون هو قائد الجيش العام فقال : « أفعل ذلك إلا أن يحى رأى هو خير من هذا » ثم عقد مجلس شورى وعرض عليهم الرأى الذى رآه بعض فأجمعوا على أنه يبعث رجلا من كبار الصحابة ويبقى أمير المؤمنين من وراءه يمدد بالامداد فصعد المنبر وبث هذا الرأى وقال : « أيها الناس أنى كنت عازما على الخروج معكم وأن ذوى اليد والرأى منكم صرفوني عن هذا الرأى » ثم استشارهم فيمن ينيط به هذه القيادة فأشاروا بسعد ابن أبى وقاص وكان غائبا فاستحضره وقلده رئاسة الجيش وأوصاه بقوله « ياسعد ابن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يمحو السوء بالسيء ولا يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته . الناس فى دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه » .

تأمل الحكومة الشورية كيف تكون السلطة فيها بيد الأمة وتكون وظيفة الأمير تنفيذ آرائهم وتحقيق رغائبهم . استشار عمر بن الخطاب مجلسه (وهو مجلس الأمة) فى النهوض بنفسه فصرفوه عن هذا الرأى فانصرف ثم استشارهم فى تعيين قائد الجيش فأشاروا بسعد فنفذ رأيهم وبهذا وغيره وهو كثير تعلم أن حكومة الخلفاء الراشدين كانت حكومة شورية بحته لا مجال فيها للاستبداد وتنفيذ شهوات الأفراد ثم تأمل فى خطابه للقائد سعد كيف تجده يأمره بالاعتماد على العمل فقط وأن نسبه خاليا عن العمل لا يغنى عنه من الله شيئا وهو ما كان يمليه الدين ورأى عليه خاتم النبيئين وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كآننا تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا .



مجل الطاهر ابن عاشور

من أكبر الأسباب في تقدم الأمة بعلومها وقبولها لرتبة التنوير وأهليتها للاختراع في معلوماتها أن تشب على احترام الآراء على الوجه الذي وصفنا من قبل وعسى أن نصف من بعد وقد كان للمسلمين من ذلك الحظ الذي لم يكن لغيرهم يومئذ من التسامح والتساهل مع الأفكار شهد بذلك التاريخ وأهله إلا المتعصبين منهم مع ما كان قائما بين أصناف أهل الآراء من التناظر والجدل والكد لا تجد ذلك محفوفا بتعصب ولا اضطهاد كنت ترى الأشعرى بين يدي المعتزلي لا يستنكف عن تلقي فوائده والاعتراف له بحق التعليم وترى السني يتعالم عن القدرى وعن الفيلسوف الشاك قد كان عمرو بن عبيد الزاهد الشهير من خاصة تلاميذ الحسن البصري (رحمهما الله) وهو الذي كان مكلفا بكتابة ما عليه الحسن من التفسير الذي يرد به على القدرية والمعتزلة وما كان يمنع ذلك من المجاهرة باتباعه مذهب المعتزلة ومن التحافة بدروس واصل بن عطاء الغزال الذي قال له الحسن لما كثرت مناقشته داعزلا مجلسا فكان عمرو ابن عبيد يختلف إلى الدرسين جميعا وما كان ذلك يمنع الحسن من تكليفه باملاء تفسيره . حتى استخدم اختلاف الآراء آلة للتشيع السياسي حين آذنت الدولة العربية والجامعة الإسلامية بالانحلال والافتراق الذين تركوا من الآثار ما نحن نتخبط في مصائبه ولأوائه حتى اليوم . وكذلك الحجر على الرأي يكون منذرا بسوء مصير الأمة ودليلا على أنها قد أوجست في نفسها خيفة من خلاف المخالفين . وجدل المجادلين . وذلك يكون قرين أحد أمرين . أما ضعف في الأفكار وقصور عن إقامة الحق وأما قيد لاستعباد الذي إذا خالط نفوس أمة كان سقوطها أسرع من هوى الحجر

الصلد حكى الجاحظ أن النظام دخل على شيخه أبي الهذيل العلاف فقال يا أبا الهذيل . لم فررتم أن يكون الله تعالى جوهرًا خشية أن يكون جسمًا فهل فررتم أن لا يكون جوهرًا مخافة أن يكون عرضًا والجوهر أضعف من العرض فبصق أبو الهذيل في وجهه فقال النظام قبحك الله من شيخ فما أضعف حجتك وكان الخليفة المأمون يقول لأهل نأديه إذا جاروه على كلام دها سألتموني لماذا فان العلم على المناظرة أثبت منه على المهابة . دامت على ذلك الأمة الإسلامية متمتعة باحترام الأفكار جرىء كل واحد على أن يدوح برأيه وجرىء كل مستمع على تقويمه بالحق وأن وقع في خلال ذلك حادثة خلق القرآن وحادثة صغيرة وقعت بالقدس بين الباطنية وأهل السنة إلا أنهما لأسباب عالية وغلط فاحش لا يسع ذكره اليوم . لما استخدمت الآراء للسياسة وشاعت المداهنة بين الناس وضعفت الكبرياء عن الحجة يومئذ ساد اضطهاد الأفكار والضغط عليها كي لا تسود على مخالفتها القاصرين الظاهرين في مظاهر العلماء المحققين . نعتى بالسياسة ما يقرن سياسة الدولة في إتصرفاتها وأغراضها بسياسة الأشخاص المسيطرين في هواهم وربما كان القسم الثاني أشد على الأفكار لكثرة دواعيه ووفرة منتهجيه وأنواع وجهتهم في هذا الغرض . منهم من يفعل ذلك إبقاء على منصبه واستحفاظا على وجاهته لأنه يخال أن كل مخالفة له في الرأي تنذر بشل عرشه وزلزال أركانه والمريض كثير الأوهام . ومنهم الذين يسخط من مخالفة المعتاد ويرى العادة دينًا أو شبه دين يجب أن لا يتلاعب به الشخص . ومنهم الذي يتوهم أن الدين يخالف احترام الآراء وهذا إن شئت أن تجعله فرعًا من سابقه وجدته لك أطوع من نعلك . ومنهم الحاسد العاجز الذي يجب أن يظهر في مظاهر الكمال بكلمات يلفقها ويحس في ذكر ذلك لذة مادام منفردًا بها فان شاع ذلك بين الناس تميز من الغيظ . كنت أعرف رجلاً ينادى بين الناس باسم النقد للحالة والطعن في الأوضاع المعتادة وربما ترقى إلى بعض الشتيمة زمان كان يقول ذلك وحده يحب الشهرة وما يلقاها . ويترصده طريقها وما يقع بمراها . كان يومئذ مستأمرًا بورقات

ينقل منها ما يلاخط به فلما امتدت الأيدي وانبرت العيون إليها واستوى مع غيره في معرفتها انصاع يقبح ذلك الحال . ويرى خلفه ودعاءهم في ضلال . مما يخص بالرعاية والاحترام أفكار المتقدمين الذين وصلوا بنا إلى حيث ابتدأنا من العلم والمدنية عوضا أن نكون في متحركهم الأول نبتدى سيرا بطيئا . كما قال أن الإنسان ابن يومه لا ابن أمسه فهو أيضا ليس بابن لغده فمقدار فضيلة الرجل ومكان شهرته لا ينظر فيه إلى غير يومه الذي كان فيه فلا يغلط لنا كثير من الناس ينتقصون الأقدمين بمستدركات المتأخرين فانما تعرف مقادير الرجال بما أوجدوه لا بما تركوه . ولكن طرق الشهرة لا تختلف وهي قوة الفكر ومرتبة العلم والعمل على تنوير آراء المتعلمين والقارئ في عقل صحيح ونية قويمة ونصح جدير . قد استهوى هذا الغلط الشيخ أبا علي ابن سينا (رحمه الله) حين بالغ في ثنائه على أرسطو حتى قال د أما أفلاطون الإلهي فإن كانت غايته من الحكمة ما وصلنا من علومه فإن بضاعته إذن لمزجاة د وكأنه نسي أنه لو لا أفلاطون بكلماته القليلة ما خول لأرسطو أن يبنى عليها كثيرا لـ كان أرسطو هو أفلاطون وبضاعته الوافرة كانت مزجاة هذا أيها الناشئون على النقد الباحثون عن الحكمة نبراس مبين أقناه بين يديكم ليضيء لكم مستقبلا نيرا وعسى إن اهتديتم بضياءه واحتفظتم عليه من عواصف الأهواء والشبهات أن تحمدوا غبه وتسلكوا به طريق العقلاء فتصبحوا سمراء هم والله يضيء آراءكم بالحكمة .

المجلد الأول (١٦ رمضان المعظم سنة ١٣٢٢)

السعادة العظمى عدد ١٨

يوم ٥ من الشهر الجارى قام بمسامرة في موضوع أصول التقدم والمدنية في الإسلام ، صديقنا العلامة الشهير والدراكة الخبير فريد عصره المفضل سيدى الطاهر بن عاشور المدرس من الطبقة الأولى بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية ولما في تلك المسامرة من الفوائد التي لا تحصى أحببنا إدراجها على صفحات هذه الجريدة تعميماً للفائدة وخدمة للأمة وهذا نصها بلفظها الرايق ومعناها الفايق :

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نستعين . والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين .
أيها السمراء الكرام إن الغرض من مسامرتنا هاته الليلة إجابة مقترح صديقنا السيد رئيس هاته الجمعية من البحث عن أصول التقدم والمدنية في الإسلام وما ينتزع المسلم منها دليلاً يهتدى به إلى مناحى الخير والسعادة وهو كما تعلمون مرام متعاص عن الارتياض للمتهجم عليه من حيث أن الباحث عن علاقة دين بالمدينة لا محيص له عن النظر في أطوار الأمة المنتحلة إياه وتاريخ نهوضها وسقوطها وميزان الحال التي تكون فيها زمان ظهور ذلك الدين . وهذا الطريق مهما كان وعراً فإنه في تاريخ الإسلام أوعر وأجهد للباحث إذ قد سبق للمؤرخين من أهمال العناية باستنتاج الغايات من أسبابها وإهمال التعليل لا سيما في نشأة الدين ما ينوء بهمة المرید للفلسفة العمرانية خصوصاً في مثل هذا الموضوع العملى . اللهم إلا متى كان ذا قريحة وقادة ترمى بسهمها الأفلح شارداً للحقيقة فتصيب شاكلتها وتضىء بنورها الأبلج مهامه الأوهام فتبهرها ولا أكتمكم أنى لست عندهاته الأوصاف وإن حسنت نظر تكلم في حين الاقتراح بيد أنى لأعدم عزيمة ومصابرة يلين أمامها بعض

ما قد كان شديداً فلذا رأيت أن أجعل عمدة في هذا الموضوع روح الإسلام
وحقيقته من الكتاب والسنة مع الاستعانة في ذلك بأراء المحققين من أهل
عصرنا وقواعد الأئمة من سلفنا . وأستمنح منكم أن تصفحوا عما عساكم
أن تروه من تقصير .

أرى أول شيء يفتح لنا باب الحديث هو النظر فيما هو المقصد الذي يسعى
إليه الإسلام لأن الباحث عن حقيقة شيء مضطر للبحث عن مقاصده وآثاره
ليرى هل كانت الآثار جارية على خطة المقصد ولأنه لا يمكننا استقصاء
البحث في جميع ما نشأ عن الإسلام من فروع المدنية وتشخيص مبلغ المسلمين
فيها الذي أهلهم إليه دينهم بل نكل ذلك إلى تاريخ الحضارة الإسلامية
انراهم كيف كانوا لا يخطون إلى شيء إلا بعد الإذن فيه من دينهم وكيف
خطوا خطى واسعة من التقدم والمدنية قد أصبح الكثير من الناس يعد
معشارها اليوم زندقة ومروقا من الدين فعقدة بحثنا الليلة في أسوس الإرتقاء
البشرى أين أقامها الدين الاسلامي وثمراتنا من هذا شيان أولهما فلسفة
عمرانية لهذا الدين المبين وثنائهما تشخيص حقائقه لمن قد يذهل عنها .

جريدة حبيب الأمة (السنة الأولى - عدد ١٢ ربيع الثاني سنة ١١٢٤)

صالح سويسى

يا أهل تونس

يا أهل تونس قومي مالكم غربا
يا أهل تونس قومي استيقظوا فلكم
يا أهل تونس قومي استدركوأر مقا
هيا ادفعوا عنكم دهماء مظلمة
هيا اقلعوا عن معاص طالما فشيت
هيا انصتوا لى فانى ابن موطنكم
هيا املاؤا من علوم العصر حافظه
أسلافكم قد قضوا فى عزهم ولهم
إنى أراكم حيارى لا دليل لكم
انى افكرت لداع فى تأخركم
قد ساد غيركم بالعلم واجتهدوا
يا قومي انتبهوا من نوم غفلتكم
باب العلوم غدا فى القطر مفتحا
جمعية الخلد، تحبو من معارفها
جمعية العلم حلت بين أظهركم
أموا مواردنا فى النصوص لكم
الله يعلم انى كلها ذكرت
بناء قطرى بودى أن أرى لكم
انى امرؤ قد تفانى فى محبتكم

عن موطن العلم أو تعليمكم أدبا
مجد على هامة العلياء قد نصبا
من عزكم قد أراه اليوم منقلبا
سجائب أرعدت ما أرسلت صيبا
تسود الصحف والأوراق والكتبا
لا أشتكى أبدا فى نصحكم تعبنا
فبالعلوم ينال المرء ما طلبنا
ذكر له فى بطون الكتب حسن نبا
ألا ارفعوا عن محيا مجدكم حجبا
فلم أجد غير نبذا العلم لى سيبا
وحصلوا من فنون العصر ما نضبا
وحصلوا ما ما يزيل عنكم الكربا
راح المعارف تحي كل من شربا
« ونية » الصدق فيها أنتجت نجبا
بودها أن تراكم خير من حدا
والنصح فى ديننا من خير ما وهبا
نفسى تأخركم دمعى له انسكبا
شهامة قد تحاكى السبعة الشهبا
فقابلوا صدق نصحى بالذى وجبا
(زفرات الضمير)

(عيبر النعمر وخطاب الضمير)

مالى أراك قد استبشرت بالعيد
 مهلا رويدك أن الخلف أوقعنا
 هل أنت تفرح بالأعياد تقطعها
 أضحت مصالحنا مثل «الضحايا» لها
 فى كل يوم نرى للنائبات يدا
 لا بالحوادث صوت الوعظ يوقظنا
 يا أيها الغافل الزاهى بموسمه
 قد رفرت فوق غصن الروض صادحة
 فلم تكن لحظة إلا وقد وقعت
 قم ردد اللحظ بين الجنس معتبرا
 آه وليس بمجدينا التأوه منذ
 فالحر يغتبط الأموات إن قبروا
 يا هل ترى سنرى عزا نصول به
 هناك نحى بأفراح مواسمنا

وأنت بين الورى فى سوء تنكيد
 فى عظم معضلة حفت بتهديد
 وحالك اليوم لم يقرن بتسديد
 فى كل مجزرة ذبح بتشديد
 أظفارها نشبت فى جسم مفرد
 من نومة لم تزل آلامها تودى
 زهو الطيور إذا غنت على العود
 ردحا ففاجأها الصياد فى البيد
 فى الأرض مخضوبة الأطواق والجيد
 لا تلف غير امرء بالذل مصفود
 حل التالم فى أحشاء مجهود
 لأنه ليس فى الدنيا بمعدود
 قبل انقضا أجل فى الدهر محدود
 وبافتخار نهى القوم بالعيد

(زفرات الضمير)

نجم هالي

أهلام لوصفت

أودع هذه الدنيا وداعا	يمارجه السرور على الفراق
وأكره أن أعود إليها يوما	لأنى قد سئمت من النفاق
فهذى الأرض قد ملئت شرورا	وغير شكلها عدم الوفاق
أما للنجم من ذنب متين	يصادها فتعدم بالمحاق
لنطرح هاته الأحمال عنا	وننجى النفس من ألم الخناق



أرى ملك الكواكب إذ تجلى	بمنظره من السبع الطباقي
فابصر قومنا في سوء حال	تجنبد لهم سيوف الافتراق
فقلت له بمن أعطاك سراً	تكل به البسودور عن اللحاق
أرحنا من حياة الذل يوما	فنحن إلى المنية في اشتياق
فلو تبدو بصولتها إلينا	نقابلها ببشر واعتناق

رواية

الهيفا وسراج الليل

قد ألف صديقنا الفاضل السيد صالح سويسى الشريف القيروانى رواية تحت العنوان أعلاه أدبية انتقادية اجتماعية وقد عهد إلينا بنشرها تبعاً على صفحات المجلة ومن حيث أن الرواية المذكورة أول رواية ألفت بالمملكة التونسية فإن صديقنا المومى إليه يلمس من حملة الأقلام وزعماء الأدب أن ينظروا إليهما بعين الرضا التى هى عن كل عيب كالية وإليك نصها :

نادت بصوت لطيف (يا سراج الليل) فقال لبيك يا أماه قالت تعال اجلس أمامى فأنى نحوها بأدب واحتشام وجلس طبق أمرها على المنصة التى أمامها فافتكرت هنيئة وقالت يا بنى أتدرى لماذا خلقت فقال خلقت لعبادة الخالق وشكره فقالت وما معنى العبادة والشكر فقال نعبدك بالصلوات والأذكار ونشكره بقولى لك الشكر يا الله فقالت وما يتبع هذا فقال لا أدري فقالت قد خفيت عليك يا بنى روح العبادة وهى العظة والاعتبار وتصور عظمة الواحد القهار أما سمعت حكمة واسطة عقد المصلحين ، أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وكذلك الأذكار إذا كانت خالية من الخشية مشوبة بالغفلة فهى كما قال إمام الصوفية الشيخ محي الدين :

بذكر الله تنظّمس القلوب وتنهال المصائب والخطوب
ومرادى الذكر مع الغفلة وعدم الخشية وأما الشكر فهو حقيقة تصريف

الجوارح فيما خلقت لأجله وبالجمله فإنك يا سراج الليل خلقت لتعمل فتجى
لا تهمل فتموت فقال : فيا أماءه إن هاته الأفكار السامية يحتاج الشخص
فيها إلى أستاذ يغوص به في بحارها ويكشف له عن غواصه أسرارها فقالت
الهيفا لهذا دعوتك في هاته الساعة ومرادى أن أرسلك إلى مصر لتلتقط من
بحار أساتذتها الجواهر العلمية كما كان أبوك يغوص لالتقاط الجواهر الحقيقية
وجواهر العلوم أغلى وغواص بحارها أشرف وأعلى وقد عزممت باعائته
تعالى على إرسالك في الأسبوع القابل إلى مصر صحبة الشيخ محمد رشيد الذي
قصد بلادنا في هذا المصيف لأن هذا الأستاذ رجل له غيرة على أبناء
دينه وقد أخبرنى أن بمصر جمعيتين اسلاميتين إحداهما تسمى الجمعية الخيرية
والأخرى شمس الإسلام وأريد أن أوكل الأمر إليه في اختيار إحداهما
إليك لتتربى يا سراج فقال سمعوا طاعة لك يا أماءه لأنى أعتقد أنك ما رضيت
باقتحام مشقة فراقى إلا لأمر خطير يستدعى فلاحى ونجاحى فى الحياة الفانية
وعظيم الثواب واكتساب السعادة فى الحياة الباقية ثم قاما من تلك الروضة
التي ابتهجت بحديثهما أكثر من ابتهاجها بأزهارها وقصدا كلاهما غرفة النوم
فأثر كلام الهيفا فى ابنها سراج الليل بحيث إنه صار فى تلك الليلة وهو مضطجع
على فراش النوم يردد هذه الكلمات متى تسافر يا سراج الليل . يارب ما أطول
الأسبوع على . وهل والدتى تريد إرسالى لمصر بقصد التعاليم . وهل الأستاذ
محمد رشيد الذى قالت عليه لا زال بوطننا . الله يسخر فى السفر . ثم انقلب
على جنبه الأيمن وطبق عينيه ونام .

مجلة خير الدين عدد ٦ رجب سنة ١٣٢٤

جريح الحرب

صاغ بلبل شعراء القيروان الصداح صديقنا الشيخ صالح سويسى تغريداً
 حماسياً يستندى به أكف الكرماء لإعانة الهلال الأحمر ولذلك بادرنال نشره
 تحريكا للهمم وإيقاظاً للشعور قال وهو يصف الجندي في موقف القتال .
 شهم حوى في سبيل الله رضوانا
 بالحزم مرتفع بالعزم من دفع
 أبدى العجائب في الحرب التي شهرت
 طارت له من رصاص الباغي أربعة
 فسأل منه دم بالطهر ممتزج
 فخطب الجنود في الهيجاء مبتسما
 هذا الوسام الذي تصبوا القلوب له
 هيا احمولوني نحو (الهلال) فما
 ولا أبالي إذا ما صرت منجرحا
 ولست أسأل عن أهلى وعن ولدى
 هذا الدواء أتى من معشر شهرى
 أهلا بكم يا كرام المسلمين ويا
 لا تبخلوا في اكتتاب (الهلال) بدا
 إن اليتامى وجرحى الحرب كلهم
 إن كنتم تطلبون الحج فاغتنموا
 هيا بذلوا في علاجى المال واغتنموا

قد خاض من بأسه في الحرب ميدانا
 يحمى بصارمه ديناً وأوطانا
 على بنى وطنه ظلماً وعدوانا
 فصادفت منه أعضاء وجثمانا
 قد فاق من جنسه في العز ألوانا
 لا تجزعوا وثقوا قد كان ما كان
 دع عنك أوسمة صيغت وتيجانا
 أبغى عن الحرب احجاماً وسلوانا
 فإن لى من رضا الرحمن غفرانا
 إذا وجدت بأهل الدين إحسانا
 بين الكرام وأقوى الناس إيماناً
 من قد أشادوا إلى الإسلام أركاناً
 فسوف يصلى بخيل القوم نيراناً
 يدعونا ذلكم سرّاً وإعلاناً
 حياً يثقل فى الأعمال ميزاناً
 كما أعود إلى الهيجاء جذلانا



محمد الخضر حسين

البرائة والحريّة المطلقة

لو سئل الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب أن يشرعوا للناس طرائق تكون لهم أجمل مكان يستشرفون منه على حقيقة العدالة والأخلاق الكاملة وحدودا تلم لهم بحفظ الحقوق الانسانية . تتناولهم اصلاحاتها ما تداولت الأيام وتضم عليهم أضرارها أينما سكنوا اضلت عليهم أنباؤها وعثرت عقولهم في ذيل الحصر وإن اجتمعوا على صعيد واحد وكان بعضهم لبعض ظهيرا .

إن البشر مهما اتسعت مداركهم وسمت أفكارهم لا يمكنهم الا حاطة بمطالب الحياة الاجتماعية والتوصل إلى كل ما يحتاجه الإنسان في وجوده المدني لأن العقل الذي امتازوا به عن سائر الحيوانات وصاروا به معدن العلم ومركز الحكمة غايته معرفة كليات الأشياء دون الاطلاع على جميع جزئياتها فلا يكاد يدرك كل مصلحة ويتصور كل مفسدة مفسدة نحو أن العلم حسن والاعتقاد الحق حسن واستعمال العدالة وملازمة العفة لكنه قد يخفى عليه أن اعتقاد كذا حق وفعل كذا من العدالة وترك كذا من العفة كمثل الفقيه يعلم أحكام الحوادث الكونية وليس له قوة فائقة في إعطاء الوقائع حكمها الواجب لها أو مثل الطبيب يعلم الأدوية وخواصها وليست له مهارة في علاج كل مرض بما يلائمه وهو المسمى بالتطبيق ومن أجل ذلك لم يكتف به الإله جل وعز في إقامة الحجّة على الناس بل عذر أهل الفترات في عدم اهتدائهم فقال تعالى « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وقال « ولو أنا أهل كنههم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » وقال « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

فلا جرم أن السياسة العادلة لا تأخذ منتهى غايتها إلا باستناد أحكامها إلى من أحاط بكل شيء علما ولو أطلعت على التواريخ العتيقة والحديثة ودرستها درسا مدققا لمثلت يقينا وازددت إيمانا مع إيمانك بذلك الحق الذي هو أوضح من محيا النهار ولا يرتاب فيه إلا ذو بصيرة غشيها غبار الغباوة فلم تنعكس أشعة الحقائق في مرآتها.

ذلك التشريع الذي يحمل على المناهج السوية ويتكفل بتحديد الحقوق الفردية والاجتماعية لا يتوغل في مناحيه العميقة ويوضح مآدق من مشاكه الغامضة إلا الدين الذي هو وضع إلهي يسوق الناس باختيارهم إلى الانتظام في أعمالهم الدنيوية والتأهل للزلفى من الله في الحياة الأبدية وإن له عند الرجل العظيم لصولة مرهوبة وسلطنة مقدسة يخر لها صعقا ولا تبغى نفسه الكريمة عن السكون تحتها حوالا لكنه عند هزيل العقل مريض الوسادة عسير الاتباع. نريد بالرجل العظيم من كمال أطلاعه على أحكامه الفرعية وأبعد فيها نظره إلى أن رأى كيف انتفعت من مداركها الأصولية فتوفرت في نفسه الثقة بأن الدين حكم عدل لا يحسن في الخليقة غير آثار تديره. وما هو عريض الوسادة.

عريض الوسادة كل من تميز إلى الفئة التي انتفضت في مستنقع الجهالة أمدا مديدا ثم قاموا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ليتجردوا من أثواب الديانة المحكمة ويستعوضوه بلباس الحرية المطلقة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أن إطلاق التصرف للإنسان يعمل ما شاء وتخليته سبيله يعتقده ما سنج له وعدم ارتباطه في ذلك بالأوضاع الدينية لمفسدة كبرى تعم الأفراد في أشخاصها والأمم في مذاهبهم وأحيانا في وجهاتهم كل يعمل على نفاق داعيته لا رادع من الدين يرد شكيتهم ولا سبيل لسلطة غالبية على كبح جماحهم بتبيين لك أن الحرية المطلقة والهمجية المقلقة إخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر ثم حول نظرك إلى زمن الرسالة وعصر الخلفاء الراشدين فلا تجد سببا امتد بالإسلام في

أطراف الأرض فاستوثق لهم ملك متماسك العرى غير أجرائهم لتلك المبادئ التي أركزها الوحي في عقولهم . قال قائل من الذين يريدون أن ينفذوا من أقطار الشريعة المباركة (ما لبعض شعائهم لا يعقل له معنى) .

قلنا (عدس) لم يجعل الله لأحداث السفاهة على ذوق أسرار شريعته سبيلا . أن تكاليف الشرع على نوعين عبادات وعادات أما قسم العادات وهو ما تقوم به قوانين العمران في هذه الحياة الدنيا فقد توسع الشارع في بيان علمه وحكمه الخاصة صراحة أو رمزا كقوله تعالى ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب . وقوله أنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة الآية وفي الحديث لا يقضى القاضى وهو غضبان وقال القاتل لا يرث إلى غير ذلك وأما ما كان من قبيل العبادات كالصلاة والصوم والحج فالأصل فيه بالنسبة إلى المكلف التعبد وحكمته العامة الانقياد لأوامر الله تعالى وأفراده بالخضوع والتعظيم وقد بين له الشارع علة خاصة لئلا يكن التقرب إلى الله تعالى بما لم يطلعهنا على حكمته أدل على كمال العبودية له والاختلاص في التوجه إليه لأن الآتيان بالقربات التي أدركنا حكمته المناسبة لا يخلو عن شائبة القصد إلى المصالح المترتبة عليها وهو وأن لم يكن محبطا لعملها يهضم شيئا قليلا من خلوصها فان قال غير متشرع لماذا كانت صلاة الظهر أربع ركعات وصلاة المغرب ثلاثا فالقمة فاه بحجر هذه النكتة الحكيمة وإن قاله متشرع قلنا له الله ورسوله أعلم .

مجلة السعادة العظمى عدد ١٧ رمضان ١٣٢١

(مجلة السعادة العظمى)

غرة جمادى الثانى سنة ١٣٢٢

الشعر العصرى

أيعاتب الزمن الذى لا يسعد
مهلا فما هو بالملوم ومن رعى
لو أفرغوا فى وسعته ما جل فى
أرأيت كيف شدت بلا بل سعدة
إذا نفق الأسلاف فى سبيل الهدى
حتى استدار بهياة منضودة
كننا بنى الإسلام أصدق لهجة
عقد التواخي فى الديانة بيننا
ما سام ذو رأى سديد مطلبها
ولنا نفوس لم تنط آمالها
ننضى عزائم كالسيوف صرامة
كننا بدور هداية ما من سنى
وإذا تكامل واستوى بدر بدا
كننا بحور معارف ما من حلى
ما صر صرت أقلامنا فى مهرق
من كل معنى يبهز الألباب أو
ويقوم فينا للخطابة مصقع
كننا جلاء للصذور من القذى
ما صاغت راحتنا دو حاذوى
ومن احتفى بطرافنا السامى الذرى

وينوه فى مهد البطالة هجد
سهم الملاممة نحوه ففسد
عمل لا غدق فيه عيش أرغد
وزهت بهيجته غصون ميد
جهد استطاعتهم ونعم المقصد
وطلاعه أفعال بر تحمد
وأصح عهدا بالوفاء يؤكد
نسبا قرابته أشد وأفيد
إلا غدا بيد المعونة يعضد
إلا بما هو فى المعالى أجد
لكن لو فر طعناها لا تغمد
إلا ومن أنوارها يستوقد
فى أفق طلعتة السنية فرق
إلا ومن أغوارها يتصيد
إلا رأيت الدر فيه ينضد
نسج يقوم له البليغ ويقعد
فترى بنات الفكر كيف تولد
ولو أوّنا بيد السعادة يعقد
إلا وأينع منه غصن أغيد
آوى إلى الحرم الذى لا يضهد

لا يمتري أهل المدن أنهم
فسلوا متى شيتم سراتهم فما
لاخفر في الدنيا بغير مجادة
لكنتنا لم نرع فيها حرمة
أخذت مطيات الهوى تحدوبنا
حتى انزوى من ظلمها الممدودما
أبناء هذا العصر هل من نهضة
هذي الصنائع ذلت أدواتها
وكذاك بذر العلم أخرج شطاه
بهما جرى القوم الذين استضعفوا
أفلا نسير مسير ذي رشد إلى
فلطالما حوت الغنائم جولة
أن المعارف والصنائع عدة

لو لم يسيروا أثرنا لم يصعدوا
من أمة إلا لنا فيها يد
تعنو لها الأهم العظام وتسجد
بذمامها منا الرقاب تقلد
في كل لاغية كساعة نولد
فيه مقام يستطاب ومقعد
تشفى غليلا حره يتصعد
وسبيلها للعالمين ممد
ودنى جناه فما لنا لانحصد
من قبل شوطا في التقدم يبعد
أثار ما قد أسسوه وشيدوا
من رائد النظر الذي لا يحمد
باب الترقى من سواها موصد

آثار الاستبداد

إذا أنشبت الدولة برعاياها مخالب الاستبداد نزلت من شامخ عزها لا محالة وأشرفت على حضيض التلاشي والفناء إذ لا غنى للحكومة عن رجال تستضيء بأرائهم في مشكلاتها وآخرين تشق بكفاهتهم وعدالتهم إذا فوضت إلى عهدتهم بعض مهماتها والأرض التي اندرست فيها أطلال الحرية إنما تأوى الضعفاء والسفلة ولا تنبت العظماء من الرجال إلا في القليل قال صاحب لامية العرب :

ولكن نفسا حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّل
فلا جرم أن تتألف أعضاء الحكومة وأعوانها من أناس يخادعونها ولا
يذلون لها النصيحة في أعمالهم وآخرين مقرنين في اصفاد الجهالة يديرون
أمورها على حد ما تدركه أبصارهم وهذا هو السبب الوحيد لسقوط الأمة
فلا تلبث أن تلتهمها دولة أخرى وتجعلها في قبضة قهرها وذلك جزاء الظالمين
ثم أن الاستبداد مما يطبع نفوس الرعية على الرهبة والجنون ويميت ما في
قوتها من البأس والبسالة .

فمن في كفهم منهم قناة كمن في كفهم منهم خضاب
فإذا اتخذت الدولة منهم حامية أو ألقت منهم كتيبة عجزوا عن سد
ثغورها وشلّت أيديهم من قبل أن يشدوا بعضدها .

وأن أردت مثلا يثبت فؤادك ويؤيد شهادة العيان فاعتبر بما قصه الله
تعالى عن قوم موسى عليه السلام لما أمرهم بالدخول للأرض المقدسة وملكها
كيف قعد بهم الخوف عن الطاعة والامتناع وقالوا أن فيها قومًا جبارين وأنا
لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فمضى جئت تسأل عن الأمر الذي طبع في قلوبهم
الجنون وتطوح بهم في العصيان والمنازعة إلى قولهم (أذهب أنت وربك فقاتلا

أنا هاهنا قاعدون) وجدته خلق الانقياد المتمكن في نفوسهم من يوم كانت
الآقباط ماسكة بنواصيدهم وتذيقهم من سوء الاستعباد عذابا إليهما .

والأمة مفتقرة إلى الكاتب والشاعر والخطيب والاستبداد يعقد ألسنتهم
على مافي طيها من الفصاحة وينفث فيها لكمة وعيا فتلتحق لغتهم بأصوات
الحيوانات ولا يكادون يفقهون قولا .

وإذا أضاءت على الأمة شمس الحرية وضربت بأشعتها في واد اتسعت
آمالهم وكبرت هممهم وتربت في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة
ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم فتتفتح القرائح فهما وترتوى العقول
علما وتأخذ الأنظار فسحة ترمى فيها إلى غايات بعيدة فتصير دوائر الحكومة
مشحونة برجال يعرفون وجوه مصالحها الحقيقية ولا يتحرفون عن طرق
سياستها العادلة

والحرية تؤسس في النفوس مبادئ العزة والشهامة فإذا نظمت الحكومة
منهم جندا استماتوا تحت رأيها مدافعة ولا يرون القتل سبة إذا مارأه الناكسوا
رؤوسهم تحت راية الاستبداد .

ثم أن الحرية تعلم اللسان بيانا وتمد اليراعة بالبراعة فتزدحم الناس على
طريق الأدب الرفيع وتتطور المجامع بفنون الفصاحة وآيات البلاغة هذا
خطيب يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وذلك شاعر يستعين
بأفكاره الخيالية في نصرة الحقيقة ويحرك العواطف ويستنهض الهمم للنشر
الفضيلة وآخر كاتب وعلى صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة .

ولم تكن ينابيع الشعر في عهد الخلفاء الراشدين فاغرة أفواها بفن المديح
والاطراء وإنما ترشح به رشحا وتمسح به مسحا لا يضهد من فضيلة الحرية
فتيلا وما أنفلت وكاؤها وتدفقت بالمدايح المتغالية إلا في الأعصر العريقة
في الاستبداد .

ولما وقر في صدر عمر بن عبد العزيز من تنظيم أمر الخلافة على هباته

الأولى لم يواجه الشعراء بحفاوة وترحاب وقال مالى ومال للشعراء وقال مرة إني
عن الشعر لفي شغل . انتجعه جرير بأبيات فأذن له بانشادها وقال له اتق
الله يا جرير ولا تقل إلا حقا وعندما استوفاهما واصله بشيء من حر ماله
فخرج جرير وهو يقول خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء
وإني عنه لراض ثم أنشد يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا
ومن مآثر الاستعباد ما تتجشأ به اللهم وتسيل به الأقلام من صديد
الكلمات التي يفتضح لك من طلاوتها صدرت من دواخل قلب استشعر ذلة
وتدثر صغارا نحو (مقبل اعتابكم) (المتشرف بخدمتكم) (عبد نعمتكم)
ولا أخال أحدا يصغى إلى قول أحد كبار الشعراء .

وما أنا إلا عبد نعمتك التي نسبت إليها دون أهلي ومعشري
الا ويمثل في مرآة فكرة شخصا ضئيلا يحمل في صدره قلبا يوشك أن
ينوء بما فيه من الطمع والمسكنة .

ومن سوء عاقبة الخضوع في المقال أن يوسم الرجل بلقب وضع ينحته
له الناس من بعض أقوال له أفرغ فيها كتيبة من التذال وبذل الهمة كما سموا
رجلا باسم (عائد الكلب) لقوله .

إني مرضت فلم يعدني واحد منكم ويمرض كلبكم فأعود
ولا نجمل أن بعض من سلك هذا المسلك من التعلق والمديح اتخذها سلما
ليظفر بحق ثابت ولاكنه لا ينافي في الغرض الذي نرمي إليه من أن الحقوق
في دولة الحرية تؤخذ بصفة الاستحقاق وفي دولة الاستبداد لا تطالب إلا
بصفة الاستعطاف ذلك الوزر الذي يحبط بفضل العزة التي نهينا الله عليها
وأرشد من يريد بها إلى أنها تطلب بالطاعة من الكلام الطيب والعمل الصالح
فقال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلام الطيب
والعمل الصالح يرفعه .

مخاضة « الحربة في الاسلام »



تحية الوطن

سوى الخيال	مالي لا ألمح من ذى الجمال
مـلال	هلا يعاطيني كؤوس الوصال
الانصال	فالحب ألقى مهجتي في نضال
عضال	ماذا ترى والهجر فيما يقال

الرضاب	عذب	يا موطني لم أنسى عهد الشباب
الغراب	صاح	وريثما شمر يبغى الدهاب
حساب	بـلا	بنا وخضنا في غمار الصعاب
عتاب	فلا	بينى وبين المجد عهد يهاب

انتساق	بعد	فصمت بي يا بين عقد الرفاق
التلاق	يوم	وقمت تنعى حين شد الوثاق
الفراق	مثل	والوصل عندي في ليالي المحاق
باق	فالود	إن فاتني مرآهم بالحداق

السرور	عهد	حياربا تونس ذات الزهور
البـدور	أنس	وافتر في غرة تلك القصور
حور	ما بين	ما الأنس في أقداح راح تدور
الغيور	نار	إن التي تلمفحنا في الصدور

يا شاطئ	و المرسي	دم في سعود
وكن كما كنت	لعهد الجدود	
يمرح فيك العز	بين الجنود	
فأنت لا تزهو	بتلحين خود	
و نقر	عـود	
رغم	الحسود	
غيل	الأسود	
ضافي	البرود	

يا معهدا	يشمل فيه الكرام
و ابتسمت أزهاره	في نظام
نهضت تحدد	بالنفوس العظام
أقلامك الحرة	ترعى الذمام
ولا	تنام
بلا	مدام
بلا	كمام
إلى	الأمم

يا نسمة	تخطر بين الاقاح
والطلأ أصفى	من دموع الملاح
هي و جرى	في النواد الفساح
وهاتها نفحة أنس	فواح
تشفى	الجراح
ذيل	المراح
فوق	الوشاح
قبل	الصباح

بمصر ١٣٤٢

جريدة التونسي

الكلية العربية

التأمت في هذا الأسبوع لجنة إصلاح التعليم بالجامع الأعظم وأناطت بأحد أعضائها وهو السيد الطاهر بن عاشور تحرير تقرير شاف عن حالة الجامع الراهنة ليعرض على اللجنة .

وهذا الأستاذ الفاضل هو شاب نبيه معروف بحرية مبادئه ومثل للفكرة العصرية في تلك الكلية العتيقة ولنا فيه يقين تام بأنه سيتمكن من القيام بعمل انتقادي محض ويظهر نقائص وهفوات تعليم كانوا يرونه إلى عهد قريب كاملا بسائر جزئياته كالا تماما .

لكن ماعسى أن ينتج عن مناقشات هذه اللجنة ؟

نحن نظن أنه لا ينتج عنها إلا تحويل بعض المنح ترى أنها مضطرة لإعطائها مصانعة للشبان المتتورين من الأساتذة والطلبة نظرا لما كانوا يبدونه من الأميال الإصلاحية وهو ما لا نشك فيه أبدا لأننا نعرف جداً حالة البيئة والوسط الذي نحن فيه وكذلك سياسة دار الباي !

أم هل يمكن تنظيم التعليم بالجامع الأعظم على نمط عصرى ؟

لا سبيل لاعتقاد ذلك لأن جامع الزيتونة هو كما يدل عليه اسمه محل

عبادة وخشوع واتي والعلوم التي تدرس فيه الآن هي علوم دينية محضة ولو لم تكن كذلك لما أجزت دراستها في بيت الله والأساتذة والمدرسون يعتبرون أنفسهم قائمين بواجب مقدس احتسابا لله والاعانة الطفيفة التي تنقدهم أياها إدارة الأوقاف من بيت المال تعد بمثابة مساعدة بسيطة وبناء عليه يمكن أن يقال أن الكلية الزيتونية هي مدرسة خصوصية يتخرج فيها أفراد من الناس يوقفون أنفسهم على الوظائف الخاصة التي يتوقف عليها القيام بالشعائر الدينية ولما كانت هذه المدرسة معهدا حرا ذا إيراد مخصوص فانه يجب تركها وشأنها تحت نظر الرؤساء الدينيين الذين تعهدوا على أنفسهم أن يقوموا بإدارة كافة شؤونها .

أما التعليم العصري العلماني وكذا لوازمه ووسائله فانه لا سبيل لأن يجد له في هذه المدرسة مجالا يركض فيه ولذلك يجب إعطاءه خارج جدرانها المقدسة

عدد ١٢ السنة الأولى

٨ ربيع الثاني سنة ١٣٢٨



أفراح الطلبة الزيتونيين

وبعد أن فرغ خطباء الزيتونيون من تلاوة خطبهم أعطيت نوبة الخطابة لزعماء الشبيبة التونسية فقام وطنينا الكبير السيد عبد الجليل الزاوش وألقى خطبة جليلة نشرناها في غير هذا المكان ثم تلاه السيد عبد الرزاق الغطاس وبعد أن أتم خطابه تلاه السيد الصادق الزمرلي ثم قام الشيخ السيد عبدالعزيز الثعالبي ولما أستوى على منبر الخطابة صفق له الحاضرون تصفيقاً حاداً فأرتجل خطاباً حماسياً تنبعت منه روح الإسلام استهله بقوله : سادتي

هذه أول مرة أقف على مسرح الخطابة في مجتمع تونسي أمثل فيه أكبر جريدة وطنية إسلامية تونسية وهي جريدة التونسي التي أوقفت نفسها للدفاع عن كافة مصالح وحقوق الوطنيين فأشكر لكم أيها الزيتونيون على أبديتهم ونحوها من الرعاية والاعتبار وأحقوق لكم بأنها ستكون لكم أعظم نصير على الدوام والاستمرار .

ثم انتقل الخطيب بعد ذلك إلى نفي القول بوجود الخلف بين خريجي المدارس والزيتونيين فقال ليس بينهما قطيعة ولا جفاء وما يترأى من الفتور لم يكن إلا دليلاً على أن الأمة لم تزل قاصرة ولم تبلغ سن رشدتها .

ثم أنعطف بعد ذلك إلى نقط التعليم في الجامع المعمور وتقاصر الهمم عن طلب العلوم والتوسع في التعليم فذكر أن الباعث على ذلك هو جهل الحكومات الماضية واستبداد العلماء والأمراء بالامر ونزوعهم إلى إهمال شأن التعليم لأن العلم مقوض لأركان الاستبداد وهم دعائه وأنصاره

لم يكن هم أعداء العلم تقويض تعليم العلوم العقلية التي هي قبسة من نور الله وآثار صنعه وحكمته في الوجود بل أنهم زهدوا في كل شيء يسمى علماً حتى العلوم الدينية فانك لا تجد اليوم أثراً في الجامع الأعظم لدروس التفسير

والحديث والمصطلح والكلام والتصوف والأصول مع أنه لا يوجد من
يجعل توقف معرفة الدين على هذه العلوم .

ثم أستطرد بعد ذلك القول إلى الكلام على فهم آيات الذكر الحكيم
وعلى الخصوص قسم الآلاء الذي ذكرت فيه طبائع وأسرار ونواميس
الوجود فأورد بحثاً مهماً في هذا الموضوع نعى فيه على منكري فوائد تحصيل
الفنون الجديدة واستشهد على ذلك بكثير من الآيات المحكمة التي لم تظهر
معانيها لقدماء المفسرين بالنظر لخباء بعض دقائق الكائنات في ذلك العهد
فتأولوها وتأويل ينبوعها القرآن الكريم ولكن لما ارتقت العلوم في هذا العهد
ظهرت أسرار تلك الآيات بعد أن كانت محجوبة عن أذهان كافة العلماء والباحثين
ثم تخلص من ذلك إلى القول بوجوب تعليم جميع العلوم الدينية والعقلية
والآلية لطلاب العلوم الدينية كي يتمكنوا بذلك من التفهم والإمعان في معاني
آي الكتاب المجيد حتى يعود إلى الإسلام عصر شبابه الأول أيام العباسيين
والأندلسيين وتنطلق عقولهم من أسر العبودية والأوهام ولا تقر بعد ذلك
بالعبودية لأحد غير الله خالق الكون العظيم « لا إله إلا هو العزيز الحكيم »
ثم أشار بعد ذلك إلى مناشيء الاستبداد ومنزعه وآثاره في النفوس وقال
عنه أنه لا يجتمع مع الإيمان بالله في قلب أمرىء إلا إذا كان ضعيف اليقين .
ثم قال إذا أراد المسلمون أن يعيدوا ماضي مجدهم ويترجعوا إلى آداب
دينهم المبين يجب عليهم أن يجمعوا في طلبهم بين علوم الدين والدنيا معاً ويسلكوا
في ذلك نسبة أسلافهم الأولين طبق ما يسعى إليه الطلبة الزيتونيون ثم ختم
خطابه بتنشيط الطلبة وحشهم على الجهد في المطالبة بالإصلاح وأكد لهم بأن
« التونسي » لا ينفك عن مساعدتهم في هذا المضمار .

ثم التفت بعد ذلك إلى فريق من فضلاء الشيعية التونسية الذين كانوا
جلوساً حول منبر الخطابة وأشار بيده قائلاً « هذه طائفة من حزب التونسي
جاءت لتؤكد لكم إخلاصها وموازرتها ومكافئتها لكم في السعي للخير
هذا القطر المأنوس .



عبد العزيز الشعالبي

واجباتنا

الرقى نوعان مادي وأدبي وكون الثاني أساساً الأول مما يدعوني
لاختصاصه الآن بالنظر - أرتأى بعض المؤرخين أن أركان النهضة العلمية
الآخيرة في مصر والشام خمسة : ١ - المدارس . ٢ - المطابع . ٣ - والكتب
٤ - والجرائد . ٥ - والجمعيات فلننظر في حالنا مع كل واحد منها على حدة .



١ - المطابع - لا شك أن من أهم وسائل نشر المعارف والآداب
الطباعة حتى عد العلماء اختراع المطبعة من أوائل القرن الخامس عشر فاتحة
عصر جديد للعلم والمدنية - فهل تملك الوسيلة متوفرة لدينا ؟ كلا . فإنه ليس
لنا إلا ثلاث مطابع عربية . الرسمية ولا تشتغل بأكثر من مطبوعات
الحكومة غالباً - التونسية ومعظم خدماتها في المطبوعات الإدارية - فلم
يبق إلا المطبعة الأهلية وهي لا تفي بحاجة قرية ناهضة فكيف بحاجة شعب
يناهز المليونين - ومن العار المخجل أن توجد بصفاقس مطبعة فرنسية
ولا يكون الأهالي مطبعة عربية حتى يضطر صحافيهم لطبع صحيفته الصفاقسية
بالعاصمة وكذا وقع لصحيفة القيروان .

ومن هنا كنا ولا نزال عالمة على الشرق في كتبنا الدراسية وغيرها بل أن
بعض مواطنينا طبع هنالك ما تعلقته همته بنشره - ومرة بنا فترة أثناء الحرب
الآخيرة أنقطعت فيها واردات الشرق فكنا نتذمر من فقد الناقد وغلام



لموجود - ولما قطعت الصحافة العربية عقبة الحجر في مارس السالف وجدت أمامها عقبة الطبع فلم تبرز جرائد قرر تأسيسها وتأخرت أخرى عن ميعة البروز - ولولا المطبعة الأهلية ما أشرقت علينا شمس الصواب ولا الوزير ولا المنبر وكنا نندب حظنا من المطابع بدل أن نندبه من الحرية الصحافية.

نعم قد تأسست اليوم بهمة بعض الوطنيين الحازمين مطبعة كبرى تحت اسم النهضة ومرادها أن تصدر صحيفة يومية عربية عظمى وتتوسع في الطبع باللغتين العربية والفرنسية - وستكون فائدتها الوطنية بقدر أقبالنا على اشتراء أسهمها .

إن هذه الوسيلة العلمية لا يكلفنا إنشاءؤها بذلاً خيراً كما قد يكلفنا غيرها من بقية الوسائل فمن العجب أن لا نقبل على إنشاء الشركات فيها إنشاءها لها في غيرها فنستفيد مالياً وعلمياً حيث نباشر بها طبع ما نحتاجه من الكتب القومية والأجنبية .

* * *

قد آن لنا أن نفقه مركزنا من المجتمع البشرى العظيم ونخضع عنار داء الخمول والتواكل ونستبدل الأنفاق على الخرق والقبور واللاهو والفجور بالتبرع على تنشيط العلم والرحمة بالإنسانية - وإليك هذين المثالين العظيمين من أعمال الأمم المتعدنة .

١ - توفي الدكتور نوبل بيسكويت عن ثروة طائلة أوصى بها لمن يأتي بأفنى عمل للجنس البشرى ووزعها كما ترى . أهم اكتشاف أو اختراع في ميدان العلوم الطبيعية . أهم اكتشاف أو تحسين في علم الكيمياء . أهم اكتشاف في الطب . أعظم مؤلف أدبي تصويري .

٢ - وأنشأ يوسف فردى الموسيقى الإيطالى الشهير (١٩٠١) مستشفى بفيلا نوفا وأوصى له بعشرين ألف فرنك سنوياً وبمثأها للملجأ للأطفال و ٣٠ ألفاً



لملجأ أصحاب العاهات وأنشأ ملجأ قرب ميلان للمسيقيين المهوزين الذين يتجاوز سنهم ٦٥ سنة وهو يسع ستين رجلا وأربعين امرأة .

أما مؤلفاتنا فقليلة حقيرة كأننا لم نتأهل للتأليف في شيء - يموت العالم منا فيكتب في ترجمته إنه ترك كذا وكذا من المؤلفات ثم لا نرى لها أثراً بعد ذلك إلا تبجح ذويه بها وكان الزمان الذي لا يحى معه إلا الصحيح قضى عليها بالموت الأبدى وأراحنا من سخافاتنا ومن المحقق أن أكثرها تعاليق وحواش بعضها غير تام والناس ينسبون عدم تمثيلها للطبع ونشرها بين الناس إلى خوف أصحابها من انتقادها وهذا من الخور الذي أنزهم عنه فإن الانتقاد ينتاب سائر التأليف بل المهم منها وهو السبيل الحق لتحريرها وإظهار مزياتها حتى أن علماء الغرب يعدون من علامات سقوط التأليف عدم اهتمام الكتاب بنقده .

إن الشرقيين مشوا شوطاً بعيداً في الأخذ بأسباب الرقي والمدنية يجعلهم أهلاً لأن نقى أثرهم وتتبع خطاهم - وعلماء العربية منهم إذا راموا التأليف تخيروا لهم موضوعاً عالياً حسب استعدادهم العلمى والفطرى وخاضوا ما نلهمه أيديهم من المؤلفات فيه ثم جاءوا لنا بما شاء الذوق والتحرير والحسن فى الأدب أو اللغة أو الأخلاق أو التاريخ أو الحساب أو غيرها (وذلك ما جعل الأروبيين يهتمون بنقل كثير منها إلى لغاتهم) وإن حشوا كانت حواشيهما غالباً فصلاً فى المقام المحتاج إليها - ورجال اللغات الأجنبية منهم يقومون بترجمة الكتب إلى لغتهم فى الفنون والآداب على اختلافها كما كان يفعل أمثالهم على عهد الرشيد والمأمون عندما أراد المسلمون نقل المدنية اليونانية والفارسية وغـيرهما إلى لغتهم - فما بال المتضلعين منا باللغتين لا يقومون بتلك الخدمة الجليلة لمنفعه أبنائهم وأخوانهم ولو فى مقدار وجيز فى تأدية واجبه المقدس على أننا إذا أحصنا اختيار الكتب التى نترجمها : يقتصر أنتشارها على المملكة التونسية .

٤ - الجرائد - مكثنا نحو ثمان سنوات لا نذكرها اليوم إلا بالسوء
واللعنة وبالعالم نيف وأربعون ألف صحيفة لنا منها واحدة - ولما تحصلنا على حق
ظهور صحافتنا على مسرح الوجود رأينا أننا تحصلنا على شيء عظيم طالما أننا لافراقه
وتطلعنا لاشراقه يجب علينا أن نستخدمه باقبالنا وأموالنا ونحتفظ على حياته
بكل قوانا لأن الصحف أفضل الوسائل المساعدة على حفظ اللغة ونشرها
وخير ذريعة لتوثيق عرى الألفة بين الناطقين بالضاد والمترجم الصادق عن
أحاساس الأمة ورغائبها وقد رأينا بحمد الله شيئاً مهماً من ذلك الإقبال إلا
أننا رأينا ضعف الإحساس بأنهم مثل الصواب والوزير والمنبر فيردونها
على إدارة البريد ذاكرين إذا أنتقدتهم أعذاراً واهية وأوهاما سخيفة
ولو تدبروا قليلاً لعلوا أنهم يخدمون بمعلوم أشتراكهم الزهيد لغتهم ووطنهم
وقوميتهم وأبنائهم وأن تلك الصحيفة لم تمحض بأيديهم الكريمة إلا بعد تكبد
وطنيهم المخلص لمر الاتعاب وثقل النفقات ولا يقنوا أن لا سبيل لذلك
الرد الشنيع . وهناك من يؤلم عملهم أكثر من هؤلاء وهم أناس يقبلون
الجرائد على عزم أن لا يخلصوا في معلوم الاشتراك أبدا .

فهل مع هذا يمكننا أن نطالب صحافينا بتوسيع نطاق صحفهم بطرق
المواضيع الهامة التي تهمهم إلى الوقت والتنقيب أو ترجمة الفصول العظيمة
أو نشر أكثر ما يمكن من الأخبار العمومية أو تصييرها يومية أو نصف
أسبوعية من كل ما يستدعي نفقات طائلة .

ومع ذلك كله لا نعد أنفسنا قد استكملنا تلك الوسيلة العظيمة حتى نستوفي
لها هذين الشرطين : حريتها أمام الإدارة العامة إلا فيما يؤاخذها عليه قانونها
العادل ووجود عدد منها بقدر حاجة البلاد يصدر يوميا على نمط الأهرام
ووادى النيل والأخبار بمصر .

* * *

النتيجة : إننا لم نخط إلا خطى ضيقة نحو تحقيق تلك الأركان الخمسة

للنهضة وإن الشيء الذي نند به ويتوقف عليه كامل مستقبلنا هو وفهم كل واحد منا واجباته بصفته فرداً من الأمة بحيث يتحتم عليه أن لتلك الواجبات قسطاً من استعداده وماله ووقته أى كل قواه وونهوضه لأداء تلك الواجبات بمنتهى الإخلاص .

وذلك شيء لا نتحصل عليه إلا بهاتين الوسيلتين العظيمتين: التربية الصحيحة والتعليم العام . فلننشر إذا دعوة التربية والتعليم ولنجر وراء وسائلهما الخمسة بملء خطانا . وكل سعادة تأتى نتيجة طبيعية لهما ولا شك إننا لا نقدر أن نخدم تلك الوسائل خدمة منتجة إلا إذا أحرزنا حرية الصحافة والإجتماع والتعليم والخطابة وهى لا يضمنها إلا الدستور الذى يحرسه نواب الأمة المنتخبون منها .

تلك مواضيع طويلة أجمالناها إجمالاً وعسى أن نتمكن من أفراد كل واحد منها بمقال خاص ويسرنا جداً أن نرى الصحافيين والكتاب يخصصونها بالبحث والإرشاد فانها منا بمنزلة الماء من الحياة والله الهادى إلى سبيل الرشاد .

مجلة «الفجر» المجلد الأول الجزء الرابع

ساحة

أنصرف الرأي العام التونسي في هذه السنة أكثر من بقية السنين إلى تتبع المناقشات التي تدور في قسمة الجمعية الشورية بعناية وأهتمام ليقف من وراء ذلك على المقاصد والغايات التي ترمى إليها الحكومة في سياستها الحالية الجديدة وما يبيده النواب الشوريون من الفريقين من الملاحظات والآراء في الموازنة بين الإيرادات والمصروفات .

وقد حدا به إلى هذا الاهتمام شعوره بضرورة المراقبة على تصرفات الحكومة التي تستمد مواردها مما يتجمد من عرق الشعب الوطني وهو أضعف عنصر في هذه البلاد وإن كان أكثرها عددا لأن الجاليات الأروبية لها من الضمانات والكفالات القوية ما لم تخوله السياسة الوطنية .

فالأوروبيون الذين يفدون على هذه البلاد قد خولتهم المعاهدات أن يتمتعوا بكافة امتيازات الإعفاء التي يتمتع بها المحتلون وهؤلاء من الضمانات ما يجعلهم في مأمن من الإرهاق بالأتاوات .

لهم حرية القول والانتقاد لهم حرية الكتابة والنشر لهم حرية الاجتماع وتشكيل الأحزاب لهم حرية الانتخاب فهم لا يبعثون إلى الجمعيات الانتخابية إلا الذي يوثق بمعارفه وحسن دفاعه .

أما التونسيون فليس لهم شيء من ذلك الحكومة هي التي تختار من تنبيه عنهم وهذا النائب لا يكون في الغالب إلا ممثلا للحكومة لا للشعب وهل نحتاج



في ذلك لإقامة دليل ؟ وهذه مدارلات قسمي الجمعية الشورية هي اعظم دليل محسوس على وجود ذلك الفرق الجسيم .

فان النائب الفر نساوى لا يأتى عليه ميعاد انعقاد الجمعية الشورية حتى يتشبع بأراء الفريق النائب عنه ويتزود بكل ما يعتازه من المطالب والإقتراحات ومتى حضر الاجتماع فإنه يكون فيه كصدى يردد أصوات منتخبيه .

أما المندوب التونسي فهو بعكس ذلك بل ربما كان لا يشعر بمسؤولية لأحد عليه سوى مسؤولية الحكومة التي أعتمدته وإذا وجد من يشذ عن القياس فذلك من الصدف التي لا تتفق في كل حين .

والخلاصة أن للأنتخاب اعتبارات خصوصية أقلها أرضاء آميال المنتخبين والمبعوث التونسي إذا لم يكن منتخبا لا يمكنه أبدا أن يسعى في إرضاء مواطنيه .

رب قائل يقول أى فائدة لنا في الانتخابات مادام رأى الجمعية استشارى لا دخل له في التشريع والحكومة حرة في قبوله أو رفضه .

نعم أن الأمر كذلك ولكن لا يمكن للحكومة أن ترفض كل رأى تبديه الهيآت الشورية وخصوصا إذا كان مبنيا على أصول منطقية فانها تضطر لا محالة إلى قبوله وإلا حقت عليه كلمة الأمة هذا من جهة وأما من جهة أخرى فإن الانتخاب لا يترشح له إلا الكفاء القادرون على إجادة العمل ويدركون مصالح البلاد وحياتها وهو لا يثبطهم البطر ولا يسكنهم العجز من عرض آلام ومطالب الأمة كما هو حال أغلب أعضاء هيئة شوراها الآن .

فإذا كانت الحكومة تود حقيقة ان تسعى لإزالة القلق الذي بدأ في البلاد وقطع حركة الهجرة فما عليها إلا أن توسع في حرية التونسيين السياسية وتمنحهم حقوق الانتخاب وتدرجهم على أساليب الحكم الذاتي حتى يقتسموا معها مسؤولية إدارة البلاد .

ولا يعترض علينا في ذلك بكون الشعب لم يتهيأ للحصول على هذه الحقوق

السياسية لأن حق الانتخاب لا ينبغي إلا على أسس تحقيق الحالة المدنية وهي لم يتسنن إلى الآن تعميمها في كافة أنحاء القطر لأنه أعترض غير صحيح وذلك لأن المحركين ومشايخ الأرباط والنواحي لهم دراية تامة بمعرفة الأفراد المقيمين في الجهات التي لنظرهم وهذه الدراية يمكن أن تقوم إلى حين مقام الحالة المدنية بحيث يقيم للحكومة أن تعتمد على إرشاداتهم في مسائل الانتخاب كما تعتمد عليهم في الاستعراف عن الناس لأن المثال في الاثنتين واحد وهو التعريف بالشخصية ! .

أما الصورة التي يقع بها الانتخاب فرأينا أن الجهات التي تقررت فيها الحالة المدنية كبعض المدن الكبرى يعطى لها حق انتخاب الدرجة الأولى والجهات التي لم تعمم فيها الحالة المذكورة تعطى حق انتخاب الدرجة الثانية ولا يشترط في المنتخب أدنى شرط غير السن وحسن السوابق ومبادئ العلم حتى يمكننا بذلك أن نحرر على هيئة شورى منتخبة من أحرار الأمة وأعيان عقلائها وهذا أكبر عمل يخلد أجمل مفخرة للحماية في تاريخ هذه البلاد .

محمد مناشو

الحرب الطرابلسية والعالم الإسلامي

لقد برح الخفاء وظهر الصبح لدى عيني وتجلت مقاصد أوربا العدوانية بآتم الظهور فلم يبق للعثمانيين بعد اليوم عذر إذا أحسنوا الظن في موقف مستقبل أو استنجدوا بها لكشف مظلمة أو سألوها رعاية عهد . فانها قد ملئت المراوغة وانتحال الأسباب لاقتطاع أملاك الدولة العلية وأخرجها تحريزها من أسباب التداخل التي ألفوها فطال عليهم أمد تقسيمها الذي هو مقصدهم الوحيد . فأرادت إيطاليا أن تسير لأوربا قاعدة جديدة تسعى بمقتضاها لمقصدتها إذا سدت أبواب الاحتلال . ومن العجب أنهم مع بساطتها لم تهتد إليها إلا إيطاليا فهي مختصرة في جملة وجيزة لا تكلف عناء وهي :
(قم لأجلس) :

بتلك القاعدة مدت إيطاليا يد الاتم لولاية طرابلس الغرب وسلت سيف البغي والعدوان على رؤوس العثمانيين . ويكفي أن تسير أوربا على مقتضى هذه القاعدة شوطا ليس بالطويل فتصل إلى ما تقصده من نحو آية رؤية الهلال . ولكن شلت إيمان أولئك الطامعين فسيقفون دون ما يرغبون وقفة من أحاط به اللبيب .

ولقد أبان وقوفهم تجاه هذه المسألة موقف الرضى والتسليم بجانب إيطاليا خاذلين للدولة العثمانية وإن لهم إرادة راسخة في إتمام ما شرعت بإنجازه تلك الدولة الباغية وعسى أن يكون ذلك درساً كافياً للعثمانيين حتى يتحققوا ما تحققه سائر المسلمين من أوربا التي لا تعرف ذمة ولا ترعى عهداً ولا تنصير مظلوم . فقد اغترت الدولة العثمانية كثيراً بما تزوقه أوربا من جميل القول

وما تلتجئه لنفسها من حب السلم والعدالة وكرهه سفك الدماء والتجري على المستضعفين . وتلك أفضية عرف الكثير كذبتها وإن تأخر عن معرفتها العثمانيون على أنهم أولى الناس بالسبق لإدراكها لأن مواقف الغدر بهم قد أعتت العادين .

فإن أوربا التي تسعى سعياً إجماعياً لاضمحلال المملكة العثمانية مدفوعة بعامل الجشع الذي لا يشبع صاحبه مع عامل العداوة المتأصلة التي يحملها على الأخذ بالثأر ممن أخافها قروناً طويلة وأنزل كثيراً من ملوكها إلى صف الرعية لا يوقفها عن غيرها سوى قوة تنذك من هولها الجبال فتقصر أيدي الطامعين . فهم قد تقرر لديهم إطاعة للشعور الديني أن البلاد التي تقلص منها نور الهلال لا يمكن بوجه أن يعود إليها كما أن طبيعة الممالك العثمانية قد صورها لهم الطمع والجشع أنهاراً تتدفق بالنظار وذلك أوقفهم عن إنجاز مشروعاتهم حتى يتفقوا على الاقتسام . وعندهم أن ما بقي بيد تركيا لم يكن شأنه إلا كوديعة استؤمنت عليها ريثما تتم الخطة التي سير سموها ذلك ولا بد يوماً أن ترد الودائع . وعلى هذه القاعدة فاتحت إيطاليا الدولة العلية بشأن طرابلس الغرب بعد أن ألحقت النمسة البوسنة والهرسك وبعد تسوية الخلاف الفرنسي الألماني غير أن سلوك إيطاليا كان مجرداً عن شبه الحق كما كان مجرداً عن كل صفات الإنسانية وخالياً من الأعذار المختلفة خلوه من الآداب . فكان بلاغا للدولة العثمانية يسومها خطة خسف وينذرها بالبلاء العاجل كما كان ماساً لكافة المسلمين وحباً أسكنتها السياسة الخرقاء في سويداء قلوبهم إذ كشف الستار عما يضمنه المستقبل لهم من الشرور . فغير عجيب إذا عم الأسف طبقاتهم وكانوا على لواء الخلافة الإسلامية مشفقين .

رأى المسلمون كثيراً من ممالكهم قد سقطت بيد الأجانب فكانوا يألون لكل سقوط ولكن يهون عليهم تلك الآلام ما ارتكبه ذلك الساقط من الهفوات ويعلمون مع ذلك أنه لو لا التحرش بأولئك الضعفاء والحملة الدينية

لما أتى على تلك الممالك ما أتى . فانهم يرون كثيرا من الشعوب غير الاسلامية قد تركتها أوربا وشأنها بل ومن أوربا نفسها فلا يبعد في المدينة الأسبان عن الريفيين ولا الصقليون عن الطراباسيين ولكن تلك الأعذار التي تخلقها السياسة تغر السواد ولا تجعلهم على دخائل المقاصد مطلعين .

كما أن التعدي تخف وطأته إذا اخطأ الرأس فإذا أصيبوا في رأس جسمهم فلا عجب أن نرى منهم حماساً وهياجاً ما كانوا منبع شره وإنما أوقده من قدح زناد الشر وتجلل بالعدوان . المسلمون في كافة أقطار الأرض يعلمون أن سلطان العثمانيين خليفتهم الروحي الذي تقام بإسمه الأعياد والجمع ويعلمون أنه يتقصد مهمة حفظ الحرمين الشريفين الذين يود المسلمون أن يدافعوا عنهما عوض الرصاص بحبات القلوب والعيون . فهم مع حفظ علائقهم السياسية مع الأمم التي تحكمهم يرون أن التعدي التي ارتكبتها إيطاليا مع دولة الخلافة هو موجه الى كافة المسلمين وان سكوت أوربا تلقاء هذا الظلم الذي لو ارتكبت تركيا جزءاً منه نحو أمة مسيحية لرأينا الأساطيل تملأ البحار وأصمنا صراخ الجرائد التي تنادى بالحقوق والمدنية والإنسانية وحماية المسيحيين لما يخصه عليها رعاياها المسلمون سيئة يشهد بها التاريخ لدى المستقبل من الأجيال . . .

ومن التعصب ضد المسلمين أن يعد استيائهم من صنع إيطاليا تعصبا دينيا يلامون عليه فان أعمال إيطاليا أوجبت إستنكار كافة المنصفين (وقليل ما هم) حتى من رعاياها الذين تبراوا منها وساء لهم ما أتته من التوحش الذي لا يحتمله إنسان .

وما يشهد بالمقاصد السيئة تسمية منشور تركيا إلى الدول استغاثة واستنجد ليظهروها أمام العالم بمظهر المستضعف الذي لا يدرك عن نفسه كيداً في حال كونها لم تقصد إلا الاعتذار لظالمته وعسى أن تجلب بالحسن ما لا يكون إلا بسفك الدماء وقد ضاع غيرها من الدول قريبا مثل ما صنعت

فلم يسم صنيعة استنجاذا إلا من خصمها . وعلى فرض صحته استغائه فهل كان رفض الدول له لأن تركيا ظالمة لعدم تسليمها طرابلس عن طوع واختيار أم عجزت عن إيطاليا رهبة أم إن تركيا أخطأت في الاستنجااد بالمسيحيين على المسيحيين .

إن تركيا لم تطلب من أوروبا مدداً ولا تطلبه وإنما تفعل ذلك لقطع حجة الخصم وانها لتعبت في ذلك إذا كان الخصم يطلب حياتها وحجته اعتداده بقوته . فلتسحق تركيا تلك القوة التي أشهرت في وجهها وتكون بيدها الحجة البالغة ويكون لها الفلاح المبين . وإنه لسهل عليها الوصول إلى مبتغاها إذا أظهرت في سياستها حزمًا وصرامة وصبرت جنودها بطرابلس قليلاً وولاهها الوطنيون ودبرت في انجادهما كما أنجدهتها لحد اليوم وذلك ما تسر به كافة الشعوب الإسلامية وتنحدر به إيطاليا إلى أرضها الجهنية حاملة عاراً وذلاً مديناً . على أنه بقطع النظر عما بطرابلس من القوات وعن عدم تكافؤها فاستبسال الغزاة العثمانيين إلى الموت يضيف إلى المجد الذي أحرزوه في بليقنا قريباً ويكونون وإن لم يبلغوا لما قصدوا (لا قدر الله) فقد باموا بالعذر والشرف كما هي عادة العثمانيين . فما حفظ لهم التاريخ تسليماً إلا إذا لم تبقى فيهم أدنى باقية للدفاع . وعظيم أن يكون الدستور فاتحة لعصر ذل جديد .

جريدة « مرشد الأمة »

عدد ٤٩ — ٢٨ شوال سنة ١٣٢٩

فمكاهة في مجلس القضاء

علم فلان وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو وقاضياً من قضاة المحاكم أن المنزل الذي يجاور منزله مشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها فكررها أخرى فبلغت منه فتراسلًا ثم تراورا ثم افترقا وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود . عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين أجنحتهاهما يضطرم في فؤادها وجنينها يضطرم في أحشائها . ولقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل أما الثاني فسر مذاع . وحديث مشاع ، إذا اتسعت له الصدور لا تتسع له البطون . وإن ضن به اليوم لا يضمن به الغد . ذلك ما أسهر ليلها وأقضى مضجعها وملك عليها وجدانها وشعورها فلم تر له بداً من الفرار بنفسها والنجاة بحياتها . فعمدت إلى ليلة من الليالي الداجية فلبستها وتلفعت بردائها ثم رمت بنفسها في بحرها الأسود فما زالت أمواجها تتلففها وتترامى بها حتى قذفت بها على شاطئ الصخر فاذا هي في غرفة في إحدى المنازل البالية في الأحياء الخاملة وإذا هي وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها إلا ذلك الهم المضطرم وذلك الجنين المضطرب . كان لها أم تحنو عليها وتتفقد شأنها وتجزع لجزعها وتبكي لبكائها وفراقها . وكان لها أب لا هم له في حياتها إلا أن يراها سعيدة أما لها مغتبطة برغباتها فهاجرت منزله ، وكان لها خدم يقمن ويسهرن بجانبها فأصبحت لا تسامر غير الوحدة ولا تساهر غير الوحشة . وكان لها شرف يؤنسها ويملا قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة ونخارا ففقدته وكان لها أمل في زواج سعيد بزوج محبوب فرزتها الأيام في أمليها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها أحداً يأخذ بيدها ويساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فوفدت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد وتعاني من صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قرباً إلى نفسها فجلست ذات يوم وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كتفها تقول في نفسها . ليت أمي لم تلدني وليتني لم أكن شيئاً .

دارت الأيام دورتها وبعثت الفتاة جميع ما تملك يدها وما يحمل بدنها وما تشمل غرفتها من حلى وثياب وأثاث ولم يبق إلا قصصاتها الخلقان وملامتها وبرقعها ولم يبق لطفلتها إلا ثياب باليات تنم عن جسمها نيممة الوجه من السريرة فكانت تقضى ليلتها شر قضاء حتى إذا طار غراب الليل عن مجتمه أسدلت برقعها على وجهها وانثرت بمئزرها وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طرقها لا تبتغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسائرهما ويترسم مواقع أقدامها واتفق أن عجوزاً من عجائز المواخير رأته فألمت ببعض شأنها فاقففت أثرها فهجمت عليها ثم سألتها ما خطبها فأنست وهكذا يأنس المصدور بنفثاته والبائس بشكايته . . فكشفت لها عن نفسها وألقت إليها بخبيئة صدرها ولم تترك خيراً من أخبار نعيمها ولا حادثاً من حوادث بؤسها لم تحدثها به فصرفت الفاجرة محنتها ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يحول في وجهها جولان الخمر وراء زجاجته وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت لنفسها عز الدهر وسعادة المتعة .

فلم تزل ترسل إليها عقاربها وتثبت في نفسها عزائمها ورقاها حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها فما هي إلا عشيّة أو ضحاها حتى بلغت الغاية التي لا مفر لها من بلوغها . عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد عيشاً أشقى

الأول في منزلها القديم لأنها ما كانت تستطيع أن تزود لقمتهما التي هي كل ما حصلت عليه في دورها الثاني إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها وأحرقت دماغها بالسهر وأحشاءها بالشراب وصبرت على كل من إليها حظها من أشرار الرجال وذئابهم على اختلاف صورهم وتنوع أخلاقهم ولكنها لم تر لها بدا من ذلك فاستسلمت استسلام اليأس الذي لم يترك له دهره إلى الرجاء سيلا . ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لافقت الشقاء ومكنت عليه كما يالفه ويمرن عليه كل من أصيب بمثل ما أصيب به ولكنه أنى إلا أن يسقيها الكأس الأخير من كؤوس شقائه فساق إليها رجلا كان ينقم عليها شأنا من شؤون شهواته ولذاته فزعم أنها سرقت كيس نقوده في إحدى لياليه عندها ورفع أمرها إلى القضاء واستعان عليها ببعض خصومها كشهدها عليها .

جاء يوم المحاكمة فسيققت المرأة إلى المحكمة وفي يدها فتاتها وقد بلغت السابعة من عمرها فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء ويشاء له قانونه أو ذمته حتى أتى دور الفتاة فأدناها منه فما وقع بصرها عليه حتى شوهدت عن نفسها وألم بها من الاضطراب والحيرة ما كاد يذهب برشدها . ذلك أنها عرفت أنه ذلك الفتى سبب شقائها وعلة بلائها فنظرت إليه نظرة شذراء ثم صرخت صرخة دوى بها المكان دويا وقالت : رويدك مولانا القاضي . ليس لك أن تكون حكما في قضيتي لأن كلانا سارق وكلانا خائن والخائن لا يقضى على الخائن واللص لا يصلح أن يكون قاضيا بين اللصوص فعجب القاضي لهذا المنظر الغريب وغضب لهذه الجرأة وهم أن يدعوا الشرطي لإخراجها فجرت قناعها عن وجهها فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شيء فشعر بالردة تتمشى في أعصابه وسكن في كرسيه سكون المحتضر على سرير الموت وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت : أنا سارقة مال وأنت سارق العرض والعرض أثمن من المال فأنت أكبر مني جناية وأعظم مني جرما . أن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع أن يعزى نفسه عنه باسترداده أو الاعتياض عنه .

أما الفتاة التي سرقت عرضها يامولانا القاضى فلا عزاء لها إن العرض
الذاهب لا يعود. لولاك لما سرقت ماله ولا وصلت إلى مما إليه وصلت. فأتراك
كرسيك لغيرك وقف بجاني ليحاكمنا القضاء على جريمة واحدة وأنت مدبرها
وأنا المسخرة فيها. أى شريعة تعلم أننا شركاء فى الجريمة ثم تأتى بنا إلى هذا
المكان فتوقف أحدنا فى أشرف المواقف وتوقف الآخر فى أدناها.
شريعة ظالمة لا علاقة بينها وبين العدل. رأيتك حين دخلت إلى هذا المكان
وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك ورأيت
نفسى حين دخلت والعيون تزدرينى والقلوب تحتقرنى فقلت يا للعجب كم
تكذب العناوين وكم تخدع وكم يعيش هذا العالم فى ضلالة عمياء وجهالة جهلاء.
منج لا وائلك القوم الذين منحوك هذه الشهادة شهادة العلم والفضل والأخلاق
والآداب. ومرحى مرحى لا وائلك الذين أقعدوك هذا المقعد ووضعوا بين
يديك هذا القانون وأوقفوا أمامك هذا الشرطى يأتمر بأمرك وينفذ حكمك
ويجربى على هوالك.

إن تحت هذه الشياى التى تلبسونها معشر القضاة نفوسا ليست بأضعف
من نفوسنا شرا ولا بأقل منها سقوطا وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم
فرق إلا بالعناوين والألقاب والشمائل والأزياء. أتيت بى إلى هنا لتحكم
على بالسجن كأنه لم يكلفك ما أسلفت إلى من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلاحق
لذلك السابق.

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها. ألم تكن إنسانا فترثى
لشقاى وبلاى. إن لم تكن عندى وسيلة أتقرب بها إليك فوسيلتى إليك إبتك
فهى الصلة الباقية بينى وبينك. فرفع القاضى رأسه إلى ابنته الصغيرة نظرة
شفقة ورحمة وقد قرر فى نفسه أن لا بد له من أن ينصف لتلك البائسة
وينتصف لها من نفسه غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصا مستترا
فأعلن أن المرأة مجنونة وأن لا بد من إحالتها على الطبيب فصدق الناس
قوله. ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه وقلب غير قلبه وما هى إلا أيام

قلائل حتى هجر القاضى منصبه بحجة المرض وما زال يسعى سعيه حتى ضم
إليه ابنته واستخلص حبيبته الأولى من قرارتها وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما
فيها أحد فتزوج بها وأنس بمشرتها واحترف في دار هجرته بحرفة لولا أن
أدل عليه إذا ذكرتها لذكرتها . ولا زال حتى اليوم يكفر عن سيئاته إلى
زوجته بكل ما يستطيع من صنوف العطف وألوان الإحسان حتى نسي ما فات
ولم يبق أمامهما إلا ما هو آت .

جريدة مرشد الأمة

عدد ٢٥ سنة ١٣٢٨

تحية الوطن

سلام أيها الوطن المفدى
 ألا يا أيها الوطن المعلى
 سنرعى حقك اللذ كان فرضنا
 فأرضك أمنا منها نشأنا
 بها أجساد آباء كرام
 فمرنا بالذى ترجوه منا
 على أنا وإن كنا صغارا
 فأنا قد وقفنا باتحاد
 طريق الصدق فى قول وعزم
 ونستمع الرشاد ونقتفيه
 ونرعى العهد لا نرضى بغدر
 نهين المال فى طلب المعالى
 نقاسم بعضنا عسرا ويسرا
 ونأنف أن نعيش بعيش ذل
 على قدم الكرام نعيش دوما
 نجدد عزنا ونشيد مجدا
 ومن أولى بهذا الأمر منا

بأنفسنا وأنفس ما لدينا
 تحييك الشبيبة مخاصينا
 وضيعة كبار الأولينا
 وفى خيراتها متنعميننا
 وفيها مستقر الآخرينا
 تجدنا للأوامر مسرعينا
 ألا تكفيك قوة أصغرنا
 وصاغت اليمين لنا اليميننا
 سلكنا نهجه مستبصرينا
 ونعرض عند لغو الجاهليتنا
 « ونكرم جارنا مادام فينا »
 وننفق رحمة بالبائسين
 ونغضى عن ذنوب الأقريدينا
 وأن نحيا حياة السافلين
 وموت العز أفضل مالدينا
 على انقاض مجد السابقينا
 ألسنا من بقايا الفاتحيننا

نشيد مولدى

طاب الزمان وبلغ المأمولا
 هذا الربيع وهذه أنواره
 طلع الهلال مبشرا بربيعنا
 لما بدت أعلامه خفاقة
 خفقت قلوب العاشقين لرو
 واهتزت الأكوان من طربها
 والأرض أشرق وجهها بمحمد
 وفى الجزيرة والمطامع حلقت
 ورجالها فى ضلة وتناحر
 مستضعفون وشمائم متفرق
 فأنالهم بعد التفرق ألفة
 ورقوا إلى العلياء تحت لوائه
 والله أنجز وعده فى نصرهم
 وأمدهم بعزائم وبصائر
 طوبى لهم من نور أحمد ما اجتلوا
 بسعادة مدت عليه ظلالها
 فبيوم مولده السعيد تباشروا
 فهو الذى نزلت بمدح صفاته
 ولروحه فأهدوا السلام وآله

فتناهلوا كأس الهنا معسولا
 لاما يريك نضارة فذبولا
 فاستقبلوه وهللوا تهليلا
 ونسيمه واقى بحر ذبولا
 حهاوشفت من الكبد العليل غليلا
 واعتزت العرب الكرام قبيللا
 لما أتى فى الأميين رسولا
 من فوقها تبغى بها التنكيلا
 لادين ينفى عنهم التضليلا
 دانوا لابرهة وخافوا الفيلا
 وهدى بهم نهج السداد سبيلا
 وتعلموا التنزيل والتأويلا
 وأقامهم شهدا لديه عدولا
 كانت على الدين القويم دليلا
 بشرى لمن أضحى لديه نزيلا
 وقطوفها قد ذلت تذليلا
 وله ألزموا الأعزاز والتبجيلا
 آيات حق فصلت تفصيلا
 وعليه صلوا بكرة وأصيلا

سالم بن حميدة

مرب طرابلس

وليل حالك الجلباب أرخى
خرحت به وقد قصفت رعود
يكاد البرق يخطف نور عيني
تطاولني العواصف في رمال
فأكبوا كبوة من بعد أخرى
تفاجئني الحسوم بكل فج
هيام بالقفار ولا بحير
وبينا كنت أرقب نور صبح
إذا الطود العظيم يشير حرباً
وما قاربت فرع الطود حتى
سمعت بصدره زفرات أسد
سمعت به دويماً مستديماً
سمعت بجوه الأسنى رنيناً
رميت بناظري إلى ذراه
فألقيت السماء بها صفوف
وقد حفت طرابلس بطور
فتابعته الخطى أبغى صعوداً
وصلت إلى الذرى فلقيت تركا
نظرت وجوههم فنظرت نارا
خبرت عيونهم فبصرت فيها
وقفت مروعا فبصرت حولي

سدولا داجيات من ظلام
من مجرة تبشر بالحمام
وتنذرني الصواعق بالزوام
تفيض بأخصى على الدوام
وأسرع للنهوض على الركام
فأجفل سابحاً لجج الهيام
يزود سبيل أفق أو محام
إذا : (نفوس) قابلني امام
ويلقي بالسحاب على الرغام
سمعت بعرشه همس الكلام
تصب على السهول لظى الضرام
يردده الصدى بين الأنام
حكي للأذن صلاصة الحسام
أسير إلى الحقيقة والسلام
تذود عن الهلال أو الزمام
به رمز الملائكة الكرام
إلى الملا العلى إلى المقام
وعربا رابضين إلى الأمام
مسعرة بفرط الاحتدام
وجوماً قد تنظم في اضطرام
مبرقة مهففة القوام

رأيت بها كلوماً داميات
دنوت بحرقه ورغبت منها
فألقيت الفتية بنت عرب
وفارقت المقام وقبرطه
تنادى المسلمين بكل أرض
هلموا يا بني الاسلام جمعاً
هلموا - برقة - حفت بغم
عساهم يدرأون على حياض
وقد أخذت من المختار عهداً
فثرت مساهماً عما دهانا
فولت ظهرها تبغى مفراً
أضاعت رشدها وأتت لمس
تهاجم عزة الإسلام ترجو
تجور مصونة بحمي أربا
ولو نالت من التمددين حظاً
وغضت طرفها عن سقاها
وظنت من كساها من عراء
وأرسل عن (مسينة) من نداء
كمن طحنوا بنى الطليان طحناً
وقد أغضت عن (النساء) عيوناً
وأقفلت القلوب على شئنا
وجاءت دولة الأتراك مثل الـ

تعانى كربها والدمع هام
أفاده ألف غم مستدام
أتت لتزود عن شرف السلام
لنصرة شوكة السلم المضام
هلموا مدعنين إلى الأمام
لنصرة خادم البيت الحرام
يرى من دونه هول الزحام
رماها الدهر بالحرب العقام
محاكم من تقاسى بالحمام
فأومأت اللواحظ للأمام
تسام العار عاماً بعد عام
تحاول وثبه للإنتقام
مشاغبة الهلال عن التمام
كناشرة التمدن والنظام
لما كانت بنورها كالسوام
كؤوساً نافعات من عقام
وأطعمها الشهي من الطعام
بيجر يطفى البركان طام
به مزجوا اللحوم مع العظام
بجبن خشية الهون الزام
من الحبشان يوم الإزدحام
ذى فعلت بناشرة العظام

فهل من مسلمين يعز عنهم	ضياع مفاخر السلف العظام
فيلقون النفوس إلى جهاد	يصان بفضلهما دين التهامي
ويفنون البنين وكل مال	ليحيوا مجد آباء عظام
نفير للفتى موت بعز	من الموت المجدد والسقام
فما عاش الذليل بفضل ذل	ولا مات العزيز من الصدام
ولا نفع الجبان شديد حرص	ولا مات الشجاع من الحسام
ولكن إنما الآجال تنأى	وتأتى حسب تقدير السلام

الصادق الفقى

صوت طرابلس الغرب

يا هاجراً ترك البنين صغارا
يا غافلاً ينسى طرابلس التى
يا قالياً يدع البلاد أسيرة
يا نائماً إن البلاد عميلة
قم فاستمع صوت البلاد مردداً
هلا سمعت دعاء قوم أشربوا
هلا سمعت صراخ قوم فضلوا
هلا سمعت عويل ثكلى ذلت
هلا سمعت أنين قوم مزقت
هلا سمعت نفيق قوم ودعوا الـ
قد جاهدوا فى الله حق جهاده
فانهض بصدق طوية مستبسلا
يا أيها الأبطال جودوا وانصروا
يكفيكم صوت المدافع دافعاً
بيعوا النفوس وقاتلوا أعداءكم
جيش من الطليان داس حقوقكم
جيش القساوة والتسلط والردى
جاءوا (لتمدين البلاد) فصيروا
جاءوا لتهديب البلاد فأوقدوا
حرقوا المزارع والمراتع والربى
نشروا جرائم الفساد وغيروا

أترى الطيور تفارق الأوكارا
تركت جميع المسلمين حيارى
تسترحم البلدان والأمصارا
طرحتم على حد السيوف مرارا
تدعو الرجال إلى الجهاد جهارا
حب الدفاع عن البلاد نخارا
عز الممات على الحياة أسارى
تذرى من الدمع السخين غزارا
أشلاقهم واستشهدوا أحرارا
بنفس الأخير وصاحوا الأقدارا
فازوا لديه فأصبحوا أبرارا
واسمى لنفسك للقتال بدارا
قوم الكرام وغادروا الأقطارا
والخيل تصهل تعلن الإنذارا
لا تتركوا من جنسهم ديارا
حصروا البلاد ودمروا الأسوارا
نكثوا العهد فمزقوا الأسفارا
تلك الرياض بلاقعا وقفارا
نار الحروب وخرّبوا الأدوارا
وأثوا من أنواع البلا أطوارا
خصب المروج ليزرعوا الأقدارا

سليمان الجادوي

ما بعد العيان بيان

يستند الخصم (الذي لم يكافئه أحد) أن من موجبات النجاح الاعتدال في المطالب ويقول عن حزب الأمة الحر أنه سيقابل بالحرمان لشططه في مطالبه وأنه سيقبر المسألة التونسية بتطرف بعض زعمائه وجهلهم بالواجب في الطلب وهو ادعاء باطل منه محمول عليه بتعشقه للمركز الذي أضاعه بتلونه والذي سار عليه منذ عرف في المعتكك السياسي فظن أنه بذلك يرجع ما أضاعه أو يحفظ اليسير منه على الأقل فدخل هذا الباب المتداعي فعمل والحمد لله بنقيض مرغوبه (والله لا يصلح عمل المفسدين) .

أوهم العموم بنشرياتة أن الدستور الذي هو الأصل في برنامج الأمة شيء قبل أوانه وسابق عن أوانه وبذلك كان تطرفا والتطرف من موجبات الحرمان . يقول ذلك وهو يعتقد أنه طلب لا أعدل منه وإن في من اشتكى إليهم من هو معترف بأحقيتنا فيه وأن سعادة الأمم تتوقف على إيجاده فيهم بصور واضحة . وما هو إلا كفعالات تحفظ حقوق الضعيف ونظام يمنع القوى من التصرف فيه حسب أهوائه ومشتتهياتة . فيعرف الأول بهقوقه ويدرك الثاني حده في الحكم فيه . وأنه أنفس ما يصبو إليه الحر من بني الإنسان .

يغالطنا بأن الدستور الذي لا يفهم بغير مجلس نيابي يمثل المتساكنين على السواء ونظام يوقف المتصرفين فيهم عند حد معلوم وواجب محترم محتوم . فسماه تكمرا أنه تطرف في الطلب . وأن الأولى بالأمة : تعليم واقتصاد وإصلاح وحرث وتجارة واستخدام واستفادة من ضرع

وزرع ثم اندماج ودخول في العادات والأخلاق مع أن الدستور هو وصف والأوصاف تقال على أفرادها بالتشكيك فإن مافى فرنسا غير مافى أمريكا ودستور إنكلترا لا يشبه مافى إيطاليا وهكذا ما عند الدول الصغرى فلا يصدق بالمعنى الواحد من سائر جزئياته . كما أن الدستور يوجد أيضا بالمستعمرات والمستعمرات وبلاد الحماية وقد أعطى بلا طلب ولا إلحاح ففي الكتاب دستور في الكندا برلمان وفي البوير نظيره وفي استراليا ماهو بين ذلك النظام : وإن جميع تلك النظمات يقال عنها أنها دستور و يطلق عليها أنها ذلك العنوان الأنيق ولا اتحاد في جميعها بل مراعى في وضعها حالة الأمة والرقى في البلاد . على أن تونس قد أعطيت دستورا من قبل فتعطل وأن تعطيله غير حجة على عدم وجوده كما أشارت إليه الفتوى الشرعية التي تهكم بها ذلك المذهب في بعض نشرياته وطعن في عظيم من عظماء فرنسا حيث قال أنها تكلفت على الأمة ببعض أوراق من نوع ألف . . . ولم يدر أنها طعنة في نحره وإن تلك الفتوى أثبتت وأن لا منافاة بين الدستور الداخلى وبين حقوق الحماية وحكم الحماية بالمعاهدات .

على أن هذا الخصم اللدود لا أخاله يستطيع أن يجاهر بقوله أن الذى أعطى بلا طلب ومنح ذلك النظام فى هاتيك الأقاليم هو غير الأمة التى أنتم لها تشكون ومنها تطلبون . لأنه قول مردود لا يجاهر به ألا (تريدون) ومن كان على شاكلته من إنكلترا وأوفر أنصاف من ذلك العدو الأثيم الذى حدى الشرق بتسامحه الداخلى وتركه للشعوب تتصرف فى نفسها بنظام نيابى بل وتوسع بأن جعل لأملاكه ومستعمراته نوابا فى جمعية الأمم التى بعضها دون تونس الجميلة وهى منه من النظر السياسى المتسع الذى يرجع به نفوذه فى ذلك المجتمع الدولى العام .

ونحن إذا طلبنا نظاما يصد علينا هجمات المتعشقين لسياسة الإكراه يقول عنا إننا مشطون فى الطلب ارضاء لبعض الإداريين الذين

لا ينظرون لصالح دولتهم بنظر السداد . مع أنه المتطفل والنازح والبعيد .

كما أن أرباب النفوذ الأعلى بفرنسا لا يرون مانعا في مساعدة الشعوب المحتمين بهم والذين انتدبوا لهم بإيجاد الحكم الذاتي فيهم لظهور الإخلاص في الأولين عند الشدائد ويرون أن لا أجمل من سلوك سياسة الاستيلاء على العواطف التي يدوم معها النفوذ براحة وبلا مرابطة الجنود . سيما بعد أن أصبحت فرنسا دولة إسلامية عظمى فهي أجدر بذلك الميز الذي يكسبها سمعة عليّة في مصاف دول القديين والإرتقاء بل وتحققوا أن سلوك سياسة الإكراه لا توصل إلى الغاية ولا يمكن بها الاستيلاء على القلوب وقد انكشف لهم أن طلب سياسة الاستعمار هو الشطط الضار والمشين للسمعة المرغوبة في جلائها حسنا من تدنيسها بالسير في المحكوم فيه على ناموس الإكراه والغبن الذي هو شذشنة ذلك الحزب وبغيته لبعده عن الحكمة ومعاكسته السداد . فالدستور الذي تطلبه الأمة التونسية وشن عليها الغارة ولم يحتفل بمقاله لا تريدون ولا بلتي فضلا على الأمة (ولطفه في زعمه) فما هو إلا قيد لمدير الفلاحة يحمله على اعتبار الأمة في برنامجه حتى لا يغني بأراضيه القليل من النازحين بعطاءه ويفقر الوافر الكثير من الوطنيين بحرمانه فيصبح عالة على السؤال كما هو في أطرافه ووسطه اليوم . وحاجز لمدير المعارف حتى يحاسب عن أعماله ويخشى أن يسأل عن ضياع المدرسة الصادقية في تيار إدارته ولا يقدر أن يعطل رخصة فتح مدرسة أهلية كما عطلها في باجة وما حجبته إلا الإطلاق في النفوذ . . كما أنه موجب يمكن نواب الشعب من سؤال إدارة الأشغال عن إهمالها لكثير من القرى الأهلية بلا طريق عام بينما نشاهد طرق الأشغال العامة اخترقت أراضي الفلاحين الأروباوين والبريد في أثرهم حتى قيل أن أحدهم طلب تزفيت الطريق الموصول إليه تفصيا من القتامة التي تشيره عربته فأجيب لذلك وغيرهم في الأحوال يتعثرون . ونظام مقدس يرهبه مدير المال الذي إذا سئل عن ضياع سبعين

مليوننا أو نقص أو أخلاق أو احتكار لا يقدر أن يجيب بإحالة النقص على أبواب الصرف في التكوين . . . إلى غير ذلك مما يجعل الداخلية في مأمن من الاطلاق ولأمة قسط من النقود . أفهذا يعد تطرفا يأيها المهتم حتى تقدم برنامجك الذي جاء برهانا على إنك حرج الداربية أو ضيقها . شأن من يدعى مالميس فيه فينكشف في الموقف ويفتضح في المجال ولو أفرغ الجهد وأكثر من القيل والقال .

قدم برنامجا ذا نقط عشر قد ظن أنه بجهاده في التلقيق يفلت من المأزق فأسرع ماسقط في القيدين الرابع والعاشر اللذين هما في صراحة لا يشوبها إيهام في ضياع الوحدة والأخلاق والنظام الداخلي للبلاد . هذا وأن الذي يضحك الشكلي اعتذاره من ظهور ذلك الاختهم في برنامج وسقوطه فيه السقوط السخيف أنه منقول عن الفرنسية وقد أخل المترجم بالمفهوم . وهو عذر أقبح من ذنب وأن جناية فيه أكبر من اعتبار اللغة العربية عنده والنظر إليها باحتقار . لأن الشأن في الذي يقف موقفه ويعلم عن نفسه أنه سيسير بالأمة والبلاد إلى مستوى الإصلاح . . . أن لا يحتاج في آرائه إلى ترجمان يكلفه الاعتذار .

قال في بعض نشرياته الأعجمية أن الوفد الأول الدستوري كتم أعماله والثاني غير مشرف الطلبات إيهاما للعموم بأن ذلك رجوع إليه وأنه الثاقب العصيب . . . قال ذلك بملء فيه والواقع خلافه وإن حشر الأمة إلى خطيب الوفد الثاني برحبة جامع الهوى في يوم مشهود وإعطائها البيانات الكافية عن الأعمال بصوت جهوري ومنطق رهيب لحجة دامغة وقد نشرته الصحف في الوقت نفسه وعلمه الخاص والعام وكان الجميع من أعمال الوفدين في أمتان .

أغفل أنه طلب السفر مع الوفد الثاني فأبدى رأيا لا يفهم منه غير محاولة احباط المساعي وبعد جدال طويل أحيل الرأي على الاقتراع فكان

منفردا في رأيه فقليل له حسبك اعتبار الأغلبية فأصر على العناد قائلا أنه لا يذهب ضد وجدانه وعكس ضميره . فكان ذلك اليوم هو أول يوم ظهر فيه بوجه مبتاع .

ثم بعد التئام الوفد الذي ظن أنه يقعده عن السفر رأيه . طلب أن يذهب مستشارا معه حيث أنه ذاهب صحبة زميل إلى الاشتراكية بباريس وبيرون ويمدهم هناك برأيه وفي ضمن ذلك روعى ما لا يحسن التصريح به وبالتالي جاء مخبرا على الوفد أنه داجن في الطلب .

رب سائل يسأل ما هذا السكوت من أعضاء الحزب الحر وأنصار المسألة التونسية وما بالهم لم يعلنوا بعدهم عنه من أول الأمر سيما بعد امتناعه من امضاء العرائض وتستره (بأجنبيته) وعدم قبوله لرئاسة الوفد الثاني . فالجواب هو الفرار من وقوع هاته الرجفة التي تقرأ في وجهه من عهد قديم . وناهيك بمن يستحسن الغرض ويتعشق سياسة المقيم الراحل الذي قال عنه (بلتي) أنه يقبله قبل الشروق . . .

مرشد الأمة عدد ٧٨ ٢٠ المحرم ١٣٣٩

جريدة البرهان

الله لطيف بعباده

يحق لنا أن نضرع إلى الله سبحانه ونستمد من الطافه الخفية ما يكون لنا حرزاً يقينا وبلات هاته البلايا المتراكمة والحن المتصادمة .

قضيناها سنيناً كسنى يوسف ابتلينا أثناءها بنقص من الأموال والأنفس والثمرات وتوالت علينا الرزايا آيات مفصلات .

حوادث تتعدد وكوارث تتجدد والتونسي اتجاهاها ثابت الجاش قوى العزيمة شديد الجلد يتلقاها بحمى الصبر ومثانة الرصانة ويدارى زعازعها بالحكمة البالغة والإدراك الثاقب .

تلك هى المواهب القدسية التى تميز بها سكان هذا القطر المأنوس فكانوا مثلاً للسكينة والإعتدال .

لم نكد نبارح تلك الأهوال المتولدة عن الحرب ولا زال شخصها المرعب يتمثل أمام أبصارنا بمنظره الرهيب حتى حل بنا ما حل من الأزمة الإقتصادية التى أتت على الحثالة الباقية بأيدينا فأقفلت البنوك خزائنها وتعطلت التجارة وتعذرت المهناملات وتعددت الفلسفات ومن ربح شيئاً زمن الحرب تقاياه وأردفه بضياع رأس المال ولم يبق من تلك الأرباح إلا الضرائب الموظفة عليها يزرع تحتها من ساقه سوء الحظ إلى تعاطى التجارة أو الانتساب إليها فكان أشبه شيء بمن اقترف جريمة وحق به سوء عمله فأصبح يتملأ من أليم العتاب وشدة العذاب .

تعلق الرجاء وانعقد الأمل على الصابة المقبلة وقد بشرتنا السماء أيام الشتاء بغيشها المتواصل و تساقط الثلج والبرد فتفاء لنا بذلك خيراً وانتظرنا حلول المصيف وأبان الحصاد ليحصل من مزروعاتنا ما يكون لنا ذخراً وعدة وفرجا بعد الشدة ولكن وأسفاه فقد أمسك الغيث عند اشتداد الحاجة إليه فلا وابل ولا ظل ولا رذاذ يطفى حر اللهب الذي أصفر منه مخضر النبات ولا يلبث أن يصبح هشيماً تذروه الرياح .

تلبد السحب وتتكاثر الأنواء حتى إذا أظلم الجو وأنبعث في النفوس روح الأمل وتقلب الأوجه نحو السماء تترقب قطرها وتنتظر من تلك السحب أن تفيض مدامعها شفقة وحناناً فإذا بها جهام متصلف وبرق خلب سرعان ما تنبذ تحت تأثير الأشعة المحرقة بين الغبار الثائر وصفيق الرياح . وماذا يؤول الحال إذا يبست المزروعات وخسرنا ثروة هي الرجاء الأخير لتخفيف الوطأة وسد العوز ونحن الآن أحوج ما يكون إليها فقد أشدت الفاقة وعضنا الدهر بناه ومتوسط الحال منا يتعذر عليه القيام بضروريات الحياة اللهم أفرغ علينا صبراً نقاوم به صروف الدهر وهجمات الزمان .

عد عن ذا وأنظر إلى ما يجري الآن بخصوص المسألة التونسية والأحوال السياسية تجد الناس حيارى وتحسبهم سكارى وما هم بسكارى تسمع كل يوم من الأخبار المتعاكسة والروايات المتشاكسة ما يجعلك تحت سلطة الشكوك لا تكاد تصدق ولو بالعيان وتقبح حتى في الخاصة ورواية الثقة والأعيان . أشيع خبر عزم سمو الأمير على التنازل عن العرش الملوكي عقب مضايقة اعتبرها غير ملائمة لمركزه السامي فهب الشعب لإبداء عواطف ولائه وشدة تعلقه بأميره المحبوب يرغبون من تعطفاته الأبوية أن يرجع عن ذلك العزم الذي ارتاعت له القلوب وتكدرت الخواطر وقد أيد سموه أيده الله من بذل التضحية الأبوية وإرشاد الشعب لصالحه من ملازمة السكون .

والإخلاق إلى الراحة والهدوء وعود كل واحد إلى شغله الخاص .

ومن الغد كذبت تلك الإشاعة رسمياً إنه أعزه الله لم يعزم عن التنازل وإنه واثق بفرنسا لإجراء ما تحصل به السعادة لرعاياه طبق المعاهدات الرابطة للعائلة الكريمة بهاته الدولة الفخيمة .

ثم ماذا وهل نحن إذا صدقنا بما جاء بتلك اللائحة هل يمكن أن نعتقد أن تلك الإشاعة محض اختلاق وإنه لم يحدث أدنى حادث من هذا القبيل لما لا يروج حتى على الأطفال والمتهوسين .

هنالك أختلفت الأقوال وتعددت الآراء وكثر القيل والقال وراجت سوق الأكاذيب واغتتم المغرضون ذلك فرصة لترويج شهواتهم وتأيد مبادئهم العقيمة فدسوا الدسائس وطيروا على طريق البرق مخترعات ملائمة لسياستهم العدوانية فوفد علينا بريد الأسبوع مفعما بحديث خرافة أم عمر بما خلاصته اتهام الشبيبة المتنورة بأنها هي التي أنشأت هذا الحادث وتسببت في حصوله بالإلحاح على سمو الأمير بالتنازل عن العرش لمعاكسة نفوذ الحماية

ولقد طالما فندنا هذه المزاعم وأبطلناها بالحجج القاطعة فالشبيبة لا تود معاكسة نفوذ الحماية ولا تبتغي بها بديلاً وغاية ما ترجوه من عدالة فرنسا الحصول على حقوق شرعية لا تنافي المعاهدات المرعية التي أرتكزت عليها الحماية وارتبطت بها الدولة التونسية تلك هي رغائب الشبيبة بل رغائب الشعب بأجمعه بعد أن أثبت إخلاصه وبرهن عن مجاملته لفرنسا واستقامة سياسته فكيف ينسب اليوم إلى العداء والجفاء .

وأما حادث القصر فلم تكن للشبيبة فيه دخيلة أو دسيسة بل ربما كان قاصراً على أسباب تتعلق ببعض أعالي الموظفين ولا دخل لأحد من الفرنسيين فيها بالمرّة .

وما زعموه من أن سموه اشترط شروطاً وضرب لقبولها آجالاً فأننا لا نصدق بهاته الإشاعة ولا نعتبرها إلا من باب التهويل ودس الدسائس

ولا يبعد أن يكون تفاهم في شأن الإصلاحات المرغوبة من الشعب مع جناب العميد على بساط الوداد المتبادل من الطرفين وهل في ذلك حرج أو استغراب اللهم إلا لمن ران التعصب على قلبه وأعماه الغرض .

أما نحن فلا نرى في هذا الحادث إلا ما يزيد وضوحاً لاختلافنا وحسن نوايانا وسلامة طويتنا مع الدولة الحامية وشدة وثوقنا ووثوق أميرنا بها ورسوخ اعتقادنا في أن كرامتها تأبى أن تبخل علينا بما يحقق سعادتنا من الإصلاحات التي لا تمس بشرف فرنسا ولا بمصالح جاليتها ولا تنافي المعاهدات القديمة فمن رام بعد ذلك اتهامنا بما نتبرأ منه برامة الذئب من دم ابن يعقوب فإنما يسعى في فصم عرى هذا الولاء وإيغار الصدور وبث الأحقاد وافساد القلوب والله لا يصلح عمل المفسدين .

عدد ٣٠ السنة الأولى ٢١ شعبان سنة ١٣٤٠

محمد ابن الحسين

حوادث الشهرين

لم تسكد تنتهى مفاوضات لندره فى شأن الأحوال الشرقية حتى قامت القوات اليونانية الضاربة ببورصة وولاية أزمير بحملة عامة على الجيوش الملية العثمانية مظهره بتلك العملية عزم حكومة أثينا على حل مشكلتى تركيا الشرقية وأزمير بقوة السلاح وقد تمكنت عساكر بابولاس فى بادىء الأمر من التوغل فى الأراضى التركية ومن دحر الفرق العثمانية التى اعترضتها حتى خيل لبعضهم أن المليون أصبحوا فى مركز حرج وأنهم سيضطرون للجنوح إلى التفاهم مع اليونان رأسا فى مسألة الصلح ولكن الأقدار أبت إلا تكذيب أحلام أولئك الذين كانوا يعلقون آملا على حركات اليونانيين فجاءت الأخبار مبشرة بانتصار الأتراك عليهم حول اسكى شهير انتصارا باهرا وبردهم على أعقابهم مسرعين بعد أن ألحقوا بهم خسائر جمة بين قتلى وجرحى وأسرى وغنموا منهم جانبا عظيما من الذخائر والأسلحة على اختلاف أنواعها فكان لهذا الفوز الكبير وقع جسيم على رأى العام اليونانى فأخذت قيم الأوراق المالية تنحط بسرعة مهولة وتعالى أصوات المعارضين على سياسة الحكومة الحالية فعمجت وزارة قوناريس بتلا فى الخطر الذى أصبح يهددها فعزلت قائد عموم الجيوش اليونانية وأصدرت قرارا فى تجنيد عدة أقسام من عساكر الرديف بنية حشدها إلى ساحة القتال وأذاعت على طريق الصحافة أن تفوق الأتراك عددا على القوات اليونانية وصعوبة طبيعة الجهات التى دار فيها القتال هما السبيان اللذان أكرها جيوش قسطنطين على التقهقر



إلى مراكزها الأولى وأنهم سيستأنفون الحملة من جديد متى تمت تعبئة الفرق التي أخذت في تدبيرها أركان الحرب بنشاط وهمة ألخ ما راج من هذه الأخبار إلا أن القائد العام العثماني لم يترك لأعدائه الوقت اللازم على زعمهم لاستكمال عدتهم وعددهم فأمر عساكره بالسير إلى الأمام فلم تمض إلا أيام قلائل حتى أحذقت ببلاد بوصة من ثلاث جهات ودحرت اليونانيين من أشاك ثم الهشير من جهة ولاية أزمير بعد مقاومة عنيفة إنهم فيها الجيش اليوناني شر هزيمة وترك في أيدي الأتراك عددا كبيرا من الأسرى والمدافع وقد جاءت الأنباء الأخيرة مؤكدة بأن الواجهة اليونانية خرقت وأن الفرق اليونانية أصبحت مجبورة بحكم الضرورة على إخلاء مراكزها الحالية خوفا من قطع خط الرجعة عليها .

هذه خلاصة الحوادث الحربية التي حصلت خلال الشهر الماضي ببلاد الأناضول وهي كما يرى القارىء موجبة لسرور الأتراك خصوصا والأمم الإسلامية عموما وانقباض أعدائهم الذين أعصى كبراءهم الطمع والشر والذم عن إدراك مصالح قومهم الحقيقية ففضلوا خدمة سياسة الغير على سياسة بلادهم انقيادا إلى عواطف حركها فيهم ذكر ماض خلا وتاريخ انقرض وما دروا أن انسلخوا وهي -- التي لمخنا إليها -- ليس في إمكانها الاستمرار على تأييدهم بالأصفر الرنان متى تحققت (ونظن أنها بدأت تتحقق) عجزهم عن إتمام المأمورية العسرة التي ألقته على عواتقهم خصوصا وأن المسلك الذي اتبعته لنفسها أثر الحرب الأوروبية الأخيرة لم يأت بالنتيجة التي كانت تتوقعها وهي إخماد نار الهيجان الذي ظهر بالهند بين المسلمين قبيل عقد اتفاقية سيفر واجماعهم على المطالبة باحترام حقوق الخلافة وصيانة الأراضي المقدسة من كل سلطة أجنبية وذلك بالقضاء على البقية الباقية من تركيا بتقسيمها بين الدول وحصر الشعب العثماني بمرتفعات الأناضول والاستيلاء على الآستانة العليا التي يعدها المسلمون كعبة آمالهم الدينية غير أن الحوادث التي تكررت منذ سنة سواء بالهند أو بالديار التركية ستلزم انجلترا بتغيير تلك الخطة العقيمة

حيث اتضح للعيان أن تأثير اتفاقية سيفر لم يزد مسلمي الهند وغيرهم إلا اتحادا وتصلبا وارتباطا بالأحزاب المضادة للسلطة البريطانية وهذا ما يدعو لحكومة سان جام للتفكير في عواقب سياستها الحالية إذ لا يعقل أنها تجازف بمصلحة المملكة لتأييد فكرة سياسية ضالة أثبتت الحوادث التي توالى بالشرق استحالة تنفيذها - نقول ذلك لعلنا بحذق ونباهة رجال سياسة بريطانيا الذين اعتادوا تحكيم العقل والتجربة في الأمور السياسية بدل العواطف والإحساسات ودليلنا على ذلك جنوح إنجلترا إلى التفاهم مع الشعب المصرى على قاعدة الغاء الحماية والتحفظات التي أبدتها قاداته في مشروع اللورد ملنر ولا شك أن المسألة المصرية دخلت اليوم بفضل قرار حكومة لندره دورها النهائى وأن الأمة النبيلة التي أدهشت العالم باتحاد كلمتها وثبات موقفها وقوة حجة نوابها أوشكت أن تنال ثمرة جهادها الصادق في الحرية والاستقلال .

من أهم المسائل التي شغلت عقول أصحاب الحل والعقد بحكومات المتحزبين مسألة التعويضات التي التزمت بها ألمانيا في اتفاقية فرساي ولم تقم بغالبها لحد هذا اليوم وهذا ما أدى مجلس وزارة فرنسا إلى النظر في أساليب الإكراه التي يجب اتخاذها تجاه امتناع حكومة ألمانيا من الوفاء بما تعهدت به وقد انعقد منذ بضعة أيام مجلس عال بلندره متركب من رؤساء حكومات المتحزبين للبحث في هذه العقد العويصة إلا إنه لم يستقر رأى نهائى إلى الآن في شأنها حيث فرنسا ترى أنه لم يبق سبيل لإمهاالها ألمانيا على أداء ما ترتب بذمتها وإن أوفق مسلك لجبر هذه الأخيرة على الخلاص هو احتلال عدة نقط معتبرة من ترابها أهمها مقاطعة الروهر ذات المناجم الفحمية الغنية والمصانع العديدة بينما انكثرا لم تزل مترددة بين طرق الغضب والمسالمة مراعاة لما لأرباب الأموال وأصحاب المعامل بمملكتها من المصالح الوطنية بألمانيا على أن جمهورية الممالك المتحدة وإن لم ترض بالتوسط الفعلى بين جرمانيا والخلقاء إلا أنها تستنكر احتلال مقاطعة الروهر وإيقاف الحركة العملية

بتلك الديار والمظنون حسبما نقلته إلينا شركات الأخبار أخيرا أنهم سيتفقون على وجه متوسط بين الفكرتين الفرنسية والانكليزية يقتضى إهمال ألمانيا لمدة وجيزة ريثما تقدم اقتراحات مقبولة بدون أن تعطل الاجراءات العسكرية التى سيقوم بها الجيش الفرنسى . هذا ما اتصل بنا من الأخبار إلى اليوم وسيكشف لنا المستقبل كيف تسوى هذه المشكلة الخطيرة وإن غدا لناظره قريب .

مجلة الفجر (المنة الأولى الجزء ١٠ و ٩)

محي الدين القليبي

الأمير يضحى تاجه في سبيل الدستور

متى أحست الأمة بخطر يداهمها وكشفت لها الحوادث عن عدو يكيد لها المكائد وينصب لها الفخاخ ليوقعها في شر يستفيد منه أو يكون على الأقل منتجا لها ضررا يسره بقدر ما يريد . فانها بدون شك تسارع إلى أخذ الحيطة لهذا الخطر الداهم والعدو الخبيث . ولقد منيت أمتنا المسكينة بهذين الأمرين فارتأتى حمايتها ومفكروها اتخاذ ضمانات تقيهم الوقوع في ذينك الخطرين . خطر القضاء على الحياة الاستقلالية بواسطة تيار الاستعمار الجارف وهو ما نعتبر عنه بالخطر الداهم . وخطر الذين يستفيدون من بذر الشقاق وإحداث المشاكل العويصة والمخطرة التي يرومون من وراءها تقسيم الهياكل المتضامنة والأجزاء المتناسكة التي تكون جسما واحداً تسيره روح التكاتف والاتحاد كي يتخذوا أحد القسمين ويستعملوا بعض الشقين سلاحاً لمناوأة الآخر ومحاربة التي بدون شك تؤول إلى قتلهما معاً وهذه النتيجة التي ينشدونها ويبدلون في التحصيل عليها كل مرتخص وغال .

ومن هذا القبيل ما نراه اليوم ببلاطنا من العمل الذي تجريه الإدارة التي قيل عنها أنها مكلفة بدرس حالة البلاد وتنفيذ رغبات الشعب التونسي وهي في الحقيقة جاءت لدرس الوسائل الفعالة للقضاء عليها فبينما نراها تنتقل في عملها من التسوية إلى الإنجاز المموه الذي لا يروج إلا على بسطاء العقول وسذج المدارك إذا هي في الوقت نفسه تجس مواضع يخيل لها أنها مواضع الضعف من الأمة وتلتبس وراء دسائسها وألاعيبها المتنوعة أن تحصل على

مرغوبها وكل ما تريد . ولكن روح الشعب السامية وتربيته العالية وإحساسه الشريف كان ولا يزال العامل الوحيد الذي يقضى على كل آمالها وأمانها إذ أن الشعب كان يظهر إزاء هذه العوامل بمظهر الجوهر الفرد الذي ليس في الإمكان تقسيمه بحال وكثيراً ما أعرب عن عدم انخداعه لها وأنه لا تؤثر عليه هذه العوامل بالمرة ولكن بدل أن يكفها عدم نجاحها وتكون خيبتها المتوالية رادعة لها عن هذا السلوك المشين فإنها أرادت أن تكون خطتها الأخيرة اللعب بالنار في وسط الهشيم وسولات لها نفسها أن تمثل دوراً فيه من الخطر ما فيه وفعلاً أخذت تنفذ هذه الإرادة الخبيثة والمؤامرة الخطيرة والسيدة العظمى بواسطة أناس كانوا ولا يزالون قذى في عين الشعب وعبئاً على كاهل الأمة ثقيلاً دأبهم العمل على حسابها لفائدة الغير فهم مصدر النوائب وطريق المصائب وسبب المتاعب وتعدد النكبات المؤلمة التي تنزل بساحة هذا الشعب صباحاً مساءً .

مثل هذا الدور ونفذت تلك الإرادة فما كانت النتيجة ؟
ملك يتنازل عن عرشه ويلقى بتاج آباءه الكرام البررة حماة الإسلام بالخصراء تونس ذات التاريخ المجيد في سبيل نيل الضمانات التي أصبح على علم تام ويقين كامل من أن مركزه ومركز شعبه لا يكونان ثابتين إلا بوجودها وجوداً حقيقياً لا تمازجه نبذة من الغش والخداع .
وشعب يهتز لهذا النبأ الذي لم يحك التاريخ مثله ويحتج على ذلك بواسطة حزبه ويهرب عن استيائه بمظاهراته العظيمة التي تكتنفها السكينة ويحيط بها الهدوء من كل مكان ثم يفزع إلى أميره مستكبراً بطولته مثبتاً له دوام الإخلاص والولاء شاكراً عزيمته الملكية وإدراكه السامى .
وحقيقة لقد رأى الأمير من شعبه ولاقى من أمته ما يلقاه كل ملك مثله يضحي شخصيته لفائدة الشعب وإصلاح الأمة فإن الحماس الذي كان يمثله الشعب بالغ حده فلقد كان ذلك المظهر المؤثر من أجل مظاهر التضامن الحقيقي بين الشعب والعرش وكادت أن تلبس فيه الوحدة المقدسة باليد وهذا مما يحقق خيبة المساعي المبذولة للتفرقة بل الأمة وبيت أمارتها المحترمة ويترك دعاة الشقاق يعضون الأنامل من الغيظ .



محمد الشاذلي خزنه دار

إيطاليا

إيطاليا قيل قالت	إفريقيا من حقوق
لكن قد اقتسموها	وأشرقوني بريق
فالبعض عند الأعادي	والبعض عند الصديق
حتى تبقت بلاد	مطروحة في طريق
فما أنا غير شمس	قد آذنت بالشروق
فان يقولوا أغتباطا	ماليتي في ضيق
فلي بواخر بحر	أسطولها في بروق
(كانيف) قائد جيشي	أكرم به من فريق
مستبسل ذو دهاء	ما مثله في فروق
فما له اليوم أضحى	كالبالغ المخبوق
في رقعة واشتعار	تراه كالمشنوق
سلطانه منه أضحى	كالذاهل المصعوق
من خيب الظن فيه	تعسا له من رفيق
إذ كان فيها غريقا	مستمسكا بغريق
تنتابه صعقات	بزفرة وشهيق
وجيشه في انخزال	وفي دمار حقيق
فما استطاعوا نزالا	مع كثرة المنجنيق
فيهم يقال اقتباسا	ذوقوا عذاب الحريق

(كور الماكرونا)

قالوا إلى الترك نمشي	فهمد من حصونه
قل حبذا الكور منهم	إذ كان بالماكرونه

الاعتصاب

أينفى الاعتصاب بنفى سبع	وإن هطلت لهم عيني بدمع
أيرضى الحر فيكم باضطهاد	وبالتفريق منكم بعد جمع
كفانا ما لقينا من هوان	وخذلان ومن شكوى لوجع
مضى زمن التخاذل واتحدنا	لدرىء المفسدات وجلب نفع
مضى زمن التكاسل وانتبهنا	لنبذل فى المصالح كل وسع
وذقنا فى الأخاء لذىذ سكر	فنحن به نشاوى دون كرع
فأياكم وفل العزم حتى	يردد ذكرنا فى كل صقع
ونقطع للترام طلاق بت	تذاكر لم تسم بطلاق رجعى
ونقرع سمعهم بصدى مقالى	أينفى الاعتصاب بنفى سبع

ضحايا الاعتصاب

أبكي لفرقتهم وهم أحياء	سبعاً بكتهم تونس الخضراء
ما كان فى كفى الحسام وإنما	من تحت فكى حية رقطاع
أرسلتها حصبا على مغتالهم	فتريه ماذا يفعل الشعراء
سأهز من قومي الذين بلوتهم	ما ترتضيه الهمة القعساء
عربية فى الاحساس نخواتها	لله تلك النخوة العرباء
لا تخلدوا فشلا لفل عزيمة	ولو ادلهمت سحبها الظلماء
دعهم يريقوا نزهاقوا يستنزفوا	ينفوا يبيدوا يفعلوا ماشاءوا
واسترسلوا فى الأمر دون تراجع	فالحيل منه انشقت الصماء

الدردنيل

أقلع بقشك أيها الأسطول
 أنهماجم الآساد في آجامها
 أبحرت نحو الدردنيل لفتحها
 لا تحسب القارات جولة سائح
 يتفخرون جهالة بعديدهم
 فتحيروا ومن المحال إياهم
 تلقاهم ما لم يكن بحسابهم
 شاهدتموها والسماء تلبدت
 هذا وأن الله يعلم وحده
 كل يؤمل من رآها خطوة
 فمضى تحط عن الورى أوزارها
 بقضى الحياة على تنازعنا البقاء
 ما الحق يعرف يومها دون امتراء
 ويصاخ بالاذعان للأمر الذى
 فدع ابن دنيا الآن فى غفلاته

ان التى هاجمت اسلامبول
 وعربنها بليوثة مأهول
 فرأيت ان الدردنيل مهول
 فاطرح حسابك ان ترميل
 فليكثر وا « إن الكرام قليل ،
 وتوقفوا ومن المحال دخول
 وأمامهم مستقبل مجهول
 ورأيتهم كيف الجبال نزول
 أيا من مرساها وكيف تؤول
 والغيب عنده ذلك المأمول
 ما العيش إلا الحلم والتأويل
 والبكل عنه فى غد مسئول
 ويطابق المنقول والمعقول
 قد قاله للأنبياء التنزيل
 حتى يفيق لأنه مشمول

الحج

الله أكبر أيها الـ	اسلام والديان يشهد
شقين فرقنا الزمان	وهكذا العقد المبدد
هذا يجند للجهاد	وذاك في الغرما يجند
هذي إرادته ليشقى	بعضنا والبعض يسعد
سلم أمورك للاله	فانها لله تصعد
ولد الزمان عجيبة	سيخصصون لها مجلد
من زوجه الحرب التي	قد أقسمت إن ليس تخمد
من حج بيت الله في	هذي السنين يعد ملحد
حيث الخروج عن الخليفة	لا يقول به الموحد
ماللشريف ومالنا	فاركع لربك فيه واسجد
قد كانت الأصنام في	عرصاته مذ حج أحمد
الدين عاد كما بدا	فابشر وصل على محمد

الصلح

نبأ الصلح طن فينا صداه	ليت شعري ما كان تحت غطاءه
أضرموها لنصرة الحق حربا	فأضلوا السبيل في ملتقاه
سالت الأرض والسماء دماء	أى شعب لم تجر فيها دماء
ألبسوا الحق طليسان بن حرب	أى عين لم تبك حين تراه
لو سألتناه قال إني برىء	من زمان شلت وتبت يده

ليسوا الجناة

وقفوا هناك وحسبهم
ليسوا الجناة وإنما
قالوا العدالة بيننا
وورأ القضاء يد بما
تجرى به الأحكام في الأ
لأفاعلاتن طبق وزنه
لعبت به الأحرار أدوارا
عقدت على دعوى انعقا
كشفت قضيتنا هناك
قالوا اخطبوا فبدا من
من برهنوا عن حقهم
شم الأنوف أعزة
يدري العزيز حقيقة
نل حقلك المهضوم وحدك
وادأب عليه محققا
حرك شعورك مطلقا
وجعل خصوصك في العموم
وكن المقارن قوله
وانقل خطاك بمقتضى
وانظر بميزان الحرارة
سر كالزمان بحكمة
الدهر عليك المسير
استنهضتك من السبات
فنفضت عنك غارها
فرأيت حقلك بيننا
فملكك أخذه ما استطعت
وارفع بصوتك معلنا

بواقف الشرف الأثيل
شأن القوى مع الضئيل
هل للعدالة من سبيل
مال القضاء لما تميل
بحر العريض المستطيل
للحقوق ولا فحول
بمرسحها الحفيل
د الاجتماعات الفصول
على محياها الجميل
الخطباء ما يشقى الغليل
وهو المؤيد بالدليل
من كل مقدم نبيل
إن لا حياة إلى الدليل
حيث خصمك لا ينيل
أن لا وجود لمستحيل
وأنا الضمين إلى الوصول
م ليستتب لك الحصول
فيما يقوله بالمقول
ماقررتة ذوو العقول
في الصعود وفي النزول
سير الليالي بالفصول
وأنت ضمنه في رحيل
المحض هاتيك الطبول
وأزحت جلباب الذهول
فيهم وانت به كفيل
وما عليك من العذول
أن لا رجوع ولا عدول

التمثيل

هي الحقائق هيها اليوم تمثيلا	لله بمجسلة كانت وتفصيلا
ذكرى تشير من الراى عواطفه	بين اليواقظ لاحلما وتأويلا
مما تفيدده الالبصار موعظة	تريك للدهر تحويلا وتبديلا
تلك الصخائف للآباء ناصعة	بيض ترتلها الايام ترتيلا
انهض بهمتك القعما كما نهضوا	واستحصل المجد للآباء تحصيلا

هذا لعمرى صلاح الدين خالدة	آثاره الغر مذ اولته تبجيلا
وكم تخلد في تاريخنا الذهبي	مما يكلل تاج العرب تكليلا

نحن الذين على منوالهم نسجوا	ما أهلتنا ظروف الحال تأهيلا
فلتحى يا تونس الخضر ابهمة من	يستسهل الصعب في أرضاك تسهيلا

أنشودة المساء

وبدا به وقت الرواح	أمسى المساء كأمسنا
ولونها الذهبي لاح	والشمس مالت للغروب
لبست من الغسق الوشاح	مصفرة الوجنات قد
وفيه ذو العمل استراح	والليل أقبل للسبات
لكي ننام على ارتياح	فيه مراحة الدروس
وفي سرورهما الرباح	فيه سرور الوالدين
في الأبناء الملاح	ماذا يسرهما سوى التهذيب
عند المساء وفي الصباح	فتزودوا بدعائهم
مع والديكم في انشراح	وامسوا بخير وأصبحوا

مصطفى آغة

الحارس المسخر

روت لي فتاة حديثا جرى
فقلت رأيت صبيحة يوم
دلي، ذات حسن إيطالية
وليلي لها اللطف أهلية
فقلت ليلي دلي، مذرأتهما
أصابك في ليـلك أرق
فبان لها الغم في وجه ليـلي
فقلت أبي بات يشكو صداعا
ولكن يحارب سقما وفقرا
قضى في الحراسة ليلا طويلا
وبات بعسر التنفس حتى
فقلت دلي، هذه مهنة
ولاسيما الضعفاء وداء الـ
أشيري عليه إذا ما تعافى
فقلت لها الوطنية ليـلي
أني ليس حارس ليل ولكن
فقد عينوا حارسين من القا

ياحدى مدارس بعض القرى
فتاتين أجمل ماقد يرى
يجول بخدها ماأسكرا
عرا القلب من لحظها ماعرا
تحاول صد جيوش الكرى
أم الليل قضيته في سرى
فصاحت بربك ماذا طرا
وليت عليه الشقا اقتصرا
عليه أخيراً قد انتصرا
وآب بعلته سحرا
لعمرك خلتـه محتضرا
أراها على أهلها خطرا
صدور بقرينتنا انتشرا
بترك الطواف لمن قدرا
وعقد مدامعها أنتثرا
عليه كغيره قد أجبرا
طنين بجانا بكل القرى



فقلت لها الأجنبية عفواً
فلو كان ما قلت صدقاً لأمسى
ونحن بفضل العدالة نقضى
فبان على وجه ليلى استياء
وقالت لعمرى لك العذر انى
فما فرض الحرس إلا على الاله
فقلت دلى، وهى تخفض لحظاً
أيعقل رباه أن حماة
يكون سلوكهم اليوم هذا
أولئك من حرم الرق فيهم

إذا قلت ما قلت محض افتراء
أنى اليوم فى الحرس معتبرا
بأمن ليلى الى الصفا سمرأ
وفاضت مدامعها عبراً
أرانى اقتضبت لك الخبرا
لمين وفيهم قد انحصرا
وفى وجنتيها جرى ما جرى
أتتهم لتسعدهم فى الورى
وهم فى رقى على ما أرى
فلا الحر يشرى ولا يشتري

أبو الحسن ابن شعبان

الحرب الكبرى

سعروها حربا تبيد الشعوبا	فذكت نارها وأبدت شجوبا
وغدت بالنفوس تفتك حتى	أظهر الكون من لظاها قطوبا
فرأينا بالأرض منها هيبا	صاعدا للعلا غدا فلهيبا
ورأينا قنابلا تملأ الأرض	فشقت مرائرا وقلوبا
ورأينا الجنود صفت صفوفها	وغدا (المتريوز) فيهم خطيبا
ورأينا مراكب الجولاحت	تشبه الشهب مطلعا ومغيبا
رب مخارة على اليم سارت	تمخر اليم جيئة وذهوبا
درعوها من الحديد بدرع	لبست منه ثوب عز قشيبا
فوقها من الخضم هجوما	ووقاها من العدا تصويا
أن يوما فيه على البحر تبدو	بقواها نراه يوما عصيبا

استقبال سنة ١٣٣٦ هـ من سنى الحرب

هل لاح بدرك بالمسرة مشرقا
 ماذا كتمت من الحوادث ما الذى
 يدري الفتى ما مر من إيلامه
 والدهر فيه عجائب مكنونة
 إني أرى الأيام تعبت بالفتى
 لو يعلم الانسان ما سيصيبه
 سدل الحجاب على العيون فما درى
 كذب المنجم فى دعاويه وهل
 من لى بتمزيق الستار لمبصر
 سارت بنا الأيام سيرتها ولم
 عام مضى فأتى سواه وهكذا
 خفف خطاك أيا زمان وسر على
 يا أيها العام الجديد أنت بال
 عهد به مد السلام رواقه
 أقبلت والآمال فيك كبيرة
 جذلت بمقدمك البلاد وأهلها
 وتقدمتك طلائع الغيث العميم
 فعساك أن تمحو الذى قد كان

أم أنت مثل أخيلك تنذر بالشقا
 سيكون انى أراك سرا مغلقا
 وسواه فى الأذهان لن يتحققا
 كم جر من جيش الحوادث فيلقا
 وتنيله مالا يكون الأوفقا
 بغداد لما لاقى (غدا) متشوقا
 إنسان فى محياه أين المستقى
 لمنجم فى مبهم أن يصدقا
 لكنه هيهات أن يتمزقا
 ندر أنقصد مغربا أم مشرقا
 يجرى الزمان بنا كراكب أبلقا
 مهل وكن بالملتطى مترفقا
 إسعاد جئت تعيد عهدا أسبقا
 وأدار كأسا بالمسرة مغدقا
 ولقد سألت الله أن تتحققا
 والغصن بعد ذبوله قد أورقا
 وقد كست ظهر البسيطة رونقا
 من كدر وتسمى بالمسرة مشرقا

أديبنا

في حفلة افتتاح المجمع الأدبي بمعهد ابن خلدون سنة ١٣٥١

فإن لها ما بيننا حظ عاثر
فقد ذبلت فينا ذبول الأزاهر
وكونوا لها في القوم أحزم ناشر
وأهمل منها كل زاه وزاهر
منائر كم كانت تنير لسائر
يناجي ببلواه بطون الدفاتر
يعد بهذا القطر صفقة خاسر
ومن دون ذلك العيش شق المرائر
وبات محاطا بالحظوظ العوائر

خذوا بيد الآداب أخذ مناصر
خذوا بيد الآداب وارووا أوامها
خذوا بيد الآداب واحيوا مواتها
فقد كسدت في أرضنا اليوم سوقها
وقد جمدت منا القرائح وانطفت
وظل أديب القوم في كسر بيته
رأى أن ما أفنى الحياة لنيله
فاخلد للعيش الذي لا يوده
تخلي اضطرارا عن إفادة قومه

يعج بشكواه إلى غير عاذر
وعزتها القعسا قذى في النواظر
مضوا بعد ما أبقوا جليل المآثر
شعورا تبدى بين باد وحاضر
أمد بنى الدنيا بخير الذخائر
ولم تبق إلا دمة في المحاجر
وقد وقف الاعقاب وقفة حائر
يمكن حتى من لذيد التحاور
يحاذيه قولا ولا من مناظر

أيا قوم مالي لا أرى غير شاعر
فهل أصبحت آدابنا بعد مجدها
ألم يك هذا القطر منبت سادة
ألم يك منا من أفاض بشعره
ألم يك منا صاحب العمدة الذي
فمالي أرى الآداب صوح نبتها
ومالي أرى ذاك التراث مضيعا
أيحيا الأديب اليوم في تونس ولا
يعيش وحيدا لا يرى من محادث

تسائر عقد لم نوفق لجمعه
وفينا بفضل الله أمثال شيخنا الـ
تخال إذا ما جئت تسمع قوله
وكم شعراء بيننا قد رمى بهم
وكم شعراء بيننا لو تلاقحت

وعاش بنو الآداب عيش تناكر
كبادى الذى قد كان خير محاضر
كأنك مأخوذ بمفعول ساحر
خلو نوادى الشعر خلف الستائر
قرايحهم لم يعكفوا فى الأواخر

أيا أدباء العصر قد جد جدكم
ووالوا اجتماعات يعود انتظامها
فقد فتح النادى وكان لكم به
وهذا افتتاح ترتجى من ورائه
رعى الله هذى الخلدونية انها
دعتكم إلى الآداب كي ترفعوا لها
كأنى أرى روح ابن خلدون بيننا
تسائلنا ترك الخمول وترتجى
فلبوا جميعاً وانشروا من قريظكم
فأنتم إلى الفصحى حماة بواسل

فهبوا إلى إيقاظ كل معاصر
على قطرنا الزاهى بحجم المفاخر
مجال إلى الملقى وحسن التماسر
لنشأتنا الغرا افتتاح البصائر
سعت لاجتماع الشمل سعى مؤازر
مناراً وتبدوها بخير المظاهر
ترحب بالزوار ترحيب شاكر
جهوداً بها تهتز يوم التفاهر
دفائن قد فاقت عقود الجواهر
يزاد بكم عن حوضها كل ضائر

محمد السعيد الخالصي

ياوردة ...

ياوردة في الروض ضاع شذاها	ونمت بماء الحسن حيث سقاها
وتعهدتها في الصباح يد الندى	فبدت تدل بحسنها وسناها
ودنا النسيم لضمها فتمايلت	واحمر من فرط الحيا خداه
صوني بهاك فإنه يغري الوري	وإذا احتشوك تداولوك سفاها
ومدى الزهور إذا ابتذلن معجل	ومتى ذبلن غذا الثرى مشواها

أخشى عليك من الهجير فإنه	يهفو بروحك أو يطيل عناها
فيعيش بعدك عاشقوك قلوبهم	تشقى . . وقلبي في الأسي أشقاها

يا زهرة

يا زهرة غضت وضاع أريجها	فقطفتها قرب المياه صباحا
والليل أذرف دمه مترقرا	في كمها فبدى به وضاحا
ما للنسيم يئن حزنا بعد ما	ألقي عليك من الحنان جناحا
يهواك لكن ساءه يا زهرة	ألا يقبل تغرك الفواحا
لما درى أن الفراق بلا لقي	جعل الهبوب على الفراق نواحا
يا ليت كفى ما جنتك قساوة	آه لقد هيجت لي الأتراحا
ذكرتني تلك التي غنى نات	ومضت وبقت مدمعي سفاحا

حسين الجزيري

صوت من السجن

أي القلوب يرى ما قد عرى كبدي
لم يبق للدهر سهم في كنانته
آمنت بالله كم يلقى الرجال عني
وكم تقطع أسباب بهم ولكم
هو التجلد لو لا الصبر لا نبعثت
تبت يدا زمن لا زال يرهقنا
وامقت الضيم من كل النوائب ما
يسعى لترقية الأوطان مجتهدا
فالويل يطلبه والسجن يخطبه
حدث عن السجن بالاغراق لا حرج
إنى ابتليت به ردحا بلا سبب
طال العناء به والأهل في كدر
وكم يزيد التهاب الصدر من أسف
فلو قضيت لكان الحزن فارقه
لكنها اليوم تبكي وهي قائلة
بنى من لى بأن تمضى كيتائنا
بنى عز اصطبار عن لقاءك فهل
بنى مادام عز الدهر منعقدا
لكن سلوى يعدل سوف يستطع إذ
ألزم بنى ثباتا فيك أعده

ولا يذوب لما يلقى من الكمد
سهامه كلها آلت إلى جسدي
وكم يقاسون من ضر ومن نكد
يعدو عليهم من الأرزاء بالعدد
نار بأفئدة من باطن الجسد
بما يسير لعهد الشيب بالولد
ينوب من يبتغي الإصلاح للبلد
فيغتدى قائلا هذا جنته يدي
يغدو رهيناً عديم الخل والسند
هيهات أنسى له هو لا إلى الأبد
غير احتراق فؤادي في هوى بلدي
والدهر يسطو عليهم مسطوة الأسد
لذكر والدة تبكي على ولد
وفوضت أمرها للواحد الصمد
ياليته لم يكن قط ولم ألد
ويرمق الطرف منى فلذة الكبد
تبقى كما أنت موقوفا بلا أمد
على الفراق فما دمعي بمنجمد
أنت البريء ولم تجن على أحد
فسوف بالقرب تدنو عيشة الرغد



الهادى المدينى

مالى تطوح بى شعرى فصيرنى
ما الشعر إلا ضياء القدس قد سطعت
ما الشعر إلا حياة المرء قد برزت
ما الشعر إلا معانى الصدق قد سقيت
الشعر فى الكون سر غامض وهبت
كم بت كم بت من ليل أقارعه
حتى تمكنت منه فى العرين فما
كم ذا نشرت به من همة ركبت
وكم حرقت به أكباد طائفة
وكم سببت به فتاة برزت
وكم تغنى به الباكي على شرف
وكم تسلى به ذو الهم من نصب
وكم دعوت به قومي لمفخرة
وكم دعوت به من بات ذا وجل
فان سمحت به يوما لذي أدب
فالشعر أصبح لى تاجاً أكاله

أرى القوافى كالعسالة الذبل
أنواره تنجلي من فكرة الرجل
تختال فى حلال الألفاظ والجمال
بها طل من شعور المرء منهمل
كنوزه لعظيم القدر مكتمل
فلم أعد بسوى الخسران والفشل
أدعوه فى حادث ألا تمثل لى
وكم قرعت به من خامل وكل
رقيقة الطبع قد ذابت من الغزل
تسبى الورى برشيق القد معتدل
وكم تغنى به الباكي على طلل
وكم شفيت به المنهوك من علل
فشمروا لذرى العليا بلا مهل
فهب يسرع للجلى بلا وجل
تراه أسير فى قومي من المثل
والشعر أصبح لى من أنخر الحلال

« تحي العروبة والإسلام قاطبة »

نص القصيدة الرائعة التي ألقاها الشاعر الكبير الأستاذ الهادي المديني
الحاكم بالعدلية التونسية في الجلسة الختامية لمؤتمر الثقافة الإسلامية
(النهضة)

بارك بشعرك بارك كل من حضرا
بارك مناجيد في اقبحا حهم قبس
بارك غطاريف في آنا فهم شمم
من كل أروع ما في قوله فتد
ومعشر ما اصطفى آباؤهم سندا
قوم هم الأنف والإسلام يكنفهم
ما في حلومهم رين ولا ارتضعوا
شم وكم فيهم من ذادة ركبوا
جلسوا الحزون وقدوا القيد واعتصموا
كانوا كصقر قريش شاد مملكة
الملك لله كم من حكمة لمعت
وكم وكم في ذرى الزهر آ وناصرها
ومنذر ابن سعيد في محافلها
الملك لله كم من فيض قرطبة
وكم ألوك لسان الدين سطره
الملك لله كم من شاعر ذلق
أضحى التناثي بدلا عنهم وجري
عقد النهي في ذرى الفردوس منتشر
وكم على ضفة البسفور من أدب

وحى من عقدوا للعلم مؤتمرا
سناه في القسمات الغر قد ظهرا
أن ينسبوا ذكروا عدنان أو مضرا
وكل ذى حسب عديبه افتخر
إلا المروءة والصمصامة الذكرا
قد طاولوا النيرين الشمس والقمر
إلا أفريق منها الطهر قد قطرا
مستبسلين لإدراك العلي خطرا
بالعزم والصبر والدنيا لمن صبرا
بعزيمة كالجرار العضب قد بتر
من أرض اندلس قد أعيت الفكر
شام الجحما أدبا جم السنى نصرا
يخط حكمته للدهر والعبدا
على ذرى الغرب لآلاء النهى انتشرا
من ضئضىء الأدب العالى قد انحدر
قد سطر الخلد آيات له غررا
في الحفل ما قد جرى من بعد ما زدهرا
فهل سنجمع عقدا للنهى انتثرا
جم وفن به قبض الجحما زخرا

بآل عثمان أدواح النهى ازدهرت
بآل عثمان والإسلام يحرسهم
سائل أدرة أو فاسأل معاهدها
عدل وعلم وإيمان وفرط حجا
و هل كمثل سليمان لمذكر

وأينعت وهم في الحرب أسد شرى
أضواء بالغرب نور للنهى بهرا
تجدد من الأدب السامى بها أثرا
بها على الدهر عثمان قد انتصرا
فاذكر سليمان أما كنت مدكرا

* * *

ايه تطوحت الذكري بذى شجن
له إذا ذكر الاسلام منصلت
وفي اللهاة سنى أقباسه سطعت
وللحقيقة أصدا مدوية
ما فى حضارتنا الغناء من شبه
وفي صقلية من أمرها خبر
ما فى ثقافتنا والله منشئها
ما فى ثقافتنا والله منشئها
فيها الحياة وصرح الحق يعصمها
آفاقها اتسعت فى كل ضاحية
فى بطن مكة والأكوان نائمة
فما الحقيقة إلا من حراء سرت
حوض الثقافة فى أم القرى نهلت

فهب يذكرك مجدا زاخرا غبرا
يفرى الحوالك ان ليل الهوى اعتكرا
كالصبح تظهر للأجيال ما استترا
كالليث إن ثار أو كالليث إن زارا
فاملا بها السمع أو فاملا بها البصرا
وعلى دبر كسينو يعرف الخبرا
إلا كال هدى طالت به عمرا
إلا من الخلد ثر انهل العصرا
إذا الحجوا والحجما من حولها اشتجرا
لكل فن وأبدت آيها الكبرا
اطل أيمن نجم أنقذ البشرى
وما سنى العلم إلا من حراء سرى
منه الليالى وعنه الدهر قد صدرا

* * *

وبعد سقيا لمن رام الشخوص لنا
أهلا بمن عبروا بحر أو من سلكوا
أهلا بقافلة الألباب ذائدة
صالت صيالا بمصقول له الق

فما سعدنا وأهلا بالذى حضرا
بيدا حزوننا وأموا جمعنا زمرا
عن الثقافة ذودا بالحجا انزرا
من النهى فيه ممدان النهى ظفرا

وما الثقافة إلا ذوب معتصر
والرأى كالقول في الإسلام محترم

من النقاش به سر الجحا ظهرا
فاجهر برأيك واحفل بالذى جهرا

الله أكبر ما في الحى من أرج
النيل ام بردى فاضت سيولها
أم ذاك في الهند إقبال وصاحبه
أم نسمة من ذرى لبنان عاطرة
أم هبة من أفاريج الرياض جرى
أم سبعة من هزار في طرابلس
أم خاطر من منى فيح مقدسة
أم نفثه من قصيد قمت أنشده
في شعري اللغة الفصحى زكت عبقا
تزهو العروبة إذ أتلو فواصله
وللعروبة أهداف ستبلغها
إيه بنى العم والإسلام يجمعنا
رابطتم وأقتم معقلا عجبا
خضراؤكم يا بناة المجد نقرئكم
وتلكم الراية الحمرا تودعكم
تحى العروبة والإسلام قاطبة

وما الذى ملا الآذان والنظرا
أم الفرات برقراق النمير جرى
في الفن قد نشرا والشعر ما نشرا
قد ضمختنا بأعباق الهوى سحرا
بها شذى الشيخ فيء اكاه عطرا
شدا فاذا كرنا في خلده عصرا
من الجزائر أو مرا كش خطرا
فهز من كل قلب نابض وترا
فيه الطموح ووشى للنهى ندرا
أو كلما قلت معنى فيه مبتكرا
مهمادجا حالك في الأفق واعتكرا
قضيتم من لبانات النهى وطرا
شمنا به العقل مزهوا قد انتصرا
تحية من فؤاد بالهوى أخطرا
إنا كتمنا عصي الدمع فأنحدرا
وليحي من عقدوا للعلم مؤتمرا

زين العابدين السنوسي

ترجمة محمد بو شريعة

نشأته :

ولد مترجمنا في بيت كد وعمل بمدينة القيروان سنة ١٣٢١ هـ . فآتم تعليمه الابتدائي في مدرستها القرآنية ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٥٠ فتحصل على أجازتها سنة ١٣٤٥ .

وقد نشرت له أهم الصحف الوطنية قصائد بديعة أواخر مدة دراسته كما أنه كان محرراً بجريدة (القيروان) .

أدبه :

عرفنا الشيخ أبا شريعة منذ عامين فعرفنا نفسا كبيرة ودودة تواقفة متحفزة لكل جليل لو أعانها الدهر عليه .

وقرأنا أدبه فاذا بنا نستعرض الروح النقدية الهدامة في عاصفة هوجاء تكاد تقصف كل شيء .

برم بالحياة والناس وطرائق الوجود . حتى يكاد ينقلب تبرمه ذلك إلى (سوداء) مدلهمة لن يبين فيها ضياء أمل ولا نور رجاء . ناهيك بمن يتبرم بأهله وأصهاره .

ألا أن ديني وأعتقادي وشرعتي جفائي لأصهارى الأولى زوجواتنا وإن كان هذا القول مما يعيبه على أناس لا أقيم لهم وزنا ويتبرم ببيته :

وكيف حياة من أمسى نزيلا بيت مظلم الأرجا حقير

يرى فيه طوالع نحس عيش فينذره بشـر مستطير
وبمسقط رأسه ومنيت أهله وناسه:

وددت لو أن الله أهلك قومنا وصير أصقاع الفساد خواليا
وأرسل قوما يحكمون بأمره عسى يبعث الإسلام في الأرض ثانيا
بل هو لا يعدم وسيلة تبرر له التبرم بالنعيم والملاذ والمجيبات الثلاث:
المال والجاه ووسائل الحياة. فيسخط وينزجر حتى يتمناها لا عادية دونه وقومه
أكل وشرب ونوم والجماع غدت هذى البلايا ممل دومها فينا
والمال والجاه والأنساب مفخرنا ياليت هذى الرؤايا في أعادينا
وهكذا تراه في أدبه دائب الحماس السودوى حتى لا تكاد تحسبه آيسا
من كل إصلاح ويكاد يمثل في عصفه ذاك دور المنتقم من هذا الجيل الضال
عوض المرشد الملائف .

وما أحسبه يائسا ولكنه التعطش المسترسل وشدة الإحساس بإضرار
الحالة الراهنة تدفعه لذلك الموقف الجاف العائد .

يقولون لى قد هجرت بلادا لها المجد فيما مضى والفخار
وكننت عليها مع النائبات وأنت أبنتها من عريق النجار
ولم ترع حقاً لتقديسها وتعظيم مستوطنيتها الخيار؟
أقول وهذا الكلام ملاك وطال استماعى لهذا الحوار
نعم إننى قد هجرت بلادى وعفت مقامى بتلك الديار
لجهل بنيتها وخبت ذويها ووضع العظام ورفع الحفار
ولو كنت أرضى رقياً ضئيلاً ومجدا يسـول إلى الاندثار
لكنت بنهضتها معجبا ووشيت ثوبى بوشى معار
أريد لها المجد غضا غريرا دعائمها راسخات القرار
كمجد ابن باديس أو مجد أغلب أما التمجيد فهو الشنار
تلك هى روحه النقدية الهجامة التى تستولى على جميع لهجاته حتى أن
حديثه العادى يأخذ أسلوب المناقشة وطريقتها أما جزالة نسجه الشعرى
فمن البديع الفائق .

محمد الفاضل ابن عاشور

تأسيس القيروان

فيما بلغنا من أخبار تأسيس القيروان ما يشهد بأن الظروف التي كانت تحيط بذلك التأسيس كانت قاضية للقيروان بأن تكون عاصمة الثقافة العربية بالمغرب .

وفي التشابه الذي نرى بين تأسيس القيروان وتأسيس مدينة الفسطاط بمصر ما يوضح لنا نوعا ما المركز الذي كانت العرب تؤمله لهاتين المدينتين . فكلتا هاتين لم تلبث أن نشأت معسكر جيش حتى انقلبت إلى مركز ثقافي ذي شأن كبير في تاريخ الفكر البشري .

وفي كليهما تعتمد الفاتحون إنشاء المدينة الإسلامية على غير أطلال مدينة سابقة شأنهم في فارس والشام بل أخرجوا من العدم تينك المدينتين العظيمتين اللتين كان مبدؤهما خيام الجيش الفاتح . فما الذي كان يدفع لهذا ؟

الذي كان يدفع له فيما يظهر أن الثقافة العربية التي دخل الفاتحون يحملون مقابسها بالشمال وسيوفهم باليمين وجدت نفسها في هذه الأرض الأفريقية غريبة مزاحمة بعناصر مخطرة على حياتها .

فالدين المسيحي من قرطاجنة يفيض على العالم والإسلام قد قطع عليه طريقة وسد في وجهه مسالك الانتشار .

والحضارة التي جمعت بين عناصرها المختلفة روح البحر المتوسط وطافت العالم شرقا وغربا في طي الاستعمار الإغريقي اللاتيني كانت تجد في السواحل التونسية طرق انتشارها التي سقطت في يدي فاتحين قامت لهم سفائن البر مقام سفائن البحر .

ووراء تلك السواحل في دواخل المغرب كان البربر يعتصمون بطبيعتها المخالفة لطبائع أرض الغزاة إلا ولين فيهم كفون على حياتهم البربرية وعقائدهم الوثنية ورأوا في الغزاة العرب استعدادا لتحمل طبيعة أرضهم وأقداما على بث الدين الذي جاءوا يحملونه بينهم .

فعلى توفر هذه المزايا كانت الحضارة العربية على جدة عهدا بهذه الأرض نموت محتقة في مهدها إذا هي لم توجد لنفسها معقلا وحي منيعا وتحسكت بالعناصر العدو فلا سبيل تجده لحفظ حياتها وضمان القدرة على المقاومة إلا بثلاثة أمور .

الأول الاحتفاظ على المزاج العربي بإبقاء حياته على معتادها والنزول به منزلا يقرب من طبيعة الأرض العربية .

ثانيا - الاحتفاظ على الوحدة العربية والخلق العربي بالبعد بالفتحين عن غيرهم وحفظهم من الاختلاط .

ثالثا - البعد بالروح العربية عن المدن العتيقة التي تجعل من ذكريات الحياة التي مرت به قرونا ما يوحى نفسية خاصة بتلك البلاد قد تصبح مصارعا للروح العربية في نفس الفاتح .

تلك ثلاثة الأسباب التي دفعت لتأسيس القيروان على نحو ما ينقل لنا التاريخ فقد حكى البلاذري في فتوح البلدان عن المكان الذي أنشئت فيه القيروان قائلا : « وكان موضع غيضة ذات طرفاء وشجر لا يرام من السباع وحيات والعقارب » .

فهناك وفي ذلك الطقس الصحراوي الجاف المناسب لطقسهم المعتاد أقام العرب مدينتهم لا يعمرها إلا العرب ولا تتأثر إلا بالعربية .

فكان ضروريا أن تكون حيى العربية تنتشر منه وتأوى إليه محترزة به كلما دعاها لذلك داع ودامت على هذه العملية عملية المد والجزر طيلة القرون وكانت كما رام منها العرب الفاتحون أم هذا المغرب العربي كلا كما كانت الفسطاط لها أما وجدة للمغرب العربي .

جريدة النهر

إن الدهر علمنا ومن لم يؤدبه الدهر لا يتأدب أبداً بأننا ما أردنا تحويل عمل
من الأعمال إلا ودخله من التغيير ما يقضى على كيانه ويكون سبباً في خسران
عظيم وتقهقر مريع والشواهد على ذلك لا تحصى ولا ينكرها إلا مكابر
أو عنيد . وما وجود الخلافات بين بعض أفراد من التونسيين واحترام
المنازعات بينهم حتى تؤدي للخروج عن المقاصد الأصلية إلى الشخصيات بل
إلى أسباب واستنقاص الذوات إلا أعظم دليل على ما قلناه .

أنا نطلب جميعاً الإصلاح ونتشوف إليه كما يقوله كاتب النهضة لكننا
لا نطلب إلا إصلاحاً وفقاً لقوميتنا وديننا وذلك ما أجمع عليه التونسيون
وأما تصديره كلية عصرية وإدخال اللغات الأجنبية فيه والأجانب فليس من
الإصلاح الذي نرغب فيه لما رأيناه في المدارس الأخرى من نتائج فلذات
أكبادنا التي أنستهم الدين وتركتهم في واد الضلالة يعمهون .

أنا نريد أن نكون مسلمين محافظين على ديننا وعوايدنا واعتقاداتنا قبل كل
شيء عاملين بقواعد الشريعة الإسلامية نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا ونحن
كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً وكالجسد الواحد نتألم جميعاً بتألم بعضنا .
ذلك ما نريده وذلك ما نطلب المحافظة عليه بجامع الزيتونة ولا نريد به
بدلاً لانا نعلم ويعلم كل العقلاء إننا إذا عدلنا عن هذا السبيل نتدهور إلى
الخصيصة ويقضى علينا القضاء الأخير الذي هو متمنى الأغيار وغير المخلصين
إن سرورنا كان عظيماً جداً بذلك العنوان الضخم لكن كان استيائنا
بقدرة فرحنا بل أعظم عندما فهمنا أن المقالة إنما كتبت لبعض الأغراض الشخصية
نحن لانستعظم الناس بعناوينهم وإنما نعتبرهم بأعمالهم لكن إذا رأينا

تصيير الخير شرا والشر خيرا وقلب الحقائق فإنه لا يسعنا السكوت كما هو مقتضى واجب الأمانة والدين .

يلوح من كلام الكاتب أنه يرغب في المبادرة بالإصلاح لكن قوله أن هناك أناسا عرضة لإتمام الرغبات وعقبة في سبيلها وطلب فصلهم بدون ذكر صفاتهم ولا مميزاتهم بما يدعو لأن نقول أن ذلك المقال ابرخال عن الفائدة أو أن هناك مقصدا للكاتب في ذلك الإيهام لغرض في النفس نعم أنه ذكر صفة الرجعية التي هي اليوم سلاح يهاجم به بلا حدة الدين ومن تمسك به في هذه البلاد .

إن كان قصد الكاتب من معنى الرجعية التي يستند إليها في طلب فصل أولئك الذوات محافظتهم على اللغة والدين بكل قواهم وعدم إدخال الأجانب وما لا فائدة فيه إلى جامع الزيتونة فإن جميع التونسيين رجعيون بهذا المعنى لا يمكنهم التساهل بحال ولو كره المعاندون .

انا نعلم أن هناك بعض أفراد تقدسهم النهضة في اللجنة وهم الذين يعملون لقتل اللغة العربية والدين وأفساد نظام الجامع بدعوى الإصلاح لأجل أن يحصلوا على شهرة كاذبة ومركز موهوم .

إن الخير كله أن ننظر في الإصلاح نظرة صحيحة متحاشين عن الأغراض حتى نجعله موافقا لنفسيتنا وقوميتنا ونبتعد عن كل مانتوهم فيه اتياننا بعكس المقصود حتى تكون عبر الدهر وكوارث الزمن قد أدبتنا وعلمتنا الواجب وأرشدتنا إلى الطريق السوي الذي نسير عليه .

إن الواجب علينا إذا أردنا أن نحكم حكما عادلا بالنسبة للأفراد المكلفين بالإصلاح أن نعرف قيمتهم لنعلم الأحق بالأبعاد هل الذين ندعى أنهم رجعيون أو الذين اشتهروا بالطيش والتنطع في الدين وهم لأهل الأحاد معاضدون وعلى أعمالهم راضون .

من يدع الإخلاص وحده

فهو غير مخلص

« تلك صحيفة لا تتجاوز أبدا حرارتها الاعتيادية عشر درجات وأنه لتحدث كل يوم في العالم حوادث تضرب لها رصانة أحكم الحكماء فالأمم الإسلامية والشعوب المستعمرة تقاسى أشد الويلات وإذا ادعى المرء أنه مسلم صميم وإذا كان ممن ينكر الاستعمار فإنه لا يجد من العبارات ما يفي بالإفصاح عن نكبات تلك الأمم وآلام هاتيك الشعوب . ولماذا نذهب بعيدا فهذه البلاد نفسها قد تأتي عليها أحيان من الدهر يكون فيها حظ أبنائها باعثا لإخراج صرخات من الفؤاد لا تستطيع كتبها ثقافة متدلية . فهناك من الأميين ومن لفيف الشعب من يتأثر ويتحرك بل ويثار في بعض الأحيان . إلا رصيفتنا فهي في مستقرها محافظة على درجاتها العشر من الحرارة وعل برودة الدم المناسب لسنها الذي هو أربع وأربعون سنة » .

هذا نموذج مما تكتبه في حق هذه الجريدة رصيفتنا العزيزة « صوت التونسي » وهذه هي تحفة القادم التي شرعت منذ عهد غير بعيد في اتحاف صحيفتنا بها بعد أن أخذت على عاتقها مهمة التناول على الشخصيات التونسية وتوهين أسس السيادة القومية .

وإذا كان نسيان الماضي هو من أخلاق الشعوب المتدلية وإذا كان ضعف الذاكرة في الأمم هو أعظم عنوان على أن هذه الأمم لا تستحق الحياة ولا ينبغي أن تنشأ أي عظمة أو سودد جاز لنا أن نحكم على مدير « صوت التونسي » وعلى الفئة القليلة التي لاتزال متشعبة له أنهم لا يستحقون الحياة لضعف ذاكرتهم ونمو ملكة النسيان في عقولهم وإن شاؤوا وضع هذا الإغفال على عاتق غليان صدورهم بالحقد وامتلائها بعاطفة إنكار الجميل والرغبة في التفرد بكل عمل والظهور بمظهر المنقذين لهذه الأمة من شقوتها والضرب على أيدي العاملين من قبلهم الذين مهدوا لجهودهم السبل فالخيبة

أدهى وأمر والسيئة أفدح وأعظم فإن من يدع الإخلاص وحده دون غيره
ويعلن في كل مناسبة عن ضميره أنه طاهر نقي وعن إحساسه أنه شريف
عفيف وإن غيره « ضمير مأجورا ومأجور بدون ضمير ، فهو المجرد حقا عن
الإخلاص وهو الفاقد لكل الشعور .

ولقد ذكرتنا هذه الحملة المنكرة التي أشهرها مدير « صوت التونسي ،
على أقدم جريدة عربية في هذه الديار بدون ذنب منها سوى أنها أعربت
عما تعتقده ويعتقده معها كافة العقلاء المنصفين حقا من وجوب الاقتصار
على انتقاد رأى فضيلة شيخ الإسلام في الإصلاح لا التعرض لشخصيته
المحترمة أو لشخصية المولى الوزير الأكبر بالتحقير والازدراء والاستعانة
على ذلك بالأباطيل وسرد الخرافات التي تجلب النوم لسامعها فإن شخصي
هذين العظيمين كشخصيات غيرهما لا شأن لهما في تقدير قيمة أفكارهما صحة
وسقما . يقول أن هذه الحملة المنكرة وهذا الاندفاع الغريب في السباب الذي
شاء أدب السيد الشاذلي خير الله وهو بمثابة الأبن أو الحفيد لنا أن يقذف
به إلينا مع أننا استعملنا غاية الاحتياط في تحرير كلمة النصيح التي كتبناها في
هذا الموضوع فلم نذكر اسم جريدته صراحة بل قلنا بعض رصيفاتنا مشيرين
بذلك للنهضة وصوت التونسي أما النهضة فقد ردت علينا في أدب ومجادلة
بالتى هي أحسن وأما « صوت التونسي » فقد شمر عن ساعد الجد وركب
خياله الحربية وأتى بمساعدة من مخبيات دفينه ومن أحقاد كمينه ضد الصحافة
العربية وضد الثقافة الإسلامية التي يتجاهر مديره باحتقارها والعمل على
محقتها لأن رجالها في نظره مخادعون منافقون ولأنها لم تعد تصلح لهذا العصر
ومن الغريب أنه من بعض محسنى الظن من الوطنيين التونسيين ومن خيرة
المحافظين على تراث الآباء والأجداد من أعانه على تحقيق نزعته هذه ومد له
من المال خطبا لتزداد به النار وقودا ويتسع به نطاق التخريب والتدمير .

تغيير صبغة جامع الزيتونة

كشفنا ما أضمرته ثم أظهرته الفئة الضئيلة نحو جامع الزيتونة ومحاولة تجنيسيه بسلبه من الصفة الدينية وإحاقه بعموم المدارس الدولية ويستندون إلى جدليات يخادعون بها الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد أردنا الآن محاسبتهم حسابا يسيرا أما العسير فسينالونه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . كما أردنا مناقشتهم في عدة مفتريات سودوا بها صحيفتهم يوم السبت الفارط وتزييفها بما يثبت أنهم رواد فساد والحاد متكبرون عن سبيل الرشاد لو لم تستطع النهضة الهاوية السحيقة وتكالبت على المطالبة بالتوغل في غير العلوم الدينية من غير تهجم ولا ولوغ في الأغراض الشريفة لعذرناها وقلنا أنها مقتدية بغير المتدينين من بنى إسرائيل الذي لا يعبدون إلا الدرهم والدينار وحيث حادت عن الجادة المثلى لزم إرجاعها إلى الصراط السوى حتى يتبين لها الرشد من الغي .

وبعد هذا فإن خوضها في تعليم غير العلوم الدينية عبث محض إذهو أمر مفروغ منه قررت فيه اللجنة قرارها بما لم يبق معه رأى لمخازف .

وقد كان من واجبها أن تكون أدرى الناس به ضرورة أنها تمت بصلة متينة جدا للفئة القليلة التي نستقي منها الآراء وتنبذ في مقابلة تأييدها الحقيقة إلى الورا .

وقد رأينا أن من واجبنا الألمانح إليه عسى أن تخمد نار الفتنة التي أضرمتها جمعت آراء لجنة الإصلاح بين المحافظة على كيان الجامع وتدريس العلوم الحيوية فأبقت الجامع للعلوم الدينية ووسائلها التي أعتيد تدريسها فيه . وقررت تخصيص محل آخر منفصل عنه تابع له تدريس العلوم الأخرى وقد

يقع الخوض في تعيين مكانه وأشير بالقشلة الكائنة بالعطارين كما أشير
بأحداث محل قرب باب العلوج . وعلى كل حال فتقرير تخصيص المحل أمر
مفصول فيه ولم يبق إلا النظر في تعيين مكانه وسيقع البت فيه فيما بعد .

تقول النهضة الساقطة في كلام المغالطة من الغريب أن يصر فضيلة شيخ
الإسلام على أن علوم الرياضة إنما تدرس مبادئها فقط ويغيب عنه أن الجامع
هو المعهد الوحيد التي يتخرج منه الفرضيون ولا يدرى كيف يتخرج عالم
جدير بهذا الاسم في علم الفرائض لم يتلق إلا مبادئ علم الحساب وهو انتقاد
فاسد يدل على جهل عميق فإن علم الحساب وسيلة لعلم الفرائض التي هو من
علوم الدين ورأى المشيخة الإسلامية صريح في دراسة علوم الدين وآلاتها
الموصلة إليها بالجامع الأعظم وإذا علمنا أن الوسيلة تأخذ حكم المقصد كان
التوغل في علم الحساب مطلوباً كما هو مطلوب في أصله فهو داخل في وسائل
العلوم الدينية لا في مبادئ الرياضيات ولهذا تعرض إليه في أوليات تأليفهم
بالقصد وبالذات كثير من مؤلفي علم الفرائض واعتبروه كأنه منه وجاءت
تأليفهم مشتملة على ثلاثة جمل الفقه والحساب ثم العمل وبهذا الإيضاح زال
الاعتراض لمن لم تكن في قلوبهم أمراض .

جريدة النهضة

مسألة التعليم بالجامع الأعظم

طلعت علينا رصيفتنا « الزهرة » الغراء صباح يوم المولد النبوي الشريف بمقال تحت العنوان أعلاه . نيكاد نجزم لقرائنا بأننا لم نر مقالا مثله فيما تضمنه من مغالطة وسفسطة وتلاعب بالألفاظ الرنانة مثل « الدين القويم » واللغة القومية والإيمان ونحوها من الكلمات . ولو وقف عند هذا الحد لكان أمره نوعا ما . ولكنه تجاوز ذلك إلى المجازفة في الحكم على الضمائر وتكفير هذا وتضليل ذاك .

وكانا بحضرة الكاتب المقنع قد شعر بعد الفراغ من كتابة مقاله هذا بما أرتكب فيه من أمور تنقص من سمعته ككاتب وكفكر وتسقط من اعتباره بين قرائه فاضطر تحت هذا التأثير إلى الإختفاء . والتجأ إلى كلمة « مسلم » يستشير بها عطف القراء .

ولعمري أنا لا نجد تأويلا لهذا الاختفاء غير هذا . لأن من يطالع المقال بدون أن ينظر إلى ما وراء الألفاظ من الغايات والأغراض يجد أن جريمة هؤلاء الذين يحمل عليهم الكاتب هذه الحملة المصطنعة ليست من الجرائم الهين أمرها بل هي الخيانة العظمى في أتم مظاهرها — من الكفر والإلحاد إلى حماية الملاحدين والمضلين ومحاربة القومية التونسية ومحاولة القضاء عليها . وإن من يحجم عن الوقوف في وجه مثل هذا المجرم الخائن — الذي تخيله كاتب المقال ويحتجب وراء لفظ مبهم أجوف لا يتعدى أمره أحد

احتمالين : إما أن يكون جباناً رعيدياً لا يستطيع أن يجهر برأيه في وضوح النهار . وأما أن يكون من المنافقين الذين يزينون لكل من الخصمين رأيه ويطعنون لديه في رأى سواء . ويعملون على اتساع شقة الخلاف بين الفريقين وسلاحهم الغيبة والدس في الظلام .

وكلا هذين شر لا يرضى كاتب يحترم نفسه أن يعرض لمثله قلبه . ونحن بدورنا لا نرضى بأحد هذين الإحتمالين توقف فيه كاتب المقال بل نذهب مع حسن الظن الجدير بالمسلم ، ونرى أن حضرته إنما وضع القناع على وجهه لأنه يجد في قرارة نفسه أن ضميره يأبى عليه أن يضع اسمه الصريح تحت مثل هذا المقال . ولا نشك أن ذلك الشيخ الوقور صاحب الزهرة ، الغراء قد شعر بما في المقال من الأمور التي أوجزناها فتردد طويلاً في نشره وأخيراً اضطرب بعد الإلحاح أن ينشره تحت المنبر العام إشعاراً بالتبرى بما جاء فيه . وهنا نرى حتماً علينا أن نلخص للقارىء الكريم مقال « النهضة » الذي أثار وسخط حضرة الكاتب وسخط الذين وقفوا وراءه واتخذوه قطاء يتناولون بيده ما عز عليهم تناوله بأيديهم .

تضمن مقالنا السابق الإعراب عن التذمر الشديد الذى ساور عموم الأوساط التونسية من تشاقل سير لجنة الإصلاح التي ولدت منذ أمد مديد ولم تنته إلى نتيجة حتى الآن وان الحكومة المغربية انتظرت نتيجة هذا الإصلاح فى تونس لتسن نظاماً لجامع القرويين على مقتضاه . ولكنها انتظرت طويلاً بدون فائدة . فعمدت إلى تشكيل لجنة من بين خيرة علماء القرويين تولت سن قانون شامل وقدمته إلى حكومة الحماية وسرعان ما صدر هذا القانون وأجرى العمل به فى مفتتح السنة الجارية .

ثم نوهنا بأن هناك فريقاً من أعضاء اللجنة يقفون موقف المصادرة لكل إصلاح تطالبه الأمة سواء تعلق أمره بالجامع أو بالمحكمة الشرعية . ويحاول سلوك سياسة المماطلة وتخدير الأعصاب أن يخفت صوت المطالبة بالإصلاح ويشهر فى وجه خصومه سلاح التضليل والتفكير ليثير عليهم لإحساس الدينى فى أنفس الأمة .

وأخيراً حذرنا الحكومة من عودة الإضطراب إلى أواسط الطلبة وأبناها أن الناس أصبحوا يتحققون غايات بعض أعضاء لجنة الإصلاح . وأن الطلبة أظهروا عزمهم وآمالهم فليس من الممكن اخفات أصواتهم ومعاملتهم معاملة ضعفاء المتقاضين من أرامل ویتامی وعجزه . وهم الذين يقابلون ما يلحق بهم من أذى بالبيكاء والشكوى إلى الديان يوم الدين .

ثم ختمنا المقال بطلب إبعاد هؤلاء الذين يعرقلون سير الإصلاح عن اللجنة وألفتنا أنظار سمو الأمير الجليل أن يعتمد إلى تفادى الخطر الذى تجتم وراه هذه الألعاب والدسائس بسامى حكمته وصائب رأيه .

هذا هو مقال « النهضة » فأى شيء فيه « يوجب الاستياء » أو يدل على « أنه كتب لبعض الأغراض الشخصية » وأى شيء فيه يحمل « المسلم » على أن يناشد كاتبه « أن يتقى الله فى الإسلام والمسلمين »

ان من يقرأ مقال « العلم » لا يكاد يمضى فيه طويلاً حتى يتبين له من بين السطور أن حضرة « المسلم » عدو لكل إصلاح . لأنه يزعم أن الإصلاح الذى ندعو إليه « سيكون سبباً لهدم كيان المسلمين وواسطة لبث الكفر ودعايته والقضاء على الدين قضاء مبرماً لأن الدهر علمنا . . . ومن لم يؤدبه الدهر لا يتأدب أبداً — بأننا ما أردنا تحوير عمل من الأعمال إلا ودخله من التغيير ما يقضى على كيانه ويكون سبباً فى خسران عظيم وتقهر مريع . وإن الخير كله أن نبتعد عن كل ما تنوهم فيه (كذا) إتياننا بعكس المقصود حتى تكون عبر الدهر وكوارث الزمن قد أدبتنا .

ونحن إزاء هذا لا يسعنا إلا أن نسأل حضرة « المسلم » ما هو مسمى الإصلاح فى نظره ؟ وما هو رأيه ورأى الغريق الذى تطوع بالدفاع عنه فى النظام الذى يرون سنه للجامع الأعظم . فإننا لم نر لحد الآن واحداً من الذين حاولوا أن يشنوا غارة شعواء على رجال الإصلاح يقدم للناس طريقة عملية أو مشروع نظام للإصلاح .

في القصر الملكي العامر :

ولايات سامية

في الديوان المعمور ومشخة الجامع الأعظم

توديع وترحيب :

لقد ودعت بالأمس الكلية الزيتونية العامرة في شخص صاحب الفضيلة والكرامة والمجادة الشيخ سيدي صالح المالقي أحد كبار رجال العلم والفضل والحزم والنبيل والإستقامة والنزاهة والأخلاق الشريفة القويمة والسجايا الجميلة الكريمة والزيتونية لا تنس أبداً أن شيخها السابق قد بذل في بحر العشر سنوات الأخيرة التي قضاها على رأس إدارتها في سبيل سعادتها كامل جهده واستفرغ من أجل إقرار الأمن والراحة بها كافة طاقته وهي ستذكر على مر الأيام أن فضيلة الشيخ صالح المالقي يعد من هؤلاء الرجال القلائل الذين يتصفون بالشجاعة الكاملة والشبات السامي يوم تضطرب الأحوال وتهب العاصفة . فكم عرفت الزيتونية من عواصف في عصره ولكن لم ينل قلبه خلالها فزع ولا جزع ولم يطرق فؤاده أبداً وجل ولا هلع وإنما كان صائب العزم وافر الحزم وإن الزيتونية لمدينة له بنتائج هاته الخصال النبيلة والشيم الجميلة .

واليوم تقوى دعائم الكلية الزيتونية العامرة وأركانها وتشهد عراها



وتتأكد قواها ويتدعم بنيانها . فقد رجع الأمر إلى أهله وعاد إلى مورده وأصله . وأخذ القوس باريها وسكن الدار بانيها . وفاز بالدر عائصه وحاز الصيد قانصه .

إن الزيتونية لترحب اليوم من جديد وتبرك وتقيم بالمولى الإمام العلم الهام صاحب الفضيلة والعلم وأخ الحلم والفهم شيخ الشيوخ سيدى محمد الطاهر بن عاشور . وانه ليحل اليوم فى قلوب أبنائها أطف محل وينزل من نفوسهم أكرم منزل فقد انتظروه طويلا ورجوه وترقبوه وأملوه لأنهم لا يعرفون فيه فحسب العلامة الكبير والباحثة النحرير الخطير بل يعرفون فيه أيضا رجلا حصيف الرأى نافط البصيرة شهم الصريمة . شديد الشكيمة بعيد الغور . رجلا عجمته الخطوب وحنكته التجارب . رجلا لا يذكر من سهو ولا ينبه من غفلة . رجلا يحب الصالح من الجديد ويمقت البالى العتيق من النظم والتقاليد . رجلا يؤملون منه أن يبنى الكلية الزيتونية العزيزة منارا بحول الله لا ينهدم ويشرح لها طريقا لا ينسكتم ، وأن يرفع بعون الله للمعرفة بالديار التونسية راية لا تنكس ويجعل لنا بين ظهرانيها غاية لا تنطمس .

حقق الله آمال الزيتونية ووفق الجميع لحسن الصنيع وهوولى الهداية والتوفيق .

الخلاف بين الزيتونيين

وبين الدستور الجديد في نظر الاشتراكيين

تعرض «الحكيم كوهين» حضريه، في العدد الأخير من جريدة «الأخوة»، لسان حال الشعبة الاشتراكية التونسية للخلافات التي شجرت أخيراً بين الطلبة الزيتونيين وبين بعض عناصر من الشبان تابعين للدستور الجديد. وكان أسوأ مظهر لذلك الشجار بين الأخوين ما حصل يوم الثلاثاء الفارط أمام القصر الملكي بقرطاج واستنكره كل مدرك الحقائق الأشياء وكل من في قلبه حبة من خردل من الشعور الوطني.

وقد رد «الحكيم» حضريه، هذه الخلافات التي برزت أخيراً بمظهر عنيف لا لتغيير موقف الدستور الجديد من حركة الإصلاح الزيتونية تبعاً لتغير حالة من المعارضة إلى الحكم، ولا لصلافة الزيتونيين وعدم استطاعتهم المصانعة والمجاراة في غير موضعها وعدم احتمالهم النفاق الذي لا يمكن أن يساكن نفوساً طاهرة لا تزال على فطرتها السليمة، بل للشقاق القديم الذي انفجر منذ قرابة الربع قرن بين شقي الدستور قديمه وجديده فقال: «إن الدستور القديم يعتمد في حركته على أبناء البيوتات العريقة وعلى طبقات البلدية والمحافظين محافظة تقليدية ويسانده الجامع الأعظم، بخلاف الدستور الجديد الذي هو متركب من شبيبة مثقفة وذات حيوية ونشاط وهي منحدرة في الغالب من أرومات نصف بلدية أو شعبية وتلقت معلوماتها في المعهد الصادقي أو في الليسي كارنوا أو في المعهدين معاً وأتمت دراستها في فرنسا وفق شروط مادية عسيرة في الغالب واضطرت طالباً لتنمية مواردها للاختلاط بالطبقات المتواضعة من الشعب الفرنسي. ولما رجعت هذه الشبيبة لتونس بعد أن اختلطت حيناً من الدهر بالحركات الاشتراكية أو الشيوعية لم تلبث أن



اصطدمت بصخرة التفوق الفرنسي وتبين لها في آن واحد سوء تفهم أغلبية الجالية الفرنسية بتونس وعجز معظم مواطنيهم عن التخلص من شغشغة لسانية عليها مسحة من المطالب الشعبية لكنها تخفى في الواقع ونفس الأمر رغبة عميقة وإن تكن خفية في توطيد دعائم امتيازات الأعيان والطبقات الاجتماعية ذات الوجة والاعتبار .

فما كان من زعماء حركة الانشقاق الدستوري إلا أن كونوا حزبا شعبياً وجاسوا خلال الشعب بنفس وسائل الدعاية التي يستعملها في أوربا أحزاب أقصى الشمال إلا أنهم اضطروا في بادئ الأمر امتثالاً لقواعد « التكتيك » السياسي للنفخ في ضرام الشعور بالكبرياء الكامن في نفوس كل الذين يعتقدون أنهم يحملون في نفوسهم العقيدة الصحيحة وبموجب ذلك كان انتشار مبادئهم في الطبقات الشعبية عظيماً جداً .

لكن الشيء الذي لم يكن في الواقع يغيب عن بصر كائن من كان هو أن أولئك الشبان قد أشربوا ثقافة الغرب بالرغم من بعض تصرّياتهم العلنية وأنهم تلقوا في مدارس الغرب عدة أشياء تسمح لهم بدون شك بشن غاراتهم غير مستعدين للتنازل عنها في مقابل أي خيال من خيالات الشرق . ويظهر لنا أن قادة الدستور الجديد قد انطبعت في نفوسهم صورة للحياة في فرنسا قد تتفق مع الإسلام لكنها لا تتفق أصلاً مع النظريات الجامدة لبعض غلاة المتمسكين بالإسلام .

ولما أقبل الدستور الجديد بشجاعة نادرة على المشاركة في الحكم أصبح من الميسور على الدستور القديم رميه بالاستسلام والخذلان « وهذا ما فعل » غير أن حملة الدستور القديم كان من شأنها أن تؤول خيبة تامة أو لم تجد في الجامع الأعظم تربة صالحة بنوع خاص لشد أزرها وليس معنى ذلك أن الجامع الأعظم هو منتم بأجمعه للدستور القديم . بل إن نزعة هي نزعة عربية وكفى ، فهو واقع برمته خارج تلك الفكرة الغربية التي سرت عدواها

أزميلي وصديقي الحكيم بن ميلاد ، وللشاعر المجيد باللسان الفرنسي الأستاذ صالح فرحات كما سرت للأساتذة بورقيبة وابن يوسف زنوبرة .

ولهذا أصبحت الشبيبة الزيتونية تشعر أنها مهددة في مستقبلها بما يبدو على الدستور الجديد من الاهتمام غير المقنع بالسير بالبلاد في طريق عصرية وهذا الاهتمام قد ظهرت آثاره الأولى في ربط علاقات التفاهم مع دولة عربية لا يمكن أن تكون بصورة واقعية غير فرانس .

هذا هو أهم ما جاء في مقال الحكيم كوهين حضريه من بيان أسباب الخلاف الذي شجر في العهد الأخير بين الزيتونيين وبين بعض عناصر تابعة للدستور الجديد أردنا أن ننقلها لقراء العربية على علاتها . فهل هذه هي الأسباب الحقيقية للخلاف . وإن كان منها ما هو صحيح فهل هي كل أسباب الخلاف ؟ وهل لا توجد أسباب أخرى لم يتعرض لها الباحث في حال أن الزيتونيين يجعلون لها المقام الأول في إيغار صدورهم وإثارة حفاظهم ذلك ما ربما تعرضنا له في عدد آت إن سمحت لنا الفرص وتركنا لنا شواغل الساعة متسعاً من الوقت .

سأخذه :

يحلونه عاما ويحرّمونه عاما

نشاهد في هذه الأيام تطوراّ حميدا في عقلية وفي اتجاه الصحف الناطقة بلسان الدستور الجديد . وهذا التطور يتمثل اليوم في حرصها على عمران الكلية الزيتونية وفي تحرقها على كل وقت يضيع على طلبتها من دون أن يحنوا فيه فائدة تقرّبهم من ضالتهم المنشودة التي هي التزود بالمعرفة الصحيحة والثقافة الكاملة، ويتمثل أيضاً في إنكارها لتعطيل الدروس بالجامعة، لتقلب حلقاتها إلى اجتماعات عامة يتناول فيها الخطباء مواضيع خارجة عن الدروس ويقومون ببعض الدعايات ، حسبما أملت من ذلك صحيفة الوزارة والحزب أشد التألم في هذا الصباح قائلة : « إن شأن مديري الجامعات في كل بلاد العالم أن يحافظوا على نظام جامعاتهم وحمايتهم من الاصطباغ بلون من ألوان التيارات السياسية أو المذهبية الرائجة في البلاد لا أن يسكتوا عن ذلك سكوت الرضى والتشجيع أو سكوت العجز والاستخذاء .

والمرة الأولى نتفق اتفاقا كليا على طول الخط مع الزميلة الصباحية ، نتفق معها في النتيجة التي وصلت إليها لكننا لا نتفق و : لمقدمات الأولية وفي الدواعي الأصلية التي تولدت عنها هذه النتيجة التي تظهر مزيد التبرم بها والتألم منها .

ذلك أن تعطيل الدروس وانقلاب حلقاتها إلى اجتماعات عامة تبيث فيها الدعايات الحزبية ويتناول فيها الخطباء مواضيع خارجة عن الدروس ليس

هو من مبتكرات هذه الأيام . إن صح أن هذه الأيام قد ظهرت فيها الحال
بمثل هذا المظهر ، بل هو يرجع للعهد الذي كان فيه زعماء الدستور الجديد
يصولون ويجولون في الجامع الأعظم ويتزعمون حركات طالبته ويوجهونها
لناحية التي يبتغونها . وقد سعينا جهدا عندما شب قرن الفتنة وأخذت
معاول الهدم تعمل عملها في ذلك البيت العتيق في أن ننصح لأبنائنا الطلبة
بالإعراض عن الإصغاء لكل من يزين لهم الكف عن الدرس والاعتصام
بالأضراب اللانهائي في سبيل تحقيق رغائب إصلاحية مهما كانت شرعية
ووجيهة فان البطالة لا يمكن أن تكون سبيلا لتحقيقها . وقلنا لهم يومئذ ان
كل يوم يمر على الطلبة بدون درس إنما هو يوم ضائع من عمرهم لا يعوض .
وإن أولياءهم قد أرسلوهم للقراءة للاستماع للدعوات السياسية ولا ليكونوا
معاول هدم وتقويض في أيدي بعض الأحزاب للهيئة الوزارية الفلانية
أو الهيئة الوزارية الفلانية .

لقد نصحننا للطلبة يومئذ بما أملاه علينا ضميرنا وكان نصحننا في ذلك العهد
المكهرب والبالغ فيه الحماس منتهاه ينم عن شجاعة أقدمنا عليها مع علينا
بعواقبها الوخيمة علينا من جهة رواج الجريدة ، ولو كانت لنا فكرة تجارية
لجاربنا التيار في ذلك العهد وفي كل عهد ولزينا لمواطنينا كل موقف يقفونه
ولو بدون تدبر في عواقبه .

وياليت الذين يتألمون اليوم من دخول الدعايات السياسية للمعاهد العلمية
أيدونا في العهد الذي كنا نبدي تألما وحدنا وياليتهم لم يشنوا علينا غارة
شعواء في المجالس الخاصة وعند اجتماعاتهم المتوالية بالطلبة إذن لما كانوا
يجدون اليوم مجالا للتذمر والشكوى . أما وقد نشطوا كل خروج عن
المألوف في الوقت الذي كانت لهم في ذلك فائدة فلا ينبغي أن يلوموا إلا
أنفسهم لا الطلبة إذا كان القياد قد أفلت من أيديهم وإذا كانت حركة المطالبة
الزيتونية قد أخذت طريقاً غير الذي شاءوا أن يرسموه لها عندما كانت

تنفوس الطلبة تدين بالطاعة العمياء اليهم وتنفذ بمزيد الارتياح الخطط التي يملونها عليهم .

إنه لا يجوز عقلا أن يحرض حزب من الأحزاب السكف عن الدرس في ربيع عام ١٩٥٠ ثم يبدى تألمه في عام ١٩٥١ من قيام حالة شبيهة بالتي حرض عليها ودعا اليها فيما سبق، على أن هناك فروقا كبيرة بين الحالة في هذه الألوان وبين الحالة التي كانت موجودة في السنة الفارطة ولم تلاق من الصحافة الحزبية ومن المنظمات المنضوية تحت لواء الحزب العتيد إلا كل مناصرة وتأييد. فإذا كان هناك مسؤول يجب تتبعه في هذا السبيل قبل سواه فهو هذا الهوى الحزبي الذي يشطب شيئا ويحض عليه عندما يكون في المعارضة ثم يمجته ويشن عليه الغارة عندما يصل لمقاعد الحكم . وهو هذا الهوى الحزبي الذي يرفع شيخ الجامعة الزيتونية للثريا في عامي ١٩٥٠ و ١٩٤٦ عندما كان زعماء الأمة الأبرار يرون من أكبر دواعي الشرف والفخر لهم أن يلبوا دعوته عند حفلات أختتام الدروس ويجلسون أمامه القرفصاء ثم يحاول أن ينزله من قمة مجده الأثيل حين يئس من خضوعه خضوعا أعمى لتدبيراته .

تونس مركز للثقافة

عند بروز هذا العدد يكون مؤتمر الثقافة الإسلامية المنعقد بالحضرة التونسية قد أتم أعماله الموفقة على أحسن حال وأكمل منوال . وأمكن بواسطته لضيوف المملكة التونسية من مختلف الأقطار الشقيقة أن يتعارفوا على أديم أرضنا ويتعرفوا إلى نخبة صالحة من أهل العلم والتفكير من مواطنينا ويتبادلوا الآراء في كل ما يعلو شأن الثقافة ويزيدها رسوخاً وتمكيناً .

وإذا استثنينا بعض المفاجئات التي لم يكن لمنظمي المؤتمر سلطان عليها ولم يتسن لهم الاحتياط إليها من قبل التخفيف من حدة وقعها ، أو لتعديل اللهجة التي صيغت فيها وبرزت عليها فإنه يجوز لنا أن نقول إن نظام المؤتمر قد كان مثالا يحتذى به في الترتيب وحسن التنسيق ودقة التبويب وتخير المواضيع وتنويعها معادل على خبرة واسعة لدى المنظمين جعلتهم يفوزون بأوفر قسط من النجاح فيما توجهوا إليه وسعوا فيه .

وإذا كان لنا اقتراح نبديه في هذا الصدد فإنما هو الاعتناء بطبع كتاب عن المؤتمر تضمن فيه أهم الدراسات والبحوث التي ألفت في غضون نه حتى يعم بها النفع وتبقى مثالا من عمل هذا الجيل للأجيال القادمة كما أبقت لنا المؤتمرات العلمية التي انعقدت في البلاد الأجنبية صوراً من مشاركة ثلة من أدباءنا ومفكرينا السابقين فيها أمثال المنعمين البشير سفرو ومحمد الأسرم وعبد الجليل الزاوش ومحمد بن الخوجة ومن الأحياء مواطننا البارع المتضلع الأستاذ الصادق الزمرلي ومن موثبات الفخار لا متنا أن استردت عاصمتنا مركزها الثقافي الذي كان لها في غابر الأزمان وأصبحت تؤمها وفود العلماء من كل حذب وصوب ليشاركوا في المؤتمرات التي تقيمها كما كان أدباؤنا ومفكرونا يشدون الرحال لبلاد الناس ليشاركوا من بعيد في حركة الرقي الذهني بحيث أن هذا المؤتمر الذي نفتخر به ونشئ على الساعين فيه والداعين إليه الشناء الجرم قد حقق بالفعل من الناحية الثقافية على الأقل استقلال البلاد التونسية عن الأقطار الأجنبية وأقام الدليل على أن

الحركة الثقافية في بلادنا قد وصلت لمرتبة الرشد ولم تعد محتاجة لأن يكون تابعة لغيرها، بل قد أصبحت قادرة على السير بمفردها متوكئة على مجهودها الخاص وعلى إنتاجها الخصب في معظم ميادين النشاط الفكري .
وبما يزيد في شرف هذه المنزلة ان كانت لغة المؤتمر من أوله إلى آخره هي لغة الضاد التي طالما حكم عليها الاغبار بالعدم ، ولطالما ادعوا أنها ليست صالحة لأن تكون لغة للعلم، وأنها غير جديرة إلا أن تكون لغة آثار وذكريات وشعر وخيالات وروحانيات . فإذا بها تنبعث للوجود في ثوب قشيب من الحزم والعزم فتبهر الأبصار بحيويتها وتستهوئ الافئدة بسعة مادتها ووفرة خصبها ورقة معانيها ودقة ألفاظها ومبانيها، ويحيى هذا المؤتمر العتيد المقام في بلد كان يحسبه الجاهلون بحالة أنه فقد عروبه وهجر لغته ونادى عن ثقافته الإسلامية الصحيحة فيكذب تلكم المزاعم تكذيباً محسوساً ويقضى على ما علق ببعض الاذهان من أوهام ويعطى صورة رائعة مشرقة لحيوية اللغة العربية ولرسوخ قدم الثقافة الإسلامية في هذه الربوع فيخدم قضية البلاد خدمة جزيلة تزيد في نشر صيتها بين الأمم وتكمل هامتها بأكاليل العلم والفهم

فحسب أن يكون هذا المؤتمر فاتحة كما قلنا في عدد سبق لمؤتمرات أخرى غيره تعقدتها النخبة المثقفة التونسية في شتى الفنون وفي مختلف الأغراض التي تمت للعلوم والآداب بصلة متينة حتى تتشرف حضرتنا التونسية بأن تكون في يوم قريب مركزاً لمؤتمر طلي عالمي تدرس فيه أحدث الاكتشافات العلمية ، أو لمؤتمر في الحقوق الدولية أو لغير ذلك من الموضوعات التي ترقى بها الإنسانية وتكسب بفضلها اشواطاً جديدة في سيرها نحو الاستكمال .
ولا يسعنا قبل ختم هذه العجالة إلا أن نجدد ثناءنا لمنظمي المؤتمر الذين تزدان بهم تونسنا العزيزة ونخص بالشكر حضرات العلماء الأفاضل الذين تجشموا مشاق السفر وحلوا بأرضنا ضيوفاً كراماً ليساهموا في هذا المهرجان العلمي الجليل ويشاركوا بحضورهم في زيادة تألق نوره المستمد من الشجرة المباركة التي هي نور على نور .

أبو القاسم الشابي

في ظل وادي الموت

نحن نمشي ، وحوالنا هاته الأكوان
نحن نشدو مع العصافير للشمس .
نحن نتلو رواية الكون للموت .
هكذا قلت للرياح فقالت :

وتغشى الضباب نفسي . ، فصاحت
قلت : «سيرى مع الحياة .» فقالت :
فتهافت — كالهشيم — على الأرض
«هاته . علمنى أخط ضريحي

«هاته فالظلام حولى كشف .. ،
«وكؤوس الغرام أترعها الفجر
«والشباب الغرير ولى إلى الماضى ..
«هاته ، يا فؤاد ! إنا غريبان

«قد رقصنا مع الحياة طويلا .. ،
«وعدونا مع الليالى حفلة
«وأكلنا التراب حتى مللنا .. ،
«وبذرنا اللذات ، والشوق ، والآلام

ثم ماذا . ؟ هذا أنا : صرت فى الدنيا
(فى ظلام الفناء ، أدفن أيامى ..
وزهور الحياة .. ، تهوى بصمت
جف سحر الحياة . ، يا قلبى الباكي

تمشى .. ، لكن لأية غاية ؟
وهذا الربيع ينفخ نايه ..
ولكن ماذا ختام الرواية . ؟
سل ضمير الوجود . كيف البداية . ؟

فى ملال مر : إلى أين أمشى ؟
«ما جنيننا ترى من السير أمس ؟ ،
وناديت : «أين يا قلب رفشى ؟ ،
فى سكون الدجى . وأدفن نفسى .»

وضباب الأسى منيخ عليا ،
ولكن تحطمت فى يديا ،
وخلى النحيب فى شفقتيا ،
تصوغ الحياة فنا شجيا ،

وشدونا مع الشباب سنيانا ،
فى شعاب الزمان حتى دميانا .. ،
وشربنا الدموع حتى ارتوينانا .. ،
والمبهجات ، أنى مشينانا .. ،

بعيداً عن لهما وغناها ..
ولا أستطيع حتى بكها ..
محزن ، مضجر ، على قدميها ..
فهيما نجرب الموت .. ، هيا ، ..

أغاني التائه

كان في قلبي فجر ، ونجوم . . . وبحار لا تغشيتها الغيوم . .
 وأناشيد ، وأطيّار تحوم . . . وربيع ، مشرق ، خلو جميل
 كان في قلبي صباح ، وأبابة . . . وابتهامات ، .. ولكن .. وآساة !
 آه ! ما أهول أعصار الحياة ! . . . آه ! ما أشقى قلوب الناس ! آه !

كان في قلبي فجر ، ونجوم ! . .
 فاذا الكل ظلام ، وسديم ! . .
 كان في قلبي فجر ، ونجوم ! . .

يا بني أمي ترى أين الصباح .. ؟ قد تقضى العمر ، والفجر بعيد
 وطغى الوادي بمشبوب النواح وانقضت أنشودة الفصل السعيد !
 أين ناي . ؟ هل تراميه الرياح . ؟ أين غابي . ؟ أين محراب السجود ؟
 خبروا قلبي فما أقسى الجراح كيف طاشت نشوة العيش الحميد ؟

يا بني أمي ! ترى أين الصباح .. ؟
 أوراها البحر ؟ أم خلف الوجود ؟
 يا بني أمي ! ترى أين الصباح . ؟

ليت شعري ! هل ستسلميني الغداة ؟ وتعزيني عن الأمل الفقيد ؟
 وتريني : أن أفراح الحياة زمر تمضي ، وأفواج تعود
 فإذا قلبي صباح وأبابة . . . وإذا أحلامي الأولى ورود . .
 وإذا الشحرور حلو النغمات . . . وإذا الغاب ضياء ونشيد . .

ليت شعري هل تعزيني الغداة ؟
 أم ستنساني ، وتبقيني وحيد ؟
 ليت شعري ؟ هل ستسلميني الحياة ؟

(أبو القاسم الشابي)

محمد بن شريعة

يوم العروبة

يوم العروبة هذا عيدك الثاني
عفت القريض لا مداح من خرفة
وقد سموت به للروح أبعثها
يفتر عن أمل بالشعر أغراني
ونيل زلفي وزاهي اللون رنان
خفاقة طهرت من كل أدران

.....

هذا هو الشعر لا شعر السخافة في
وقد هديت إلى خل أطارحه
ثوب المطامع في خبت وأدهان
رأى وألهمه شجري وأحزاني

.....

تدعو لأبنائك العرب الكرام أولى المحامد الغر من أبناء عدنان

يا عيد هذا مجال القول متسع
واسمع أبشك ما قد قيل من شجني
قالوا بليت بأقوال ينمقها
وأنهم أسـرا منا محصنة
حتى إذا ما قضاوا منا مآربهم
وأرجعونا إلى حال لهم عرفت
فأقبل - فديتك - مني حر أوزاني
فالصدق في القول من ديني وإيماني
دهاة سكسونهم في إيما آن
لرد روس ولاتين وجرمان
هدوا الحصون بتقويض لاركان
فينا وليست سوى جور وعدوان

كذا يقولون فاسمع ما يقال وكن
ضد يحاول أن تبقى صداقتهم
منهم على حذر فالضد ضدان
وهي العداوة - فينا طول أزمان

أين الوعود التي غر الحسين بها
وهل جنى فيصل من بعده أملا
اننى أعيدكم أن يستعاد بكم
وأن يكونوا كمشدوهين قد فتنوا
ليسوا رجالا فيوفوا بالوعود كما
وأين كان مصير الملك ذى الشان
سوى اغتيال وتسميم بلوزان
عصر التغفل محشوا بأضغان
بزخرف من خداع القول فتان
وفت بها العرب فى سلم وأثخان



آمنت أن بلاد العرب سوف ترى
ووحدة الضاد تلتف العروش بها
وألفة تمشى فى مناكبها
هناك ينبعث الإسلام ثانية
يحيم المساواة والعدالة فى
حزم الرشيد وعزمات ابن مروان
وصولة الدين فى عز وسلطان
تقصى الخلاف بإيلاف لتيجان
فى الأرض يهذى لإرشاد وإحسان
صدق تنزه عن زور وبهتان



يا عيد فى عامك الماضى هنأت بك الحشـد المجمع من صحب وإخوان
دعوا فليبت والفضل العظيم لهم
واليوم فى عامك الثانى أعيد على
يا عيد أبلغ عن الخضرا تحيتها
أبلغ لجامعة العرب الالى رفعوا
فى دعوتى إذ بها أطلقت وجدانى
أسماعهم زهر آمالى وتحنانى
لقومك الصيد من شيب وشبان
سما كها بين أكبار واذعان

محمد الحليوي

ذكرى القيروان

صرع الدهر جدودي الأولين	وعدا عن ملكهم عادى السنين
لطف نفسي كلما أذكرهم	لطف نفسي عن جدودي الأولين
ذهبوا فالدار منهم بلقع	وعراض الدار عنهم لاتبين
ذهبوا إلا رسوما درست	ورسوما بقيت للدارسين
تلك أطال عليها روعة	وجلال من جلال الأقدمين
يقف الناس على أنقاضها	وحواليها حيارى خاشعين
أنا إن أرسلت دمعى فوقها	فلقد أرسله قلبي مئون

إيه يا أرض الغزاة الفاتحين	وضريح الشهداء الخالدين
حدثنا عن قرون سلفت	إننا نحتاجنا تلك القرون
حدثنا عن أمور حدثت	أنت إذ تروينها لاتمترين

حدثني عن عقبة في جنده	يحمل النور ليل المدلجين
جاء للناس ببشرى وهدى	يفتح الدنيا ويهدي الحائرين
فإذا التكبير موصول الصدى	في سهول ذاهبات وحزون
وإذا الإسلام خفاق اللوا	وإذا النصر حليف المسلمين
حدثني عن عقبة في جنده	ينشئ القبلة والبيت الأمين

قال يا سكان هذا القفر من
ارحلى عنا فإننا هاهنا
ارحلى ! فالأرض رحب ذرعها
افعلوا نأت وأساد عوين
سوف نبني معقل الدين الحصين (١)
وفضاء الله أنى أذهبين

وبناها قبلة ميمونة
سمع التكبير فى جنباتها
قال يا أبناء دينى هاهنا
إن يك الموت الذى أودى بهم
فصدى تكبيرهم فى أذنى
شرف الله بها أهل اليقين
ورأى النور يضئ المشرقين
انصبوا البيت لرب العالمين (٢)
اسكت الصوت الذى كان يبين
لم يزل والله موصول الرنين

وبناها بلدة طيبة
قال ياربى بارك فيهم
واجعل اللهم منهم أمة
يسطع الإسلام فى آفاقها
اسمها الإيمان والدين المتين
ثم بارك فى بنيتهم أجمعين
تحفظ الإيمان والحق المبين
ويهم النور منه الخافقين

حدثنى عن أسد فى جنده
عجباً ! قاض وربان معا
إن فى برديه نبلا وتقى
أسد فى نشر دين المصطفى
يركب البحر إلى الفتح المبين
يحمل الشرع ويقتاد السفين
وله من اسمه باس ولين
وفرات للعطاش الظامئين

(١) إشارة إلى ما يقصه المؤرخون الأقدمون فى كيفية تأسيس القيروان .
(٢) إشارة إلى ما يذكره المؤرخون فى نصب قبلة القيروان .

يا بني الأغلب ذكرى لكم
قد ملكتم مائة كاملة
كتب التاريخ في أسفاره
سستم الملك ووطدت له
ثم أخيتم بنيه كلهم
ونشرت راية خفاقة
وبنيت أحسن الله لكم
وفعلتم في سبيل العلم ما
أصبحت صبرة من شهرتكم
يرحل الطلاب من أوطانهم

فهى ملء الصدر فى صدرى الحزين
وملكتم معها عشر سنين
عن علامكم اسطرا لا ينمحين
بشديد الباس والعزم المتين
فأصيل القوم فيهم كاهجين
راية تحمى ذمار الخاشعين
للمهالى أى بنيان مكين
فعل المأمون فى خالى القرون
كعبة الآمال للركب الظعين
وهى كل القصد فيما يرحلون

يا بني الأغلب كنتم غرة
كنتم والملك يحميه التقى
حين صار الملك حاميه الهوى
وتلاهيتم بكاسات الطلا
أصبح الملك عظوظا ناحلا
لكانى بكم فى لهوكم
وشعاع البدر من عليائه
يسكب الساقون فى أقداحهم
وطنين العود جواب الصدى

يوم كان الدهر ذياك الجبين
ودهاء الرأى والخلق المتين
وقبيح الفعل والرأى الآفين
ولمى الأغيد مكحول الجفون
أعملت فيه فؤوس الهادمين
وسط ذاك الحوض والليل دجون (١)
يجعل الحوض كدرع من لجين
بنت كرم عصرت فى أندرين
وبكاء النأى موصول الأنين

(١) الحوض هو الفسقية التى لا تزال آثارها بالقيروان إلى اليوم.

إليه رقادة هل من نبأ
أن تكوني اليوم قفرا موحشا
كنت والأفلاك في تصرفها
كم ترامت صورة خلافة
من ملوك دخولك فاتحين
وجنود فتحوا واستعمروا
من عروش وجيوش وقنا
وقدود وخدود ودمى
وشمس في كؤوس تجتلي
وابن هاني دينه في شعره
والمعز الفاطمي يتابعه
أيها القصر الذي يهتاجني
أين من أنشاك قصراً شاهقاً
ثم وشاك بروض زاهر
كم رأيت الزهر في أكمامه
وسمعت البلبل الصداح في
وتضمخت بنور مشرق
قيل عن أرضك قول مدهش
« إن من حلك لا ينتابه
كتب الملك على أبوابه

عن شئون حدثت بعد الشئون
فلقد كنت مناخ المالكين
غرض الأفلاك فيها تصرفين
ومعان حولك لا ينقضين
وملوك فارقوك هاربين
وجنود هدموك ناهبين
ورماح وسلاح وسفين
وورود وعبيد وقطين
وصبوح وغبوق ومجون
ساعة معروضة للراغبين
ثم يذروه رماداً في العيون
ذكره اليوم وقد مرت قرون
سامق البنيان ممنوع الحصون
ونخيل باسقات وعيون
يفتح الشجر إلى الغيث الهتون
عشه يشدو على تلك الغصون
وروى تربك سلسال العيون
فروينا عن ثقة ناقلين :
طارق الهم ولا طاغى الشجون
« إدخالها بسلام آمين »

هل أتاكم نبأ عن دولة
دوحة أنبتها الله على
أصلها في النيل ذاك عرفه

طلعت شمساً على الدنيا سنين
ضفة الوادي ومغناه الأمين
ولها في المجد ذهاب الغصون

قد أظلمت أمة المغرب في
 إن زيرى وبنيه بعده
 قسما لن يأتي الدهر بهم
 صبرة كانت بهم زاهرة
 جعلوها جنة مخضلة
 رفعوا للعلم فيها سامقا
 ورعوا في كنفهم أهل الحجى
 كانت الضاد بهم في عزة
 كانت الآداب تجنى غضة
 ذاك عصر الشعر في أشراقه
 ذاك عصر الحصرى والأزدى (١)
 والجزامى (٢) والكرام الكاتين
 ظلها الوارف لظلال البنين
 وابن باديس لفخر المالكين
 كيف! والدهر بهم جد ضنين
 وبنوها أنجما للهتدين
 فهي لا خوف وهم لا يحزنون
 كل جبار يدانيه مهين
 وحموا في ظلمهم أهل الفنون
 وبنوا الضاد لها نعم البنون
 فهي في أسمارهم نعم الخدين
 ذاك عصر الشعراء الملهمين

* * *

يا حنيني نحو أشياء مضت
 لا تلوموني على جيبهم
 ورجال ذهبوا في الناهبين
 إن أنا كنت بجيبهم أدين

أترى الدهر الذى روعنا
 أتراه يرجع المجد لنا
 نحن لا نبكى على مجد مضى
 نحن لا نياس من عودته
 نحن لا نقعد عن تحصيله
 إنما أبناؤهم فى أرضهم
 فلتكن آمالنا غاياتها
 ورمى صبرة بالسهم السنين
 أتراه يبرىء الجرح الثخين
 إنما يبكيه قوم يائسون
 إنما يياس قوم قانطون
 إنما يقعد قوم عاجزون
 إنما أشبال ذباك العرين
 رغد العيش وعيش الخالدين

(١) الحصرى هو ابراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب والأزدى هو على بن رشيقي صاحب العمدة .

(٢) الجزامى هو محمد بن شرف صاحب رسائل الانتقاد .

دخلت للجامع

دخلت للجامع الكبير أستنطق الصمت والدهور
بقلمي الواجف الكبير

إذا سكون ولا ممات	وموحشات ولا قبور
ولا أذان ولا صلاة	ولا دعاء ولا جئير
ولا مصلى الملوك يحوى	خليفة الله والوزير
والصخر يبكى فلا مجيب	والعمد كالمارد الأسير
وكل باب تمر منه	يقص من قصة الدهور
وكل ضوء عل الثريا	يضىء فى خفة العصور
والصمت يحكى بكل شهر	عما جرى ثم من أمور
ما كنت أدري أن المباني	تعيش فى عصرها الكبير
وتغتدى وهى محض صخر	تحتقر الوارث الحقيقير

يا دهر أين المعز يسعى	فى هزة الملك والسرير
والجند صفا بكل درب	والطبل والبوق والنفير
حتى إذا جاء للمصلى	وساوت السوقه الأمير
رأيت ثم الجلال حقا	معفر الوجه فى الحسير
يرفعه الدين للعالى	والعمل الصالح الكبير

يا دهر هل ترجع الليالى	ليالى المجد والحبور
هل ينبت الزرع والأقاحى	ويبسم الروض والشغور

استقبال شيخ الجامع

سنة ١٣٦٤ هـ و ١٩٤٥ م

شعري دعوتك دعوه الإصلاح
إني دعوتك للقريض المنتقى
أنا لم أجشمتك المدائح زلفة
إني نظمتك في مفاخر أمتي
وأشدت بالماضي القديم وعزه
ولكم نظمتك كالفرائد للعلی
وهزرت عطف النبيل فاهتزت له
وقد اتخذتك ترجمان مشاعري
وزجرت نفسي عن مطامع جمّة
وحلفت أني لست أحبو مدحتي
أو للإمام إمام عصری إنه



اليوم جامع عقبة قد أشرقت
مضت القرون ولم يشاهد مثله
ذكر الأئمة في جلاله قدرهم
أيام كان الملك في عرصاته
لو كان يشكو معلم من دهره
أو كان ينطق صخره عن حاله
من بعد أن كانت تعج رحابه
لكأنني أصغى إلى أعلامه
تدعوك يا شيخ الشيوخ فأنت من
ولسوف يحفظها الزمان مبرة

أرجاوه بالظاهر الوضاح
في علمه وتقاه والإسباح
فارتاح للعهد القديم الضاحي
ورجاله في غدوة ورواح
لشكا اليك ولج في الإيضاح
لبكي وأفصح أيما إفصاح
بالعلم - أمسى لعبة الأرياح
من عالم الأشباح والأرواح
يرجى إلى التعمير والإصلاح
تبقى مع الأمساء والأصباح

الطاهر القصار

اقتبال وفد مؤتمر الطلبة

لكم عندنا الإكرام والمنزل الرحب
فأهلاً بكم صارعوا الدهر حقبة
لأنتم خير الناس أبناء يعرب
وأنتم للمجد المؤثر منبت
وأنتم لدين الله بعد رسوله
فلا تهدموا عزاً بنفته جدودكم
وسيروا بجانب الدين تحت ظلاله
أتيتكم إلى الخضراء فيا مرحباً بكم
وإنا لما جئتم له في تشوق
نعم فهو أكسير الحياة وسرها
ولا شأن للإنسان إن كان جاهلاً
فهبوا جميعاً واعملوا فزمانكم
وعار على الإنسان ذي العقل أن يرى
فقيراً فلا دنيا ولا دين عنده
أيها أمة الإسلام يا خير أمة
تركتم ما في الذكر يرعاه غيركم
فبالله أوبوا وارجعوا لرشادكم
فدينكم أبناء يعرب مبعث التـ
خذوا كلمتي أضياف تونس واعملوا
بقيتكم بقاء الدهر في حلال الهنا
عليكم سلام الله في كل ساعة

وحب متسين لا يماثله حب
ففازوا بأسر الدهر وأنتهت الحرب
لكم كان هذا الكون شرقه والغرب
وأنتم من الدنيا برمتها القلب
أجل عماد حق من رفعه النصب
ولا تهملوا شأناً لهم دونه الشهب
فدينكم دانت له العجم والعرب
وحسبكم منها التضامن والقرب
وإنا لنشر العلم أنفسنا تصبو
نعم وهو فيض الخير والمنهل العذب
كذا الجهل في نهج الحياة هو الكرب
تحرك فيه الوحش والحجر الصلب
تعيساً على الغبرا يحارب به الرعب
غريقاً بوادي الجهل ليس له لب
كفى ماضى فالدهر في أمره صعب
فيسمو ونور الفوز في آيه مخبو
فأنتم جنود الله في الأرض والحزب
مدن في الأكوان ليس به ريب
لإعلاء شأن الدين يرعاهم الرب
مفاخركم وضاعة ما لها حجب
وفي كل أرض مارقى للعلا شعب



اقتبال وفد مؤتمر اللغة العربية بالخلدونية

لغة البيان ومنطق القرآن
 لغة الأداة الشم والعرب الآلى
 لغة تسامت فوق هامات العلا
 لغة يهيم بحسنها من لم يهيم
 لغة تسيل على المناطق رقة
 لغة أقر بفضلها البالغاء والـ
 لم يبل منها الدهر شيئا إنما
 تركوا حماها وانثنوا عن حبها
 وتشقتوا من حولها أيدى سببا
 كنز البلاغة فيضها بل بحرها الطـ
 هبة الزمان وفضله الأوفى الذى
 وحى العالم بـكل علم للورى
 الفاظها درر على جيد الفصا
 تبدو إذا ما صغتها ونظمتها
 وترى المعانى حولها منشورة
 رقت وراقت فاستوت فى دولة الا
 ما ضرها قول المكابر إنها
 أين الثريا من أكف الناس أم
 بشئ التعصب كم يضل المرء فى
 عار وايم الحق عار اب نرى
 هبوا حماة العلم ما هذا السبات
 هبوا عباد الله ان زمانكم
 هذا خيال الجهل يخطر بيننا

تدعو لنجدتها بكل لسان
 ما كوا المفاسد من بنى قحطان
 فى كل عصر بل فى كل مكان
 تسبى الورى بجمالها الفتان
 تشفى وتنقع غلة الظمآن
 فصحاء والعلماء أهل الشان
 باءت من الأبناء بالهجران
 وسلوا هواها بآبنة الرومان
 وهى الوفية ربه الإحسان
 سمى على الربوات والكشبان
 حاز اعتبار العجم والعربان
 ولسان شرع الله للأنسان
 حة ما لها مثل يرى أو ثانى
 فى القول مثل قلائد العقبان
 نثر الزهور على أديم جنان
 بداع فوق العرش والايوان
 لغة لصوغ الشعر والألحان
 أين السها من أعين العميان
 طرق الخداع وأنهج البهتان
 لغة البيان عديمة الخلفان
 فان هذا الدهر ذو عدوان
 متحفز للبغى والطغيان
 فى ثوبه المسود بالأدران

هذا الفناء جنوده قد عسكرت
 هذا نذير الفقر بل شبح الشقا
 هبوا بربكم فان العلم قـا
 بثلاثة نسمو ويعظم امرنا
 فعليكم حفظ الثلاثة واجب
 ردوا لمجدكم الاثيل فخاره
 ولتبذلوا في شأن بث العلم ما
 فالله حرصنا على الاتفاق في
 قبلن تنالوا البر حتى تنفقوا
 ليس التآمر بالمفيد وإنما
 وبما رأينا من مهارة قومنا
 ولئن حرمت القول فيه فها انا
 بين الهداة ضيوف تونس نخبة
 الظاهرين على الحقيقة مثلها
 أضياف تونس مرحبا بقدومكم
 فالدين يجمع بيننا ولنعم ذا
 أخلاقنا ولساننا وعلومنا
 فاس وتونس والجزائر نعمت لا
 ولئن يقال المغرب الأقصى فكم
 ولكم حيننا من جلائل يمنه
 انظر لهذا الطود بين رفاقه
 حامى حمى العلم الشريف بدولة
 مولاي أدهشت العقول بفكره
 فلنعم ماوشى اليراع ونعم ما

فينا ترصد غفلة الشجعان
 يخال بين منازل البلدان
 عدة الرقى ومبعث العمران
 بلساننا والدين والعرفان
 بالنشر والتعليم والأذعان
 وابنوا لذلك محكم البنيان
 قد عز من مال ومن ابدان
 سبل البرور بمعجز الفرقان
 مما تحبون البيان الثانى
 قد سرنا بزيارة الجيران
 متسامرين بذلك الميـدان
 بين الكرام مردداً أوزانى
 العلماء والفضلاء والأعيان
 قد قاله المختار من عدنان
 أهلا بكم يا بهجة الأكوان
 ك الدين يجمع أمة القرآن
 صلة برغم تباعد الأوطان
 أخوات فى لغة وفى إيمان
 عند الدعا كان الحبيب الدانى
 بالفضل والمعروف والإحسان
 فهو الدليل وساطع البرهان
 مولى الشريف محمد السلطان
 سامى وعقلك مظهر الرجحان
 أمليت من شرح ومن تبيان



شرفت أرضاً قد تعودت الوفا
ورفعت نادى أهلها العلى بما
أرضيت صاحبه ابن خلدون الذى
حاضرت فيه إلى النها فتكلمت
فلمتبق يا عضد الوزارة ناهضاً
رفع ابن خلدون منارة شأنه

لندوى الوفا فى السر والإعلان
أسديت فوق مواقع الشهبان
بجلاله قد كان خير مكان
غرر العلوم بأجمل التيجان
بالعلم فهو سعادة الإنسان
ورفعت فى التاريخ صرح الشان

يا مصر

يا مصر ركنك في المعارف كعبة
 كم من عقول ازهرت بالأزهر
 بالأزهر الفـرد الذي بعلائه
 تحمي زمام الدين فيه أئمة
 سار الحديث بعلمهم بين الوري
 يا مصر فيك معاهد ومدارس
 معمورة بالناشئين وخير ما
 تحوى خزائنها نفائس جمّة
 العز ذلك والسعادة تلبكم
 العلم ناموس السيادة في الدنا
 سر من الأسرار فيه حماية
 وبه تكون عرى الوثام متينة
 لولاه ما عرفت لتونس حقها
 كانوا إذا ذكرت لديهم تونس
 ولذلك عار لو دروا فالعرب إخ
 واليوم قد علموا الحقيقة وانبروا
 هذى عرابين المودة قد أتت
 بعثت بها دار العلوم هدية
 فيها من العلم الجميل نفائس
 يا أهل مصر وصلتمو أرحم العرو
 وأتيمموا الأمر الذي بجلاله
 فإلى التعاون والوثام بنى الكنا
 عار وأيم الحق أن نبقي على
 فلا تتم القوم الكرام وفيكم
 دمتم ودام العلم يرفع ملككم
 مجلة «العالم الأدبي»

غراء تقصد للورى وترام
 الفياض كم قد أثمرت أفهام
 تسمو العصور وتسعد الأقوام
 نبغاه علم كمل أعلام
 فاستبشرت بعلاهم الأيام
 (شم الحصون ومثلهن عظام)
 قد خطت الآلات والأقلام
 من كل ما جادت به الأفهام
 وبفضل ذلك تكبر الأحلام
 والعلم في هذى الحياة قوام
 للعالمين ورحمة وسلام
 بين العباد وتوصل الأرحام
 مصر ولا اعترفت بذاك الشام
 في محفل تركوا الحديث وناموا
 وان وهجر الأقربين حرام
 للحق لا شيع ولا اضرام
 من أهل مصر يحوطها الأعظام
 كتباً تولت نشرها الأعلام
 وطرائف ما مثلهن يرام
 به بعد ما عثت به الأيام
 يعتز حزب الله والإسلام
 نه ان مفتاح الفلاح وثام
 خالف فيسمو غيرنا ونضمام
 الانفعان الحزم والاقدام
 ما فاض عن مسك القريض ختام
 العدد ١١٢ — السنة الثالثة

تحية الجامع الأعظم

لعام ١٩٤٣

بهر المشرقين طولا وعرضا
 فاذا الازهر المنير مشيد
 وإذا جوهر المعز يرد الطـ
 معهد فجر الحصافة في الأرـ
 وأنال الشمال عزا تراءت
 وجد النابهين في العلم والآ
 نشر والعقل قرروا الفضل أولوا
 فغدت للعقول ميدان سبق
 فاذا مصر والعراق وأرض الشـ
 ذلك الحق والمكابر في الحـ
 شهد العلم ان ام الحنايا
 أغيض النبوغ من جامع الزبـ
 والشباب النبيل متقد العزـ
 لم ترعه الحوائم السمر في الجو
 لم يخف سطوة المدافع تلهو
 شارك الجند في الكفاح فلما
 فاحتفى اليوم بالنجاح مشيدا

معهد أنهض المعارف نهضا
 يملأ الكائنات نثرا وقرضا
 رف عما ابتناه في مصر غضا
 ض وأجرى النبوغ في الناس محضا
 دونه الانجم الثواقب مرضى
 داب نوراً على البسيطة وضـ
 نعماً نهبت من الأرض نبضا
 يركض الطامعين في الفوز ركضا
 ام تحنو لتونس وترضى
 ق سياقي بحقه الزور دحضا
 منهل لم يصب من الورد قيضا
 تنونة العامر المطهر أرضا ؟
 مة من وثبة القذائف أمضى
 تثير المعالم الشم نقضا
 بحظوظ العباد رفعا وخفضا
 نصر الجند أحرز النصر أيضا
 باسم من فاق في السباق وأرضى



مصطفى خريف

ذكريات وخواطر

ذكريات الصبا ، أعيدى على مسمع قلبي ذاك النشيد الشجيا
خاطبي قلبي اليكلم وقولي : كنت يا قلب كالملاك خليما

كنت كالماء صافياً ، وكزهر الروض غصاً ، وكالربيع لطيفاً
كدر الماء بالبلا ، وذوى الزهر وصار الربيع فيك خريفاً

كنت لا تعرف الحياة ولا تدرك أهوال حربها الطاحنات
فانجلي ذلك الضباب وبانت من وراء الضباب حرب الحياة

ها هو الصبح قد أتى وتولى وهو صبح الصبا البديع الجميل
وأناك الضحى بهاجرة تبذل زهر الربا ، فكيف المقييل ؟

كن صبورا قلبي فهذا قليل ، من خطوب الحياة ، هذا قليل
سوف تسقى - إن عشت - من علقم البؤس وماللنجاة منه سبيل

إليه قلبي اهل الحياة سوى المأساة تدمى القلوب وا كبادا
لا أرى في الحياة دوراً سعيداً أسعد من يطالب الاسعاد ؟



إنما هذه السعادة ضرب من ضروب الخيال والأقوال
فإذا أحرز امرؤ ما تمنى ، جدد الدهر شـقوة الآمال

لقنتك الحياة يا قلب درساً قاسياً كله شجى وفظاظة
فاتعظ فـالعظيم من يـعن الدرس ويـبـدى بالـخـادـثـات اتعـاظه
ها هو الأـمس قد مضى ؟ والصبا قد زال ، والعيشة العـزـيـزة وـلت
وأغاني الفجر الجميل تلاشت في صراخ مسترسل واضمحلت ؟

الحديد

يا تاج عصر العلم سد يا حديد وأنخر على التبر الرصيح النضيد

لوجد دين كنت منحي السجود	تيها وعجبا أنت قطب الرحا
تغالب الأيام حتى تسود	فاحكم بما أوتيت من قوة
ترتج منه اليد حتى تبديد	وحاك صوت الرعد أما دوى
والجو يطوى والسماء تميد	تكاد تهوى الأرض من باسه
جنح الدجى سيفاً يشق الكبود	والمع كبرق شق لألاؤه
دو كل عمران شتيتا بديد	أو مدفعا يرمى الشواظ فيغ
اليهم حبالى تغتدى وتعود	أو سابحات فى الجواء وفى
تترب الأقصى وتدنى البعيد	إن كان سلم أقلعت ورست
ثارت لنحى حوضها وتذود	أو كانت الهيجا مسعرة
فيهم جحيم النار ذات الوقود	يصلى العدى من جمر نغمتها
ما أن لهم عند اللقاء محيد	ويل لأهل البغى يومئذ
وانخر على التبر الرصيح النضيد	يا تاج عصر العلم سد يا حديد

فى عهد إنشاء الحياة العهيد	فى سالف الأيام من قدم
مدبرا للعيش حرا رشيد	لما استوى الفكر على سوقه
فى الصخر فى الأخشاب بين النجود	يحتال أن يلقى لبانته
تمخضت بطن الثرى عن وليد	أذيعت البشرى وقيل لقد
راياته تحدو الزمان الحديد	المعدن الجبار قد رفعت

ماض مضاء العزم أيقظه	روح عتي لايلين عتيد
طوباك يا أرض اسعدى ولدى	لانت أم العالمين الولود
داوود غنى فى مزاميره	مستبشرا يا حبذاك النشيد
يهدى بإذن الله أمتة	للجد أن تحيا حياة الخلود
فانهالت الأجيال تشبعه	جهدا على الأيام ظل يزيد
حتى تسامت فى حضارته	نحو العلى تجتأها وترود
كادت تميت الموت عزمها	حين استقلت ماردا من حديد
من مارج من نار زند النهى	تجريه نار السبك انى تريد
كأنه فى قلب معهده	سيل الدم القانى يحوز الوريد
غصاب هذى الأرض مقدره	يسدى لجهد الناس جم الجهود
سبحانك اللهم أودعته	سر السما نفعا وبأسا شديد
أعظم بها من آية برزت	فى كل شغل ضائر ومفيد
ياتاج عصر العلم سد يا حديد	وانخر على التبر الرصيع النضيد

ولتحي افريقيا الكبرى

قفوا واخشعوا واستلموا عضة الذكرى
قفوا ، انشدوا لحن الوفاء ورددوا
قفوا ، واضربوا وجه الزمان بصرخة
أرى الأخت ترنو في حنان ورقة
أرى اليوم ضما واعتناقاً ورحمة
أرى شاحنات الأطلس ارتبطت بنا
أرى والابيض ، الميمون يغمر برنا
أرى شبح الروح الأمين مرفرفا
أرى الدين والتاريخ يجمع شملنا
أرى الألم المضى ، أرى هدف الرجاء
أرى يومنا يوما أغر محجلا
أرى . ما أرى ؟ هذا محيا عرفته
أرى عندنا عبد الحميد ، فرحبا
أراه بشوشا باسماء متهللا
أهاب بهم يوما إلى المجد والعللا

وحيوا الآخا بين الجزائر والخضراء
على مسمع الأيام أغنية البشرى
نقم بها الدنيا ونغزو بها الدهرا
فتغمرها حبا شقيقتها الأخرى
وعطفنا وأنسا ما أحيل وما أمرا
وأحكمت الميثاق ما بيننا جهرا
فأكرم به برا وأعظم به بحرا
على جمعنا طلق الملامح مفترا
أرى الطبع والفصحى أرى الشعر والنثر
أرى الفجر يسرى نحونا حمد المسرى
فأمتنا فيه محجلا غرا
به آية للفضل مكتوبة تقرا
به ، وتحيات معطرة تترى
يبارك شبانا غطارفة زهرا
وخط لهم من نور شعلته سطرا

لعمري . لقد كان ابن باديس آية
وقد كان طودا للعروبة باذخا
وكان خضما بالعزائم زاخرا
وقد عب من زيتونة الله ، حقبة
فله ما أبقي . والله ما بنى !

مصدقة للبعث ، فياضة بشرا
بهمته تختال أعطافنا فخرا
وكنزا أفدنا من مداركه الدرا
ومن نورها جلى البصائر والفكر
ولله غرس أثمر الخير والبرا



ولله قلب هام في الحق صادقا
وخاض ميادين المعارك ظافرا
توجه للإصلاح والرشد جاهدا
ورواه إخلاصا ، فأخرج شطاه
فشامت وجوه الكاشحين وقبحت
ألم ينههم عن خطة البغي واعظ ؟
ألم يأتهم أنا كرام جدودنا
شداد إذا رامت كفاحا قلوبنا

وأنفق في تأييد حجته العمرا
وحمل من جراء دعوته أصرا
فألهم للتوفيق ، واستصلح البذرا
كنبت ربا واهتز وابتل واخضرا
ولا قوالما يأتون من شرهم شرا
ألم يعرفوا حقا ؟ ألم يعقلو زجرا ؟
نزارية الأحساب مرفوعة قدرا ؟
غلاظ إذا أعراضنا وترت وترا

* * *

ألا فارفعوا نحو العلاء رؤوسكم
ونادوا جهارا فليعش كل عامل

وصونوا الحنى واستسهلوا المركب الوعرا
لوحدتنا ولتحى أفريقيا الكبرى !

هنيئاً (١)

هنيئاً ، فدى أفراحه وبشائره
وعجباً ، فهذا فوزه واقتداره
وذلك روض العلم يفهق حوضه
تدفق بالعرفان فاخضر عوده
وهذا النتاج الخصب أخرج شطاه
وهذا الجنى الرطب طابت وبوركت
وهذا نسيم ناعم الذيل منعش
وهاتيك أغصان تولت ثمارها
وذا العشب والنوار يغمر ربربا
وهذا صباح ضاحك الوجه مشرق
تجلت به الزهر الملائك وانبرى
هنا بيت أجماد وركن مفاخر
هنا العروة الوثقى تمتن حبلها
هنا معهد الحبيب أسس للهدى
يغذى رجاء في انبعاث وعزة
ويفسح للجيل الجديد مجاله

ونخرا فدى أعلامه ومنائره
وتبها فدى أنصاره وعشائره
وتلك سواقيه ، وهذى جعافره
وقنعت الأكام فيه أزاهره
وذا زرعه النامي وهذى بواكره
موارده في أرضنا ومصادره
يرف ويقسو في الخنائل عاطره
كسرب غوان قد تدلت غدائره
توافت له اطلاؤه وحآدره
أغر الضواحي ساطع النور باهره
يرتل آى الحمد فى الدوح طائره
هنيئاً لكم أجماده ومفاخره
وشدت قواه واستمرت مرايره
ونادت بصوت الحق فينا منابره
فيلحق منه أول المجد آخره
فتحيا به أفكاره ومشاعره

فدى لأبى الزيتونة القوم وابنها
لقد كاد نور العلم فيها لينطفئ
وأظهر كنزاً فى حقول رحابها

وشيخ علاها ناكر الفضل كافره
فأوقده الشهم ابن عاشور طاهره
يواقيته براءة وجواهره

إمام على نهج الحقيقة سائر
أخو عزمات لاتلين لغامر
ومن ينكر المعروف بعد انتشاره
فلا يأمنوا صرف الزمان فإنه
ولا يستوى غمر خلى فؤاده
فخيا العلا وجهها منيرا مباركا
ولا زال فياض المناقب زاخرا
ويضرم في حساده كل جذوة
ويسمو برضوان المليك وشعبه

هداه إلى نهج الحقيقة فاطره
ورب مزايا ليس تفنى مآثره
ويجحد إلا ضيق الفكر خائره
على الظالم الباغي تدور دوائره
وحبر جليل قائم الليل ساهره
قد استحكت أنظاره وبصائره
يجيش بتيار المحامد زاخره
وتصدمهم سطواته وبوادره
وتقدمه راياته وعساكره

عشيرة الحق^(١)

عزة الحق ، أن يقال جهارا
لا تلجلج في الحق - ويحك ان حص
ويقيني به تبدل شكا
ولئن هنت عند نفسي ، فاني
وأقل الوري ، وأبخص حضا
فأرفع الصوت في الضياء نهارا
حص واصدع به ، ولا تتوار
وشموخي به استحال صغارا
عند غيري أذل دارا وجارا
وأشد الرجال خزيا وعارا

* * *

أيها الباذرون في خلد النش
طهروا الحقل بالتعهد كي تجـ
يا أساة النفوس ، قد أعضل الدا
ضل يفشو دفينه ، وأشد الـ
عرف المجرمون من أين يؤتى الشـ
بعد ما استعمروا البلاد جميعا
يوسعون النفوس مسخا وتشو
حار في أمرها الطبيب ولم يعـ
جعلوا عندها القواعد والآسـ
فقدت ذاتها ، وعاشت كظل
في مهم الأمور ، في تافه الآثـ
مالها مذهب يراد سوى الدعـ
أسفا ليس ينقضى ودموعا
بذور العلى البدارا ، البدارا
نوا كما تشتهون تلك الثمارا
ولم نكتشف له أسرارا
سداء فتكا ما أعجز الأبصارا
عب ، واستنبطوا لذاك ابتكارا
أنشأوا في عقولنا استعمارا
يها ، فتنساب في الضلال انحدارا
رف لإيراد سقمهما إصدارا
باب ضدا ، فاخطأت أقدارا
تحت أقدام غيرها حيث سارا
يأ تحكي وتقتفي الآثارا
وى ، ففي نشر مئينها تتبارى
يالقومى ، على الشباب غزارا

(١) تليت في حفلة افتتاح موسم معهد البحوث الإسلامية بنادى الجمعية الخادوية .

أيها الباذرون في خلد النش	• بذر العلى البدار البدارا
أجمعوا حول ذلك المنبر العا	لى شبابا منضدا مختارا
فيه من نخوة العروبة بأس	وطموح ، وهمة لاتجارى
بأبى أفتديهم وبأبى	وبأبجادهم اثيه افتخارا
قبسوا من سناء زيتونة الله	شعاعا يهديهم ومنارا
هم لعمري عشيرة الحق إن أع	رض أهل الطاغوت عنه ازورارا
ههنا تحت راية العلم والفص	حى ودين الهدى دليل الحيارى
وهو سر الحياة فالتمسوا بالـ	عزم من كهربائه تيارا
أكبر النائبات يصغر فى الغر	م إذا كانت النفوس كبارا ..

إلى الشرق فانظر! (١)

وجذوا من الروض رطبا جنيا	ردوا مشرع الحوض عذبا رويا
سليما من النائبات نقيا	ردوا منها سائغاً ورده
خيرا بأهل المعالي دريا	وحيوا العلا فيه واستلهموا
شديداً على النائبات قويا	هنا انبعث الأمل المرتجى
ومنكبه طال فوق الثريا	رسا أصله في قرار مكين
ومد الرواق الضليل السفيا	هنا رفع العلم راياته
وذاد عند الفكر جهلا وغيا	وأجلى الغياهب عن أفقنا
قد انطلقت منه تدوى دويا	هنا صرخة الحق جبارة
يبارك هذا الشباب الزكيا	هنا حام روح ابن خلدون كي

* * *

تغروا بآل يلوح وضيا	مه إنما الأمر جد ، فلا
وإن زخرفوا فيه قولا طليا	أرى لامعا خلبا برقه
من الطعم لونا لذيقاً شهيا	أرى صايد الغرب يدنى لنا
ويخدع منا الضعيف الغبيا	يلعب فينا حلوم الصغار
وإما اتخذنا عدوا ولينا	فيا ويحنا إن وثقنا به
نطالب بالحق فظاً غويا	وإما وقفنا بأعتابه
وتنسى الذي في الطوايا خبيا	نعيد الذي قال في جهره
فيبدو علينا غريبا زريا	ونلبس من رأيه ملبسا
لعمري ، لقد جئت شيئا فريا	فيا طالب الشمس من غربها
وناول بني العم ودا سخيا	إلى الشرق فانظر ، وخذ سمته

(١) تليت في افتتاح معهد البحوث الإسلامية بالخلدونية .

إلى مهبط الرسل أجدادنا	الألى علموا الكون طفلا صبيا
وما الغرب فى كل ما يدرى	من المجد والفخر ، إلا دعيا
وما كان فى علمه مثلنا	وفى فنه ملهما عبقريا
ولكن أتاحت له فرصة	فاتعى لها طامعا ونيا
فيأيم-ذا الش-باب الطمو	ح سر وانطلق للمعالى مضيا
ثناء لكم ، واحتفاء بكم	يفوقان عطرا ومسكا شذيا

حنين الناي

بقلم الأستاذ محمود أبو رقية

هاته تبكي بأدمع المزموم	في حنين الناي، المردد ، آ
ح ضلوعاً لصدرى المهموم	أسمع الأنة الحزينة تجتا
واق تدوى بقلبي المكلوم	أسمع الزفرة الكئيبة للأشـ
ت وصل . بعهدنا المقصوم	أسمع الحب . باكياً . ناعياً . جنا
همه - في الظلام - فوق همومي	أسمع الكون ناثماً . وهو يلقي

* * *

يتجلى على كفيف غيومى	وأرى في السما . غيماً كئيفاً
لك . حتى غطى بقايا نجومى	وأرى للضباب ظلاً . قد احلوا
ندمو عا . وفي كؤوس نديمى	وأرى في الندى دمو عا . وفي المز
دواعيون طيف الوداد القديم	فتعج الذكرى بقلبي . ويبه
عاصفاً يبتغى حصاد هشيمى	وأرى الناي ، وهو من قصبات

* * *

فيه أنسى . لدى النعيم جحيمي؟	أيها الناي ، هل يحى زمان
- لام تختال في ظلال الكروم	فألا قيك مسعداً . يسكب الأحـ
- خلد . وافت على جناح النسيم	وأرى فيك صدحة من وراء الـ
ما مضى من لواعجى وكلومى	فأغذى بك الفؤاد . وانسى
نشوة السحر . حول كأس النعيم	وأرى فيك - والحبيب بقربى

عبد الرزاق كركباكت

قيشارتى...

قيشارتى ردى صدى تلحينى
جازفت فيه بعزة وحصانة
وقنعت من نعمى الشباب بأنسه
فجرعت منه الصاب لآعن عزة
فى غشية أخذت على مصائى
ألهبت نفسى للهوى اشعاعه
وحرقت من روحى البخور لقدسسه
فأنا له هذا الهوى . ولا مره
إن التى أوحى به فى سجرها
إن هى فى جلى حياتى - دائما -

وابكى معى ذكرى هوى مطعون
ورضيت منه بذلة وبهون
وصرفت عن صفو الحياة شؤونى
تقسو . ولا عن هزة تعرونى
فى نشوة آست على شجونى
فى هيكल التعذيب حيث محونى
فى جمرة الوجد التى تكوينى
رغم الجوى . فى غبطة الممنون
لصبايتى روحى ونور عيونى
إلا الدم الغالى الذى يحينى

ريحاتى فيم جفاؤك ياترى
الخائنون أظنهم عبثوا بنا
أما وقد صدقت ما كذبوا ، فما
تعارفت فى حبيك كل محرج
وصنعت كل عجيبة . حتى إذا
لكن ثقى - ريجاتى - إني إلى
وأنا أنا إما هوى قدسته

بعد الصفا بعد الوفا . تجفونى ؟
بالعنة لخؤونة وخئون
هى حيلتى بل ما الذى يغنينى ؟
وقحمت فى واديك كل مهين
أنهيتها ، جد العنا من دونى
هذا الهوى بحقيقتى ويقينى
أحضى به . أو عفة تكفينى

أقسمت بعدك لن أحب وها أنا	حتى النهاية - حافظ ليميني
سأزود عن محي هـواك بكل ما	وسعت حياة تعاسة وفتون
فإذا تناهت . فالحياة وطيبها	تفديده من حب حفظت طعين
وهناك صاحبتى أقول : لك الهنا	بضحيتي . ولى الهنا بمنونى ،
فإذا التقينا بعدها عند السما	حيث الملائك حيث حور العين
سأضمها قيثارتي متغنيا	أشدو بذكر هواك فى تلحيني

كان زمان

أين ذاك النعيم ، يغدو ويمسى ؟
نتساقى الغرام كأسا بكأس !
ونجاري الفؤاد . في كل هجس
لم نقيّد سير الشباب بطقس . .
فعلى وحيها نسير ونرمى !
من خداع الدنا ملائك قدس !
غراما . فجاءة دون مرس !
وإذا بي وحيها ملء نفسي !
لاتسل عن صباقتي ومحسى . .
وتفاني في حبها كل حسى
في رضاها فعلا أجود برأسي !
ولديها نهلت لذة أنسى
في اتقاد وفي اهتداد وبأس
عن غرام خلا عن كل رجس
في هوانا بروح نكر ووكس
بيننا الخلف . في غلو ونحس
وإذا بي أجفو حبيبة أمس
وإلى الله بث حزني ويأسى !

أين تلك الحياة يا عهد أنسى
يوم كنا على ولاء وحب
نهب الصفو . في غرور وهو
لم نشوش إيلافنا بنظام . .
هكذا . حسبها المشيئة توحى
حادثي نشأة شبينا براء
نظرة هي أشعلت في فؤادينا
فإذا هي صبة ذات وجد !
لاتسل عن شجونها وهواها . .
فنيت في جماها نزعاتي
في « جنون » أحبتها ! وتراني
وعليها عقدت إكليل روحى
هكذا والهوى . يسير حثيثا
وملاك الصفا يرف جميلا
يبعث الدهر ناقما مستغيظا
فتشور الأشقاء . ثمت ينمو
فإذا بالغرام يمسى جفاء . .
رحم الله صبوة وهناء

نشأة العلم

في ذمام الله سيروا ظافرين
 وادخلوه أرض باريس وما
 حضرت فيها أعاجيب الدنا
 لبست من عصرها ما أخرج العصر
 وسعت كل وضيع وسرى
 هي إن شئتم ضلال للنهي
 كعبة العلم وطلاب العال
 فهنا للعلم بيت حافل
 تلك باريس على علائها
 فاذكروا أما عبرتم نهجها
 اذكروا الشعب الذي أوفدكم
 اذكروا الشعب الذي غادرتما
 واذكروا أهلا به فارقتما
 واذكروا أرض حدود نزعت
 واذكروا آثار آباء مضوا
 واذكروا عادات سوء حكمت
 واذكروا ما شئتم عن أمة
 أنتم آملها ما أملت
 هي ترجو اليوم في بعثكم

نشأة العلم وخير المرسلين
 هي إلا معرض للعالمين
 واستقرت عندها نجب القرون
 من آيات بدع وفنون
 ومشى الباطل فيها واليقين
 وهي إن شئتم هدى للمهتدين
 ومجال البغي والمستهترين
 وهما للهو ماخور مهين
 أيها النشؤ الألى تعزمون
 واقتبلتم ذلك النور المبين
 واذكروا الآمال فيكم والظنون
 منهب الوحدات في ذل وهون
 يرقبون الفوز حينما بعد حين
 بيد العلم وأيدي العاملين
 أصبحت حلا لكل الحافزين
 بيننا الكبار والمستضعفين
 سادها الجهل وأعمتها الأفون
 أنتم ملجأها العالى الحصين
 ذلك الآسى من الداء الدفين

يا شباب اليوم هل أنتم غدا
 فترى المدره منكم ونرى
 طالعوا التجديد بين المصلحين
 فيكم الهنداس والآسى الزكين



ونرى الباحث والشاعر والا	ختصاصى والرياضى الفطين
ونرى الغاب وقد أنبتته	جنة أبنائنا مستبسلين
ونرى الافن وعادات الردى	والهوى قد أصبحت فى الغابرين
ذلك الظن بكم شباننا	أىكون الظن فيكم كاليقين
علم الله وأنتم نشؤنا فـ	إن كل الخير عند الناشئين

* * *

سدد الله خطاكم فاقصدوا	مهبط العلم ومغشى النابغين
واحزموا واسعوا وجدوا واعملوا	فى اتحاد ثم عودوا ظافرين

محمد المنصف المنستيري

نريد برنامجاً شاملاً واضحاً

لحل مشكلة إقرار الأهالي بالأرض

كلما وضعت مسألة إقرار الأهالي بالأرض إلا ورأينا الأناظر تتجه
حالا إلى الأحباس الخاصة بعد أن انتهت الأحباس العامة وأقيم عليها صرح
الاستعمار الكبير منه والصغير، أما أملاك الدولة وأراضي العروش والأراضي
الاشتراكية وأملاك الشركات الكبيرة أو الاستعمار الكبير كما يسمونه فلا
يأتي التفكير فيها إلا بعد انتهاء من محاولة امتلاك الأوقاف الخاصة
بمختلف الطرق .

تقدمت حركة اليوم في إقرار الأهالي بالأرض حركات أخرى قبلها
وربما كان ليس من اللائق أن نتساءل الآن عن النتائج التي حصلت من توزيع
الأراضي على قدماء العساكر وعلى تلامذة المدرسة الفلاحية وهل نفذت
الأوامر التي صدرت على عهد المقيم السابق م . بيروطون بالنسبة لمسألة
الغابات وتسجيل الأملاك الغير المسجلة بصورة مستعجلة لإقرار الملكية .
إن مشكلة الأراضي لا تزال على حالها وهم يريدونها أن تبقى كذلك
وكلها من مشروع على كهنة السياسة البيروقراطية أصابه المسخ في الصميم ولم
يعد هناك رجاء في فائدة تصدر منه فاللجنة التي تشكلت أخيراً لإقرار الأهالي
بالأرض لم تشأ أن تصدر برنامجاً لها مسطراً يتصور منه الإنسان عملها ومدى
ما تسعى إليه في هذا الميدان من إصلاح وانتاج ولعلها لا تريد أن تتقيد



ولا أن تؤخذ عليها حجة بل تريد أن تبقى لنفسها حرية المد والجزر فيما عهد إليها بتنفيذه . ألا ترى أننا بينما كنا ننتظر أن توزع قطعا من أملاك الدولة على الذين أفقدتهم الأزمات أراضيهم فتقرهم بها وتعينهم على إحيائها ثم تحدد الملكية الخاصة في أراضي للعروش والأراضي الاشتراكية وتنشط أصحاب الممتلكات الحديثة على الأسلوب الخاص ليقوموا بإحياء الأرض وتعميرها بدلا من ذلك رأينا العمل في وقف بنت الجديدي رأينا عينة أخرى في جولة وقع القيام بها في الوطن القبلي وقع فيها إرشاد فلاحى بلدة بنى خلاد لزراعة الخضر . وفي السواسى وقع التوسط لإحداث مغارسات في الأملاك الخاصة بدلا من تنشيط نفس أصحابها على غراسها .

ألسنا يوما بحزوى ويوما بالعقيق ؟ وأين مسألة حفر الآبار وربط الأودية وغرس غير الزياتين من الأشجار المثمرة في الأرض القليلة الإنتاج النوع الحبوب .

هناك اليوم مسألة أراضى شركة « فرانس أفريكان » الكائنة بالنفيضة . فامتلاك هذه الشركة لتلك المساحات الشاسعة من الأرض قد كون ضحية مروعة للاستعمار وهو بقاء عرش أولاد سعيد ومن إليهم بدون أرض يستقرون بها ويستثمرونها . والحالة الأسيفة التى هم عليها الآن تستدعى المبادرة بالعناية بهم وأخذ الأرض من هذه الشركة وإقرارهم بها .

ولعل الشركة أحست بهذا فأعلنت أنها بصدد جعل ١٢٠٠٠ هكتارا من الأرض تحت طلب أهالى الجهة لانزالتها لهم أو تسليمها بطريق المغارسة . ولقد تدخل بعض نواب الحجرة الفلاحية تدخلا لفائدة الشركة لالفائدة الأهالى وللشركة سلطة ونفوذ على كثيرين من الشخصيات فحاولوا إقرار ما عزم عليه تلك الشركة من مباشرتها لعمل التوزيع رأسا مع الأهالى . والرأى السديد أن الحكومة تأخذ من الشركة وتتولى هى إقرار السكان فى أراضيهم ويمكننا أن نلاحظ أن ذلك المقدار الذى جعلته تحت الطلب

لذلك الغاية هو مقدار زهيد بالنسبة لأكثر من ثلاثين ألفاً من السكان الذين يتكون منهم عرش أولاد سعيد وأتباعهم الذين هم اليوم ضحية تضخم الاستعمار في جهتهم بصورة أصبحوا معها لا يملكون شيئاً وعجزوا أخيراً حتى عن الإكتراء وتأجير المراعى لارتفاع الأثمان وقساوة الشروط التى تفرضها هذه الشركة على المتسوغين، والتى تقرأ فى مطبوعاتها المعدة لعقود التسويغ . فهل يمكننا أن نشاهد تنفيذ سياسة إقرار التونسيين بأرضهم بارزة فى هذا الميدان الفسيح بصورة ينمى بها ذلك الأثر المؤلم فى ٣٠٠٠ من السكان أصبحوا أيضاً بسبب الفاقة عرضة لخطر الجوع والعراء . ومن أولى بالانتفاع بهذه السياسة منهم ؟

على أننا نخشى أن يكون هذا المشروع مثل غيره من المشاريع التى قيل عنها إنها أعدت لنفع الأهالى وغمرتنا - قبل أن نراها تبرز للوجود - دعاية واسعة عن الإحسان والكرم والعناية بأهل البلاد وانتشالهم مما كانوا فيه من بؤس . فإذا الواقع الملبوس يكشف للعيان أن غنمه كان للفرنسيين وغرمه على الأهالى المساكين .

الطاهر صفر

أسلوب الطاعة العمياء

ومخالفته لفقه الدين الإسلامي

نشرت جريدة الإرادة بعدده ٢٥٠ شوال تحت عنوان : «أحزاب الكفاح» مقالا جاء فيه «إن الأحزاب السياسية التي تأخذ على عواتقها تغيير حياة الأمم والتحكم في مصائرهما يجب أن تكون بين أفرادها وحدة قلبية قوامها الثقة والحب الصادق إلى حد المفاداة والطاعة العمياء التي تستمع ولا تبصر»

ونحن وإن وافقنا على تبادل الثقة والحب الصادق بين الأفراد المنتمين لحزب واحد فإننا لا نوافق ولا يمكن لنا الموافقة على الطاعة العمياء بالصفة المبينة بجريدة الإرادة - خصوصاً وأن هاته الطاعة التي يذكرونها لا تقبل التبادل بين الأفراد مثل الثقة والحب ، لا يمكن أن تكون قاعدة الأحزاب السياسية المؤسسة على حرية الانتخاب السنوي - وخصوصاً الأحزاب التي تطالب من الحكومات المتغلبة حرية الكتابة والقول والتصريح بالرأي فكيف يتأتى لها هاته المؤسسات وهي تطالب بالحرية أن تشترط على أعضائها الطاعة العمياء التي تستمع ولا تبصر ، والانقياد إلى ما تصدره القادة من أوامر من دون انتقادها وعرضها على محك الرأي. ولو كانت الأحزاب السياسية كذلك فما معنى المؤتمرات فيها والشعب والانتخابات السنوية ، وهل هاته الأنظمة ليست إلا مجعولة في الحقيقة لتسمح لأعضائها بانتقاد عمل القادة وسحبهم الثقة الممنوحة إياهم في حين أساءتهم أو تجديد تلك الثقة لهم عند ثبوت



صلاحيهم، وهل النظام العسكري الذي يريدون المقابلة بينه وبين الأحزاب السياسية يتضمن انتخابات ومؤتمرات مثل تلك الأحزاب؟ كلا فالمقابلة إذن في غير طريقها وغير منتجة. فالمؤسسات السياسية هي التي تربي الشعب في النقد النزيه الخالص من أدران الأغراض الشخصية، وتمرنه على المناقشة الحرة التي تتحاكك بواسطتها الآراء والقرائح فينتج من تحاككها ظهور الحقيقة وسقوط الأباطيل. ولولا المناقشة الحرة لما اقتدرت الأمم على سن القوانين والبرامج الصالحة وإصلاح ذات البين وتوحيد الكلمة حول الغاية السامية التي يجب على كل وطني مخلص لبلاده أن يسعى إليها.

لذلك نعجب ونعجب كثيراً لما نرى جريدة الإرادة تجعل الطاعة العمياء قاعدة الأعمال السياسية وتتمثل بالدين الإسلامي كأن الإسلام أتى بهاته القاعدة الشنعاء، مع أن ديننا الحنيف قد أسس على دعائم المشاورة وحرية النقد فكل من يفسح الطرف في تعاليه يحدها مفعمة بالحث على الاستشارة ونقد الأعمال بحرية تامة. وآيات القرآن الكريم وحديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعمله وعمل الصحابة مثل سيدنا عمر رضى الله عنه كل ذلك يشهد في وضوح تام أن ديننا الإسلامي بنيت دعائمه على قواعد الحرية وإبداء الرأي والمناقشة الصريحة لا على قاعدة الطاعة العمياء التي تستمع ولا تبصر وذلك هو ما يعتبر حقيقة نخر الإسلام وميزته التي يمتاز بها عن غيره من الأديان مثل النصرانية بنظامها الايكاروسى المرتكز على الاستبداد وما نشأ عن ذلك النظام من ظلم ومفاسد وطغيان واستعمال للسلطة الدينية لفائدة الأغراض الشخصية وذلك هو الأمر الذي قضى على النصرانية بأوربا قضاء مبرما أما الإسلام فهو برىء من جميع ذلك لأنه دين الحرية الشخصية والعمومية، دين النقد والمناقشة وتحاكك الآراء - اللهم إلا فيما هو منزل من السماء بطريق الوحي فذلك أمر إلهي تسلط على عقول البشر وكل ما سوى ذلك من أعمال بشرية فقابل للمناقشة والنقد وأجل مثال هو مثال نبينا سيد الأولين والآخرين إذ كان يستشير أصحابه فيقولون له هل هو رأى أو وحي

يا رسول الله؟ فإذا قال إنه رأى لا وحى بسطوا له آراءهم فقبل منهم ما يراه صالحاً، وكثيراً ما يرجع لرأى أصحابه لما يعلمه من إخلاصهم. فهل هذا هو الطاعة العمياء التي تذكر جريدة الإرادة أن الإسلام يرتكز عليها ويجعلها قاعدة الأعمال.

فلننصح لمحرم الإرادة أن يترك للدين ميزاته السامية ولا يلصق به تهمة شهواء بقصد الاستشهاد به على أسلوبه السياسى الذى لا يتفق مع العقل ولا مع النقل، ولا يمكن أن يتفق إلا مع العاطفة الاستبدادية وفكرة التفوق والتسلط. وإن شاء بعد ذلك أن يتشبه بالاسماعيلية وزعيمها فله ذلك وله أن يقول ما شاء أنه يرغب من الناس طاعته إلى درجة أنهم يرمون بأنفسهم من شاهق إذا أمرهم بذلك فيموتون من دون معرفة الغاية. أما إنه نسب إلى الدين الحنيف أمثال هاته المخازى مع علمه فى يقين أن الإسلام يخالفه تماماً فيما يدعيه فليس أحد من المسلمين يوافق على هذا الرأى السقيم بل من واجب كل أحد أن يعلن بأن الدين يناقض تمام المناقضة ما قرره محرم الإرادة فيما يتعلق بالطاعة العمياء.

جريدة « الزهرة » العدد ٨٠٢٢ (٢٩ شوال ١٣٥٢)



النيتونة

خطاب الحضرة الشامخة العلمية

وبعد فيما حضرات الشيوخ الجلة ، وحماة الملة ، ويا أيها الأبناء الأعزاء
 إنا ليسرنا غاية السرور أن نحل بينكم في هذا البيت العتيق ، هذا البيت المؤسس
 على التقوى ، الذي لم يزل منذ أقدم الأجيال مستمرا على تخريج فطاحل الرجال ،
 الحائز فضل الأسبقية على سائر المعاهد الأفريقية . يسرنا أن نشهد به
 حفلكم المبارك بانتهاء دور امتحانه وفوز الظافرين بقصب السبق في ميدانه ،
 ونرى رأى العين نتائج مجهوداتكم السارة وما بذله جناب شيخ الجامع من
 حسن المساعي خصوصا في هذه السنة التي لم تكن كسابقاتها في الهدوء وراحة
 البال ، وإن الجهود العلمية فيها ينبغي أن تقدر قدرها لما غالبت من أهوال وهي
 دليل ناطق ، وبرهان صادق ، على ما يبذله شيوخ هذا المعهد وفروعه داخل
 العاصمة وخارجها من جهود قيمة لنفع أبنائهم الروحيين وإعدادهم لحملات
 الامتحان أحسن إعداد . وليس ذلك بغريب منهم وهم يعلمون حق العلم أنهم
 قد أوثمنوا على تغذية أرواحهم وإنارة أذهانهم وما سيكون لهم من أثر في
 الحياة ، وإن إدراككم أيها الشيوخ الفضلاء لعظمة مهمتكم ودقيق مسئوليتها
 أمام الله والناس مما يكفل لكم التوفيق والسير في خير طريق .

خطاب فضيلة الأستاذ الأكبر

إلى الله أرفع أطيب المحامد وأعلاها. على أن رفع قيمة العلم وأعلاها. وما منح أهله من النعم وأولاها. وإلى رسوله محمد أتوجه بأفضل الصلوات وأملاها المرسل بشريعة مر عليها الدهر فما أبلاها. وزادها مر الليالي جدة فأوضحها وأجلها. وآله وصحبه وكل من اقتدى بتلك الفئة وتلاها. وانقذ الأمة من كل ما غرها ودلاها.

أما بعد فإن ما تقرر عند العقلاء من فضيلة العلم ونباهة محله. والشرف الباذخ لحمته وأهله. يغنى عن الإطناب في إبلاغه فقد وعاه السامعون. وحسبنا آية وما يعقلها إلا العالمون.

وإن شرف الأشياء يقتضى صرف الاهتمام إليها وداوم العناية بحفظها ونمائها فلذلك كان من سعادة الأمم أن تنصرف عناية قادتها وكبرائها إلى البحث عن وسائل ترقية العلوم وتهذيب أسلوب التعليم وتوفير عدد المتعلمين والترغيب في الإقبال على طلب العلم.

ولم تزل همهم ذوى الكمال منصرفة إلى تيسير سبيله. وإذاقة الضامى إليه صافي سلسبيله. بشتى وسائل التيسير من تقريب المسائل وتوفير الأوقات وإراحة البال من المشوشات ونقض السدود الحائلة دون السير في ذلك السبيل وتربية الشراة على التحصيل. وبمقدار اعتناء الأمة بالتدبير والتفكير في هذه الوسائل وتقريبها لأبنائها

يتوسم المتوسمون منها تأهلها للإرتقاء وتشام غيوت من برق عزمها إذا
لاح متألّقا .

ولم يكن حظ الأمة التونسية في هذا المضمار من بين الأمم منقوصا فقد
سأرت في ذلك تطور العصور تمديدا وإكالا . ونشطت في أحوال أورثت
تكاسلا أو إقبالا .

فمعهدها هذا الجليل بأصله وفروعه ومدارسه المبتوثة في الحاضرة والايالة
قد كان ميدانا لهذا السباق . وقديما جرت فيه جياده جرى انتظام وانتساق .
فطلعت في أفقه شمس وأهلة . وفي شواهد التاريخ الإسلامي على ذلك كثير
من الأدلة ، إذ لم يزل مأوى تارز إليه علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية فكان
وجهة الأولين لحفظ قوانين الشريعة أصولا وأحكاما . وأغذاء حياة العربية
كتابة وكلاما . من أجل ذلك كان النصيح لهذا المعهد حقا على كل مسلم لأنه يجمع
مواضع النصيحة التي تضمنها قول النبي صلى الله عليه وسلم . الدين النصيحة
لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعلمائهم .

وملاك النصيح له هو النصيح لتعليمه لأن المتعلم هو القطب الذي تدور
حوله حركة التعليم ، والنصح له هو جامع غايات النظم التعليمية وإن نصيح
المتعلمين في تزويد افهامهم من العلم الصحيح وذلك المقدار العلى الذي يجد
العالم به سهولة العمل بمعلوماته كلها دعتة حاجه إلى العمل بها في تفكير نفسي
أو في معاملة مع الناس أو في تحرير أو خطابة أو شغل أو تدبير مهم أو فهم
دقائق العلماء .

فالنصح للطلبة يحصل بالاستكثار من هذا النوع في تعليمهم بحسب
اختلاف مراتبه لكي يشبوا على ذلك ويتدرجوا فيه .

فعلينا أن يكون طلبة العلم في المعهد الزيتوني علماء بالأصول الإسلامية
والمعاملات الفقهية التشريعية والآداب الإسلامية والأخلاق القويمة وعلوم
وآداب اللغة العربية وما يتحصل بذلك من تاريخ الأمة وتاريخ أحوال

وضعتهم بين الأمم المعاصرة لها في سائر عصورها وتاريخ رجالها وسيرتهم .
ولم يخل هذا المعهد في أى العصور من علوم تكمل مدارس خريجه
تكميلاً يؤهلهم لمسايرة أحوال مجتمعاتهم . ونحن اليوم في عصر صار فيه المجتمع
الإنسانى بمنزلة ما كان يجتمع القطر الخاص وتغلغلت حاجات الأمم ومصالحها
بعضها في بعض فأصبح تقارب الثقافة بينهم ضربة لازب . وصار ما كان يعد
تكملة موضوعاً في عداد الواجب . فلذلك كله لم يغن التلميذ الزيتونى عن أن
يضرب مع أمم عصره بسهم صائب . وذلك يلزمه لا محالة إلى أن يصعد في جو
الثقافة الزمنية إلى مرتقى لا يقعد به عن مجاراة أرقى الأمم احاطة بدلائل
الحياة السعيدة ولم يغن عن الأخذ بالنصيب الكامل مما يتناوله أمثاله من علوم
التبصر فلا يعدم بصارة بأحوال العالم تبصر خريجي المعاهد الراقية وبرامج
ذلك توضع على وفق المناسبة للمراتب التى يختار التلميذ الانتهاء إليها على
وجه تحصل به التكملة ولا يضاع معه الأصل .

وقد وصلنا إلى غاية تحديد الدرجات للشهادات فعلينا أن نكملها بضبط
البرامج الملائمة لها ، وعلى هذا الاتجاه ستتوجه مناهج التعليم التى توضع للعام
المقبل بمعونة الله تعالى ، وهذا لا محالة يستدعى ضبط المواد والأبواب
والتآليف المقرؤة والساعات المعينة لذلك وكفاءة من يوكل إليهم رعى
ذلك من مدرسين وقيمين .

وهذا الضبط هو المعبر عنه بالأسلوب القويم ومرجعه إلى التفكير فى
توفير المعلومات وقلة الأوقات وراحة الأذهان والدربة على العمل بالمعلومات .
فإن قادة العلم العمل ولعلنا أن نبليغ أملاً من تقريب ثقافة نشأتنا وتعديل
مستواها العقلى .

وقد كان الملوك الصالحون فى عصور الإسلام دائبين على بذل العناية
والتأييد لجانب التعليم الإسلامى ، وكان من سعادة هذا القطر أن لم تزل عناية
أمرائه تسابق همم العامة فى إخلاص النصيحة لهذا الجانب وبذل الجهد فى
ترفيعه إلى أعلى المراتب .

فكان ملوك البيت الحسيني الرفيع العباد سائرين على منحرج توفيق وتسديد
فيما حاطوا به العلم وأهله من العناية . وشغلوا به ربوعه من التعهد والرعاية
بما سجلته صحائف التاريخ للملوك المقدسين .

ثم بما يبدو اليوم من ضمائر الخير على يد وارت سرهم ومظهر نخرهم .
ملكنا المعظم سيدنا محمد الأمين . فلم يزل منذ ابتداء ملكه السعيد يظهر
للهيئة العلمية الزيتونية وده وانعطافه . ويذب عنها في دفع كل ملية ومخافة،
وقد جرى هذا المعهد في مدته شوطا بعيدا . ولم تزل الهمم العلمية ترجو له
من ذلك مزيداً .

فما تزال عموم الأوساط الإسلامية تبتدى لنا من المعاضدة والتأييد .
ما بعث الأمل إلى مدى بعيد . وبشر بالفوز في عملنا بخير مزيد . وأوجب
على أن أصرح في هذا الجمع الجليل على لسان الزيتونيين بفائق الشكر وعظيم
الامتنان لعموم الأمة التونسية وبخاصة لقاداتها ومثقفاتها وصحافتها وجمعياتها
على ما وجهوه للهيئة العلمية في شخصي من مظاهر الثقة والاعتبار فكان هذا
الجو المستنير المختص بمعهدنا المقدس دافعاً على مواصلة الجهد في البلاغة
نحو الغايات السامية التي يرجوها له الجميع .

وهذا العام الدراسي الذي نظوى اليوم بساطه قد كان عام عزم وجهود
وطموح وانكباب على البحث في حل المشاكل والعقد التي تعترض العاملين
في سبيل الإصلاح الزيتوني . ومع ذلك فقد مر على التلامذة مروراً مرأ
إذ كان حلوله عقب عضوض باب الحرب فوردوا لطلب العلم وقد قلت الأزواد
ورقت الثياب ولاكنهم تجلدوا على ذلك وصابروا فكانت تراهم صفراً الوجوه
ولاكنك تلقاهم إيقاظ القلوب حديد البصائر مؤمنين بمصيرهم السعيد في
الحياتين فهم جديرون منا بالثناء والشكر وأحقاء لو خارت عزائمهم بالعدر
أملين منهم أن يتلقوا العام القابل بمظاهر الفتوة فيجني من عزائمهم ما يأخذ
الكتاب بقوة .

وأنا لأهمل تقدير سيرتهم نحونا حق قدرها من خطة التعقل والرصانة والطاعة للمقررات والتفهم للصالح العلى مما دلى على أنهم قد استودعوني ثقتهم بأنى أبذل الوسع فيما يؤول إلى إسعاد مستقبلهم جاعلا في مقدمة ذلك النظر فى مدارس سكنناهم وهى مشكلة عظيمة فى حياة الطلبة من جهة قلتها وضعف مرافقها، وحسب السامع أن يعلم أن أكثر من نصف عدد التلاميذ يلاقون عناء قاسياً من ذلك، وأيضاً فإن نظام المدارس يرتبط بنظام التلاميذ فى قرن إذ لا يستطيع ضبط أحوال التلاميذ وصونهم وتوفير راحة بالهم فى مدة الطلب إلا بإبلاغ نظام المدارس الغاية التى تقتضيها أمثالها وذلك يتوقف على إصلاح الموجود وإيجاد المفقود .

وقد سددنا الجانب الأول بإيجاد دائرة خاصة تابعة للشيخ تلتخص بالنظر فى تنظيم شؤون المدارس. وأما الجانب الثانى فأرى حقاً على الأمة أن تجعل للاعتماد على نفسها الحظ الأوفر فى إقامة مصالح نشأتها لذلك بادرننا بتوجيه الدعوة لنتخبة من أفاضل الأمة فكونوا لهذا الغرض المههم جمعية تم تشكيلها القانونى تحت رئاسة فضيلة شيخ الإسلام الملكى الذى كان من قبل باذر نواتها. وستبتدىء هذه الجمعية انجاز برنامجها الرامى إلى إيجاد بناية خاصة ضخمة تأوى أكثرية من التلامذة فى نظام محكم .

وقد سبق لتهتم بهذه المهمة سابقون سبق الجياد فعرض على أحد الأفاضل من أهل السخاء أنه أعد ألف ألف فرنك لبناء مدرسة على النظام الكامل . (وقد طلب منا كتم اسمه) كما فاتحنى الفاضل الخير السيد على الديماسى أنه قد اقتنى منزلاً ضخماً لجعله مدرسة تامة المرافق وهو بصدد تصميم مثال لإقامته . وفاتحنى الفاضل الغيور السيد المختار الصالحى باستعداده لإنشاء مدرسة كاملة . وبعد فإن إصلاح التعليم بالجامع يرتبط أشد الارتباط بالعناية بالفروع الزيتونية بالمدن الخمس من المملكة، وقد تبين لى من مشاهدة معظمها ومن المراجعة والدراسة للأوراق المتبادلة بيننا وبين من لهم النظر فى سيرها ما فتح

عين الأمل بأن تصير في مستقبل قريب منابع علم تمد البحر الأعظم - بحر جامع الزيتونية بما يزيد فضيه. ويرفع مقياسه وأخص بالثناء فرع صفاقس الذي أصبح برنامج المرتبة الأخيرة من التعليم فيه تاماً ، وأعد من تلامذته في هذه السنة زهاء الخمسين لاقتحام امتحان شهادة الأهلية .

ووراء هذه العناية بالفروع تتوجه العناية إلى التعليم الابتدائي الذي يحضر فيه التلامذة لولوج الفروع الزيتونية فإن في ذلك عقدة عسيرة وهي تفاوت أحوال التلامذة الذين يزجون أنفسهم في الوسط التعليمي باعتبار مقادير ما هيأوه من التعليم الابتدائي، إذ يوجد بينهم بون بعيد في مراتب التأهل، فمنهم المحضرون في المدارس القرآنية ومنهم الوافدون من المدارس الرسمية ومنهم من زاول التعليم في الكتاتيب أو الزوايا ومنهم من لم يسبق له من التعليم إلا حظ زهيد ، ثم يحضر هؤلاء كلهم في صعيد إلى السنة الأولى من المرتبة الأخيرة الزيتونية فيصير ذلك التفاوت مثار مشقة للذين يجرون اختبارهم . ثم لمدرسيهم ولرفقائهم في الدروس .

ثم للجان الاختبار للتنقل في السنوات وقد دلتنا الشواهد أن المدارس القرآنية هي أفضل مهية للتعليم الزيتوني وإمداده بالتلامذة الأكفاء وسنعد لهذه العقدة علاج حلها في مفتتح السنة الدراسية بمعونة الله تعالى .

وأنا حين أعرض هذا البرنامج الذي أراه خير كفيل لتحقيق آمالنا في الإصلاح يخامرني اليقين بأنني واجد من أبناء السادة شيوخ التدريس ما أعرف منهم من تسهيل سبل هذا المهم ما يبذلون في إعانتنا من سامي الهمم من التفاف حول المشيخة ومعونة على مقرراتها ومصارحتهم بما يتوسمون منه صلاحاً للعلم وذويه ولقيامهم بالمهام العلمية التي تسند إليهم بفرط رغبة وعمل بعزيمة وقد ظهرت آثار المرامي الصائبة والعزائم المتينة في جميع أركان الجهاز التعليمي واضحة للمبصرين وستكون باللغة اسماع الواعين فأشكرهم على ما قاموا به من بث العلوم فكدوا أذهانهم وضايقوا أوقاتهم ليجتنبوا لأبنائهم جنى شافياً . ويسيفوهم من مستنبطات أفهامهم نيراً صافياً .

من تونس ١٩٣

وأخص بالشكر والثناء جناب السادة العلماء رؤساء لجان الامتحان والسادة
المشايخ أعضاءها على ما أتوه من الحزم والأعمال في مدة قد اندرج معظمها
هذا العام في زمن الراحة الصيفية .

فإليكم أيها الأساتذة الكرام أوجه دعوتي للازدياد من التكاثر للنهوض
بما يحق لهذا المعهد المقدس الذي فيه ربت عقولنا وتقوت سواعد أعمالنا
وانفتحت لنا منه حقائق الأشياء فلنزد من الانتطاق لخدمته وصرف الهممة
لإيصال أبنائكم الروحيين إلى المستوى الذي ترضونه لهم فتعملوا في ذلك
عمل من طب لمن حب .



فهرس

المحاضرات

صفحة	
٥ — ٤٠	المحاضرة الأولى :
	صدمة الاحتلال ٥ — التحرير الوصفي ٣٢ — التحرير العلمي ٣٣ — المقال السياسي ٣٣ — الروح العامة للنثر ٣٥ — الخطابة ٣٦ — الشعر ٣٨
٤١ — ٨٠	المحاضرة الثانية :
	الحدونية ٤١ — عوامل التطور الأدبي ٦٥ — الحياة العلمية ٦٥ — العوامل ٦٩ — مظاهر التطور الأدبي ٧٢ — النثر السياسي ٧٢ — النثر الفني ٧٣ — النثر العلمي ٧٧ — الشعر المعاصر ٧٨
٨١ — ١١٦	المحاضرة الثالثة :
	قدماء الصادقية ٨١ — عوامل التطور الأدبي ١٠٢ — النثر السياسي ١٠٣ — النثر الفني ١٠٧ — النثر العلمي ١١٠ — الخطابة ١١٢ — الشعر ١١٤
١١٧ — ١٤٨	المحاضرة الرابعة :
	الصحافة ١١٧ — عوامل التطور الأدبي ١٢٨ — النثر السياسي ١٢٩ — النثر العلمي ١٣٧ — النثر الفني ١٣٨ — الخطابة ١٤٠ — الشعر ١٤٣
١٤٩ — ١٨٠	المحاضرة الخامسة :
	حركات الشباب ١٤٩ — عوامل التطور الأدبي ١٦٢ — النثر السياسي ١٦٥ — النثر العلمي ١٦٧ — النثر الفني ١٦٨ — الخطابة ١٧١ — الشعر ١٧٤
١٨١ — ١٩٦	المحاضرة السادسة :
	الإذاعة ١٨١ — مظاهر النشاط الأدبي ١٩٤
١٩٧ — ٢١٤	المحاضرة السابعة :
	الإصلاح الزيتوني ١٩٧ — مظاهر التطور الأدبي ٢١٢
٢١٥ — ٢٢٣	المحاضرة الثامنة :
	الموقف الحاضر وأبعابه ٢١٥



ملحق

النصوص الأدبية

صفحة		
٩ — ٥	:	محمود قبادو
		من المقدمة ٥ — الرحلة ٧ — إستقبال حسين سنة ١٢٧٣ هـ ٧ — وصف شعره ٨ — أوروبا ٩
١١ — ١٠	:	فخير الدين
		الشورى ١٠
١٣ — ١٢	:	محمد السنوسي
٢٢ — ١٤	:	جريدة الحاضرة
		حيا الله قراء الحاضرة ١٤ — الحرية ١٦ — كمال الوفاق بحسن الاتفاق ١٧ — رفع التباس ٢١
٢٤ — ٢٣	:	جريدة الزهرة
٢٧ — ٢٥	:	مجلة السعادة العظمى
		نهضة أدبية ٢٣
٣٢ — ٢٨	:	محمد بن الامين الحامصي
		حديث مع الراية الفرنسية ٢٨
٣٥ — ٣٣	:	محمد بن الخوجي
٣٨ — ٣٦	:	محمد النخلى
		الشعر المعصرى ٣٦ — نضارة التمدن الإسلامى ٣٨
٤٩ — ٤٤	:	صالح سويسى
٤٣ — ٣٩	:	محمد الطاهر ابن عاشور:
		يا أهل تونس ٤٤ — عيد التمر وخطاب الضمير ٤٥ — نعيم هالى أحلام لو صحت ٤٦ — رواية الهيفاء وسراج الليل ٤٧ — جريح الحرب ٤٩
٥٩ — ٥٠	:	محمد الخضر مسين
		الديانة والحرية الطائفة ٥٠ — الشعر المعصرى ٥٣ — آثار الاستبداد ٥٥ — تحية الوطن ٥٨
٦٢ — ٦٠	:	جريدة التونسى
		الكلية العربية ٦٠ — أفراح الطلبة الزيتونيين ٦١



فهرس ج

عبد العزيز الممالي : ٦٣ - ٧٠

واجباتنا ٦٣ - ساعة ٦٨

محمد مناصو : ٧١ - ٧٩

الحرب الطرابلسية والعالم الاسلامي ٧١ -
فسكاية في مجلس القضاء ٧٥ - تحية الوطن ٨٠ -
نشيد مولدي ٨١

سالم بن حميدة : ٨٢ - ٨٦

حرب طرابلس ٨٢ - نشيد مدرسي ٨٥

الصادق الفقي : ٨٦

صوت طرابلس الغرب ٨٦

سليمان الجادوي : ٨٧ - ٩١

مابعد البيان بيان ٨٧

جريدة البرهان : ٩٢ - ٩٥

الله لطيف بعباده ٩٢

محمد بن الحسين : ٩٦ - ٩٩

حوادث الشهرين ٩٦

محي الدين القليبي : ١٠٠ - ١٠١

الأمير بضحي تاجه في سبيل الدستور ١٠٠

محمد بن الساذلي هزلة دار : ١٠٢ - ١٠٨

إيطاليا ١٠٢ - كور الماكرونا ١٠٢ -
الاعتصاب ١٠٣ - ضحايا الاعتصاب ١٠٣ -
الدردنيل ١٠٤ - الحج ١٠٥ - الصلح ١٠٥ -
ليسوا الجناة ١٠٦ - التمثيل ١٠٧ - أنشودة
المساء ١٠٨

مصطفى آغا : ١٠٩ - ١١٠

الحارس المسخر ١٠٩

أبو الحسن ابن شعبان : ١١١ - ١١٤

الحرب الكبرى ١١١ - استقبال سنة ١٣٣٦ هـ
من سني الحرب ١١٢ - أديتنا ١١٣

محمد السعيد الخالصي : ١١٥ - ١١٦

ياوردة ١١٥ - بازهرة ١١٦

- ١١٧ : حسين الجزيري
صوت من السجن ١١٧
- ١٢١ — ١١٨ : الهادي الهدني
نحي العروبة والاسلام قاطبة ١١٩
- ١٢٣ — ١٢٢ : زبون العبايد بن السنوسي
ترجمة محمد بوشريه ١٢٢
- ١٤٤ — ١٢٤ : محرم الفاضل بن عاشور
تأسيس القبروان ١٢٤ — جريدة الزهرة
١٢٦ — من يدع الاخلاص وحده فهو غير مخلص
١٢٨ — تفيير صبغة جامع الزيتونة ١٣٠ — جريدة
النهضة ١٣٢ — ولايات سامية ١٣٥ — الخلاف
بين الزيتونيين . وبين بالدستور الجديد في نظر
الاشتراكيين ١٣٧ — يملونه عاما ويحرمونه عاما
١٤٠ — تونس مركز للثقافة ١٤٣
- ١٤٦ — ١٤٥ : أبو القاسم السابي
في ظل وادي الموت ١٤٥ — أغاني النائه ١٤٦
- ١٤٨ — ١٤٧ : محمد بوشريه
يوم العروبة ١٤٧
- ١٥٥ — ١٤٩ : محمد الحليمي
ذكرى القبروان ١٤٩ — دخلت للجامع ١٥٤
استقبال شيخ الجامع ١٥٥
- ١٦١ — ١٥٦ : الطاهر القصار
اقتبال وفد مؤتمر الطلبة ١٥٦ — اقتبال
وفد مؤتمر اللغة العربية بالخلدونية ١٥٧
يامصر ١٦٠ — نحية الجامع الأعظم لعام
١٩٤٣ ض ١٦١
- ١٧٣ — ١٦٢ : مصطفى خريف
ذكريات وخواطر ١٦٢ — الحديد ١٦٤
وانعى أفرقيا الكبرى ١٦٦ هنيئا ١٦٨ — عشيرة
الحق ١٧٠ — إلى الشرق فانظر ١٧٢
- ١٧٤ : محمود أبورفينة
حنين الناي ١٧٤

عبد الرزاق كريباكه :

١٧٩ — ١٧٥

قيثارتى ١٧٥ — كان زمان ١٧٧ — نشأة
العلم ١٧٨

محمود النصف المصطفى :

١٨٢ — ١٨٠

نريد برناحاً شاملاً ١٨٠

الظاهر صفر :

١٨٥ — ١٨٣

أسلوب الطاعة العمياء ١٨٣

السريّة :

١٩٣ — ١٨٦

خطاب الحضرة الشاخرة العلية ١٨٦ — خطاب
فضيلة الأستاذ الأكبر ١٨٧





Date Due

تاريخ الأعادة

[illegible]

BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY



20809



